سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

١

دعوة الرسل عليهم السلام




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

السلسة الكاملة
في
تاريخ الدعوة إلى الله
تعالى

الكتاب الأول

دعوة الرسل
عليهم السلام

تأليف
الأستاذ الدكتور / أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق



السلسلة الكاملة
في
تاريخ الدعوة
إلى الله تعالى

الكتاب الأول

دعوة الرسل
عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع الجمهورية
عابدين - القاهرة

تليفون / ٣٩٠٦٧٢٧

فاكس / ٣٩٥٦٨٠٤

ص ب / ٦٣٢ القاهرة

الرقم البريدى / ١١٥١١

Resalah Publishers

Tel.: 3906727

Fax : 3956804

P.O.Box : 632

Cairo - Egypt

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

(١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين ...وبعد ،،،

فإن أشرف الأعمال وأجلها هو الدعوة إلى الله تعالي ـــ ففيها عظمة الموضوع ، وسمو الوسيلة ، ونبل العمل ، ورقي الغاية ، وذلك أمر أكده الله تعالي بقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

وقد خص الله سبحانه وتعالي رسله الكرام ابتداء بهذا الشرف ، وكلفهم به وبعثهم بوحي منه يبلغونه للناس ، **قال تعالى:** ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه لكل منهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (٣) .

وعلي مدار التاريخ من لدن آدم "عليه السلام" إلى محمد " ﷺ" قام الرسل بواجبهم هذا ، وحملوا أمانة الدعوة بكل صدق وإخلاص ، وتركوا سيرة مثالية تعد أسوة لكل من يرجو الله واليوم الآخر ، وكان محمد " ﷺ" خاتم الرسل والأنبياء ، ختم بدعوته سائر دعوات الله ، فبلغ الرسالة ، وأدي الأمانة ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وترك للبشر كل ما ينفعهم، وكل ما يحتاجون إليه، بالنسبة للدعوة ، وغيرها .

عرف بوجوب القيام بالدعوة إلى الله تعالي ، وألزم الأمة المسلمة به ، حيث أخبرهم بقوله تعالي : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة فصلت آية (٣٣) .
(٢) سورة النساء من آية (١٦٥) .
(٣) سورة المائدة آية (٦٧).
(٤) سورة آل عمران آية (١٠٤) .

وبقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١) .

وكما عرفهم بحكم تبليغ الدعوة ،فصل لهم طريقة الدعوة ، وأسلوبها ، ومنهج إيصالها إلي عقول الناس وقلوبهم ، وكيفية توجيه الخطاب ، .. ووضح لهم ذلك بطرق شتي ، فمرة يوجههم نحو المنهج مباشرة ، ويقرأ لهم قوله تعالي :

- ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (٢) ، وبهذا يقوم منهج الدعوة على الإيجاز ، والدقة ، والرمز ، وهو المراد بالحكمة ، كما يقوم على التفصيل ، والتحليل ، والإثارة ، وهو المقصود بالموعظة الحسنة ، كما يراعى المنهج شخصية المدعو ، فإن كان مجادلاً ، فليكن جداله بالتي هي أحسن .
- ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤)

ومرة أخري يوجههم نحو الأسلوب ، بعرض قصص الأنبياء بما تشتمل عليه من حقائق عديدة ، تتصل بموضوع الدعوة ، وأسلوبها ، ومنهجيتها الاتصالية ، ومدى تقدير المسئولية عند من يتحمل أمانة الدعوة والتبليغ ، وكيفية مواجهة المواقف الصعبة التي تحدث مع القيام بالبلاغ والدعوة ، يبين القرآن الكريم هذا وهو يوضح الغاية من

---

(١) سورة التوبة آية (١٢٢) . (٢) سورة النحل آية (١٢٥)

(٣) سورة الأعلى آية (٩) . (٤) سورة الغاشية آية (٢١ ، ٢٢) .

القصص القرآني ، يقول الله تعالي :

ـ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(٢) .

وبقوله سبحانه : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (٣)

ومرة ثالثة يوجههم بتوضيح خواطر النفس ، واتجاهات الهوي ، وسبحات العقل والروح ، وهو يحدثهم عن طبقات الناس من الملإ ، والضعفاء ، والمترفين ، واليهود ، والنصاري ، والصابئه ، والمجوس ، والذين أشركوا ، ومعهم ، وقبلهم المؤمنون المخلصون .

.. وهكذا يلتقي الدعاة مع منهج الدعوة الحكيم ..

إن قصص القرآن الكريم يجلي حركة الدعوة ، ويوضح تاريخها علي الزمن كله ، بصدق تام لاريب فيه ، ولاخيال ، ويركز هذا القصص علي الجوانب المفيدة النافعة ، ذات التأثير في الخلق ، والسلوك ، والاعتقاد ، ويقدم الدعوة ، موضوعاً ، ومنهجاً ، وهي تتحرك مع الناس ، في صورة عملية حية ، لتأكيد ملائمتها للفطرة ، وتوافق التحرك بها في إطار المنهج الرباني .

---

(١) سورة هود آية (١٢٠) .

(٢) سورة يوسف آية (١١١) .

(٣) سورة الأعراف آية (١٧٦) .

إن واقع المسلمين المعاصر في أمس الحاجة إلي المدارسة الجادة لقصص الرسل ، من أجل الوقوف علي منهجهم في الدعوة ، ومعرفة حقائق الناس ، وخفاياهم ، واكتشاف الوسائل المثلي للجدل ، والخطاب ، والإقناع ، والإرشاد ، ولم ينتقل رسول الله إلي ربه إلا بعد أن وضح المنهج ، وعرفت الوسائل والأساليب .. وصارت مبادئها، وأساسياتها، مصورة في وقائع عملية ، وأحداث تطبيقية، تشهد بحيويتها، وتأثيرها في الناس .

وإنطلاقاً من الشعور بواجب الدعوة ، ومحاولة لبذل جهد علي قدر طاقتي، أكتب في تاريخ الدعوة ، يحدوني الأمل في توفيق الله تعالي لأتغلب علي الصعاب العديدة .

إن الكتابة في هذا الموضوع جديدة ، والجديد دائماً يحتاج للجهد والعمل ، ويتعرض للنقد والمعارضة ، وبخاصة إذا قلت مراجعه ، وندرت العقول التي تناولته بالتحليل والتوضيح .. وأين لي بوقت استعين به في أداء المقصود علي وجه سديد . ، .. ولكنه الأمل في الله ، إن الأمل في الله كبير وهو صاحب الفضل ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١) .

ولقد ألف في قصص الأنبياء ، وقصص القرآن عدد من العلماء ساهموا في إبراز هذا التراث العظيم ،ووجهوا أنظار المسلمين إلى مافيها من عبر وفوائد.

وأعانني الله تعالى فقرأت أغلب هذه المؤلفات ، ورأيت ضرورة إبراز الجانب الدعوي في قصص الأنبياء ، لإيماني بأن القرآن الكريم نزل للدعوة ، وكل مافيه من قصص ، وأحكام ، وتشريع ،هو توجيه للدعاة ، بدءا برسول الله ﷺ الذي أرسله الله للناس ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، واستمراراً مع كل الدعاة المخلصين إلى يوم القيامة .

ولهذا استخرت الله تعالى في الكتابة عن الجانب الدعوي ، من خلا ل تاريخ الأنبياء عليهم السلام ، لأن الدعوة من خلال تاريخ الأنبياء ، وقصصهم تعد في الحقيقة

إظهاراً عمليا لحركة الدعوة وسلوك الدعاة، وموقف المدعويين، وشبه المعارضين ، وكشفا حقيقيا لتصرفات أعداء الدعوة إلى الله تعالى .

ومن هنا كان توضيح تاريخ الرسل ، من خلال القرآن الكريم ، إحياء للماضي وتقوية للحاضر ، ودستورا دائما للدعوة ، يحدد المسار ويبين المنهج ويشير إلى النتائج النهائية ، للمؤمنين ، وللكافرين ، على حد سواء .

ومن أجل تحقيق الفائدة من هذه الدراسة ، اتبعت منهجا واحدا مع تاريخ سائر الرسل ، وبخاصة من فصل القرآن الكريم في دعوتهم ، يعتمد الأسس التالية :-

أولا : التعريف **ببيئة** قوم الرسول ، لمعرفة حضارتهم ، والنعم التي تفضل الله بها عليهم ، وأشهر الأصنام والأوثان التي عبدت من دون الله تعالى .

ثانيا : التعريف بقوم الرسول ، والوقوف على أهم طبائعهم النفسية ، والفكرية ، ومدى تمسكهم بالضلال في العقيدة ، والإنحراف في الخلق والسلوك.

ثالثا : التعريف بالرسول ﷺ،ونشأته،وأخلاقه،وملامح الصناعة الربانية فيه ، ومناط الأسوة ، والقدوة ، للدعاة ، والمؤمنين .

رابعا : التفصيل في بيان حركة الرسول بالدعوة في قومه ، وتشمل الحركة المنهج والوسيلة ، والأسلوب ، كما تبين فطنة الرسول ودقته وهو يدعوا إلى الله تعالى.

خامسا : إبراز أهم ركائز الدعوة مع كل رسول لتكون دعائم أساسية للدعاة في مجال التأسي والاعتبار.

وبعد الانتهاء من دراسة تاريخ دعوة الرسل قمت بدراسة مطولة حول أسس الدعوات الإلاهية ، ومدى تكريمها للإنسان ، وتحديدها للغاية التي خلق من أجلها مع بيان شخصية مبلغ الدعوة ، ومنهجية البلاغ من خلال دراسة هذه الأسس ،

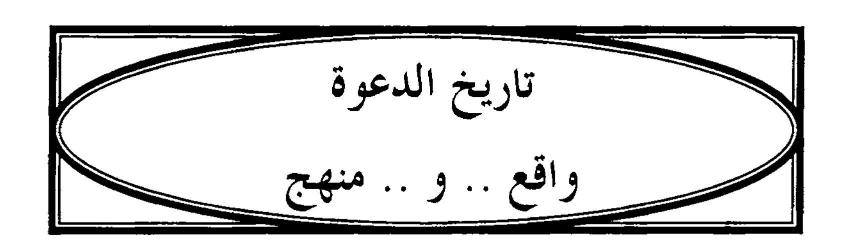
والأمل أن تقدم الدراسة التفصيلية لتاريخ الرسل ، والتحليلية للمبادئ والأسس الطريقة المثلى للدعاة في العصر الحديث، وليعلم الجميع أنه لا جديد عن الدعوة من كافة نواحيها يختلف عما جاء في القرآن الكريم.

إني أرجو من خلال كتابة تاريخ الدعوة ربط أحداث الماضي، بوقائع الزمن الحاضر ، وإنارة طريق المستقبل ، ليعيش الدعاة متخذين قدوهم الرواد الأوائل الذين هداهم الله ، وليكونوا لمن بعدهم المثل والأسوة ، حتى تعود الأمة الإسلامية لعهدها الأول، وتصير، بحق خير أمة في العالمين .

والله من وراء القصد ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أ.د/ أحمد أحمد غلوش
مدينة نصر في أول محرم سنة ١٤٢٢هـ
الموافق ٢٠٠٢/٣/١٥م

(١) سورة الحديد آية (٢٩) .



علم التاريخ من العلوم الهامة ذات الفائدة القصوى للإنسان ، لأنه يتخذ الماضي موضوعاً لدراسته ، ويعيش مع الوقائع والأحداث وفق منهج وصفي ، يعتمد الحياد والموضوعية ، ويجمع الأحداث والوقائع من مصادرها الصحيحة ، ويحللها بأمانة ، وينسقها علي أسس عقلية متكاملة ، لتنطق بكافة جوانب الحدث ، وتصوره أمام الناس ، وبذلك يعرف التاريخ بواقعه ، ويظهر الماضي بأشخاصه، وأعماله، وحيويته ، ويتمكن الباحث من استخلاص الدروس والعبر ، ويتحقق له الهدف المنشود .

ويحتاج علم التاريخ بصورة عامة إلي عقلية عالمة ، تبحث عن الحقائق ، وتلتزم بالحق ، بعيداً عن التحيز والتأثير ، وتنأي بذاقما عن توجيه الأحداث لخدمة أهدافها الذاتية ، وخصائصها الثقافية ، أو الدينية ، أو الجنسية .. وهكذا .

وعلم التاريخ وفق هذا المنهج يساعد في إعطاء صورة صحيحة لتاريخ البشر ، ويساهم في وضع منهج للحاضر ، والتخطيط للمستقبل ، ويؤدي إلي حياة طيبة للعمران البشري .

وعلم " تاريخ الدعوة " فرع من علم التاريخ العام ، يهتم برصد جانب معين من الأحداث،والوقائع الماضية ، وهو الجانب المتصل بالدين ، وحركته ، وحيويته في حياة الناس ، ولذلك نراه يعايش دعوات الله تعالي علي طول الزمن ، فيحدد موضوعاقما التي بلغتها للناس ، ويعرف وسائلها في البلاغ والدعوة ، ويوضح ما دار حولها من نقاش ونزاع ، ويبين موقف المدعوين منها سواء آمنوا بها ، أو لم يؤمنوا .

وعلم تاريخ الدعوة يعايش مدعويه جميعاً ، عامتهم ، وخاصتهم ، فهم جمهور الدعوة ، وهم الأمة التي جاءت الدعوة لهم .

ومما يتصل بأحداث الدعوة، ووقائعها النفقات المبذولة في إنشاء المؤسسات الدينية كالمسجد ، والمدرسة ، والمستشفي، والأموال التي تصرف زكاة ، أو صدقة ، في أحد المصارف الشرعية المعروفة .

إن أى نشاط ديني للفرق ، والمذاهب ، والجماعات المتنوعة ، هو جزء من اهتمام تاريخ الدعوة ، مهما كان أثرها وجدواها في تنمية المجتمع وتقدمه ، أو تخلفه وتقهقره .

ولعل التعريف بالرسل والدعاة على مدار التاريخ محل إهتمام رئيسي لعلم تاريخ الدعوة ، فهم حملة الدعوة ، ومبرزوها ، ومبلغوها ، والمدافعون عنها ، وهديهم في التبليغ أساس لمن بعدهم .

إن علم تاريخ الدعوة يبحث موضوعه فى إطار منهج علم التاريخ العام وبذلك يقدم فوائد جليلة للدعوة إلى الله تعالي في العصر الحديث ، لأنه يقدم أحداث الماضي رصيداً للحاضر، وتوجيهاً للمستقبل ، ويكفي الدعاة أن يعرفوا الحاضر صورة مكشوفة ، ويحيطوا بالإنسان المدعو ظاهراً وباطناً ، لأهم بدراسة التاريخ يفهمون نفوس الناس ، وأخلاقهم ، وخواطرهم ، واتجاهاتهم ، ومواقفهم التي سيتخذونها إزاء الدعوة التي ستوجه إليهم .

والدعاة حين يعلمون ذلك عن الناس يمكنهم اختيار ما يطلبونه من الناس ، وطريقة الطلب ، ووسيلة الخطاب ، ومنهج الدعوة والبلاغ .

يقول سيد قطب : (**إن تاريخ الدعوة يصور طبيعة الكفر ، وطبيعة الإيمان في نفوس البشر ، ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً**) (١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ج١٣ ص ٢٠٢ .

ويقول : (**واجه الموكب الكريم من الرسل البشرية بدعوة واحـــدة ، وعقيـــدة واحدة ، وكذلك واجهت الجاهلية دعوة الرسل مواجهة واحدة ، وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل ، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل ، إنها حقيقة تستوقف النظـــر ويجب الإستفادة بها**) (١) .

ومن عناية الله تعالي بالدعوة إلي دينه، أن أنزل قصص الرسل والأنبياء وحيـــاً علي رسوله محمد ﷺ، متميزة بخصائص القرآن الكريم الثابتة، وهي الصدق ، والدقة ، وقصد الهداية والخير ، في استقامة خالية من العوج ، والاضطراب .

وبعد تمام الإسلام ، وانقطاع الوحي ، وانتقال الرسول ﷺ إلي الرفيق الأعلي أخذ العلماء، والدعاة المسلمون، يواصلون رصد حركة انتشار الإسلام ، ويســجلون عملية تبليغ الدعوة إلي الناس، في أرجاء العالم المختلفة ، علي قدر طاقتهم البشرية .

وعلي هذا يمكننا ـــ ونحن مطمئنون ـــ أن نقسم دراسة تاريخ الـــدعوة إلي ثلاثة أقسام رئيسية ، لكل منها خصائصه ومزاياه ، وهي :

القسم الأول : ويتضمن تاريخ الدعوة مع رسل الله قبل محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، ومصدر هذا القسم هو القرآن الكريم بصورة رئيسية فللقـــرآن الهيمنة علي غيره ، وكل ماعداه من مصادر أهل الكتاب ، أو مـــن الاكتشـــافات الأثرية ، أو من الكتابات القديمة يجب أن تكون متفقة معه ، غير متعـــارضة مـــع أصوله ، وأساسياته ، ويتميز هذا القسم بعدد من المزايا :

أ ـــ أخباره كلها صادقة ، تلازم الحق والصواب ،

قال تعالى: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ (٢)

---

(١) في ظلال القرآن ج١٣ ص ١٤١ ، ١٤٢بتصرف (٢) سورة الكهف آية (١٣)

وقال تعالى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (٢)

والنبأ هو الخبر المتعلق بأمر هام ، موغل في القدم ، مثير للوجدان ، والعواطف ، والحق هو الصدق الموافق لما وقع (٣) ، المطابق للحدث بلا ريب ولاشبهة .

ب ـ ارتباط تاريخ الدعوة خلال هذا القسم بالوحي المنزل علي رسول الله ﷺ ، حيث لادخل لبشر في تصوير أحداثه ، أو الإخبار بوقائعه من عند نفسه ، لأنه غيب أمام البشر ، ولولا القرآن الكريم لغاب تاريخ هذا القسم مع أهميته ، **قال تعالى:** ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (٤) .

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٦) .

إن قصص القرآن الكريم إخبار عن غيب الماضي ، الذي لايعلمه إلا الله تعالى ، أوحى الله به إلى رسوله محمد " ﷺ " ليكون منهجاً يتبع ، وطريقاً يسلكه الدعاة إلى الله .

وفي الآيات إشارة إلى أن إدراك مضمون هذا القصص لايكون إلا بوحي الله تعالى .

---

(١) سورة القصص آية (٣) . (٢) سورة المائدة آية (٢٧) .

(٣) تفسير النسفى ج٢ ص٢٨٠. (٤) سورة يوسف آية (٣) .

(٥) سورة آل عمران آية (٤٤) . (٦) سورة ص الآيات (٦٧ ـ ٦٩).

ج ــ واقعية الأحداث في هذا القسم فليس منها مالا يتصوره عقل ، أو يتناقض مع الفطرة ، وطبيعة الإنسان في تصوير هذا القسم دقيقة ، واقعية ، أنظر إلى الإنسان تأتيه الدعوة ، فيتنازع الشر والخير ، وينتصر هذاأوذاك .. أليس ذلك واقعاً نقرؤه في سائر القصص .....

لقد قدم هذا القسم التصوير الصادق الواقعي عن إخوة يوسف ، وعن ولدى آدم ، وعن المؤمنين ، وعن الكافرين .. وهكذا .

ولو جئنا بقصة قرآنية ، وعزلناها عن ذوات أصحابها ، وأبعدناها عن زمانها لخيل إلينا أنها قصة من الحاضر ، لأن الإنسان هو الإنسان ، فكأن واقعية الماضي تصوير لماوقع فعلاً ، وفهم الحاضر يفيد ترابط وقائع الماضي مع حوادث الحاضر ، مع تصورات المستقبل ، وذلك أكبر برهان على الواقعية لقصص القرآن الكريم ، المتضمن للقسم الأول من تاريخ الدعوة .

د ــ سمو أهداف أحداث هذا القسم، حيث دعوته إلي الفضائل، والبعد عن الرذائل ، فهو يدعو إلي التوحيد ، وطاعة الله ، والتخلق بالخلق الكريم ، وحين يعرض لموقف فيه فحش ،فإنه يعرضه بصورة مختصرة في شكل مقيت يكرهها من يقرؤها ، قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(١) .

ومن الآية نري أنها تعرض الجنس في لحظة ضعف ، لا لحظة بطولة ولحظة تحتاج إلي أن يفيق الإنسان منها ليلتزم الواجب ، والطهر والمحافظة علي حق الله ، وحق الناس .

هـ ــ الإكتفاء بالقدر المفيد من الأحداث والوقائع ، ولهذا نجد أن القصص القرآني لايروى كل الجزئيات عن الماضي ، ولايورد ما يورده مرتباً مسلسلاً ، وإنما

---

(١) سورة يوسف آية (٢٣) .

يتخير من الحدث ما يفيد ، ويذكر من الوقائع ما فيه نفع الإنسان ،فأحياناً يورد اسم المكان ، أويحدد الزمان ، أويوضح عدد الناس ، إن كان ذلك يفيد ، وأحياناً يترك ذلك كله، ويذكر سواه في حدود الفائدة المطلوبة ، والنفع المقصود .

ومن هنا فعلينا أن نأخذ الفائدة مما ذكره الله تعالي ، ونسكت عما سكت عنه ، لأنه لاحاجة إليه ، وقد تتحدث مصادر أهل الكتاب ، أو مصادر غيرهم عن تفصيلات القصة التي سكت القرآن الكريم عنها ، وحينئذ تكون تكملة لما يحتاجه الباحث في تاريخ الدعوة ، وأخذها من هذه المصادر عمل يؤيده الإسلام ويدعو إليه مادامت تكمل مسار الحدث، وتتوافق معه ، يقول النبي ﷺ (**حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج**) (١) .

و ــ شخصيات الرسل ، ووظيفتهم البلاغية، تمثل معلماً رئيسياً في تاريخ الدعوة ،لأن الرسول ــ أي رسول ــ صناعة ربانية ، وصفاته بشرية ، مثالية ، واقعية ، ولذلك فهم قدوة للدعاة ، وأسوة لهم ، علي الزمن كله .

وحينما يقدم تاريخ الدعوة صفات الرسل ، ومزاياهم الخلقية التي تعاملوا بها مع الناس ،ومنهجهم في الدعوة ، ووعيهم بحقائق الحياة والأحياء ، وصدقهم المخلص مع الله ، ومع الرسالة ، ومع الناس ، حينما يفعل ذلك يقدم خدمات جليلة للدعوة في العصر الحديث، وفي كل العصور ..

القسم الثاني : ويتضمن تاريخ الدعوة في عصر الرسول محمد ﷺ ، وهو أهم الأقسام ، وأزهاها ، بل هو أساس لكل جوانب الدعوة الإسلامية في جميع الأمكنة ، وسائر الأزمنة إلي يوم القيامة ، ومصادر هذا القسم عديدة علي رأسها القرآن الكريم، والسنة النبوية ، ومرويات الصحابة والتابعين ، وكتب التاريخ .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ج٦ ص ٣٢٩ .

ويتميز هذا القسم بالعديد من المزايا أهمها : ـــ

أ ـــ يشتمل علي مزايا القسم السابق ، فهو وحي متزل لاريب فيه ، يلائـــم الفطرة ، وينحو نحو الكمال ، والسمو ، والرفعة ، بل إنه يعد تاريخاً تطبيقياً للدعوات السابقة ، أخذ منها موضوعها وأهم قضاياها ، وخبر مـــن خلالها أســرار الحيـاة والأحياء ، حتي أن الرسول ﷺ كان يورد أحداث الماضي ليستفيد أتباعه منها ، ومن ذلك ما يقوله النبي ﷺ : (**إن الرجل فيمن قبلـــكم كان ينشر لحمه عن عظمـــه بالمناشير لايصرفه ذلك عن دين الله تعالي**) (١) .

ب ـــ يستفيد هذا القسم من خصائص الإسلام ، فبسبب كون الإسلام ديناً عالمياً ، وخاتماً لسائر الأديان ، نجد الدعوة مصبوغة بصبغة العالميـــة ، حيـــث تلتـــزم الأصول الدينية الثابتة ، وتقدمها لطوائف الناس علي تنوعهم ، وإختلافاتهم بأســـاليب متعددة تناسب الجميع ، وحتي يستمر تناسبها مع الناس نجد القرآن الكـــريم يخاطـــب العالم علي إختلاف مذاهبه ، وأجناسه ، وطبقاته ، .. فبرغم أن القرآن الكريم نزل فى مدة محددة ، وخاطب أهل مكه والمدينة إلا أن الله سبحانه وتعالي بقدرته وحكمتـــه جعل هاتين المدينتين بوتقة جمعت كافة عناصر البشر ، وجميـــع الطبقـــات ، وســـائر المذاهب والأديان ، حتي إذا مانزل الوحي يخاطب هؤلاء الناس ، ويناقش عقائـــدهم ، ويدعوهم ، كل بما يناسبه ، كان كمن يخاطب البشرية كلها في كل الأمكنـــة ، وفي كل الأزمنة إلي يوم القيامة .

لقد وجد في مكة والمدينة يومذاك اليهود ، والنصاري ، والمجـــوس، والـــدهريون ، والذين أشركوا ، وعبدة الكواكب ، والأصنام ، والملاحدة ..

كما وجد فيهم الأغنياء والفقراء ، والسادة والعبيد ، والحكماء والحنفاء والعامة .

وهكذا تميزت الدعوة بالعموم الشامل ، والخلود المستمر إلي يوم القيامة ..

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص٥٩ .

ج ـــ تضمن هذا القسم كل شئ عن الإسلام والدعوة إليه ، حيث يوجـــد ذلك بتفصيل في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، المحفوظين بحفظ الله تعالي .

قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾(١)وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ (٢)وقد جاء القرآن الكريم مصدقاً للكتب السابقة ومهيمناً عليها ، فأيد صادقها ، وأتم ناقصها ، وصحح ماحرف منها ، وكمل بما تحتاجه البشرية تبعاً لتقدمها وتطورها ، ووضع القواعد المساعدة لاحتواء كل جديد ، وإعطائه الحكم الشرعي الصحيح، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ ﴾ (٤)

و يعتبر هذا القسم هو الأساس للدعوة ، فهو يحتوي أحداث القســم الأول ويستفيد منها ، ويقـــدم الدستور الواضح والتشريع الدائم للعصور التاليـــة بصـــورة محكمة ، مفصلة .

د ـــ محمد ﷺ ، رسول الدعوة ، وإمام الدعاة ، وقدوة المؤمنين ، صـــورة بيضاء ، واضحة ، ناصعة ، يسهل الوقوف علي أى جانب من جوانـــب شخصـــيته العامة و الخاصة مهمادق ،حيث فصلت سيرته ﷺ تفصيلاً واسعاً ، وأهتم بها كتـــاب السير والشمائل حتي سجلوا كل شئ ووثقوه ..

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٨) .

(٢) سورة الحجر آية (٩) .

(٣) سورة المائدة آية (٤٨) .

(٤) سورة هود آية (١) .

ولقد صور القرآن الكريم حياته ﷺ العملية ، وسلوكه مع الناس ، وتعبده لربه في السر والعلن ، وخلقه ، وعمله ، فمن أراد أن يرى القرآن مصوراً فلينظر إلي سيرة رسول الله ﷺ ، ومن أراد أن يقرأ محمداً ﷺ مكتوباً فليقرأ القرآن الكريم ، وذلك لشدة المطابقة بين العمل والتتريل .

ولهذا تعد السيرة النبوية تسجيلاً عملياً للدعوة الإسلامية، أصولها ، ومناهجها ، ووسائلها ، وتاريخها خلال هذه الفترة المهمة .

هـ ــ أصحاب محمد ﷺ خير أجناد الأرض ، وهم خير أمة أخرجت للناس ، آمنوا بالإسلام إيماناً كاملاً ، وخلعوا من قلوبهم حب الدنيا ، وملأوها بحب الله ورسوله ، ولذلك حملوا أمانة الدعوة إلي الإسلام ، وبلغوها للعالمين ، بعد أن طبقوها علي أنفسهم وحياقم ، وقدموا من صور الحب للإسلام ، والتفاني في سبيله ، ما يعد نشازاً في نظر كثير من الناس .

هؤلاء الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا جمهور الدعوة في عصرها الأول .. وكانوا عملياً حقل تجارب دقيق لبيان مدى تجاوب الدعوة الربانية مع الفطرة البشرية ، ومعرفة قيمة المنهج المتبع ، والأسلوب المألوف .. وقد ثبتت سعادة الناس بالدعوة ، وخيرية الدعوة للناس أجمعين .

ومن قدر الله تعالي أن الرواة كانوا يتابعون كل شئ في حياة الصحابة اليومية ، ولذلك نقلوا عن الجميع ، وفي كل شئون الحياة ، ونشاط الدنيا ، فبقيت التجربة بأحداثها ، ووقائعها ، ونتائجها حية في حركتها ، ووضوحها لتؤكد لكل ذى عقل أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وأنه لن تصلح الأمة الإسلامية في أى عصر إلا بما صلح بها أولها .

القسم الثالث : ويتضمن تاريخ الدعوة بعد وفاة رسول الله محمد ﷺ وسوف يبقي مستمراً إلي يوم القيامة .

وتدوين أحداث هذا القسم يقصد به ابتداءً بيان تدين الناس ، ومعرفة مـــدى قربهم أو بعدهم عن الله تعالي ، وتوضيح حركة الدعوة وانتشار الإسلام ، وما يتصل بذلك من أمور .

ويتكون القسم الثالث من مراحل عديدة، حيث تتميز كل مرحـــله بمزايـــا معينة ، وتشغل فترة زمنية محددة تبدأ بعصر الخلفاء الراشدين، وتعيش مع الدول الـــتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد عصر الخلفاء إلي يومنا هذا .

وعصر الخلفاء يعد إمتداداً عملياً للقسم الثاني، لقرب أصحابه من رسول الله ﷺ ، ومعرفتهم بالإسلام الذى تركه الرســـول أمانة في أعناقهم ، يعيشـــونه إيمانـــاً وعملاً ، ويحملونه إلي من وراءهم ، ومن بعدهم من الناس .

والاستفادة بأحداث هذا القسم مقصودة كذلك لأن التاريخ كلـــه مراحـــل متصلة يخدم بعضها بعضاً ، ويتأثر بعضها ببعض .

ومن مميزات دراسة هذا القسم مايلي : ــــ

أ ــــ في عصور هذا القسم دونت العلوم ، وظهـــرت المـــذاهب الفقهيـــة ، وأصبح الإسلام مدوناً في الكتب ، مطبقاً في الواقع ، إن الوقوف علي هذه الحقـــائق يمكن المسلمين في العصر الحاضر من تنقية الإسلام من أى دخيـــل في الفكـــر ، أو في الأحداث ، ويقفون علي حقائقه كما نزلت من عند الله تعالي .

ب ــــ لم تبق البشرية علي بداوتها الأولي ، بل شملها التطور الواسع ، ودخلت الفلسفات العقلية في سائر المذاهب والفرق ، ووجد لكل أمر ــــ مهما كان باطلاً ــــ دعاته وزبانيته ، الأمر الذى يضاعف العبء علي المسلمين ليتمكنوا من مواجهة عنف الباطل بقوة للحق تعادله ،فى كافةالجوانب ، فكرية ، أو عملية ، أو سلوكية .

ج ـــ تأكد أهل البغي في الأرض ، وما أكثرهم ، من خطورة الإسلام علـــي وضعيتهم ، وفسادهم ، ولذلك أخذوا في إعدادالعدة لهدمه ،والقضاء عليه ، ولكن الله غالب علي أمره .

يؤكد هذا حملات هولاكو ، والتتار ، والصليبيين ، وحركات الإستشراق ، والتبشير ، والإستعمار ، وعمليات اتخاذ عملاء من بين المسلمين ، وتـــوجيههم نحـــو القضاء علي الإسلام كلية ، أو اكتفاء بعزله عن الحياة ، ووضع أتباعه في وضع ذليـــل ومكانة مهينة، ومازالت أحداث هذه المرحلة تتحرك ، وتأتي كل يوم بجديد .

إن أحداث هذا القسم لم تحظ بما حظيت به أحداث المرحلتين السابقتين مـــن عناية ، ودقة ، حيث انقطع نزول الوحي ، وأخذ يؤرخ للأحداث عديد من النـــاس علي إختلاف ميولهم ، ومذاهبهم ، وإتجاهاتهم .

وأيضاً أخذ التدوين طابع الأغراض الشخصية ، والثقافة الذاتية ، حتي يمكـــن القول إن الذى كتب هو لقطات من أحد جوانب التاريخ العام ، وإن كـــان يمكـــن الإستفادة به فى تاريخ الدعوة .

فبعض المؤرخين يكتب عن الولاة ، والقادة ، ويسجل توليتهم ، والبيعة لهم ، وأهم حروبهم ، وأشهر أعمالهم ، ووفاتهم ، والعهد لمن بعدهم .

نعم يحتاج تاريخ الدعوة لمعرفة أخبار الولاة والأمراء ، إلا أنه أيضـــاً يحتـــاج لمعرفة أحداث جوانب أخرى عديدة ، كأعمال الحسبة ، ونظام الدعوة ، وألوان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأخبار العلماء ، وقصص العامة والخاصة ، وسير حركة الدعوة في نفوس الناس ، ورصد المواقف العملية إزاء دين الله تعالي ، وإظهار البـــدع والخرافات السائدة مع بيان أسبابها ، وطرق التصدى لها ، إلي غير ذلك من المعلومات التي توضح حركة التدين ، وتبرز المنهج الأمثل للتوجيه والإرشاد .

ومن المؤرخين من أخذ يتتبع أخبار الجواري ، وأحداث القصور ، وما يدور حولها من مبالغات تتصل باللهو والغناء ....منهم من يتتبع ذلك حتي يخيـــــل

لقارئه أن حياة الأمة الإسلامية كانت هى هذه الحياة، مع أن الوقائع العملية للمسلمين كانت غير ذلك .

إن حياة المسلمين امتلأت بالعبادة ، والجهاد ، والدعوة ، وقد انتشر الإسلام في العالم كله بواسطتهم ، مما يؤكد أن اللهو كان بعض الهنات التي وقع فيها بعض ضعاف الإيمان ، وذلك لايغير الصورة العامة للمجتمع الإسلامي .

ومن المؤرخين من يبرز الجانب القتالي في حياة الأمة الإسلامية، بدون ربطه بروح الجهاد، ومشروعيته في الإسلام ، الأمر الذى يوحى ــ للعامة ــ أن الإسلام انتشر بالسيف .. مع أن الأمر ليس كذلك .

إن تشريع الجهاد كان لرد الظلم ، وإزالة الطاغوت ، ومنع إستبداد الجاهلين ، وإخافة أعداء الله في الأرض ، وذلك من أجل أن يعيش الناس ــ كل الناس ــ أحراراً ، في تعبدهم ، وتفكيرهم ، وأعمالهم ، وفي مختلف أنشطتهم .

وكل مطلعٍ على تشريع الجهاد ، وتطبيقاته الإسلامية ، يرى سمو الإسلام وحرصه علي الإنسان ، وصيانته لكافة حقوقه بواسطة هذا الجهاد .

إن أبناء البلاد المفتوحة لم يجبروا على إعتناق الإسلام ، والجزية لاتمثل لهم إكراهاً، فهي مبلغ زهيد يؤخذ من مقاتليهم مقابل إعفائهم من الزكاة ، والصدقات ، والكفارات ، التي يؤديها المسلمون ، وأيضاً في مقابل إعفائهم من كثير من الأعمال الشاقة كالحماية ، والحراسة ، والدفاع ،
وإن أداء الجزية يصون لدافعيها كافة الحقوق كالمسلمين تماماً .

إن أبناء البلاد المفتوحة لما رأوا الفاتحين يسيرون علي مبادئ الحق والعدل ، والإنصاف ، وشاهدوا نظام الإسلام يعمل عمله في نشر الأمن ، والرفاهية ، والمحبة لبوا دعوة الإسلام ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وحملو ا بأنفسهم راية الجهاد

ورحلوا بها إلي الممالك النائية ، كالأندلس ، وجنوب أوربا ، ووسط أفريقيا، وغربها ، وبلاد فارس ، وشبه الجزيرة الهندية .. وغيرها .

إن الحقائق تشير إلي أن الإسلام انتشر بمزاياه ، وخصائصه ، ولم تكن وسيلته إلا الإقناع بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، التى لابد منها قبل البدء بالقتال .

وهكذا اتخذ المؤرخون مناهج شتى، وعذرهم أن تدوين التاريخ لم يكن محدد المعالم ، أو متخصص الإتجاهات ، وإنما ترك لاجتهاد صاحبه ليدون مايري ويرغب .

وقد اقتضت طبيعة التطور العلمي ظهور علوم التاريخ المتخصصة، بجوار علم التاريخ العام ، وكان منها علم تاريخ الدعوة الذى ظهر مع بروز المؤسسات العلمية والعملية للدعوة .

واحتاج هذا التطور إلي إعادة النظر فى الأحداث المروية ، وبخاصة مالها صلة بالدعوة لتصديق ماصح منها ، ورد ما عداه .

ويجب مع هذا العمل أن يأخذ عالم الدعوة الحذر،حين يقرأ أحداث هذه المرحلة ، ويسلك في حذره منهجاً علمياً يساعده علي الحق ، وتصحيح ما يحتاج إلي تصحيح .

وسبب الحذر وجود دخلاء شوهوا كثيراً من أخبار المسلمين، ليفقدوا المسلمين الثقة في ماضيهم ، ورجالاتهم .

ومن أمثلة هذا التشويه نقل الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهم ،من غير تدقيق في صحة الأخبار ، والسكوت عن المؤامرات الخفية التي لعبت دورها في إزكاء نار الفتنة وتوسعة، دائرة الخلاف ، وإغضاء النظر عن إظهار علة ما ذهب إليه كل واحد من الصحابيين الجليلين .

ومن أمثلة ذلك تصويرهم الحجاج بن يوسف الثقفي سفاحاً يحب الدم ، وينشر الإرهاب ، مع أنه كان يعمل في إطار ما في عنقه من بيعة ، لقد اجتهد في هذا الإطار ــ وربما أخطأ ــ ودراسة كافة الأحداث وملابسات الوقائع ربما تنصفه .

ومن أمثلة هذا التشويه مارواه المؤرخون عن نكبة البرامكة التي أوقعها الخليفة العباسي هارون الرشيد بهم عام ١٨٧هـ ،ويذكرون لها أسباباً لايخجلون من سذاجتها وتفاهتها ، ومع ذلك نراها تنتشر علي ألسنة أكثر المؤرخين .

يقولون :إن هارون الرشيد أدمن شرب الخمر مع أخته العباسة ، ووزيره الأول جعفر بن يحيى البرمكي ، وحتي يجعل اللقاء بين أخته وبين جعفر شرعياً عقد بينهما عقداً صورياً ، واشترط على جعفر أن لايطأها،لكن جعفر نقض شرط هارون ، فدخل بالعباسة ، وولدت له ولداً ، سماه محمداً ، أسكنه مكة ، ورباه بها ، فلما علم الرشيد بذلك غضب غضباً شديداً ، ونكب البرامكة نظير ما فعله جعفر (١) .

وهذه القصة تحمل في طياتها ما يكذبها :

ــ فكيف يبحث هارون عن مشروعية الجلوس ،مع إجازته شرب الخمر؟ وكلاهما حرام ..

ــ وكيف يعقل أن يتصور هارون الرشيد عقداً للزواج يفيد الجلوس دون سواه ؟ ولم العقد ؟ !

ــ وهل يصعب علي الخليفة أن يضع أخته تحت رقابة من الجند والخدم ،يحفظ له منها ما يريد ؟

ــ وكيف يغيب عن الرشيد أمر المولود ، ورحيله ، وتربيته في مكة ، وهي جزء من الدولة ؟

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص١٨٩ ــ ١٩١ بتصرف .

ـ وأيضاً كيف نشأ الغلام ؟ وكيف تربي ؟ وما أهم أعماله ؟ وما صلته بأخواله وأعمامه ؟ ومتى مات ؟

لم يرد لذلك ذكر مع أنها من الأمور التى لاتغيب ، بل هي من القضايا التى تشتهر بين الناس .

ـ ومع هذا فإن كانت الجريمة من فعل جعفر ، فلم معاقبة البرامكة جميعاَ ، وقد كانوا أحظى الناس عند الرشيد ، وبينه وبينهم علاقات عديدة ، ومجالسات كثيرة طيبة ؟ وخدماتهم للدولة لاتنكر ؟

كل هذا يؤكد أن القصة غير صادقة ، ووضعها تم لتشويه أصحابها لما لهم في تاريخ الإسلام والمسلمين من منزلة .

فـ " العباسة " صاحبة فضل ودين ، جدها الأعلي ترجمان القرآن (عبد الله بن عباس) ، وهي بنت خليفة ، وأخت خليفة قريبة عهد ببداوة العرب ، وفطرة الدين ، ولم تعرف البيئة يومذاك عوائد الترف ، ومراتع الفواحش ، ومتع الهوي .

فأين يطلب الصون والعفاف إن ذهبا عنها ؟

وأين توجد الطهارة والدين إن فقدا من بيتها ؟

و" هارون الرشيد " الخليفة ، قام في الناس بالعدل ، وكان يجالس العلماء والفقهاء ، ويؤم المصلين في المسجد الجامع ، ويصلي كل يوم مائة ركعة نافلة مالم يصب بعلة ، وكان دائم الذكر ، وقراءة القرآن ، كان يغزو عاماَ ، ويحج عاماَ ، فإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا غزا أحج ثلاثمائة من ماله بالنفقة السابغة والكسوة التامة ، وكان شديد الخوف من الله ، يراقبه في كل أعماله وبخاصة في أموال المسلمين ، طلب مرة أكل لحم جزور ، ثم نسيه .. وذات يوم تناوله ، فقال له جعفر : إن هذا اللحم تكلف أربعة آلاف درهم ، لأنه كان يجهز يومياً ولا تأكله حتي بلغ جملة ما صرف هذا القدر.. فلما سمع ذلك بكي ، وتألم كثيرا ، وأمر برفع الطعام من

أمامه ، وقال : هلكت يا هارون.. وظل علي بكائه طوال نهاره لايقطعه إلا الصلاة ، وفي نهاية النهار دخل عليه قاضيه أبو يوسف ، فلما علم بالمسألة سأله عن مصير اللحم الذى كان يطبخ ؟ فلما علم أن الفقراء كانوا يأكلونه قال لهارون : أبشـــــر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من مال أكله الفقراء ، وبما رزقك من خشية وخوف ،

فقد قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) .

وكان الرشيد يحكم رعيته بشرع الله ، في أمة واسعة لاتغيب الشمس عن ديارهـــا ، وهو الذى أمر بجلد أبي نواس ، وحبسه لما ثبت انهماكه في الشراب (٢) .

فهل تصدق هذه القصة مع شخص كهذا ؟

أين له الوقت بعد كل هذا ليقضيه في السهر والشراب ؟

ولو تصورنا صدق القصة ، هل كان المؤرخون يهملونها ، ولايذكرون شربه الخمر إلا في هذا المجال ؟ ؟

وأين أعداؤه ، وهم كثيرون .. و لم صمتهم عنه في هذا الحدث الخطير ؟

و " جعفر " سيد البرامكة ، أشتهر بسداد الرأي والحكمة مع الخلفـــاء قبـــل الرشيد ، و لم يذكر عنه مايسيئ ، فكيف به يتحول إلي عربيد ، مدمن للشراب ، عاص لله تعالى؟ (٣) .

---

(١) سورة الرحمن آية (٤٦) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ٢١٣ .

(٣) **يري ابن خلدون أن نكبة البرامكة سببها الخوف علي الدولة منهم ، فلقد تغلغلوا في كل جوانبها ، وملكوا كل مافيها ، وذاع صيتهم ، ودانت لهم الرعية حتي صار الدعاء لهم ، والأمل فيهم ، .. وصاروا يخصون ذويهم بوظائف الدولة جميعاً ، وقد وشى الواشون بهم إلي هارون ، وخوفوه من طموحاتهم ، واقنعوه بقوتهم ، وحرصهم علـــي مناصـــبهم ، وزينوا له ذلك فأوقع بهم جميعاً في ضربة واحدة ، وولي العرب مكانهم ، حماية للدولـــة ، وخوفاً من ضياع الخلافة ، يقول ابن كثير : " ومن العلماء من أنكر ما قيل عن البرامكة والعباسة " وهو الحق ج١٠ ص١٨٩ ـــ البداية والنهاية .**

إن هذه القصة تندرج في إطار حملة التشويش التي يقوم بها أعـــداء الإســـلام لابسين ثوب العلم ، رافعين لواء البحث والحياد ، لينجحوا في كيـــدهم ومكـــرهم ، ويقطعوا أبناء الأمة الإسلامية المعاصرة عن ماضيهم الزاهــــــــر ، ويحرمـــوهم مـــن الإستفادة بدروسه ، وعبره .

ولذا وجب الحذر ..

ومع الحذر يجب إتباع منهج علمي سليم يساعد في فهم الحدث ، وتحليلـــه ، والوقوف علي مدى صحته ، وبخاصة أن أحداث التاريخ لم تـــرو مســـندة كروايـــة الحـــديث النبوي وقد باشر التدوين كل من أراد من المسلمين ، أو مـــن أصـــحاب المذاهب ، أو من أعداء الإسلام ، بلا أساس يذكر، أو مسئولية تحـــدد، ولذا ظهـــر الدس ، وكثر الدخيل .

ومن أساسيات منهج تتبع تاريخ الدعوة مايلي : ـــ

أولاً : الاهتمام بالإسناد بقدر الإمكان ، فبواسطة الإسناد نعـــرف قيمـــة الخبر ، ومدى صحته .

ولو التزم النقلة بالإسناد إبتداء ما تمكن أحد من الـــدس ، ولخـــلا التـــاريخ الإسلامي مـــن الإسرائيليات

ولو التزموا بالإسناد لسهل تمييز الأصيل من الدخيل ..

ونظراً لأن المؤرخين لم يهتموا بالإسناد فإن المطالبة به الآن أمر شاق ، ولذلك نري الاهتمام به في حدود الممكن ، وفي القضايا الهـــامة التى لها أثرها وخطرها ، مع إخضاع الوقائع التي لايمكن إسنادها للتحليل ، ومعرفة إتجاهات الـــراوي ، وقيـــاس مدى تناسق الرواية مع المجال التي سيقت فيه .

ثانياً : الإلتزام بالحياد ، والمـــوضوعية ، والنظر للحدث ونقله كما حـــدث وروى ، لأن تدخل المزاج الشخصي ، والتأثر بالتكوين الثقافي ،أو الـــديني ، يوجـــه الحدث وجهة معينة تؤدى لنتائج مغايرة .

إن كتابة التاريخ أمانة ، والحياد معه ضرورة ، وتصوير الأحداث كواقعها التزام بالصدق ، وأداء للواجب .

ولنا في القرآن الكريم أسوة يقول الله تعالي للمؤمنين يوم أحد : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ (١) وفي هذه الآية تصوير صادق لواقع المؤمنين المؤلم ، وفي يوم حنين يقول الله للمؤمنين : ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢) .

بل إنه سبحانه وتعالي يقول للمؤمنين يوم بدر وهو يعلم خواطرهم وأمانيهم ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ (٣) .

هكذا ، وبكل صدق وصراحة ، وبدون أدني مجاملة يجب أن تكون رواية الأخبار والوقائع .

ثالثاً : إخضاع الأحداث المروية للحقائق الدينية الثابتة في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وبخاصة إذا كان للحدث إتصال بهذه الحقائق .

فحين يكون الخبر عن القرآن ، أو عن السنة ، أو عن الرسول ، أو عن الصحابة يجب رد الأحداث المروية إن خالفت ما وجب دينياً في هذا المجال ، وذلك مثل ماورد في حادثة الغرانيق ، وقصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش ، وتصوير الصحابة بسوء ، بناء علي أحداث وقعت في عصرهم .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٢) .
(٢) سورة التوبة آية (٢٥) .
(٣) سورة الأنفال آية (٧) .

فهذه الأحداث وأمثالها كثير، يجب ردها لأنها تخالف الحقائق الدينية، التي كان الرسول وأصحابه أحرص عليها، فهم مبلغوها ، وأهلها .

رابعاً : عدم الاكتفاء بظاهر الحدث ، والاهتمام بالكشف عن خلفيته وأسراره ، فقد تصدق الواقعة إلا أن معرفة دوافعها ، وظروفها ، يجعلها ممكنة ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالي : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ﴾ (١) .

فالآيات تعتب علي رسول ﷺ عبوسه وانصرافه عن ابن أم مكتوم "رضي الله عنه" الذي جاءه يسأله، في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ فيه يتصدي لدعوة صناديد قريش المنصرفين عن الدعوة ، وهم عتبة ، وشيبة ، ولدا ربيعة ، وأبو جهل ، والعباس ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة .

هذا هو الحدث ، لكن معرفة أسباب النزول يؤدي إلي فهم الواقع ، وتلمس العذر لرسول الله ، ويخفف أمر العتاب الموجه إليه .

فرسول الله تصدي للقوم إخلاصا للدين ، وأملاً في انتصار الإسلام ، وابن أم مكتوم لم يختر الوقت المناسب، وله عذره بسبب عماه، ونزول الآية عتاب رقيق للرسول ، يؤسس معلماً في حركة الدعوة ﴿ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾ فالناس سواسية ، والهدى هدى الله ، ولكل إنسان فهم وواقع يجب مراعاته .

وبهذا الفهم يسهل الأمر ، ويتضح المراد ...

---

(١) سورة عبس الآيات (١ ــ ١٢) .

خامساً : ضرورة إخضاع الأحداث واتجاهاتها لسنن الله العامة في الحياة والأحياء ، وسنن الله تعالي موجودة في القصص القرآني حيث قص الله تعالي الأحداث وقدره معها ، وذكر سبحانه ما أجراه فيها علي وجه مطرد ، ومن هذا السنن ما نراه في قوله تعالي : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾) (١) ..

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (٢)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ (٣)

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (٤) ..

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥)

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٦) ..

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (٧) ..

وبتطبيق هذه السنن الإلهية وأمثالها يمكن فهم الأحداث ، وتفسيرها وتصور وقوعها ..،وتميز الحق من الباطل فيها.

---

(١) سورة الأنعام آية (١١٢)

(٢) سورة فاطر آية (٤٣) .

(٣) سورة الشورى آية (٢٠) .

(٤) سورة النساء آية (١٢٣) .

(٥) سورة الأعراف آية (١٢٨) .

(٦) سورة الإسراء آية (١٦) .

(٧) سورة البقرة آية (٢٥٧) .

سادساً : ضرورة قياس الأحداث التاريخية علي واقع الناس ، فما جاز تصور وقوعه جاز تصديقه ، وما استحال حدوثه استحال تصور وقوعه تاريخياً .

وفي ذلك نقرأ توجيه الله تعالي حيث يقول سبحانه: ﴿ **لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾ (١) ، وقد نزلت هذه الآية في إطار حادثة الإفك ، وفيها توجيه بقياس ما يشاع علي عامة المؤمنين ، فإن تصوروا وقوع الحدث علي أنفسهم، فلهم أن يصدقوا وقوعه من غيرهم وإن لا فلا .

يروى إبن إسحاق أن أبا أيوب الأنصاري قالت له إمرأته : (**يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة " رضي الله عنها "** ؟

قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟

قالت : والله ما كنت لأفعله .

فقال : فعائشة والله خير منك) (٢) .

فنجده "رضي الله عنه" يرد الشائعة بعد أن قاسها علي نفسه، وبيته ، فلما رآها تمتنع عليها حكم بإمتناعها عمن هي أفضل منها ، وعن مثلها في نفس الوقت .

إن أخبار القسم الثالث من تاريخ الدعوة في أمس الحاجة إلي إتباع المنهج الصحيح في تنقيتها وتصحيحها .

يقول الأستاذ/ محمد قطب : (**كتابة التاريخ البشري من زاوية الرصد الإسلامي ضرورة لازمة للأمة الإسلامية ، وليست نافلة يمكن إسقاطها ، أو الاستغناء عنها ، والعلماء المسلمون مدعوون للقيام بنصيبهم في هذا الجهد الشاق ليبنوا للمستقبل الطريق الصحيح**) (٣).

---

(١) سورة النور آية (١٢) . (٢) السيرة النبوية ج٣ ص ٢٢٤ ـــ ط. دار التراث .

(٣) كيف نكتب التاريخ ص ٣٢ .

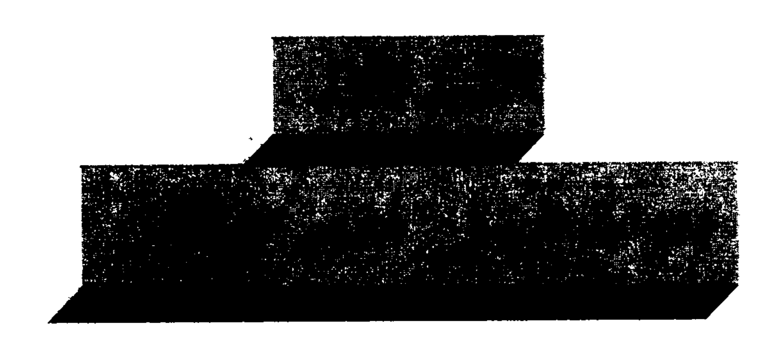
وإني هنا أبذل محاولة علي قدر جهدي لأكتب في تاريخ الدعوة سائلاَ المـــولي العـــون والتوفيق .

وتاريخ الدعوة طويل يمتد من أول حياة البشرية إلي يوم القيامة ولذلك فهـــو يحتاج لجهد مئات العلماء ، يكتب كل منهم في مرحلة من مراحله ، أو يختار جزئية في مرحلة ليساهم في البناء الكبير ، ويا حبذا لو تواصي العلماء في كتاباتهم بإتباع منـــهج موحد ليكمل بعضهم بعضا ، وليرتفع البناء لبنة لبنة .

وإني لأرجوا أن أكون واحداً من البنائين العلماء ...

والله ولي التوفيق ،،،،

******



تاريخ دعوات الرسل " عليهم السلام "

تمهيد :

أكرم الله الناس وكلفهم بعبادته ، وسخر لهم كل ما خلق ، وتفضل عليهم برسالاته المتتابعة حتي لايحرموا من توجيه الله، ويعيشوا سعداء بالوحي المترل، الذي يعرفهم بالصراط المستقيم ، ويربط لهم الدنيا بالآخرة .

ومـــن عظيم كرم الله تعالي أن قدر للإنسان الأول أن يكون رسولاً يـــوحي إليه ، هـــو آدم " عليه السلام " أبو البشر والناس أجمعين ، فمنه خرجت زوجته حـــواء ، ومن آدم وحواء تناسل الناس وعمر الكون ، وتكاثرت القبائل والشعوب ، وتكونت الأوطان والأمم .

ومن اللحظة الأولي لوجود آدم" عليه السلام" كان وحي الله ، وكان دينه ، وكانت ضخامة المسئولية التي تحملها الإنسان ، والتي تلزمه بالتعامل مع العوالم العديدة الـــتي خلقها الله تعالي .

إن هذا التكريم يؤكد تهافت المذاهب الوضعية ، التي تجعل الإنسان متطوراً من غيره ، وتلحقه بعالم الحشرات والحيوان .

كما تؤكد ضلال المذهب النفسي الفرويدى ، الذي يصور الإنســـان كيانـــا غارقاً في الجنس من بدء الحياة إلي نهايتها .

وتؤكد كذلك علي بعد المذاهب المادية الجدلية عن الحق ، لأنهـــا تهمـــل الإنسان ، وتجعله كياناً خاضعاً لتأثيرات المادة ، وقوانينها الحتمية ، بعيداً عن الإيمـــان بالحق ، وتعاليم الله .

وتستمر عناية الله بالناس إذ يتفضل عليهم برسالة جديدة كلما احتـــاجوا إليهـــا ، بـــأن تختفي معالم الرسالة السابقة ، أو يتقدم الإنسان فكرياً ، وعلمياً ، وحضـــارياً

إلي درجة تصير بعدها الرسالة السابقة قاصرة عن تحقيق غايات الدين ومراميه ، أو تنقسم الأمة إلي جماعات فتحتاج كل جماعة إلي رسالة تناسبها . وهكذا تعددت الرسالات ، وكلها تبين عناية الله بالناس ، وتكريمه لهم علي الزمن كله .

والرسل عليهم الصلاة والسلام هم خير البشرية ، أصفاهم نفساً ، وأزكاهم عقلاً، وأسرعهم إيماناً ، وأحسنهم طاعة واستقامة ، اصطفاهم ربهم سبحانه-تعالى- وهو: ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١)،وأمدهم بعلم لايعلمه سواهم ، يقول تعالي :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (٢) ..

وأحاطهم بالأمان ، والحفظ ، قال تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

وأفاء عليهم بالنعم الوافرة ، والهداية السابغة ، وأختارهم لرسالته التي هم بفضل الله أحق بها وأهلها ، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (٥) .

وجعلهم سبحانه وتعالي مصدر الهداية ، ومناط الأسوة والقدوة ، يقول تعالي :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٦) . .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٢٤) .
(٢) سورة الجن آية (٢٦ ، ٢٧) .
(٣) سورة الصافات آية (١٨١) .
(٤) سورة مريم آية (٥٨) .
(٥) سورة الأنعام آية (٨٩) .
(٦) سورة الأنعام آية (٩٠) .

وكلف الناس بطاعتهم والإستقامة علي هديهم ، وتوجيهاهم ، يقول تعالي :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (١)

إن هذه الصفوة المختارة للرسالة أدت أمانة الدعوة بالبلاغ الواضح ، والخطاب السهـــل ، والحوار الهادئ ، لم يتكلفوا ، ولم يتحدثوا بكلام غير مفهوم ، يوضح ذلك الرسول ﷺ ، مبيناً حالته وأحوال إخوانه الرسل السابقين ، فينطق بقول الله تعـــالي: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢) هذه الكوكبة العظيمة من الرسل عانت كثيراً من العنت والمشاق ، وواجهت عديداً من المعارضات والأعداء ، وفي كل الحالات أدت ما كلفت به ولذلك كتب الله لرسله النصر دائماً ، يقول تعالي :

﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾(٣) .

ومع إيماننا بأن الله أرسل عديداً من الرسل لايحصيهم إلا هو سبحانه وتعالي ، فإنـــــي سأكتفي بالبحث في الدعوات التي ذكرها القرآن الكريم ، وأترك ماســـكت عنه حتي لانضرب في التيه ، ونعيش وسط الأساطير والأوهام .

وأول الأنبياء آدم " عليه السلام " أوحي إليه الله قبل أن يولد له ، ولذا كان الوحي إليه تعليماً لما يحتاجه وبنوه في معاشهم ، وحياهم علي الأرض ، وأستمـــــر أبنـــاؤه يتعلمون منه ، ويطيعونه ، ولم يشذ منهم إلا قابيل على نحو ما سنذكــره ، ولـــذلك يري العلماء أن آدم " عليه السلام " لم يكـــلف بالـــدعوة ،لأن أبناءه كـــــانوا علـــــى الإسلام ، واستمروا عليه بعد أبيهم ، حتي ظهرت الأصنام بعده بعشرة قرون تقريباً ،

---

(١) سورة النساء آية (٦٤) . (٢) سورة ص آية (٨٦ ــ ٨٨) .

(٣) سورة الصافات الآيات (١٧١ ــ ١٧٣) .

فبعث الله نوحاً " التَلِيَّلاِ " بدعوة الحق، والهدى، فآدم أول الأنبياء ، ونوح أول الرسل الدعاة .

وسوف أتتبع الأحداث ، مكتفياً بتاريخ الرسل الذين ذكر القرآن الكريم أسمـــاءهم ، وسأخص كلٍ منهم برقمٍ يتسلسل حتى أصل إلى رقم (٢٤) أربعٍ وعشرين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم أورد أسماء خمسةٍ وعشرين رسولاً ، جمعهم قول الناظم :

فـــي تلك حجتنا منهـــم ثمـــانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهـــم

ادريس.هود.شعيب.صالح.وكذا   ذو الكفل.آدم.بالمختار قد ختموا

وسيكون حديثى عن تاريخ دعوة الرسل متضمناً الموضوع والأحـــداث، والمواقف مع التعليق عليها بما يفيد الدعوة ، أو يقدم للدعاة منهجاً وطريقاً ، أو يساعد في هدايـــة وخير للناس .

ولن أشير إلي الأحداث والوقائع التى لم يتكلم عنها القرآن الكريم، ولم تتناولها السنة النبوية إلاحين الحاجة إليها، وفي إطار الضوابط العلمية التى تجعلها مقبولة ونافعة

ولن أقدم تاريخ دعوة كل رسول مرتبة الأحداث حسب تتابع وقوعها ، لأن ذلك أمر غير ممكن ، فوق أنه يقدم أحداثاَ لاتفيد الدعاة في حركتهم بالإسلام .

وحين أحتاج لتفسير وبيان لنص قرآني، أو حـــــديث نبـــوي، فســـــوف أرجـــع ـــ بـــإذن الله تعالي ـــ إلي المصادر الرئيسية المعتمدة ،لأتجنب الإســـرائيليات الدخيلة ، والموضوعات الشاذة .

وبعد إنتهائى من الحديث عن قصص الأنبياء، سأجمل القول في الجوانب المشتركة فى الدعوات الإلهية،سواء كانـــت في الأصـــول،أو فى المنـــاهج،أو في الوســـائل،أوفي الأساليب ، أو فى الأحداث ، أو فى الأشخاص ، أو في غير ذلك لما فيها من فائـــدة للمسلمين .

إن اشتراك الدعوات فى مسألة واحدة دليل على تجذر هذه المسألة فى حيـــاة النـــاس ، ولابد أن يستفاد بها في مسار الدعوة الإسلامية.

وأسأل الله تعالي البصيرة والتوفيق ،،،،

١

آدم عليه السلام

آدم "عليه السلام" أبو البشر ، خلقه الله تعالي أولاً ، ومنه خلق حواء ثانيـاً (١) ، وبث منهما بعد ذلك رجالاً كثيراً ونساء ، فتناسل الناس ، وكثرت الذرية ، ووجدت القبائل والشعوب ، وتعددت الأمم والأوطان .

ولقد استخلف الله آدم فى الأر ض ، وتوارث بنوه هذه الخلافة ، وحملوا أمانة الدين ، وصاروا عنها مسئولين إلي يوم القيامة .

وهكذا بدأت الإنسانية موحدة مؤمنة ، بوجود آدم " عليه السلام " ، حيث كلمه الله ، وعلمه قبل أن يولد له ، وسار أبناؤه بتوجيهاته مؤمنين ، ولم يظهر الشـرك في الناس إلا بعد آدم بعشرة قرون .

وأغلب المؤرخين وكتاب السير يبدأون بتاريخ نوح "عليه السلام" لأنه حـارب الشـرك ، ودعا إلي التوحيد وعبادة الله تعالي ، ويرون أن آدم "عليه السلام" أرسل لأبنائه فقط ، أمـا نوحاُ " عليه السلام " فإنه أرسل إلي الناس (٢) وفيهم المشركون وعبـدة الأوثـان والأصنام .

ولكني آثرت أن أبدأ الكتابة فى تاريخ الدعوة بآدم " عليه السلام " تقديراً لأبوتـه للبشرية كلها ، وحفاظاً علي شمولية البحث في تاريخ الأنبياء ، وبياناً لبعض الحقـائق التى صارت جزءاً من حركة الحياة والأحياء ، وليعلم الإنسان حقيقتـه ، وواقعـه ، وعدوه ، وصاحبه ، ومصيره الأخير .

---

(١) سمى آدم باسمه هذا لأنه تكون من أديم الأرض ، وسميت حواء باسمها لأنها خرجت من حى .

(٢) تسببت الأحداث فى أن تكون رسالة نوح " عليه السلام " للناس جميعـاً لأن معارضـيه أغـرقهم الطوفان ولم يبق إلا أتباعه فقط .

وشجعني على هذه البداية أن الإسلام يربط الأمة الإسلامية بأبيهم آدم كثيراً حيث يعرفهم بقوله تعالي : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (٢)

ونادى الله الناس ببنوهم لآدم ، يقول تعالي :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٣) .

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ (٤) .

بل إن الله سبحانه وتعالي ربط المسلمين عملياً بأبيهم آدم من خلال تخصيص يوم الجمعة للمسلمين ، وتعيينه للخطبة والصلاة لأنه يوم آدم "عليه السلام" ، يقول النبي "ﷺ" : (**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراَ ألا أعطاه إياه**) (٥) .

فيوم الجمعة هو يوم آدم ، وهو عيد للمسلمين ، يعيشه الناس فيربطون البداية بالنهاية ، ويستعدون بالعبادة والإخلاص لقيام الساعة ، سائلين الله كل خير، عسى أن يكون دعاؤهم ساعة الإجابة .

وسأجعل حديثى عن آدم فى نقاط ، بحيث تعطي كل نقطة فكرة محددة ، على أن تقدم سائر النقاط متعاونة السيرة متكاملة كما جاءت في القرآن الكريم ، وإن لم تكن أحداثها متسلسلة ، والله الموفق ....

---

(١) سورة النساء آية (١) . (٢) سورة الحجرات آية (١٣) . (٣) سورة الأعراف آية (٣١) .
(٤) سورة الأعراف آية (٢٧) . (٥) الفتح الربانى ، باب فضل الجمعة ج ٦ ص٣ .

" النقطة الأولي "

(خلق آدم عليه السلام)

قضت إرادة الله أن يجعل في الأرض خليفة ، يعمرها ، ويسوسها ، فأخبر ملائكته الذين خلقوا قبل آدم قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) .

والخلافة في الأرض مقام كريم ، يجعل الخليفة موصولاً بمن استخلفه ، وتتطلب خليفة كفؤاً ، يتحمل المسئولية ، ويحافظ على الأمانة ، ولذلك استشرفت الملائكة هذا المقام ، ورجته لنفسها ، وخافت أن يتولى الأمر من يفسد ، ويقتل ، ولذلك قالوا لله تعالي : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (٢) .

ومصدر الخوف عند الملائكة ما رأوا من فساد الجن قبل ذلك ، أو لأنهم علموا أن عنصر الطين في الإنسان ليتغلب فإنه يظلم ويدمر،أو علموا بإلهام الله لهم بعدما جرت مشيئته بذلك (٣) .

وقالت الملائكة ما قالوه في عبودية خاشعة، لا اعتراض فيه البتة ، ولذلك طمأنهم الله ، وقال لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وهكذا أعلمهم الله بسبب اختياره آدم وذريته للخلافة ، وكشف لهم حكمته في ذلك ، يوضح ابن كثير هذا وهو يبين معنى الآية قال : (أي أعلم المصلحة في خلق هذا الصنف مالا تعلمون ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، وأوجد فيهم الصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، والعباد ، والزهاد ، والأولياء ، والدعاة

---

(١) سورة البقرة آية (٣٠) .
(٢) سورة البقرة آية (٣٠) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٠ ، ٧١ .
(٤) سورة البقرة آية (٣٠)

والأبرار ، والمقربين ، والعلماء العاملين ، والمحبين لله ورسله ، المتبعين لوحي الله تعالى) (١) .

عرف الله تعالي ملائكته بهذا الخليفة ، وهو يكونه أمامهم مرحلة ، مرحلة . .

ففي المرحلة الأولي صنعه بشراً من طين وقال لهم : ﴿ إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (٢) فرأوا العنصر المادي ، وشاهدوا الصورة البشرية لآدم ، ثم عرفهم الله تعالي **بالمرحلة الثانية** ، وأمرهم بتعظيمه ، والترحيب به حينما يرون نفخة من روح الله تعالي تدب في هذا الجسد المادي ، وقال لهم : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ** ﴾ (٣) .

وهكذا تكاملت الإنسانية في آدم " عليه السلام " ، وبدأت البشرية مسيرها في الأرض .

وقد اتحد العنصران في آدم "عليه السلام" ، فلم تبق النفخة العلوية هائمة في عالمها السامي ، ولم يستمر الطين جسداً جامداً لا يتحرك ، وإنما كونا معاً إنساناً مادياً ينمو ، ويدرك ، ويفكر ، ويستفيد بكل ما سخر الله له ...

وقد أبقى الله تعالي هذا التمازج بين الجسد والروح ، سراً من أسرار حكمته ، بحيث لا يستطيع إنسان ما إدراك كيفية هذا التمازج، أو اكتشاف صور التفاعل فيه .

ومن عجيب حكمة الله تعالي أن هذا التمازج يستمر مادام لصاحبه في الدنيا حياة ، فإذا جاء الأجل في لحظة لا يعلمها إلا الله يأمر سبحانه وتعالي بانفصال العنصرين ، لترتفع الروح إلى بارئها ، ويعود الجسد تراباً مرة أخرى

وبعد تمام خلق آدم أخرج الله له من ضلعه الأيسر زوجته حواء ، ليكونا أول أسرة بشرية ، يجمعها الترابط ، وتتمتع بالمودة ، والرحمة ، ويشعر كل طرف بدور

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٩٦ . (٢)سورة ص آية (٧١) .

(٣) سورة الحجر آية (٢٩) .

الآخر معه ، فآدم " عليه السلام " يدرك دور حواء في مؤانسته ، وهو "عليه السلام" الموحى إليه ، ومهمته مواجهة الصعاب ، والمشاق لتعمير الأرض بخلافة الله التي اختصه بها ، يقول تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً** ﴾ (١) .

وعلى الإنسان أن يتذكر دائماً أنه يرجع في وجوده ، وتكوينه ، إلى أبويه " آدم وحواء " ، يقول " ﷺ " : (**كلكم لآدم وآدم من تراب**) (٢) ، **وقد خلقت حواء من ضلع آدم ، ولذلك فطرت على التعلق بالرجل وخلق الرجل من الأرض فجعل ميله إلى الأرض** (٣) ، ولا غرابة في هذا ، فالفطرة ترتبط بأصلها ، وتسعد بالسكون إليه ، ودائماً تنمو الحياة بما يناسبها ، ويغذيها .

والإنسان على امتداد الزمان، والمكان، سلالة متولدة من آدم وحواء ، وإن تغيرت صورة الإيجاد ، يقول ﷺ : (**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والطيب والخبيث**) (٤)

ويقول ﷺ : (**الناس معادن كمعادن الأرض**) (٥) .

وقد أكدت الاكتشافات العلمية الحديثة أن الإنسان في تكونه يشبه عناصر الأرض والطين ، يقول الدكتور : على مطاوع : (**عدد عناصر الطبيعة اثنان وتسعون عنصراً وهى موجودة في جسم الإنسان كذلك**) (٦) .

---

(١) سورة النساء آية (١) . (٢) فيض القدير ج٥ ص ٣٧.

(٣)تفسير الطبري ج٧ ص٥١٥ ط. دار المعارف . (٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ج٥ ص٢٠٤ .

(٥) أشار إليه السخاوى في المقاصد الحسنة وذكر وروده عن البيهقى ، وروى البخاري نحوه في صحيحه بشرح فتح الباري ج٨ ص ٤١٧ . (٦) آدم ص٢٠ .

" النقطة الثانية "

(آدم والملائكة)

خلق الله آدم "عليه السلام" ، وأمر الملائكة أن تسجد له بعد تمام خلقه مباشرة، فقال لهم : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (١) .والملائكة عباد مكرمون : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢) ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾(٣) ، فأطاعوا أمر رهم وسجدوا لآدم تكريماً ، واحتراما ، وسلاماً ، ولم يتخلف أحد من الملائكة عن هذا التكريم الذي كلفوا به ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٤) .

ومن هذه اللحظة تيقنت الملائكة قدر هذا المخلوق الجديد عند الله ، وتبينت عظمة هذا التقدير بالمهام التي كلفوا ها مع الإنسان ، فمنهم الحفظة الكرام ، ومنهم الكاتبون ، وهم يتعاقبون في الناس بالليل وبالنهار ، ومنهم المترلون للمعونة والنصر ، ومنهم حملة الوحي ، إلى آخر المهام وهي كثيرة ، وكلها لخدمة الإنسان ، ولتحقيق أمانيه ، وتسهيل الحياة له .

ومن نفس اللحظة علم آدم قدره عند ربه ، فهو مميز عن سائر المخلوقات ، وكلها مسخرة له ، تخدمه ، وتكون في عونه ، ومساعدته ، وعليه أن يدرك أن الوحي يترل عليه ، يبلغه تعاليم الله تعالي ليعيش بمنهج ربه ، وشريعة خالقه سبحانه وتعالي ... وقد مكن الله له باستطاعة التعامل مع الملأ الأعلى ، ومع المخلوقات الأخرى من جن وملائكة وبشر ، وبصره بأساليب التعامل المختلفة .

---

(١) سورة الحجر آية (٢٩) .
(٢) سورة التحريم آية (٦) .
(٣) سورة الأنبياء آية (٢٧) .
(٤) سورة الحجر آية (٣٠) .

وسكن آدم وزوجته الجنة ،وجاءه أول تكليف من ربه ، حيث قال الله له ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) وسعد آدم بهذا التكليف ، وأخذ ينعم بحياته في الجنة ، يتلقى الوحي ، ويتعامل مع المخلوقات الموجودة معه .

*****

" النقطة الثالثة "

(آدم عليه السلام وإبليس)

عاش آدم وزوجته في الجنة متمتعاً بعطاء الله الواسع ، يأكل من ثمرها ، ويشرب من مائها ، ويتلذذ بكل ما طاب له فيها ، تاركاً الشجرة التي نهاه الله عن الآكل منها ، مطمئـــناً إلى وعد الله الحق الذي يضمن له أساسيات الحياة الطيبة حيث يقول تعـــالي ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ (٢) ، وهكذا بلا كلفة ولا مشقة ، يصون ظاهره بالكساء والسكنى ، ويصون باطنه بالشبع والري ، وبتحقق هـــذه النواحي الأربعة للإنســـان تتحقق الكرامة ، والأمان .

لم يرتض إبليس أن يعلو آدم عنه ، وتملكه الحقد والحسد ، فلما أمره الله بالسجود لآدم ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٣) ، نعم كان من الكافرين

---

(١) سورة البقرة آية (٣٥) .
(٢) سورة طه الآيات (١١٨ ــ ١١٩) .
(٣) سورة البقرة آية (٣٤) .

برفضه أمر ربه ، وأصابه الكبر، والغرور، بتصوره أنه يتميز عن آدم ؛ حيث تصور تميز النار التي خلق منها على الطين الذي خلق منه آدم، وقال ما حكاه الله عنه بقوله تعـالي : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (١) ، وتساءل منكراً متكبراً : ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٢) .

وتصوّر إبليس شرف النار على الطين باطل ، فإن الطين يتميـز بالرزانـة ، والثبات ، والنمو ، والأناة ، أما النار ففيها الطيش ، والخفة ، والإحراق ، والسرعة ، وفى الطين استمرارية وخضوع ، وفى النار فناء واستعلاء .

ويكفي آدم شرفاً على إبليس إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وهل مع النص اجتهاد ؟؟؟.

لم يرتض إبليس بمقام آدم فأبى واستكبر ، فأخرجه الله من الجنة قائلاً له : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (٣) .

خرج إبليس من الجنة ذليلاً ، طريداً ، يتملكه الحقد ، وتقوده العداوة لآدم وذريته ، ولذا طلب من ربه أن يؤجل عقوبته إلى يوم القيامة، ليعمل طاقته في الإضرار والإفساد حيث قال : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٤) .

ولحكمة أرادها الله سبحانه وتعالي أجاب طلبه وقال له : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٢) .

(٢) سورة الإسراء آية (٦١) .

(٣) سورة الأعراف آية (١٣) .

(٤) سورة الحجر آية (٣٦) .

(٥) سورة الحجر الآيات (٣٧ ــ ٣٨) .

وقطعاً لأعذار الآدميين وضح الله تعالى الحقائق التالية :

أ ـــ عرف آدم بعداوة إبليس ، وحدده له ، حيث قال تعـــالي : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (١)

ب ـــ حـــــذر الآدميين عمومـــاً مـــن ألاعيب إبليس وجنوده ، يقول الله تعالي : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾(٢)ويقول تعالي:﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (٣)

ج ـــ وضح لآدم وبنيه وسائل إبليس في الإضلال وهى عديدة منها : ـــ

- التركيز على إبعاد الناس عن الحق والصواب حيث قال ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٤).
- شمول إضلاله كل ما يحيط بالإنسان ، يقول تعالي : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (٥) .
- بذل كامل طاقته في الإضلال ، يقول تعالي﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦)

---

(١) سورة طه آية (١١٧) .
(٢) سورة الأعراف آية (٢٧) .
(٣) سورة فاطر آية (٦) .
(٤) سورة الأعراف آية (١٦) .
(٥) سورة الأعراف آية (١٧) .
(٦) سورة الإسراء آية (٦٤) .

- تلوين التوجه في الإضلال فأحياناً يحسن القبيح ، أو يقبح الحسن ، وأحياناً يوقظ الغرائز المادية السيئة ، وأحياناً يهمس إلى النفس الأمارة بالسوء ، وأحياناً ييئسه من النجاح والخير ....وهكذا.

د ـــ حدد الهدف الرئيسي لإبليس وجنوده وهو إخراج آدم من الجنة ، وحرمان ذريته من دخولها مرة أخرى ، ولذلك حذر الله آدم وزوجه قائلاً لهما : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (١) .

هـــ ـــ عرف الله آدم وذريته بأن إبليس وأبناءه مستمرون في مهمتهم، بلا كلل أو يأس ، ولن ينتهوا إلا بقيام الساعة حيث أنظرهم الله تعالى ، وقد أقسم إبليس على هذه الاستمرارية حيث قال لله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ ، و ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وهو في عمله يترصد للإنسان كما يترصد المحارب لعدوه رجاء أن يقضي عليه بالفساد ، ومن أيمانه ما حكاه الله تعالى : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي لأفسدنهم بالأماني والشهوات ، ولأستو لين عليهم ، وأحتو ينهم ، وأجعلهم في قبضتي ، أصرف أمرهم وشئوهم .

و ـــ عرف الله آدم وبنيه أنه لا سبيل لإبليس على العبد المخلص في إيمانه ، المطيع لربه ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (٢) .

وشأن المؤمن دائماً أن يلجأ إلى الله ، ويتوكل عليه ، ولذلك ينقذه الله من

---

(١) سورة طه آية (١٧) .

(٢) سورة الحجر آية (٤٢) .

دسائس إبليس ، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (١) ، والآيات والأحاديث كثيرة توضح للمؤمنين منهج مقاومة إبليس والتغلب عليه ، والنجاة من دهائه ، وحقده ... إنه عدو لئيم لآدم ، وللإنسانية كلها .

*****

" النقطة الرابعة "

(خروج آدم من الجنة)

أسكن الله آدم وحواء الجنة ، وأباح لهما التمتع بخيراتها ، وثمرها حيثما شاءا ، وكيفما شاءا ، وحدد لهما شجرة منعهما من الأكل منها بصورة قاطعة واضحة ، قال الله تعالي : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

فتعينت الشجرة بأل المفيدة للعهد ، وباسم الإشارة منعاً للجهالة ، وقطعاً للمعذرة عن الخطأ .

ويلاحظ أن الله تعالى علق النهى بالقرب من الشجرة ، مع أن المقصود هو النهى عن الأكل منها ، ليعلم آدم أن القرب من الشجرة مقدمة للأكل منها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والبعيد عن العين بعيد عن القلب ، والقرب من مصدر الخطأ ينسى الصواب ،ويلهى القلب ، والمؤمن الجاد يبتعد دائماً عن الخطأ ودواعيه .

واستقر آدم وزوجته فى الجنة ، إلا أن عدوهما إبليس لم يرتض هذا الخير لهما ،

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٢٠٠ ــ ٢٠١) . (٢) سورة الأعراف آية (١٩) .

فتحايل حتى دخل الجنة (١) ، وأخذ فى تنفيذ مهمته ، وتحقيق غاياته، بوسائل خبيثة ،فأكثر من لقائه بآدم حتى أنس إليه ، وأكثر من التحدث معه حتى تصوره عاقلاً أميناً،ثم أخذ يوسوس لهما بإلقاء حب الشجرة فى قلوبهما ، وتزيين الأكل منها بصورة مستترة مكررة ، والوسوسة الإبليسية يدركها المسلم فى حديث نفسه الخفي ، وهى تأمره بمعصية ، أو تنهاه عن منكر ، إنه حديث يتكرر ، وكلما صرفه العقل عاد . . .

هذا الوسواس لجأ إليه إبليس مع آدم **ـ أولاً ـ** لكن آدم لم يخضع له ، ولم يستمع لوساوسه ، واستمر في بعده عن الأكل من الشجرة .

فلجأ **ـ ثانياً ـ** إلى إيقاظ شهوة النفس الكامنة فى غريزة حب الخلود ، وغريزة الملك ، وقال : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ (٢) ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ** ﴾ (٣) .

فهم آدم وزوجه من كلام إبليس أن الآكل من الشجرة يجعلهم ملوكاً خالدين وبالرغم من رغبتهما فى هذه الأماني إلا أنهما رفضا الأكل من الشجرة طاعة لله تعالي

---

(١) قيل إن إبليس دخل الجنة متخفياً فى بطن حية ، وقيل إنه لم يدخل وإنما اتصل بآدم بواسطة قوته التى جعلها الله له ، وقيل حدثهما لقرب كل منهم من باب الجنة ، وقيل كانت الجنة بعض جنات الأرض ، وهذه أقوال فصلها الرازى فى تفسيره ، والله أعلم .

(٢) سورة طه آية (١٢٠) .

(٣) سورة الأعراف آية (٢٠) .

فلجأ ــ **ثالثاً** ــإلى اليمين ، **قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾** (١) ، وضمن يمينه بمؤكدات تبين صدقه فى النصح ، وأمانته فى الحديث ، قال قتـــــادة : (حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما، فقال إني خلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما ، فاتبعاني أرشدكما) (٢) ، وتصور آدم أن أحداً لا يقسم بالله كذباً فأطاعه، وأكل من الشجرة ، وبذلك تمكن إبليس بخداعه من إنزالهما من طاعة الله إلى معصيته ، ودلاهما بغرور حتى صارا فى مرتبة العصاة الظالمين .

وحينئذ كـــشف الله سترهـــما ، وظـــهرت عورتهما ، وأخذ يستراها بورق شجر الجنة **قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾** (٣) فغفر الله لهما، وقبل توبتهما : **قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾** (٤) ، وبعد ذلك أمر الله آدم وحواء أن يخرجا من الجنة ، ويعيشا فى الأرض حيث الكدح ، والعمل ، والمواجهة المستمرة مع إبليس وجـــنوده، مسيرة الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر ، وبما يتخللها من صراع ونزاع ، وليحـــمل آدم " عليه السلام " مسئولية الخلافة فى الأرض ، وهى المسئولية التى خلق الله لها الإنسان، يتوراثها جيل بعد جيل .

****

---

(١) سورة الأعراف آية (٢١) .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٠٦ .

(٣) سورة الأعراف آية (٢٣) .

(٤) سورة البقرة آية (٣٧) .

" النقطة الخامسة "

(هابيل وقابيل)

نزل آدم وحواء " عليهما السلام " الأرض ليبدأ العمران ، ويبدأ تناسل البشر ، وليعيش الجميع بشرع الله وهديه ليسعدوا ، ويبتعدوا عن وساوس عدوهم إبليس، حتى لا يوقعهم فى ألغى والفساد ، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (٢) ،والمراد بالخطاب فى الآيات آدم ، وحواء ، وإبليس ، والعمدة فى العداوة آدم وإبليس وذريتهما ، والآية تحذر آدم من إبليس حتى لا يحرمه من دخول الجنة مرة أخرى ، وتوضح أن طريق النجاة هو إتباع هدى الله ، وشرعه ، وطريق الخسران هو الإعراض عن ذكر الله ، وطاعته .

وشرع الله لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، وكان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر . . وهكذا .

وكانت توأمة هابيل دميمة ، وتوأمة قابيل وضيئة ، فأراد قابيل توأمته لنفسه معللاً إرادته بحجج عقلية فهو الكبير ، وهو وصى أبيه ، وهو الأحق بأخته الأجمل، وأولي بالزواج منها من هابيل ، وهذا إجتهاد منه يخالف ما شرع الله لهم ، ولذلك لم يوافقه آدم على ما ذهب إليه ، وطلب منه ومن أخيه أن يقدم كل منهم قرباناً فأيهما يتقبل الله قربانه فهو الأحق بالحسناء بشرع الله تعالي .

---

(١) سورة البقرة آية (٣٦) .

(٢) سورة طه الآيات (١٢٣ ــ ١٢٤) .

فقدم كل منهم قربانه ، فقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

فقال قابيل لأخيه : ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

فرد هابيل عليه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١)

هذا الحوار يبين نفسية كل منهما ، فقابيل يهدد بالقتل ، ويؤكد تهديده به بعدما تمكن الحسد والحقد منه . . . ، . . فيرد عليه هابيل بأسلوب هادئ متسامح، يوضح فيه ضرورة التقوى لقبول الأعمال ،ومن أساسيات التقوى الخوف من معصية الله ، والتسامح ، وعدم التعدى على الغير ، وترك كل مايؤدى إلى عذاب جهنم .

وهنا يجد إبليس فرصته فيزين لقابيل قتل أخيه ، ويعرفه بكيفية القتل ، ويسهل له تنفيذ عملية القتل ، فيقتله ، وبذلك أصبح من الخاسرين ، النادمين . . وتعلم قابيل من الغراب أيضاً كيف يدفن أخاه فى التراب فقام بدفنه (٢) .

ودون القرآن قصة ابنى آدم ليعلم الإنسان أن إبليس يترصد به ، وسوسة ، وغواية ، وإضلالاً ، وليعمل الإنسان على تقوى الله وطاعته ، ويبتعد عن الحقد والحسد ، لأن كل شئ بقدر الله ، ولايقع فى ملكه إلا ما أراد .

إن قوة الإيمان تضعف الشيطان ، وتعجزه عن إيذاء المؤمنين بفضل الله تعالي

*****

---

(١) سورة المائدة الآيات (٢٧ ــ ٢٩) .

(٢) تفاصيل القصة موجودة فى كتب التفسير والتاريخ .

" النقطة السادسة "

ركائز الدعوة في قصة آدم عليه السلام

إن قصة آدم عليه السلام تؤكد الركائز التالية : ـــ

الركيزة الأولى :

إيجاد الإنسان الأول وقصته يؤكدان مدى تكريم الله للإنسان ، واتساع دوره في قيادة المخلوقات الأخرى ، وخلافة الله في الأرض .

لقد أعلن الله سبحانه وتعالي ميلاد الإنسان في حفل علوي ، شهوده الملائكة ، وبيانه الإنسان خليفة الله ، والكون كله عون له .

ولكن : ما سر تفضيل الإنسان على الملائكة ؟

يرى الإمام القرطبي أنه لاسبيل إلى تفضيل جنس على جنس ، أو شخص على شخص إلا بدليل وبرهان ، وقد بين الله فضل آدم على الملائكة فثبت له (١) . ويذهب أهل السنة إلى تفصيل هذا التفضيل حيث يرون أن من البشر والملائكة خواصاً وعواماً ، ويقولون إن خواص البشر وهم النبيون ، والصد يقون ، أفضل من الملائكة ، وخواص الملائكة وهم المذكورون في القرآن الكريم كمالك وجبريل ، أفضل من عوام البشر لقوله ﷺ في الحديث القدسي(**ومن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير من ملئه**) (٢) . . وذكر أن الصالحين من عوام البشر أفضل من عوام الملائكة لقوله ﷺ : (**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع**) (٣) .

ويرى الإمام الغزالي أن الأفضلية تعود إلى المجاهدة ، والتقوى ، والاستقامة ، فالملائكة مخلوقة من نور ، لا شهوة لديهم ، فديدنهم الطاعة ، أما الإنسان فإنه مركب من عقل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٨٩ .

(٢) الأحاديث القدسية ص ٢٥ .

(٣) رواه الطيالسى عن صفوان بن عسال ـــ فيض القدير ج٢ ص٣٩٢.

وشهوة ، فمن جاهد شهوته ، وحكم عقله ، وأطاع ربه ، فهو أفضل من الملائكة بالمجاهدة ، يقول الله تعالي : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ (١) ، ومن غلبته شهوته فهو أدنى من البهائم ، يقول تعالي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

ورأى الإمام الغزالي هو الأولى (٣) لمصاحبته الدليل ، وبتحليل بقية الآراء فإنها ترجع إليه ، وكلها تلتقى عند قوله تعالي : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (٤) .

الركيزة الثانية :

هذا الإنسان الصغير فى حجمه ، كبير فى رسالته ، أعطاه الله القدرة على التعامل مع عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، فهو يتعامل مع الله بلسانه ، وبقلبه ، وبجوارحه ،ومع الملائكة يحفظونه ، ويعاونونه ، ويكتبون أعماله جميعاً ، ، ومع الجن ، ومع الناس ، ومع سائر المخلوقات له تعاملات .

إنه يحتاج إلى استعداد يمكنه من النجاح فى تعاملاته ..

لابد أن يكون عبداً لله مخلصاً ، مهتدياً بهدى ربه ، ملتزماً بشرعه ليتلاءم مع صفاء الملائكة ، ويبتعد عن عبث الشيطان ، ويحبه أهل الأرض .

وعليه أن يكون مع الناس حليماً ، كريماً ، يحفظ لهم أقدارهم ، ويتسامح عن أخطائهم ، ويعاملهم بما يناسبهم ، ويتعلم من الله تعالي أن يسمع ، ويجيب ، فلقد استمع الله لاعتراض الملائكة ، وهم يسألون : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ وأجابهم بما يقنعهم ، وحاور إبليس بعد أن أبى واستكبر .

---

(١) سورة البينة آية (٧) .

(٢) سورة الأعراف آية (١٧٩) .

(٣) مدرسة الأنبياء ص١٨ ، ١٩.

(٤) سورة الحجرات آية (١٣) .

إن هذا الإنسان قادر بعطاء الله أن يكون سيد الكون بحق لو التزم بشرع الله ، واتبع هداه ..

الركيزة الثالثة :

الإنسان مكون من مادة وروح ، وكل عنصر يميل بـــه إلى موطنـــه الأول ، وتجذبه المادة إلى حب المال والملك ،وإلى الدوام والخلود ، ويأتيه الشيطان مـــن هـــذا الجانب ، وقد ينجح الشيطان أحياناً .

وعلى الإنسان أن يقاوم جذب المادة بتقوية الـــروح ، والاســـتعلاء علـــى الشهوات ، وإشباعها بما شرع الله تعالي ، ولا يسمع لوساوس ونزغات إبليس .

وإذا ضعف مرة ،ونجح الشيطان في إغوائـــه فعليـــه أن يبـــادر إلى التوبـــة ، والاستغفار ، والله هو غافر الذنب ، وقابل التوب ، وهو الرحمن الرحيم .

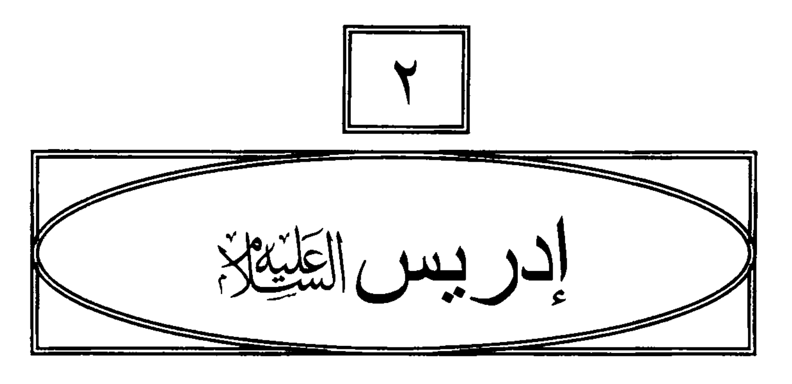
إن المعركة بين الإنسان والشيطان مستمرة ، وعلى المسلم أن يعد للأمر عدته وليعلم أن مع إبليس كثيراً من شياطين الإنس والجن .. أعاذنا الله منهم .

الركيزة الرابعة :

مايزال فضل الله موصولاً للإنسان ، فكل الكون مسخر له ، وجميع المخلوقات فى خدمته ، وقد كلفه الله بالإسلام يطبقه جميعاً ، وعليه أن يختار لنفسه إما أن يكون مسلماً قانتاً ، مطيعاً ، وأولئك هم المفلحون، وهم خير البرية ، وإما أن يخلد إلى الأرض ، ويتبع الهوى ، ويهمل طاعة الله ، ويكون مـــن جنود إبليس ، وحينئذ يكون ممن قال الله فيهم : ﴿ **وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (١)، وعلى العاقل أن يعى ، ويتدبر ، ويختار ، والله لايهدى القوم الظالمين ..

---

(١) سورة الأعراف آية (١٧٦).



٢
إدريس عليه السلام

يذكر المؤرخون ، وكتاب التاريخ ، أن الله أرسل رسولين فى الفترة الزمنية بين آدم ونوح " عليهما السلام " هما شيث وإدريس " عليهما السلام " .

وكل ما ذكر عنهما يدور حول تحديد وقت رسالتهما ، وثبـوت الـوحى إليهما ، ومترلتهما عند الله ، أما قضايا الدعوة والمدعوين فلم يرد بيان عـن ذلـك ، ولعله يرجع إلى أن ذرية آدم كانت على قرب بعهد أبـيهم آدم " عليه السلام " فبعـث الله إليهم الرسل ليذكروهم ، وليأخذوهم على الذى تركهم عليه آدم " عليه السلام " .

ولكن ماهى المدة بين آدم ونوح " عليهما السلام " ؟ .. يروى " ابن حبان " فى صحيحه بسنده عن أبى أمامه أن رجلاً قال : **يا رسول الله : أنبي كان آدم ؟**

قال ﷺ : نعم نبى مكلم .

فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح ؟

قال : عشرة قرون (١) .

عن ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (٢) ،ورواية ابن عباس تورد أهم خلال هذه القرون العشرة كانوا مسلمين ، وفى هذا إشـارة إلى أن الفترة بين آدم ونوح كانت أكثر من ألف عام ، لأننا لـو أعتبرنا القرن مائة عام يكون الإسلام فيهم مدة ألف عام على الأقل ، وبعدها عبدوا الأصنام والأوثـان ،

---

(١) صحيح ابن حبان ـــ كتاب الأنبياء ، وقد ذكره ابن حجر فى فتح البارى ج٦ ص٣٧٢ .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص١٠١ .

حتى جاءهم نوح " عليه السلام " . . وإن أعتبرنا القرن جيلاً كمعناه الوارد فى قوله تعالي :
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ (١) تكون الفترة آلاف السنين وشيث " عليه السلام " أحد أبناء آدم ، وشيث معناه هبة الله ، عهد آدم إليه وولاه أمر أبنائه ، وأحفاده ، وهو نبى بنص حديث ابن حبان(٢) ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة ، وقيل هى المرادة من قوله تعالي : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (٣) .

و " إدريس " " عليه السلام " نبى الله ، يقول الله تعالي عنه : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (٤) ، فقد أثنى الله عليه ، ووصفه بالنبوة ، والصديقية ، وبين علو مترلته ، وفى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر عليه فى السماء الرابعة (٥) .

والمكان العالي الذى تتحدث عنه الآية قيل هو الجنة ، وقيل هو السماء الرابعة . .

والمرفوع قيل عمله " عليه السلام " ، وقيل ذاته حيث رفع قبل موته ثم مات بعد رفعه ، وقيل : بل رفع بعد موته .

وكل هذه الأقوال معان تحتملها الآية ، فليس بعضها أولي من بعض .

ومن المعلوم بالضرورة أن شيثاً وإدريس " عليهما السلام " دعوا إلى توحيد الله ، وإلى عبادته ، وإلى التمسك بهديه سبحانه وتعالي (٦) .

---

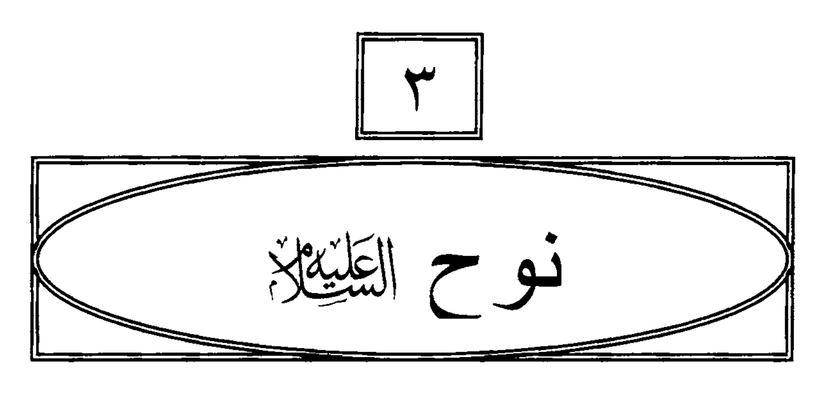
(١) سورة الإسراء آية (١٧) .   (٢) البداية والنهاية ج١ ص ٩٨ .

(٣)سورة الأعلى آية (١٨).

(٤)سورة مريم آية (٥٦ ، ٥٧) وسمى عليه السلام بإدريس لمدارسته العلم .

(٥) صحيح البخارى بشرح العينى ـــ باب ذكر إدريس عليه السلام ج١٥ ص ٢٢٤ .

(٦) اكتفيت في العنوان بـــ " إدريس " عليه السلام لأن القرآن الكريم تحدث عنه ، ولم يتحدث عن شيث عليه السلام .



نوح " عليه السلام " هو أبو البشرية الثانى ، وهو أول الرسل بعد آدم " عليه السلام " ، وقد اصطفاه الله للنبوة ، وهداه للحق ، وكلفه بالرسالة ، وأثني عليه بما هو أهله .

وقد دعا نوح " عليه السلام " جميع من على ظهر الأرض فى زمانه بعد أن غرق معارضوه بالطوفان ، ومن هنا كانت دعوته عامة بسبب ما أحيط بها من أحداث ، وسمى عليه السلام بنوح لبكائه الكثير .

ونوح " عليه السلام " أحد أولى العزم من الرسل ، بل هو أولهم ، وتعد دعوته " عليه السلام " مرتكزاً رئيسياً للعلماء ، والدعاة، ولكافة العاملين فى مجال الدعوة إلى الله تعالي ، لما فيها من الدروس والعبر .

وقد فصل القرآن الكريم قصة نوح " عليه السلام " فى أكثر من موضع ، وخصها بسورة كاملة ، بياناً لأهميتها (١) .

وسوف أتحدث عن دعوة نوح " عليه السلام " ، وقصته مع قومه فى نقاط تجمع بين تسلسل الأحداث ، وقضايا الدعوة ، وأهم الفوائد والعبر . . .

---

(١) جاءت قصة نوح " عليه السلام " فى ثمان وعشرين سورة قرآنية .

" النقطة الأولى "

(التعريف بقوم نوح)

طال الزمن بعد آدم ، واستمر الناس على الحق عشرة قرون ، وبعدها حدثت أمور أدت إلى أن يعبد الناس الأصنام المعروفة ودا ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا .

(يروى البخارى بسنده عن ابن عباس أن هذه أسماء رجال صالحين بين آدم ونوح " عليهما السلام ") (١) ، (وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتادون بهم " لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، ويسقون المطر بهم ، فعبدوهم) (٢)

وقد تفنن الناس فى عبادتهم للأصنام ، فصنعوا على صورها الأوثان العديدة ، وانقسموا إلى طوائف ، وجماعات ، حيث عبدت كل طائفة صنماً معيناً ، واتخذت صوراً عديدة لعبادته (٣) .

ووجد فى قوم نوح الأغنياء ، وهم الملأ الذين تمتعوا بمستوى فكرى متقدم ، مكنهم من الجدل والحوار ، جعلهم يتيهون به استعلاء وتكبراً ، وتصوروا بسببه أنهم أعظم من الفقراء شأناً ، ومقاماً .

كما كان فى قومه " عليه السلام " الفقراء ، ويبدو أنهم كانوا يعملون فى خدمة الأغنياء فى ضعف وهوان ، ولذلك أسرع بعضهم إلى الإيمان برسالة نوح " عليه السلام " حين دعاهم إلى الإيمان ، وهم الذين سماهم الملأ بـ (الأراذل) .

---

(١) صحيح البخارى ج٨ ص ٦٦٧ ــ باب ود وسواع ونصه " كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ... ونسخ العلم عبدت " .

(٢) تفسير فتح القدير ج٥ ص٣٠٠.

(٣) انظر تفسير الخازن ج٣ ص ٢٢٩.

وكان للقوم حضارة ، لأن الله جعل لهم الأرض بساطاً ، فسلكوا فيها طرقاً ، وعملوا بالزراعة وساروا بالتجارة ، وصنعوا الأصنام ، وأقاموا التماثيل واتخذوها آلهة ، وعبدوها من دون الله تعالي .

****

" النقطة الثانية "

(حركة نوح بالدعوة)

أرسل الله نوحاً إلى قومه ، فدعاهم إلى التوحيد الخالص ، والعبودية الكاملة لخالقهم سبحانه، **قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾** (١)، ولكن القوم رفضوا الدعوة ، ووقفوا منها موقفاً سلبياً ، وواجهوا نوحاً بعدد من المواقف ، فقد أنكروا الدعوة ، واتهموه بالضلال ، والجنون ، والسفاهة، كما حكى الله عنهم:**﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾** (٢) ، **وقال تعالي : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾** (٣) .

واتهموا أتباعه " عليه السلام " بخفة العقل ، وبالرذالة ، وبالضعة ، وبالكذب ، يبين ذلك قول الله تعالي : **﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾** (٤) .

وطلبوا من نوح أن يطرد الضعفاء الذين اتبعوه، لأنه لايليق بهم أن يكونوا مع الفقراء، والمستضعفين، فى مسلك واحد ، فرد عليهم نوح عليه السلام مفنداً إتهامهم له

---

(١) سورة نوح الآيات (٢ — ٣) . (٢) سورة الأعراف آية (٦٠) .
(٣) سورة القمر آية (٩) . (٤) سورة هود آية (٢٤) .

ولأتباعه ، ورافضاً لما طلبوا ، وموضحاً أنه يدعوهم لما يصلحهم بلا أجر يأخذه منهم وبلا حاجة له فيهم ،قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ...ويقول سبحانه ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٢) ..ويقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣) ..

ومع رده الهادئ عليهم ، ومناقشته لمعارضاتهم ، استمروا فى الإنصراف عنه ، والكفر به ، وبدعوته ، ولما رأوه مصراً على إيمانهم ، ملحاً فى إقناعهم أغلقوا أذانهم وغطوا وجوههم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (٤) ،فكان إذا مر بهم لايرونه، وإذا حدثهم لايسمعون قوله ، ومكث نوح فى قومه مدة طويلة، لايضعف ، ولايهدأ ، ولايمل ، قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (٥) .

حذرهم نوح من عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، ورغبهم فى عطاء الله وفضله ، وذكرهم بكافة الآيات التى تحيط بهم من مال ، وبنين ، وزروع ، وأنهار ، وكلها تؤكد وحدانية الله ، وضرورة عبادته وطاعته .

ومع كل الجهد الذى بذله نوح معهم تمسكوا بضلالهم ، واستمروا فى عبادة أصنامهم ، وطلبوا منه أن يترك دعوتهم ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٦١ ــ ٦٢) . (٢) سورة هود آية (٢٩) .
(٣) سورة الشعراء الآيات (١١٤ ــ ١١٥) . (٤) سورة نوح آية (٨) .
(٥) سورة العنكبوت آية (١٤) . (٦) سورة هود آية (٣٢) .

تصوروا أن دعوة نوح لهم جدلاً ، لايقصد بها الحق والصواب ، وطلبوا منه التوقـــف عنـــــــها لكثرتها ، ولعدم جدواها ، وتحدوه بأن يأتي لهم بما يخوفهم به ، ظناً منهم أنه كاذب ، ولم يكتفوا بسب نوح وأتباعه ، والسخرية بهم ، بل كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط على الأرض جريحاً فيلفونه فى لبد، ويرمونه في بيت خرب ، يظنون أنه قد مات ، فإذا به يلقاهم فى اليوم التالي ، يدعوهم إلى الله تعالي .

(يحكى ابن اسحاق عن عبد الله بن عمير الليثى أنه بلغه أن قوم نوح كانوا يبسطون نوحاً فيخنقونه حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومى فإنهم لايعلمون ، حتى تمادوا فى المعصية ، وأشتد عليه منهم البلاء ، وهو ينتظر الجيل بعد الجيل ، فلا يأتى قرن إلا كان أنحس من الذى قبله ، ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول : كان هذا الشيخ مع أبائنا ، وأجدادنا هكـــذا مجنوناً) (١) .

شكي نوح عليه السلام حال قومه لربه فعرفه ، سبحانه وتعالي بأنه لن يؤمن منهم أحد بعد ذلك ، **قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾** (٢) .

ويعجب العاقل حين يعلم عدد الذين آمنوا بالله ، وصدقوا نوحاً فى دعوته خلال هذه المدة الطويلة لقلة عددهم ، وقد اختلفت الأقوال فى عدد المؤمنين ، فالمكثر يصل بالعدد إلى ثمانين ، والمقل يصل بالعدد إلى سبعة فقط ، وقد أشار الله إلى قلة عدد المؤمنين ، فقال سبحانه : **﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾** (٣) .

لما عـــلم نوح " عليه السلام " بأنه لـــن يؤمن أحـــد بدعوته بعد ذلك طلب مـــن

---

(١) تفسير الخازن ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٢) سورة هود آية (٣٦) .

(٣) سورة هود من آية (٤٠) .

ربه أن يهلك الكافرين ،قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (١) .

علل " عليه السلام " طلب إهلاكهم بأنهم يعملون على إضلال العباد ، ونشر الفساد فى الأرض ، وأيضاً فإن كفرهم وعتوهم ينتقل بالوراثة إلى بنيهم، فلا يلدوا إلا فاجرا كفارا .

أمر الله نوحاً بصنع سفينة ، فأخذ فى صناعتها ، وترك دعوة القوم ، فكان الناس يمرون عليه ويستهزءون به ويقولون : هذا الذى كان يزعم أنه نبى صار نجاراً ، وينادونه بصنعته الجديدة ، ويتعجبون منه وهو يصنع سفينة على اليابسة ، ولم يأبه بإستهزائهم ، وتعجبهم ، واستمر فى طاعة الله تعالي .

يقول عكرمة والزهرى : (التنور وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح " عليه السلام " إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض، فاعلم أن مصير الكفار قد أقترب ، وأفعل ماتؤمر به ، فتنجو ومن آمن معك ، قال تعالي : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وأمر الله تعالي السماء بإنزال المطر ، وأمر الأرض بتفجير العيون ، فنفـذا ما أمرا به ، قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾(٣) ، وامتلأت الأرض بالماء ، وعلا الطوفان حتى

---

(١) سورة نوح الآيات (٢٦ ــ ٢٧) .   (٢) سورة هود الآيات (٤٠ ــ ٤١) .

(٣) سورة القمر الآيات (١١ ــ١٢) .

اشبهت الأمواج فى حجمها الجبال ، يقول تعالي : ﴿ وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٍ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ (١) وعامت السفينة بركابها محوطة بعناية الله ، قال تعالى: ﴿ تَجۡرِى بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾(٢) ، وهلك الكفار بالغرق ، ونجا نوح عليه السلام ، ومن كان معه فى السفينة قال تعالى: ﴿ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٍ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (٣) ، وبعدها عادت الأمور إلى طبيعتها ، قال العلماء إن السفينة استمرت عائمة فوق الماء مدة ستة أشهر (٤) ، وكان أمر الله للماء ، كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِى وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٥) .

وهكذا كانت عاقبة الضالين ، أما نوح عليه السلام ومن معه ، فقد نجـــاهم الله كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٦) ، **وصدق وعد الله تعالى .**

******

" النقطة الثالثة "

(ركائز الدعوة فى قصة نوح "عليه السلام")

أستغرقت دعوة نوح قومه زمناً طويلاً ، عاشته أجيال متعددة ، وهذا يعطى الدعوة والدعاة فوائد عديدة ، لأن التجربة إذا تكررت ثبتت ، والنتيجة الواحدة لأعمال كثيرة برهان على أن هذه النتيجة نتاج طبيعى للأعمال،ولمن يقومون بها ، وإن فعلوها مرات ومرات .

---

(١) سورة هود آية (٤٢) . (٢) سورة القمر آية (١٤) .
(٣) سورة الأنبياء آية (٧٧) . (٤) بصائر ذوي التمييز ج٦ ص٣٠
(٥) سورة هود آية (٤٤) . (٦) سورة العنكبوت آية (١٥) .

عاصر نوح " عليه السلام " عدداً من الأجيال ، ونادى فيهم بدعوة الله ، مستقيماً على المنهج ، صادقاً فى سعيه لهم ، ومع ذلك كانوا جميعاً علـــى نمط واحد فى العناد ، والكبر ، والعدوان ، والكفر ، وكأنهم تواصوا بذلك . . ومن هنا كانت الدروس نتائج ثابتة تحدد أسس الحركة بالدعوة على الزمن كله ، وهى الركائز التى أحب أن أوضحها فيما يلى :

الركيزة الأولى : العقيدة أساس الدعوة :

قامت دعوة نوح " عليه السلام " على دعوة الناس إلى توحيد الله تعالي ، وقصر العبادة له ، وترك ماعدا ذلك ، من شرك وضلال ، يوضح الله تعالي هذه الحقيقة فى آيات متعددة ، يقول تعالي : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١) ، **ويقـــول تعـــالي** : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾ (٢) ، والآيات كثيرة ، وكلها تؤكد دعوة نوح للتوحيد الخالص ..

دلل لهم على حقيقة التوحيد بالآيات الكونية التى يعيشونها ، ويشاهدونها ، قال لهم : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** ﴾ (**٣**) ، وفي هذه الآيات أدلة **واضحة** ، تنطق بدقة الخلق ، وغائية الوجود، وروعة الحسن والجمال ، إنهــــــم

---

(١) سورة الأعراف آية (٥٩) .
(٢) سورة هود الآيات (٢٥ ـــ ٢٦) .
(٣) سورة نوح الآيات (١٥ ـــ ٢٠) .

يدركون هذه الآيات ، ويرتبطون بها فى معاشهم ، ليلاً ، ونهاراً ، ظلمة ، ونورا ، سيراً ، وعملاً ، طعاماً ، وشراباً ، فى دقة رائعة ، وفى تتابع منسق ، لايبغى بعضها على بعض ... إن الخالق هو الله الواحد ، ويجب أن يعبد وحده ..

وتقوى الله هى البرهان على استقرار التوحيد فى القلب ، وهى القوة المحركة ليعيش الإنسان عابداً لله ، بالمنهج الذى جاء به نوح " عليه السلام " ولذلك قال لقومه : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١) ، يقول سيد قطب : (**وعبادة الله وحده منهج كامل ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية .. ، .. وتقوى الله هى الضمانة الحقيقية للإستقامة على هذا المنهج وعدم التلفت إلى غيره ، بلا رياء ، ولاتظاهر،ولامماراة..، .. وطاعة الرسول هى الوسيلة للإستقامة على المنهج وتلقى الهدى من مصدره ، واستمرار هذا الاتصال مادامت الرسالة موجودة**) (٢) ، ووجود الرسالة يدوم بوجود رسولها ، أو بوجود مصادرها المترلة .

ومن الحقائق المسلمة أن الدعوة إلى التوحيد تتضمن بالضرورة الإيمان بالرسول وبالملائكة ، وبالكتاب ، .. لأن الملائكة هى حاملة الكتاب المترل على الرسول ، والرسول هو مبلغ الوحى للناس .

ولذلك قال نوح " عليه السلام" : ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ لأنه رسول الله إليهم وبلاغه هو دين الله تعالي .

والإيمان باليوم الآخر جزء من العقيدة ، وقد عرفهم به نوح " عليه السلام " وهو ينذرهم به، **قال تعالى:** ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ **(٣)**

---

(١) سورة نوح آية (٣) .

(٢) فى ظلال القرآن ج٨ ص ٢٩٨ ـــ الطبعة السابعة ـــ دار التراث العربي .

(٣) سورة هود آية (٢٦) .

فهم قوم نوح دعوته لأركان العقيدة ، وسمعوا براهينه ، وبدل مناقشته فى الدعوة إتهموه بالكذب ، ولذا ردوا عليه ، وزعموا أن الرسالة لا تكون لبشر ، وقالوا لنوح : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ (١) ، ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٢) .

وقالوا : إن جازت الرسالة لبشر فيجب أن يكون من علية القوم ، ووجهائهم ، وزعموا أن أتباع نوح من الفقراء الضعفاء الذين لايفكرون فى أمر ، ولا يعقلون ما يريدون ، ويتبعون الرأى عند ظهوره بلا تدبر فيه ، وقالوا لنوح ماحكاه الله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (٣) .

وقد رد نوح " عليه السلام " مزاعمهم ، وبين لهم أن النبوة رحمة من الله ، يصطفي لها من يشاء من عباده ، وليس لهم أن يناقشوا فى شخص الرسول ، وعليهم أن ينظروا فى معجزاته البينة ، ومدى صدقه فى دعوته ، ولهم أن يسألوا أنفسهم عن غاية الرسول من كذبه على الله ، وهو لايأخذ منهم أجراً ، والمؤمنون معه من الفقراء الذين لا جاه لهم ينتفع به ، أو مالاً يستولى عليه . فلماذا يكذب على الله إذا.!!

ومع كل هذا لم يؤمن القوم بالله ، وعاشوا حتى هلكوا على الكفر والضلال ...

وقد يسأل إنسان : وأين الشريعة فى دعوة نوح " عليه السلام " ؟

وهو سؤال له وجاهته ، والجواب عليه يجلى الحقيقة ... إن الشريعة منهج عملي تنظيمى للحياة ، يحتاجها أصحاب العقيدة ليلتزموا بها ، فمن أعتقد بالله أطاع شرعه ، والكافر لايحتاج لشريعة لأنه كافر بالله أصلاَ . وقوم نوح لم يؤمنوا ، ولذلك لم يكلفهم نوح " عليه السلام " بشريعة ما ، ولم يأمرهم بها .

---

(١) سورة هود آية (٢٧) .   (٢) سورة المؤمنون آية (٢٤) .

(٣) سورة هود آية (٢٧) .

الركيزة الثانية : أساسيات الحركة بالدعوة :

الدعوة الدينية بتعاليم إلهية منزلة ، معقولة المعنى ، تحتاج إلى شخص يتحرك بها ويوصلها للناس فى إطار خطة سليمة ، بوسائل قادرة علـى الوصـول للمـدعوين ، وبأساليب تبين ، وتحاول ، وتؤثر ، وتقنع ، وبعد ذلك يكون الناس أحراراً ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

وبتتبع الأحداث فى تاريخ قوم نوح يظهر ذلك بجلاء ، فنوح " عليه السلام " رسول صنعه الله تعالي للرسالة ، وكلفه بها ، وإختاره لها ، عن علم وحكمة ، فهو " عليه السلام " جامع لكل صفات الكمال التى يحتاج إليها الرسول الداعية ، يتضح ذلك من عميق توجيهاته فهو يحدثهم عن الله حديث عارف به ، يقول لهم : ﴿ **أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (١) .

ونوح " عليه السلام " مؤمن بما يدعو إليه ، موقن بصدقه ، ولذلك استمر يدعوهم هذه المدة الطويلة بلا كلل ، ولا ملل ، متصفاً بكل كمال يحتاجه الدعاة ، من عزيمـة قوية ، وصبر شديد ، وسماحة وعـفو ، وأنـاة ورويـة ، وتحمـل للمشـاق والمصاعب ، ورغبة مستمرة فى النصح ونصرة الحق ، لايرجو من ذلك إلا رضـى الله وأداء الواجب عليه .

وسار نوح " عليه السلام " فى الدعوة على خطة منهجية واضحة اعتمدت النقاط التالية :

أ ــ بيان ما بينه وبين الناس من مودة وقربى ، لما لهذا من تحقيق مشاركة وجدانية متبادلة مع الناس ، تساعد على السمع والطاعة ، فهو يبدأ حديثه معهم بهذا النـداء

---

(١) سورة نوح آية الآيات (٣ ، ٤) .

﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ مذكراً بعلاقة القربى ، ووحدة النسب ليسمعوه ، ويفكروا فيما يدعوهم إليه ، لأن حب الإنسان لأهله ، وقومه أشد من حبه لغيرهم ، وهو لايكذب عليهم أبداً ، ولذلك كان يناديهم بهذا النداء دائماً ، حتى وهو يرد على شتائمهم ، ولم يكتف بهذا النداء بل أخذ يبين لهم إخلاصه لهم ، ونصحه إياهم قائلاً لهم : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

ب ـــ عايش نوح " عليه السلام " واقع قومه وهو يدعوهم ، ولعل ذلك أجلى في الشرح ، وأدعى للفهم والإقناع .

إن قوم نوح أصحاب زراعة ، ورعى ، وتجارة ، يحتاجون للمطر يسقيهم ، وللأنهار تروى زرعهم ، وللسماء تظلهم ، وللشمس تدفئهم ، وللقمر ينير لهم ، وهم يقطعون سبل الأرض ، وفجاج الصحراء ، ومعهم الأموال والأولاد .

تلك حياة القوم ، وهذا هو واقعهم ، فماذا قال لهم نوح " عليه السلام " وهو يدعوهم ، لنقرأ الآيات لندرك مدى معايشة نوح لواقع المدعوين ، يقول الله تعالي :
﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢) ،

إن الآيات شاهد واضح على أن نوحاً " عليه السلام " كان يعيش حياة قومه ، يقدم لهم الأدلة من الواقع الذى يتعاملون معه ، وكلها آيات كونية ، وإنسانية ، ناطقة بأن الله واحدٌ ، لاشريك له ، ويجب أن يعبد وحده .

---

(١) سورة الأعراف آية (٦٢) .   (٢) سورة نوح الآيات (١٠ ـــ ٢٠) .

ج ــ الاستمرار فى الدعوة ، والإلحاح فى طلب الإيمان ، من ضرورات الدعوة إلى الله تعالي ، لأن غاية الدعوة إيجاد إنسان جديد ، ينخلع تماماً من حياته وضلاله ليتحول إلى عبد ربانى ، ينطوى باطنه على قبس من نور الله ، وتمتلئ جوارحه بالتقوى ، والطاعة ، والاستقامة على منهج الله .

إن هذا الأمر لايحتاج إلى مجرد العرض ، ولايكفيه الطلب لمرة واحدة ، ألا ترى الطبيب يداوم العلاج حتى يشفى مريضه ، والتربية الجادة تحتاج إلى مداومة ، ومتابعة واستمرار مع مراحل العمر كله .

وليس هناك أسمى من الدعوة ، وكل بذل لها هو فى الطريق الصحيح .

وقد طبق نوح " عليه السلام " هذه النقطة المنهجية تطبيقاً كاملاً ، ويكفى الوقوف على مدة دعوته التى دامت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، متحملاً كل مشقة ، صابراً على كل عدوان ، لم يترك فرصة للدعوة إلا قام بها ، ملتزماً بأخلاقه الكريمة، وكان يواصل الدعوة بصورة مستمرة ، يبين ذلك بقوله تعالي : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا** ﴾ .

د ــ الدعوة الإلهية تتصادم مع قوى اجتماعية عديدة ، فهي تتصادم مع الملإ ووجهاء القوم الذين يعيشون على استعباد الضعفاء ، واستغلالهم .. ، .. كما تتصادم مع كل متأله من الناس ، سواء كان تألهه بالتحليل والتحريم ،وهو يشرع بعقله للناس ، أو يحب أن يرفعه الناس إلى درجة الإله يخافونه ، ويرجونه ، ويعظمونه .. كما تتصادم مع كل ضال يعبد غير الله سواء كان معبوداً حسياً أو معنوياً .

هذه الصدامات تؤدى إلى مشاق ومصاعب فى طريق الدعوة ، ولذلك لابد من ملازمة الداعية للتحمل ، والصبر ، ومقابلة السيئة بالحسنى كمنهج لابد منه لنجاح الدعوة .

ويعتبر نوح " عليه السلام" نموذجاً عالياً فى تطبيق هذه النقطة ، فلقد كانوا يسخرون منه ، ويشتمونه ، ويصفونه بالكذب والجنون والسفه ، ويؤذونه ويضربونه حتى

يشرف على الموت ، ومع ذلك كان يدعوالله تعالي لهم قائلاً : (**اللهم اهـــد قـــومى فإنهم لايعلمون**) .

هـــ ـــ تحتاج الدعوة إلى ضرورة التوجه إلى الناس بلا تفرقة بينهم ، بسبب لون أو جنس ، أو مال ، أو جاه ، وهذا ما فعله نوح " عليه السلام " حينما طلب منه الملأ من قومه أن يبعد عنه الفقـــراء ، قال لهـــم : ﴿ **وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ** ﴾ ..

إن هذه النقاط المنهجية تمثل خطة ضرورية لنجاح الدعوة إلى الله تعالي ....

و ـــ وكان لنوح " عليه السلام " وسائله وهو يدعو قومه إلى الله ، ويراد بالوسائل الطرق التي تحمل الفكرة، وأسلوبها، سواء كانت بشرية ، أو بـــآلات غـــير بشـــرية، كالرسالة المكتوبة ، أو الصورة الهادفة .. وهكذا .

وقد استفاد نوح " عليه السلام " بما أمكنه من وسائل ...

فقد كان " عليه السلام " يواجههم مباشرة ، ويكرر لهم الدعوة ، وذلك مستفاد من فعلهم الذى قال الله عنه : ﴿ **وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ** ﴾ فهم لضيقهم برؤية نوح أمامهم كانوا يغطون وجوههم بأطراف ثيابهم ، حتى لاتقع عيونهم على رؤيته حين اقترابه منهم .

ونراه يستعمل وسائل الاتصال التي يتحدث عنها الإعلاميون المعاصرون ، فيتصل بهم اتصالاً شخصياً ، ويواجههم فرادى ، وهو المقصود من قوله تعالـــي : ﴿ **وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** ﴾ لأن السرية المرادة هنا ، هى مخاطبة الأفراد واحداً واحداً ، بصـــورة علنية ، لأن المفهوم العام للسرية لايتفق مع مفهوم الدعوة والتبليغ .

واتصل بهم " عليه السلام " اتصالاً جماعياً ، فهم قومه يعرفهم ، وكان يأتيهم فى تجمعاتهم، وفى أعيادهم، ومناسباتهم المختلفة ،وهو المقصود من قوله تعالي : ﴿ **ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ** ﴾ ،ودعاهم " عليه السلام " جماهيرياً ، وهو دعوة الجمع الغفير الذى

يمكنه التوجه إليهم ، وهذا هو المقصود من قوله تعالي : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ .

وكانت مكارم أخلاقه " عليه السلام " وسيلة عملية تعرفهم بدين الله تعالي ، وحسن تأثيره فى الخلق والسلوك .

ز ـــ خاطبهم " عليه السلام " بأساليب متعددة . . .

فاستعمل معهم **أسلوب الحكمة** ويراد به القول الموجز الدال على معناه بعبارة قصيرة ، دقيقة ، **ومنه الطلب المباشر** المحدد ومثاله فى قوله لهم : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ ، ومن الأساليب الحكيمة أسلوب عرض **الآيات الكونية والإنسانية** ، لأنها تدل على مرادها بصورة دقيقة لايمكن ردها ، ومن علامات الحكمة فى الآيات الكونية والإنسانية أنها وإن تضمنت المعانى الكثيرة فإنها تأتي فى كلمات قليلة انظر قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ ﴾ ، فإنها تشتمل على كلمات قليلة ، وكل كلمة تشتمل على المعاني الكثيرة ، فوجه السؤال وجعله خاصاً بهم لقوله ﴿ مَّا لَكُمْ ﴾ ، ويحدد التهمة وشناعتها بقوله : ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ ، وهى تهمة تتجلي فى مفهومهم بصور عديدة ، إنهم يصنعون الأصنام ، ويعبدونها ، ويتوجهون إليها ، ويتركون الله تعالي ، ولايوقرونه ، مع أنه تعالي أكرمهم ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ أي على مراحل عديدة ، فمن نطفة، إلى علقة ، إلى جنين، إلى مولود، إلى أن يموت، كل ذلك بقدر الله وعلمه، ومع ذلك لايوقرونه .

إن هذه الكلمات ، والآيات ، لايمكن للقوم أن يردوا عليهالوضوحها ، ولكنهم استمروا على الكفر معارضين لدين الله بلا حجة أو بيان .

ومن الأساليب التى توجه بها نوح " عليه السلام " إلى قومه **الموعظة الحسنة** ويراد بها الأسلوب المشتمل على المعانى المثيرة ، التى تخاطب العواطف ، وتجذب النفس ، وأساس هذا الأسلوب الترغيب والترهيب ، لأن الترغيب يعمل على التزيين

والإغواء ، وتحقيق التعاطف والمودة مع الدعوة ، وذلك خطاب للــروح والوجــدان وبخلاف الترغيب يكون الترهيب ، فهو قائم على تخويف المستمع من خطــأ يفعلــه ليبتعد عنه ، والترغيب والترهيب واضح فى أسلوب نوح " عليه السلام " .

وتعد الأساليب البيانية من قبيل الموعظة لأنها تركز الصور اللفظيــة العديــدة حول معنى واحد لإقناع المستمع به .

ومن الموعظة الحسنة الاستفهام ، والحوار ، وإبطال دليل المعارضين ٠

وبتتبع قصة نوح " عليه السلام " فى القرآن نرى العديد من صور الخطاب والبيان ..

الركيزة الثالثة : أثر الإيمان :

الإيمان بالله تعالي ، والإستجابة الصادقة لدعوة الرسول ، من أهــم عوامــل تأليف القلوب ، وتحقيق الوحدة بين المؤمنين ، لأن هذا التآلف جزء مــــن الإيمــان نفسه ، وحين يعجز المؤمن عن تحقيقه فى ذاته ، فعليه أن يتهم نفسه بضعف الإيمان ، لأنه لو صدق فى إيمانه لشعر بأخيه المؤمن جزءاً متمماً لإيمانه ، فــالمؤمنون كالجســد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمي والســهر ، يقــــول النبى ﷺ : (**مثل المؤمنين فى تــــوادهــم وتراحمهم وتعاطفهم مثــل الجســد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**) (١) .

وفى قصة نوح " عليه السلام " مايؤكد قوة الرابطة الإيمانية ، وضرورها للتآلف ، وتحقيق التماسك بين المؤمنين لأنها لو فقدت فلا قيمة لأية رابطة ، وبخاصة مــع المؤمنين ، يقول الله تعالي : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ـــ باب تراحم المؤمنين ج٥ ص ٤٤٧ ط. دار الشعب .

(٢) سورة المجادلة آية (٢٢) .

إن رابطة الإيمان تربط القلوب، وتوحد الأجساد ، وتقوى بمعونة الله تعالي ، ولذلك فهى دائمة مستمرة فى الدنيا وفى الآخرة ، وأصحابها هم المفلحون ، وهم حزب الله ، أما أعداء الله فهم منقطعون عن المؤمنين ، لا مودة معهم ، فهذا ابن نوح ظل على كفره ، ولم يدخل الإيمان قلبه فأغرقه الله مع الكافرين ، ولم يقبل طلب نوح فيه ، وقال له : ﴿ قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ (١) ، ذلك أن نوحاً " عليه السلام " طلب من ربه أن ينجى له ولده فعرفه الله بانقطاع الصلة به، بسبب عدم إيمانه، ولفظ الآية صريح فى عدم جدوى رابطة النسب إذا انتفت رابطة الإيمان .

وكما أغرق الله تعالي ابن نوح بسبب عدم إيمانه ، أغرق كذلك زوجته بسبب عدم إيمانها هى الأخرى ، وجعلها الله مثلاً للكافرات ، ولحكمة أرادها الله تعالي جعل زوجة نوح وولده من الكافرين ، ليهلكا مع المغرقين ، وليعلم كل إنسان بعدهما أن الإيمان هو طريق النجاة ، وأنه صانع القرابة الحقيقية ، فالزوجة الكافرة، والابن الكافر، ليسا من أهل الزوج المؤمن ، والأب المؤمن ، لأن الكفر يفرق بينهما ، أما الإيمان فإنه العروة الوثقى بين المؤمنين ، وهوالصلة القوية الدائمة بينهم .

ولعل قوة الإيمان فى التأثير ترجع إلى أنه يتم بناء على إقتناع ورضى ، بينما غيره من العوامل يتم بطريقة عفوية لا دخل للإنسان فيه ، وأيضاً فإن الإيمان عامل يزداد بالإخلاص فيه ، أما العوامل الأخرى فهى ثابتة لاتقبل الزيادة ، يقول الله تعالي ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة هود آية (٤٦) .

(٢) سورة التوبة آية (٧١) .

ومن أثر الإيمان إقامة مجتمع نظيف المشاعر ، نظيف التفكير ، نظيف العمل والتعامل ، ويكفى أن كل فرد فيه يؤدى واجبه ، وينال حقه بصورة سهلة وتلقائية .

إن أفراد المجتمع المؤمن يتعاونون على البر والتقوى ، وتتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، لافرق بين كبير وصغير إلا بالتقوى .

إن أفراد المجتمع المؤمن يحافظ كل منهم على أخيه ، ماله ، وعرضه ، ونفسه وأماناته ، طاعة لله تعالي .

ومن أثر الإيمان تحقيق النصر فى النهاية للمؤمنين ، كما وعد الله تعالي وهو يقول : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقد نصر الله تعالي نوحاً " عليه السلام " وأتباعه ، ونجاهم من الغرق وحقق للمؤمنين وعده ، وحقق للكافرين وعيده .

ولايمكن لعقل أن يتصور الكيفية التى سينجو بها نوح " عليه السلام " وأتباعه قبل وقوعها لقلتهم وضعفهم ، لكنها حدثت بقدرة الله تعالي ، وبعدها قال الله لجنده : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

إن النصر الإلهى للمؤمنين حقيقة مؤكدة ، وقد رأيناه مع نوح وقومه . ويستعجل بعض المؤمنين نصر الله تعالي ، ويتصورونه بمجرد إيمانهم ، ومع رجائنا سرعة إتيان النصر، إلا أننا نشير إلى أن النصر يأتى لقوم يستحقونه بعد إختبارهم بالبلاء ،وإمتحانهم بالمصائب ، والخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والثمرات ، وإيقاع الأذى بهم من أعداء الله تعالي .

---

(١) سورة الروم آية (٤٧) .

(٢) سورة هود آية (٤٤) .

إن الإبتلاء ضرورة حتمية ، وللنصر وقته الذى حدده الله تعالي ، ولذا قال لنـــوح الطَيْلا : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ومن أثر الإيمان بقاء ذكر أصحابه فى الدنيا ، واستمرار الخير فى ذريتهم ، وهذا ما تحقق لنوح " الطَيْلا " وأتباعه ، يقول الله تعالي : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢) .

وهذا أمر له أهميته فى الحياة البشرية ، لأن الإنسان يتعلق بذريته ، ويتمنى الخير لهم من بعده ، ولايتحقق ذلك على وجه الحقيقة إلا بالإيمان والتقـــوى ، يقول تعالي : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (٣) .

ولعل من أعظم ثمرات الإيمان ما يناله المؤمن بعد لقائه ربه من روح، وريحان، وجنـــة نعيم ، وفى كل ذلك مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر عـــلى قلب بشر .

الركيزة الرابعة : حاجة الدعوة إلى الصبر :

الدعوة إلى الله تعالى فى أمس الحاجة إلى الصبر ، والتحمل ، وعدم اليـــأس ، لأن أعداء الدعوة كثيرو العدد من الجنة والناس ، وأيضاً فإن الدعوة للجديد تحتاج إلى التدرج ، والتلقين المستمر ، والرعاية الدائمة شأن تربية الطفل الصغير ، فإنه يحتاج إلى مداومة الرعاية ، وتنوعها ، حتى يتأقلم مع الحياة .

ونوح " الطَيْلا " استمر يدعو هذه المدة الطويلة صابراً ، محتسباً ، عساه يزرع بذرة تنمو بعد سنوات ، وما كان ييئسه أبداً ، ما يراه من أعداء الله فى الأرض .

---

(١) سورة هود آية (٤٩) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٧٧ ــ ٧٩).

(٣)سورة النساء آية (٩) .

٤

هود عليه السلام

تكاثرت ذرية نوح " عليه السلام " ، وتوزعت فى البلدان ، وانقسمت إلى قبائل متعددة ، وكونت شعوباً كثيرة .

ومع تباعد الزمان بعد نوح " عليه السلام " نسى الناس دعوته ، وأغواهم إبليس وجنوده ، فبعدوا عن الحق ، واتخذوا من الأصنام والأوثان آلهة، عبدوها من دون الله تعالي .

ومن هذه القبائل كانت " عاد " التى ظهر كفرها ، وبان ضلالها ، فأرسل الله إليهم أخاهم هوداً " عليه السلام " يبلغهم دعوة الله ، ويهديهم إلى الدين الحق ، ويدلهم على صراط الله المستقيم (١) .

وكان لهود " عليه السلام " مع قومه وقفات مشهودة ، سجلها القرآن الكريم لتبقى تاريخاَ حيا على الزمن كله ، يقدم الدروس والعبر لأصحاب العقول والأبصار .

والكتابة عن هود " عليه السلام " وقومه فى إطار تاريخ الدعوة يحتاج إلى دراسة النقاط التالية . .

---

(١) جاءت قصة هود " عليه السلام " فى عشر سور قرآنية ، منها سورة سميت باسمه .

" النقطة الأولى "

(التعريف بقوم هود)

قوم " هود " هم قبيلة " عاد " ، وهود " عليه السلام " واحد من القبيلة ، فهو أخوهم ، يعرف أحوالهم ، ودينهم ، والمشاكل التى يعايشونها ، ويتكلم بلغتهم ، ولهجتهم ، ويدرك واقعهم ، وأمانيهم ، وحاجاتهم .

و " عاد " قبيلة عربية ، من العرب العاربة ، سكنت جنوب جزيرة العرب ، فى منطقة الأحقاف الواقعة بين عمان وحضرموت ، أنعم الله على هذه القبيلة بطيب العيش ، ورغد الحياة ، فتمكنوا من إقامة حضارة راقية، مزدهرة، شاملة لصور عديدة من الرقى، والمدنية .

ففى المجال الزراعى أمدهم الله بالماء ، فأسسوا البساتين ، وحفروا الأنهار والعيون ، وربوا الماشية والدواب ، يذكرهم الله بذلك ، وهو يدعوهم ، يقول تعالي :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١) .

وفى المجال الصناعى ، شيدوا المصانع الضخمة ، تمدهم بالقوة ، وتسهل لهم الحياة ، يوضح الله لهم هذه النعمة فيقول سبحانه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ٢) .

وكان لهم فى مجال العمران باع طويل لدرجة أنهم تفردوا بحضارتهم المعمارية يقول تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٣٢ ــ ١٣٤) .

(٢) سورة الشعراء الآيات (١٢٨ ــ ١٢٩) .

(٣) سورة الفجر الآيات (٦ ــ ٨) .

وتميزوا بضخامة البدن ، وقوة الجسم ، وطول القامة ، كما يدل عليه قوله تعالي :

﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ (١)

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٢)

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ ﴾ (٣)

فهم لطولهم يشبهون النخلة الخالية من فروعها التى تقطع ورقها ، وبدل أن تستفيد القبيلة بما أفاء الله عليها من نعم فى أبدانهم ومدنيتهم انتكست فى أخلاقها ودينها . فلقد أتصفت القبيلة بالكبر ، والغرور ، والظلم ، والعدوان ، يقول الله تعالي عن أخلاقهم : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٤) .

يذكرهم الله تعالي بعدوانهم ، وطغيانهم، وظلمهم للضعفاء ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (٥) .

وقد ضلوا ضلالاً كبيراً فى دينهم ، فهم أول من اتخذ الأصنام بعد قوم نوح ، صنعوها ، وعبدوها من دون الله تعالي ، وضيعوا حق الله ، وأنكروا القيامة والبعث ، وقالوا : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ ﴾ (٦) ، فنطقوا بمذهب الدهريين ، الذين يقولون ماهى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، والأمر أنف ، وليس فى الأمر خالق قدير .

---

(١) سورة الأعراف آية (٦٩) .

(٢) سورة الحاقة آية (٧) .

(٣) سورة القمر آية (٢٠) .

(٤) سورة فصلت آية (١٥) .

(٥) سورة الشعراء آية (١٣٠) .

(٦) سورة المؤمنون آية (٣٧) .

إن التفوق المادى والحضاري الذى عاشته عاد صاحبه سوء أخلاقهم وفساد دينهم ، وتغلغلهم فى الكفر والضلال .

لقد تخيلت عاد أن تفوقهم سبيلهم إلى التحكم فى الآخرين ، وتوجيه الناس كما يريدون ، وظنوا أن من حقهم السيطرة على الأفكار ، والعقول ، وعملوا على أن تسود آلهتهم كل من يخالطهم بما فيهم أخوهم هود ، ولكنه " عليه السلام" ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١) ، فتبرأ من آلهتهم وأشهد الله تعالي على هذه البراءة ، كما أشهدهم أيضاً ليعلموا أنه ليس على دينهم ، وضلالهم .

****

" النقطة الثانية "

(حركة هود بالدعوة)

اختار الله تعالي هوداً من بين عاد ، وأنزل عليه الوحي ، وكلفه بتبليغ الرسالة لهم ، فصدع بالأمر، **قال تعالى:** ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢) ،

فربط العبادة بضرورة التوجه بها لله الواحد ، لأن عبادة غيره شرك لا يصح أبداً .

وبين لهم " عليه السلام" أنه واحد منهم مهتم بمصلحتهم ، وسعادتهم ، ووضح لهم أنه رسول الله إليهم ، وأنه ناصح أمين يبلغهم رسالة الله ودينه ، لا يأخذ منهم أجراً ولانفعاً ، فأجره على الله ، وهو سبحانه مبتغاه ومقصده ، قال لهم :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود آية (٥٤) .   (٢) سورة الأعراف آية (٦٥) .

(٣) سورة الأعراف آية (٦٨) .

وقال لهم : ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (١)

وقدم لهم من الأدلة والبراهين التى تعرفهم بالله ، وبصفاته ، وتـــوضح لهم ضرورة التوجه بالعبادة لله تعالي،وتبين لهم أن الله هو خالقهم ، والمنعم عليهم ، وهو سبحانه الذى أعطاهم كافة ماهم فيه من قوة ، وصحة ، ومدنية ، وحضارة ، والواجب التسليم بذلك ، لأنه لاحول ولاقوة إلا بالله ، وكل شئ بيده سبحانه وتعالي قال لهم " عليه السلام " ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

قال تعالى ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٥) .

دعاهم إلى الله بالحسنى ، وعرفهم بالله الذى خلقهم ، ورزقهم ، وملأ الكون والحياة بالبراهين الدالة عليه سبحانه ، وهم يروها ، ويتمتعون بخيراها .

---

(١) سورة الشعراء آية (١٢٧) .
(٢) سورة هود آية (٥٢) .
(٣) سورة هود آية (٥٦) .
(٤) سورة الأعراف آية (٦٩) .
(٥) سورة الشعراء الآيات (١٣٢ ــ ١٣٥) .

وكان " عليه السلام " رفيقاً بهم ، حليماً فى خطابهم ، وهو يذكرهم بعذاب الله تعالي ، فبين لهم أنه يخاف عليهم ، وأنه يتمنى نجاتهم ، وفوزهم برضى الله تعالى ، حتى لاتنزل بهم العقوبة إن لم يؤمنوا برسالته ، ويتبعوا دعوته .

تمسكت عاد بضلالها ، وأخذوا يردون على هود فى عتو ، واستكبار ، ولم يسلموا بوحدانية الله تعالي ، وأعلنوا أن عبادة آبائهم للأصنام ، وللآلهة المتعددة هي دينهم ، ولن يحيدوا عنه أبداً وقالوا له : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١) ؟

وزعموا فى استعلاء الجاهل أنه لم يقدم لهم دليلاً مقنعاً يبعدهم عن الشرك، وقالوا له: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢) .ولم يتأثروا بدعوته ، ولا بالآيات التي ذكرها ، وأخذوا يسبونه ، ويشتمونه ، ويتهمونه بخفة العقل والكذب ، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٣) ، وصدقوا أنفسهم فى أكاذيبهم ، وتصوروا لأصنامهم قدرة تنفع وتضر وقالوا له : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ ﴾ (٤) ، واستمروا فى ضلالهم وكفرهم ، فتبرأ هود " عليه السلام " منهم ، ومن آلهتهم ، وكرر عليهم وعد الله تعالي بعذابهم إن لم يؤمنوا .

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٠) .　　(٢) سورة هود آية (٥٣) .

(٣) سورة الأعراف آية (٦٦) ، ويلاحظ أنهم جعلوه واحداً من الكاذبين ، فشتموا بذلك سائر الأنبياء والدعاة .

(٤) سورة هود آية (٥٤) .

وأكدوا له أنهم لن يؤمنوا مهما دعاهم ، وكرروا زعمهم بأنهم لن يعذبوا ، وقالوا لـ " هود " : ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١) .

فرد عليهم هود " عليه السلام " معلناً كلمة النهاية معهم قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢) ، وتوقف هود عن دعوتهم ، ووعظهم ، وتركهم حتى حاق بهم وعد الله تعالى ..

يوضح القرآن الكريم ذلك العذاب الذى نزل بهم فى قوله تعالي : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٣)وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٤) .

يقول المؤرخون : لما عتت عاد ، وأصرت على كفرها وضلالها ، واستهزأت برسول الله إليهم ،أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، فأرسلوا وفداً مكوناً من سبعين رجلاً على رأسهم "**قيل بن عتر**" إلى مكة ليستسقوا عند بيت الله الحرام ، واستقبلهم بظاهر مكة **معاوية بن بكر** ، الذى تربطهم به خؤولة ، ومصاهرة ، ومودة.. وبعد

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٣٦ ـــ ١٣٨) (٢) سورة الأعراف آية (٧١) .

(٣) سورة الذاريات الآيات (٤١ ـــ ٤٢) . (٤) سورة الحاقة الآيات (٦ ـــ ٨) .

مقامهم عنده شهراً مضوا إلى الحرم (١) فقال قيلٌ : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم نادى مناد من السماء : أن يا قيل اختر سحابة منها لنفسك ، ولقومك ، فاختار السوداء ، فنودى أن اخترت رماداً أرمداً ، لايبقى من عاد أحداً ، لا والداً ولا ولداً ، إلا جعلته همداً ، فخرجت السحابة على عاد فى واد يقال له المغيث ،قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢) .

وهكذا أهلكهم الله بالريح العقيم التى تقضي على كل شئ ، وقد استمر هبوبها سبع ليال وثمانية أيام بشدتها ، وقوتها بلا انقطاع ، حتى أهلكت الكفار جميعاً وأبقتهم صرعى جلوساً فى أماكنهم كجذوع النخل وقد تقطع ورقها .. (٣) .

ونجى الله هوداً ومن آمن به ، وصدق وعد الله ، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٤)

---

(١) تشير هذه الرواية إلى أن مكة والحرم ، وجدتا قبل إبراهيم عليه السلام ، وهذا يعنى أنهما إندثرتا فى الزمن القديم قبل مجئ إبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " ، فلما جاءا إلى مكة عرفهما الله مكانهما فأعادا بناءهما ، وقد روى أن الكعبة بنتها الملائكة قبل آدم عليه السلام .

(٢)سورة الأحقاف آية (٢٤ ، ٢٥) .

(٣) البداية والنهاية ج١ ص ١٢٦ ، ١٢٧.

(٤) سورة هود آية (٥٨) .

" النقطة الثالثة "

(ركائز الدعوة فى قصة هود)

بعث هود " عليه السلام " لقبيلة متحضرة ، تعيش حياة الرقى والمدنيـــة ، ولـــذلك يمكن الإستفادة بمنهجيتها فى التعامل مع المدنيات الأخري ، والدروس المستفادة منـــها تعد ركائز للدعوة الإلهية ، فى كل زمان ومكان .

وسوف أتناول الحديث عن الركائز التالية ..

الركيزة الأولى : العقيدة أساس الدعوة :

دعا هود قومه ، وطلب منهم تصحيح العقيدة ، أساس الإيمان ، وبين لهم أن العقيدة السليمة تحتاج إلى توحيد الله تعالي فى ألوهيته وربوبيته ، وهذا يقتضى منهم أن تكون عبادقم ، وتوجههم لله فقط ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، لأن عبادة غـــير الله صرف للعمل فى غير وجهه ، وإضاعة للوقت ، والوقوع فى الكفـــر والضـــلال ، وذكرهم بنعم الله فيهم ، فهو سبحانه وتعالي زادهم فى الخلق بصطة ، وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، وأعانهم على تشييد الأبنية ذات العماد الـــتى لانظـــير لهـــا ، وأعطاهم القوة التى تمكنهم من السيطرة والغلب ، إن هذا كله من آلائه ونعمه الـــتى تحتم عبادته ، شكراً على العطاء ، وطلباً للمزيد ، وصرفاً للنعمة فيما خلقت له ،بمنهج الخالق المنعم .

وركز لهم على أدلة الخلق ، والإبداع ، والدقة ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، لأنهم يعلمون أن الأصنام لاتضر، ولاتنفع، ليلزمهم بعبادة الضار، النافع، وهو الله سبحانه وتعالي ، فله الأمر كله ، وإليه يرجعون ، فكان خطابه مفهوماً ، معقولاً ، يعيش مع حياقم .

ولكن متى كان للطغيان عقل ! ! !

إن القوة المادية مع الكفر ضلال كبير ، تجعل أصحابها يتصورون مقدرتهم على التحكم فى كل الماديات ، والمعنويات ، بل ويظنون قدرتهم على تكوين العقول ، وتوجيه كافة شئون الحياة ، هكذا شأن الطغيان فى كل زمان ومكان ! !

إن قوم هود واجهوا هوداً بضلالهم هذا ، واستمر هو فى دعوتهم إلى العقيدة الصحيحة أساس الإيمان ، و لم يتأثر بمعارضتهم ، و لم يضعف أمام وعيدهم " ﷺ " .

وللمرء أن يتساءل عن السر فى تركيز هود " الْعَلَيْهِ " على التوحيد والتدليل عليه و لم يبرز بقية أركان العقيدة كما ركز على التوحيد ، وأدلته .

والأمر سهل لأن الدعوة الإلهية تركز على الإيمان بالله ، وتقدمه على غيره ، ولذلك ركز هود " الْعَلَيْهِ " على دعوة التوحيد لشيوع الشرك والأصنام فى الناس .

وأيضاً فإن القوم لو آمنوا بالله وحده ، وخصوه بالعبادة دون سواه ، فإن بقية الأركان تأتى تبعاً ، وبصورة تلقائية .

ومع ذلك فإن هوداً "الْعَلَيْهِ" ذكرهم بالرسالة فى قوله : ﴿ **إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾** ﴾ **وذكرهم بالآخرة بقوله** : ﴿ **إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ وعلى هذا فالدعوة إلى التوحيد شاملة لكل أركان العقيدة . . .

الركيزة الثانية : المترفون هم أعداء الدعوة :

أدى الترف بـ " عاد " إلى الكبر ، والاستعلاء ، وتصوروا أنفسهم فوق الناس أجمعين ، وأبوا أن يكون هود " الْعَلَيْهِ " رسولاً إليهم .

ووصل بهم الضلال إلى السخرية بهود ودعوته ، واتهموا عقله وخلقه ، وتمسكوا بما هم عليه من كفر ، وأخذوا يجادلون فى آلهتهم بلا دليل من العقل أو الشرع ، معتمدين على قوتهم ، وجاههم ، وغناهم ، وعلى مالهم بين الناس من تقدير.

إن الذين واجهوا هوداً بالرفض، والجدل، هم الملأ ، والمراد بهم علية القوم الذين امتلأت خزائنهم بالأموال ، وملأوا المجالس حديثاً ، وريادة ، وتوجيها ، وملأوا عقول العامة بالضلال والفساد .

كان الأولى بما لهم من عقل أن يسارعوا إلى الإيمان بدعوة هود ، ولكنهم كذبوه ، وشتموه ، يشير الله إلى موقف الملإ من هود " عليه السلام " فيقول سبحانه وتعالي: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (١) .

وللعاقل أن يتساءل : و لم يكون الملأ المنعمون هم قادة الكفر ، وأكبر أعداء الدعوة ؟ مع أنها تنادى بعقيدة حقه ، ومعاملات راقية ، وخلق كريم !

والجواب و الله أعلم ، أن الملأ يتمتعون بمزايا عديدة فى مجتمعهم ،معتمدين على قهر الضعفاء ، واستعباد الفقراء ، يسوسون العامة بإلهائهم ، وإبعادهم عن الحق ، ولذلك تعد الدعوة متعارضة مع وضعيتهم ، وحياتهم فلا عجب أن كانوا أكبر أعدائها .

إن إنتشار منهج الله تعالي بين الناس يحقق العدل ، والمساواة ، والأخوة ، ويصون كافة الحقوق ، ويحدد جميع الواجبات .

وفى نفس الوقت يقضى على جميع المظالم ، ولا يرضى بالفساد أبداً ، وبذلك يقضى على الكبر ، والإستعلاء ، والإستغلال ، وحينئذ يزول كل ما للملإ من جاه وسلطان لزوال أسسه ، ودعائمه ..

ومن هنا نفهم سر العداوة بين الملإ ودعوة هود " عليه السلام" . . .

الركيزة الثالثة : الرسول قدوة للدعاة :

طوال المدة التى دعا فيها هود قومه كان قدوة للدعاة من بعده من عدة نواح : ـــ

أ ـــ وضع الرسالة أمام عينه ، وجعلها وظيفته وكل عمله ، و لم يتأثر بمعارضاتهم ، وإيذائهم ، وعدوانهم ، واستمر فى دعوته إلى أن قالوا لـــه: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأعراف آية (٦٦) . (٢) سورة هود آية (٥٣) .

وأوحى الله إليه بأن القوم لن يؤمن منهم أحد بعد ذلك ..

ب ـــ استمر مستمسكاً بالخلق الكريم طوال دعوته ، وكان يقابل السيئة بالحسنة ، والعدوان بالعفو ، والغضب بالحلم ، وكان " عليه السلام " إذا رد شتائمهم يردها بأسلوب مهذب ، وكلمات رقيقة ، ينفى التهمة ولا يتهم . . فهم يتهمونه بالسفة ، والجنون والضلالة ، فيرد عليهم قائلاً : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١) .

ج ـــ ركز خلال دعوته على قضيته ، وفصل لهم فى شأنها كل شئ ، وناقشهم فى معارضاتهم ، وقدم لهم الأدلة والبراهين وفق مداركهم ، وكان إذا تحدث معهم تحدث فى معاشهم ، ونشاطهم ، ورقيهم ، وحضارتهم ، وربط ذلك بالخالق ، الموجد ، صاحب الفضل فى ذلك كله ، ومن أقواله لقومه ما حكاه الله عنه، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (٢) . وقال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٣) ، وقال تعالى :﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأعراف آية (٦٧) .
(٢) سورة الشعراء الآيات (١٣٢ ـــ ١٣٤)
(٣) سورة الأعراف آية (٦٩) .
(٤)سورة هود آية (٥٢).

وهكذا استمر هود " عليه السلام " يدعو ، ويبرهن عن صدق دعوته . .

ونلاحظ أنه " عليه السلام " جعل براهينه حياة الناس ، والنعم التي يرفلون فيها ، ووضح كافة الجوانب فى معاشهم ، حتى يعتبروا ، لكنهم لم يؤمنوا ، واستمروا على كفرهم .

د ــ لم يضعف ، و لم ينهزم أمامهم ، وظل يعمل واثقاً بنصر الله له ، وترجع شجاعته وهو يتحدى الجمع الغفير بقوة ، رغم أنه فرد واحد ، يرجع ذلك إلى ثقته فى الله وتوكله عليه ، وقد بين لهم سر قوته فيما حكاه الله عنه ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

فهو سبحانه بيده الحكم ، والأمر كله له ، ومن يتوكل عليه فهو حسبه ، وجدير بمن يتوكل على الله أن يتبدل خوفه أمناً ، ويصير ضعفه قوة ، ويشعر بعزة الله وجلاله ، وعظمته وهو يواجه الأهوال والمصاعب .

هـ ــ خوف القوم هوداً بآلهتهم فقال لهم : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢)وعرفهم بأنه لايخاف كيدهم ، وتآمرهم جميعاً ، فقال لهم : ﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (٣)

و ــ واجه هود قومه مواجهة مباشرة ، وناقشهم فى أفكارهم ، واستفاد بكل الوسائل التى أمكنه الاستفادة بها وهو يدعوهم إلى الله تعالي .

الركيزة الرابعة : ضرورة الدين للحضارة :

الحضارة المادية تحتاج إلى سيطرة منهج الله على مسارها ، ونظامها لكى تحقق المأمول من ورائها ، وبذلك تنمو ، وتزدهر، وتحقق السعادة ، وتنشر السلام ، لأنها حينئذ حضارة طيبة فى أساسها ، وهيكلها ، وامتدادها ، تعيش بالحق ، وتعمل له ، وتهدف إليه .

---

(١) سورة هود آية (٥٦) (٢) سورة هود آية (٥٤) . (٣) سورة هود آية (٥٥).

إن الحضارة المادية إذا بعدت عن منهج الله ،.وتحكمت فيها الأهواء والأنانية ، والشهوة ، فإنها تكون وبالاً على أصحابها ، وبرهاناً على إضمحلالها وزوالها .

وها هى حضارة " عاد " نمت وترعرت ، فى إطار الشهوات والأطماع فأصابت أهلها بالكبر والغرور،وأخذوا يتيهون بها ، **قال تعالى:** ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ . .جحدوا فى غمرة ضلالهم قدرة الله ، وتصوروا أنفسهم الأشد قوة ، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً وكان ضياع حضارة " عاد " وتدميرها ، مع هلاكهم وإبادهم . . .

إن هذه سنة إلهية لاتتغير ، وعلى العاقل ان ينظر فى كل الحضارات ، ويبحث عن أسباب إنهيارها ، وسوف يجده بإذن الله تعالي فى هجر دين الله تعالي ، وترك منهجه الذى شرعه لعباده ، وذلك درس للإنسان على الزمن كله .

الركيزة الخامسة : ضعف الإنسان وقدرة الله :

يحتاج الإنسان دائماَ إلى تذكر خالقه ، والرجوع إليه ، والتزام العبودية الخالصة مع الخضوع لكافة لوازمها .

إن القيام بحق العبودية يؤدى إلى التذكر والمعرفة ، ويحقق الخشوع والخضوع ، ويوجد التوكل والتقوى ، ويجعل العبد ربانياً ، ومن الصالحين، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ

يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (١) .

وبتحقق العبودية تتجلي قدرة الله تعالي فى خاطر العبد بصورة دائمة ، فلا يرى إلا الله ، ولايلمس إلا قدرته ، وإذا تذكر ذاته شعر بالضعف التام أمام القدرة المطلقة للخالق العظيم .

إن الإنسان العاقل يدرك ضعفه من واقعه ، إنه فى كل حياته محتاج ، محتاج فى طعامه وشرابه ، فى نومه وراحته ، فى عمله وسعيه ، فى بكائه وضحكه ، فى صحته ومرضه ، فى نفسه وزوجه وولده ، هذا الضعف حقيقة بشرية ، وهو مدخل الإنسان للإيمان بقدرة الواحد الأحد .

والعاقل هو الذى يعلم ذلك، ويلتزم بحد الإيمان وطاعة الله ، وحينئذ يهبه الله قوة، تعينه على الخير ، ويساعد بها المحتاجين ، ويكون عامل بر وبركة للناس حميعا من حوله .

إن عاداً رزقوا قوة فكفروا بها ، وظلموا ، فكان هلاكهم ، وكانت نهايتهم .

****

---

(١) سورة آل عمران آية (١٩١) .

٥

صالح عليه السلام

اختار الله تعالي صالحاً " عليه السلام " للرسالة ، وبعثه إلى قومه " ثمود " يـــدعوهم إلى التوحيد ، ويبصرهم بمنهج الله تعالي ، ليتركوا ماهم فيه من ضلال وكفر ، ويذروا عبادة الأصنام التى عبدوها من دون الله تعالي .

وصالح " عليه السلام " هو أول من تسمى بهذا الاسم ، وكان من أشرف قـــــومه نسباً ، وأرومة ، عرف بالصدق ، والأمانة ، والرشد ، وحب الخير ، لكـــن قومـــه إنقلبوا عليه لما أخذ فى دعوقمم إلى الله تعالى .

عاش قوم صالح فى منطقة " الحجر " ، وهى منطقة مكونة من جبال ضخمة ، إذا رآها الرائى ظنها متصلة ، فإذا توسطها رأى كل قطعة منها جبلاً مستقلاً ، قائمـــاً بنفسه ، وهى جبال عالية لايصعدها أحد إلا بمشقة شديدة ، وهذه الجبـــال محاطـــة بالرمال المتحركة .

والمنطقة قليلة الماء ، وسميت بثمود لذلك ، لأن الثمد قلة الماء ، فى هذه المنطقة الشاقة ، وجدت القبيلة ، وعاشت بنعم الله تعالى ، فلما دعـــاهم صـــالح ، تمســـكوا بضلالهم ، وعتوا عتواً كبيرا ، ولم يتبعوا صالحاً " عليه السلام " حتى حـــل بهـــم الهـــلاك والدمار .

وفى النقاط التالية سنتحدث عن أهم القضايا التى يقصدها علم تاريخ الدعوة من قصة صالح "عليه السلام " .

" النقطة الأولى "

" التعريف بقوم صالح "

قوم صالح " الطَّيْلا " هم قبيلة " ثمود " وهى قبيلة عربية ، تشبه قبيلة " عـــاد " فى نواح عديدة ، فهى من العرب العاربة ، سكنت شمال جزيرة العــرب فى منطقـــة تعرف بـــ " الحجر " الواقعة بين الحجاز والشام ، واشتهرت بحضارتها الزاهيـــة ، فى جوانب الحياة المختلفة

فلهم حضارتهم الزراعية حيث الجنات ، والعيون ، والزروع المختلفة والنخيل بثمره الوافر ، وفوائده الكثيرة .

وكانت لهم حضارتهم العمرانية ، فقد أسسوا الأبنية الفارهة ، حيث كـــانوا يسكنون فى الصيف بيوتاً أقاموها فى أعالي الجبال ، وفى الشتاء يســكنون فى بيـــوت نحتوها فى باطن الجبال

إن البيوت المنسقة المنحوتة تحتاج إلى رقى علمي ، وتقدم صناعى تمكنت منه قبيلة ثمود .

وكانوا يتمتعون بطاقة عقلية متقدمة يقول الله عنها : ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾(١) أى يتمكنون من البصر ، والنظر ، والتدبر ، إلا أن الشيطان زين لهم أعمالهم وألهاهم بالشهوات ، وصدهم عن الحق ، فكفروا بأنعم الله ، وعبدوا الأصنام من دون الله تعالي .

كان الأولي بهم أن يستفيدوا بقدراتهم العقلية ، لكنهم وجهوهـــا فى الجـــدل العقيم ، ومحاولة الرد على دعوة صالح " الطَّيْلا " بالمزاعم الباطلة ، والشبهات الزائفة .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٨) .

ويبدو أن قبيلة ثمود تقدمت فى مدنيتها عن عاد لأنهم اتخذوا مجلساً مكوناً من تسعة أشخاص ، يقودهم سياسياً ، وينميهم ، ويتقدم بهم للأمام ، لكن هذا المجلس أفسد بدل أن يصلح ، وأضل بدل أن يهدي ، يقول الله تعالي عن ذلك : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١) .

وقد اتخذ فساد قبيلة ثمود صوراً شتى . . .

فهم فى الجانب الديني اتخذوا الأصنام آلهة ، وعبدوها ، وتعلقوا بها حباً ، وإخلاصاً ، وقدموها على هداية الله ، يقول تعالي : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

ومن الناحية الأخلاقية أسرفوا فى البذخ ، والفساد ، وبنوا بيوتاً فارهين ، وأطاعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .. وتخلق الملأ منهم بالكبر والغرور حتى دفعهم كبرهم إلى الكفر بالدعوة الإلهية ، والسخرية من صالح وأتباعه الضعفاء ، ولذلك استمروا على الكفر حتى أهلكهم الله بالطاغية .

*****

" النقطة الثانية "

(حركة صالح بالدعوة)

اختار الله صالحاً للرسالة ، وبعثه إلى قومه خاصة ، يدعوهم إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم .

فبدأ " عليه السلام " بدعوتهم إلى الركن الأساسي فى الدعوات الإلهية جميعاً وهى الإيمان بالله ، إلهاً معبوداً ، ورباً رازقاً ، معيناً ، وقال لهم ما حكاه الله سبحانه وتعالي

---

(١) سورة النمل آية (٤٨) . (٢) سورة فصلت آية (١٧) .

في القرآن الكريم : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (١) ، ومن هنا كانت بداية الدعوة ، فهو أخوهم ، وهم قومه ، والرائد لا يكذب أهله ، ودائماً يكون بين الأهل صدق ، ومناصحة ، وقضيته التي يدعوهم إليها واضحة ، وهي عبادة الله وحده ونبذ عبادة غيره ، والتصديق بكل ما يتصل بهذا الأصل من أركان أخر، كالإيمان بالرسالة وبالملائكة والوحي المترل واليوم الآخر بكل مافيه من أحوال وأهوال ، ومواقف . .

دعاهم إلى ذلك ،وقدم دليل الإيمان مركزاً على النعم الإلهية التي يتمتعون بها ، ويلمسونها، ويعايشونها ، ومن أهمها ما قاله الله تعالي : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢)وقال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (٣) إنها نعم عظيمة ، متعتهم بالحياة ، ويسرت معاشهم ، وكان عليهم أن يشكروا خالقها ، وموجدها ، ومبدعها ، ويعبدوه وحده ، كان عليهم أن يدركوا ذلك بعقولهم التي وهبها الله لهم ،لكنهم بدل أن يؤمنوا كفروا قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤) ، والآية تبين دور الشيطان في صدهم عن الحق ، فعارضوا

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٣) . (٢) سورة الأعراف آية (٧٤) .

(٣) سورة الشعراء الآيات (١٤٦ ـــ ١٥٠) (٤) سورة العنكبوت آية (٣٨) .

وأخذوا في رد دعوة صالح ومناقشته ..

أعلنوا تمسكهم بعبادة الأصنام لأنها عبادة أبائهم ، يصنعونها بأيديهم ، ويأخذونها في سفرهم ، ثم يعبدونها متى شاءوا ، وكيف شاءوا ! ! .. ولم يتصوروا رسالة لبشر منهم ، ولذلك أنكروا دعوة صالح وقالوا أن الرسالة لاتكــون لبشر قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (١) ، وقالوا له : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٢) .

.. ولم يقفوا عند رد الرسالة وعدم الإيمان بها ، بل أخذوا في سبه وإيذائه . .

اتهموه بالسحر وقالوا له : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٣)

ورموه بالكذب وقالوا : ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (٤)

وذكروا له خيبة أملهم فيه وقالوا : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٥) لأنهم كانوا يرجون الاستفادة برشده ، ويتمنونه كاهناً لأصنامهم ، ولذا أنكروا كل ما دعاهم إليه "عليه السلام" .

رد صالح " عليه السلام" أرائهم ، وبين لهم أنه لا يسألهم أجراً ، ولا يكلفهم شيئاً ، وأنه ناصح لهم أمين مخلص ، وأعلن لهم ثقته برسالته ، وأكد صدقه في دعوته ، وسألهم سؤالاً محدداً ، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (٦)؟

فلم يجبه أحد . ... ؟

---

(١) سورة القمر آية (٢٤) .

(٢) سورة الشعراء آية (١٥٤) .

(٣) سورة الشعراء آية (١٥٣) .

(٤) سورة القمر آية (٢٥) .

(٥) سورة هود آية (٦٢) .

(٦) سورة هود آية (٦٣) .

وطلبوا منه آية تثبت لهم صدقه ، فأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا بدعوته حين ظهور المعجزة المؤيدة له ،لكنهم لم يلتزموا جميعاً بما اتفقوا معه عليه ، جاء في الكامل لابن الأثير أن ثموداَ قالوا لصالح : أخرج معنا في يوم عيد لهم فأرنا آية ، تدعو إلهك لها ، وندعو ألهتنا أن لايستجاب لك ، فإن أستجيب لك أتبعناك ، وإن لم يستجب لك أتبعتنا ...... فوافقهم على ذلك، ودعوا أصنامهم ، وقالوا لصالح أدع ربك يخرج لنا من هذه الصخرة (وعينوها) ناقة جوفاء عشراء ، فإن خرجت صدقناك ، فلما خرجت صدقه سيد قومه ، وطائفة معه ، ولم يؤمن الآخرون (١) .

وقال لهم صالح : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (٢) ، إنها ليست مملوكة لأحد ، فاتركوها في أي أرض لا مالك لها منكم تأكل منها ، ولا تمسوها بأدنى سوء ، والماء بينكم وبينها قسمة ، **قال تعالى:** ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٣) ،وعرفهم أنهم إن مسوها بسوء فسيحل عليهم عذاب قريب ، يهلكهم بعد ثلاثة أيام من الإساءة إليها .

وبظهور الناقة المعجزة انقسمت ثمود إلى فريقين ، فريق آمن برسالة صالح ، وصدق بالله ، وأخذ يدافع عن إيمانه بالحجة والبرهان ، وفريق استمر على ضلاله وكفره ، وعناده ، وأبى الكافرون أن تستمر الخصومة فكراً وجدلاً ، وإنما دفعهم الكبر إلى شتم صالح والمؤمنين معه **قال تعالى:** ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج١ ص ٨٩، ٩٠ .
(٢) سورة هود آية (٦٤) .
(٣) سورة الشعراء آية (١٥٥) .
(٤) سورة النمل آية (٤٧) .

وأخيراً أعلنوا إصرارهم على ما هم فيه : ﴿ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

فرد عليهم وعرفهم بأن الله تعالى مطلع على كل أعمالهم وأحوالهم ، وهو سبحانه يفعل بهم ما يشاء ، ويعاقبهم كما يريد ، ومتى يريد ، ثم سألهم سؤالاً عساهم يفكرون في المصير الذي سيحل بهم ، قال لهم : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) .

وهذا كلام يقصد به " عليه السلام " أن يثير في نفوسهم النظر، والتـدبر ، ليتفكـروا في الدعوة ومصيرهم .

لكن الضلال صدهم عن الحق ، وأبعدهم عن الصواب وأخذوا يدبرون لقتل صالح ومن معه ، على أن يتم القتل سراً ، لا يكشفه احد.

ووضع خطة القتل أولو الرأي منهم ، وكانوا تسعة وهم الرهط المذكورون في قوله تعالي : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٢) ، والتسعة هم تسعة رجال ، وقيل بل هم تسع جماعات .

أقسم هؤلاء التسعة ، على تنفيذ اتباعهم الخطة ليلاً، لمباغتة صالح وقتله ، ومباغتة المؤمنين معه وقتلهم كذلك ، على أن ألا يخبروا بذلك أحداً ، فإن سئلوا عن القاتل يجيبـون : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (٣) ، وبذلك يضيع دم القتلى هدراً ، ويدعون الصدق لأنهم دبروا ، ولم يشاهدوا ، مع أن المدبر للجرم إثمه مضاعف ، لأنه مدبر للجريمة،وراض بها،ونفى علمهم بالقتل كذب في حد ذاته،لأن الشهادة تنبني على

---

(١) سورة النمل آية (٤٦) .   (٢) سورة النمل آية (٤٨) .

(٣) سورة النمل آية (٤٩) .

العلم اليقيني ، والمدبرون يتابعون كيدهم ، ويعلمون بنتيجته على وجه اليقين فقولهم : ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ كذب واضح ، لأنهم دبروا ، وخططوا ، وأخذوا يتابعون التنفيذ ، ويوجهون من كلفوهم بالقتل .

ولكن القدر الإلهي كان أسبق منهم ، فلقد جاء أشقاهم وعقر الناقة ، وقتلها فترل وعد الله فيهم ، بعد ثلاثة أيام ، إذ جاءهم صيحة عالية ، ارتجت لها الأرض ، فماتوا جميعاً ، وهم جاثمون على ركبهم ، ونجى الله صالحاً والمؤمنين معه ، وأبقى بيوتهم خالية لتشهد عليهم ، ولتكون عبرة للأجيال من بعدهم ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (١) ، وبعد أن نجى الله صالحاً " عليه السلام " والمؤمنين معه ، شدوا رحالهم إلى بيت الله الحرام حاجين ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما مر النبي ﷺ **بوادي عسفان حين حج قال : يا أبا بكر ، أي واد هذا ؟ .. قال : وادى عسفان ، قال : لقد مر به هود ، وصالح " عليهما السلام " على بكرات ، خطمها الليف ، وأزرهم العباء ، وأرديتهم النمار ، يلبون ويحجون البيت العتيق** (٢) .

يقول ابن كثير : يقال إن صالحاً انتقل إلى حرم الله ، فأقام به حتى مات ، ودفن به ، وقيل : بل عاش فترة في رملة فلسطين بالشام حتى مات ودفن بها ، والله أعلم ..

****

---

(١) سورة النمل الآيات (٥١ ــ ٥٣) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ١٣٨ ، والبكرات : الفتية من الإبل ، والنمار : كساء مخطط .

" النقطة الثالثة "

(ركائز الدعوة فى قصة صالح)

تتشابه ركائز الدعوة فى قصة صالح " عليه السلام " مع ما أستفيد من قصة هود مع قومه ، ولعل ذلك راجع إلى تماثل القبيلتين أرومة ، وموطناً ، ورقياً ، فكلاهما من العرب العاربة ، وسكنوا جزيرة العرب ، وهناك تشابه بين حضارتيهما ، فى الزراعة ، والصناعة ، والعمران ، والسعة .

ولقد ركز صالح على العقيدة كسائر الرسل " عليهم السلام " وبدأ بها ، وكان له منهج فى الدعوة يشبه منهج هود إلى حد بعيد ، ولهذا أكتفى بهذه الإشارة ، وأورد بعض الركائز التى لم أتكلم عنها من قبل ..

الركيزة الأولى : طبيعة التمدين :

المتحضرون من البشر أصحاب رقى عقلى ، وبسبب هذا الرقى يتمكنون من تسخير بعض الآيات الكونية لما يريدون ، وبسبب رغد العيش الذى يعيشون فيه يصابون بالترف ، ويتفننون فى ألوان المتع ، ويبدعون فى إشباع شهواتهم .

والمتصور أن يفكر أصحاب الحضارة بعقولهم فى ألوان حياتهم ، وفى النعم التى يتمتعون بها ، وينظروا إلى ذلك نظر تأمل وتدبر ، ويبحثوا عن حقيقتها ، وموجدها ، وعن حق هذا الموجد القدير ، لكن الواقع يبين أن أهل الحضارات غالباً تبطرهم النعم وتشغلهم ببريقها عن البحث والنظر ، ويلعب الشيطان بعقولهم ، ويصور لهم أن ماهم فيه بسبب علمهم ، وعملهم ، وقوتهم ، فيسارعون إلى تصديقه ، ويمتلئون كبراً وغروراً ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، وهذا ما حدث من قبيلة " ثمود " .

فكل حضارتهم من عطاء الله ، فالماء ينزل عليهم مدرارا ، والأرض تنبت الزرع جيداً ، والأنعام تتوالد وتكثر ، والخيرات حولهم متنوعة ، ولم يسألوا أنفسهم : من الذى يقدر على هذا ؟..... وهل أصنامهم تقدر على شئ من ذلك ؟

وهل يمكنهم خلق شئ من هذا ؟ ولو أعملوا عقولهم ، وسألوا أنفسهم : من أنشأنا ؟ من مكننا من الأرض ؟ من وجهنا لفعل ما عملنا ؟ انه رب العالمين .

الأسئلة كثيرة تتصل بالنفس ، وبالكون ، وبسائر المخلوقات ، ... لو سألوها لأنفسهم ، وتدبروا فى الإجابة عنها لاقتربوا من الخير والإيمان ، ولكن العقل حين يلعب به الهوى ، وتسيطر عليه الشهوة ،ويوجهه إبليس يصاب بالعمى ، ويهنأ بالضلال ، وهو نفس ما حدث مع ثمود ، يقول الله تعالي : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (١) ،كانوا مستبصرين يمكنهم النظرالسليم ، والتدبر الواعي ، لكن الشيطان زين لهم ، وأغواهم ، فكرههم فى الحق ، وأبعدهم عن الهداية ، وتلك طبيعة أهل الرقي والمدنية ، وأصحاب الحضارات ، يتصورون أنفسهم الجديرين بقيادة العالم ، وينظرون نظرة دونية إلى غيرهم .

وهاهى ثمود واحدة منهم :

- تعودت الإسراف بلا عقل .
- أحبوا الرفاهية ، واللهو ، والعبث بلا خجل .
- تخلقوا بالكبر والغرور والإفساد .
- تخيلوا أنفسهم فوق الناس .
- وثقوا فى فكرهم ، وعقلهم .

ولما جاءهم صالح لم يستفيدوا منه ، وظلوا على ضلالهم وطغيانهم ، ولم يستجيبوا للنصح والإرشاد .

وهذه الطبيعة المتأصلة فى أهل الحضارة يجب أن تكون معلومة للدعاة .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٨) .

إن الحضارة المادية المعاصرة فى الشرق، أو فى الغرب، تتصور نفسها الفريدة فى الرقى والمدنية ، وتتخيل غيرها من المؤمنين لا حضارة لهم ، ولذلك يحاول أصحابها وضع أنظمة تحكم العالم بقيادتها ، ليسير بمنهجهم ، ونظمهم ، والواقع يختلف عن ذلك تماماً ، فهى حضارة مادية ، قائمة على إشباع الهوى ، وإرضاء الشهوات ، وهى تعادى الدين ، وترفض منهج الله لعباده ، وتتباهى بالوضعية الحسية ، والسيادة المطلقة للعقل .

إنها حضارة مغرورة ضيعت مزاياها بغرورها ، وحولت مكاسبها الإنسانية إلى عوامل ضارة بالآخرين ، وبنفسها .

******

الركيزة الثانية : دعوة أهل الحضارة :

أشرنا إلى بعض الصفات التى يتميز بها أهل الحضر ، والتى تدفعهم إلى اتخاذ مواقف متعارضة مع النصح والإرشاد .

والسؤال هنا : هل لدعوتهم إلى الله طابع معين ؟

ونبادر بإجابة مجملة تؤكد على ضرورة وجود طابع خاص لدعوة أهل الحضر ، والملإ ، والأغنياء ، وذوى السلطان لأنهم جميعاً من قبيل واحد ، ولايصح التعامل معهم بأسلوب غيرهم .

فلابد من دراسة الواقع الذى يعيشونه ، ومعرفة الحياة التى يحيونها ، والوقوف على بعض مشاكلهم ، واهتماماتهم .

ولابد من معرفة عقائدهم ، ودياناتهم ، ومستوى التزامهم الأخلاقى ، والسلوكى ، والمذهبى ، ومنهج العلاقات السائدة فى أوساطهم ، وبذلك يمكن تحديد الإيجابيات والسلبيات الموجودة لديهم .

وبذلك تبدأ الدعوة مستفيدة بالإيجابيات، تؤيدها ، وتبين قيمتها ، وضرورة التمسك بها ، والبحث عن موجدها .

ومع الاستفادة بالإيجابيات يكون نقد السلبيات بهدوء، بالسؤال عنها ، ومعرفة فوائدها ، وضررها ، و لم التمسك بها ؟، وبعد ذلك يكون النقد المباشر الصريح .

ولابد فى دعوتهم من إبراز دورهم ، وتقدير شخصياتهم ، ووصفهم بالخصائص الطيبة فيهم ، لإيجاد تعاطف متبادل معهم ، يمكن الداعية من البلاغ ويدفعهم إلى الاستماع والتجاوب .

ولابد من الأدب فى خطابهم وإن تشددوا ، فهم يملكون البطش والقوة ، والناس يعظمونهم ، والداعية فى نفس الوقت يمثل عملياً الدعوة التى ينادى بها ، وعليه أن يتصور نفسه طبيباً يعالج المرضي ..

وعلى الداعية أن يأخذ براهينه من حياتهم ومعاشهم ، لأن ذلك أقرب للفهم وأدعى للإجابة ، كما أن إنكاره للواقع غير ممكن ، لأنه مشاهد محسوس .

وعلى الداعية أن يقدم القضايا المهمة فى دعوته لأنها أساس لغيرها ، وغيرها لايغنى عنها .

إن هذا ما فعله صالح " عليه السلام" ، ويجب أن تستفيد به الدعوة خلال مسيرتها بين الناس .

إن فريقاً من هؤلاء الناس ، لهم عقول واعية ، ونفوس طيبة ، وكل ما يبعدهم عن الحق أخطاء رأوها من بعض الدعاة ، أو صورها لهم أصحاب الغايات الخبيثة من المحيطين بهم ، من الجنة والناس . إن الملأ من قوم صالح " عليه السلام " بعد الدعوة انقسموا إلى فريقين :

فريق منهم آمن بالدعوة واقتنع بها ، وتحول بعد إيمانه إلى داع يدعو لما آمن به ، ويخاصم الآخرين حوله ، ويدافع عن عقيدته ، ويتبع صالحاً فيما يبلغهم به عن الله تعالي .. وفريق آخر استمر فى الكفر ، والضلال .

هذا والتاريخ يقدم صوراً لأصحاب حضارات آمنوا بالدعوة الإلهيــة ، ونصــروها ، وأسسوا لها أمما ، ودولا، ونشروا الدين فى أماكن عديدة (١) .

جاء فى دعوة الأنبياء : (انظر كيف يذكر القرآن قوم هود بأنــه جعلــهم خلفاء من بعد قوم نوح ، ويذكر قوم صالح بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكنهم فى الأرض ، وجعلهم أصحاب حضارة وقوة ، وذلك أسلوب مــــن أســاليب التربية ، وضرب من ضروب الدعوة والعظة ، يبين فضل الله عليهم بأن عمهــم بإحسانه ، وجعلهم أجلاء عظماء فى شئون الحياة ، ووسائل العمران ، ولاينبغي لمــن كرمهم الله هذا التكريم أن يلوثوا أنفسهم بالمعاصى ، بل اللائق بهم أن يكرموا أنفسهم حيث أكرمهم الله تعالي) .

ويقول : (وكثيراً ما أنتفع الناس بالدعوة من ناحية ما فى نفوسهم من عظمة ، تراهم يعفون عن المحرمات لأنها لاتليق مع عظمتهم ، ولاتتناسب مع مترلتهم فى الحياة) (٢)

وقد نجح بعض الدعاة بإتباع هذه الطريقة الــتى تحتــاج أولاً إلى اكتشــاف الاستعدادات النفسية ، والظروف الاجتماعية ، وكرم الأصل والآباء، وركزوا عليها، وقالوا للمسرف : لايليق بك أن تجارى السفلة فى معاصيهم ، وكيف تكون سافلاَ ؟ وأبواك لهما من المجد ، والخلق ما يعلمه الناس ، لابد أن ترفع اســم أبيــك ، وتلــزم نفسك ، وأهلك ، وانظر إلى المستقبل البعيد وأعمل له ..

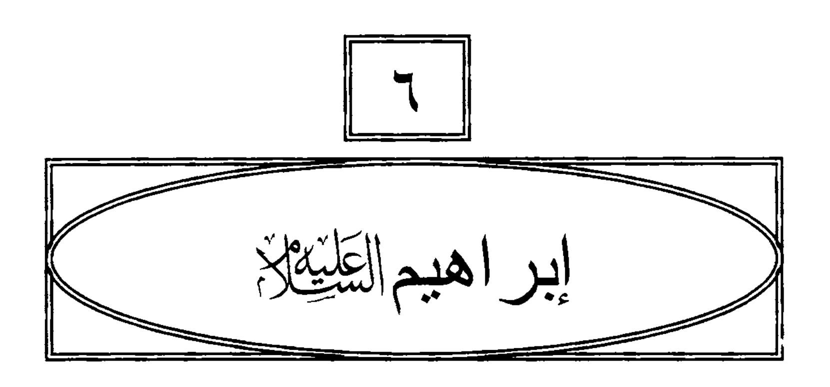
إنه منهج سديد بعون الله تعالي ..

******

---

(١) من أمثلة ذلك التتار فقد أسسوا الخلافة العثمانية بعد إسلامهم .

(٢) دعوة الرسل ص ٢٨ .



٦
إبراهيم عليه السلام

نشأ الإنسان راشداً ، وبدأ مع آدم " عليه السلام " وذريته أمة ، موحدة ، مؤمنة . ومكن الله للناس فى الأرض فأسسوا الحضارات ، وأقاموا المدنيات وعاشوا حياة مليئة بالخيرات ، وعمتهم نعم الله وآلاؤه ، وظهرت النهضة المادية فى مختلف نواحى الحياة . لكن تاريخ الإنسان بالنسبة لدين الله مؤسف ، فهو دائماً يرتد عن الحق ، ويزين لـه إبليس الضلال .

إن البشر لم يمكثوا طويلاً بعد آدم " عليه السلام " حتى اخترعوا آلهة صنعوها بأيديهم ، وعبدوها من دون الله تعالي .

والعجب أن يصنع الإنسان جمادا بيده ، أو يشكله بإرادته ، ثم يتصوره إلهاً ، يعبده ، ويدعوه ، وينتظر منه جلب نفع أو دفع ضر،لكن هذا العجيب هو الذى حدث، فلقد عبد قوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم صالح الأصنام ، واتخذوها آلهة من دون الله تعالي .

ويبدو أن الإنسانية خلال رقيها المادى كانت تتقدم مادياً، وتنتكس دينياً وذلك واضح مع إبراهيم " عليه السلام " (١) .

فلقد أقام إبراهيم " عليه السلام " فى أماكن عديدة ، وعاشر أقواماً كثيرين ، وشاهد تنوعاً فى الضلال والكفر ، مما يؤكد على هذا التلازم العكسى بين الرقى المادى ، والضلال الدينى .

---

(١) قالوا إن اسم إبراهيم مكون من كلمتين إب بمعنى أب فى السريانية ، وراهيم بمعنى رحيم ، فإبراهيم معناه أب رحيم .

دعا إبراهيم " عليه السلام " قومه إلى الله ، ليضع الدين فى موضعه ، وحاول أن يقود الناس إلى الله بمنهج الله ، ليستقيم أمر الحياة، ويتحقق التوازن الطبيعى للأمور،فى إخضاع المخلوق للخالق ، وصرف النعمة فى طلب المنعم ، وليستمر العبد الضعيف فى إمرة سيده العظيم ، صاحب الفضل العميم .

وكان ما كان مع إبراهيم " عليه السلام " ، وهو ماسنؤرخ له فى النقاط التالية .

****

" النقطة الأولى "

(التعريف بإبراهيم " عليه السلام ")

إبراهيم " عليه السلام " ، رسول الله ، أحد أولى العزم ، ولد " بكوثي "(١) التابعة لـ " بابل " ، ووالده هو " آزر" كان يعمل نجاراً ، يصنع الأصنام، وينحت التماثيل ، يعبدها ، ويتاجر فيها، وكان لقومه الكلدانيين حضارة ،ومدنية ، عرفوا نظام الملك ، وحكمهم ملك اشتهر بالظلم والجبروت ، إدعى الألوهية ، وقال للناس: أنا إلهكم أحيى وأميت ، فأطاعه الناس ، وألهوه مع أصنامهم وأوثانهم ، هذا الملك هو " النمرود بن كنعان " .

وقد رزق الله إبراهيم الرشد ، والعقل السليم منذ بلوغه ، ولذلك لم يشارك أباه وقومه فى ضلالهم وإفكهم ، وكان يناقشهم فى أصنامهم ، ويبين لهم أنها لاتضر ، ولاتنفع ، ولاتسمع ، ولاتبصر ويتساءل معهم متعجباً : كيف تكون هذه آلهة تعبد ؟

فلما بلغ أربعين سنة، وصار قادراً على المواجهة، متمكناً من الدعوة والإرشاد كلفه الله بتبليغ الرسالة،ودعوة قومه إلى التوحيد، ونبذ الآلهة التى يعبدونها من دون الله.

---

(١) بالضم ثم بالسكون ، والثاء مثلثة ، وألف مقصورة ، موضع بسواد العراق من أرض بابل (معجم البلدان ج٤ ص ٤٨٧) .

دعا إبراهيم " عليه السلام " الأقرب إليه ، والأهم للدعوة ، ولذلك نراه يدعو أباه ، و " النمرود بن كنعان " ، كما دعا عامة الناس ، وكان لكل من هؤلاء معه أحداث وأحاديث .

أخذ إبراهيم " عليه السلام " فى تغيير وسائله فى دعوة قومه ، حتى وصل إلى تكسير أصنامهم قطعاً صغيرة ، وترك الصنم الكبير بعدما وضع المعول فى رأسه ، وسأله قومه ، وحاكموه ، وأصدروا حكماً بتحريقه فى النار، وأعدوا له عدة ، ولكن الله أخزاهم بأن جعل النار عليه برداً وسلاماً ، ونجاه الله من التحريق .

بعدما تيقن إبراهيم " عليه السلام " عدم إيمان قومه هاجر إلى حيث أمره الله تعالى ، واصطحب معه زوجته سارة ، وابن أخيه لوط ، وأباه تارح ، وسار بركبه حتى نزل ببلاد الشام ، وأقام بـ " حران " التابعة للكنعانيين ، ونزل قحط ببلاد الشام ، فخرج إبراهيم منها ومعه سارة ، وذهبوا إلى مصر ، وحاول ملك مصر الإعتداء على سارة لحسنها وجمالها ، إلا أن الله حفظها منه وجعله يهبها هاجر ، يروى البخارى بسنده عن أبى هريرة **أن إبراهيم " عليه السلام " لما نزل بمصر ، وكان فيها جبار من الجبابرة ، فقيل له : هاهنا رجل معه إمرأة من أحسن الناس فأرسل إلى إبراهيم وسأله عنها وقال : من هى ... قال إبراهيم : هى أختى ، وأتى إبراهيم سارة، وقال لها : ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبريه أنك أختى ، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ، ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : إدعى الله لى ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ، وتكرر منه ذلك ، وفى الثالثة دعا بعض حجابه وقال له : إنك لم تأتنى بإنسان وإنما أتيتنى بشيطان ، وأخدمها هاجر فأتت إبراهيم وهو قائم يصلى .. فأومأ بيده : مهيم ؟ .... قالت : رد الله كيد الكافرفى نحره ، قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء)** (١) .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦ ص ٣٨٨ ـ كتاب الأنبياء ، ومهيم معناها : ما الخبر ؟ .

عاد إبراهيم بزوجته وجاريتها هاجر إلى الشام، ونزل قريباً من مكان بيت المقدس ، وكانت سارة عقيماً ، ولذا وهبت جاريتها هاجر لإبراهيم لتلد له ، فلما حملت وولدت إسماعيل تألمت سارة وغارت منها ، وطلبت من إبراهيم أن يسكنها وولدها بعيداً عنها ، فأخذ إبراهيم هاجر وولدها إسماعيل ، وتركهما فى مكان صحراوى لاشئ فيه ، حدده الله له ، وهو المكان الذى نشأت فيه مكة بعد ذلك .

وإبراهيم " عليه السلام " يعرف بـ " أبى الأنبياء " لأن الله تعالي جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، إذ إنحصر النور فى ذريته ، **وانقسم إلى قسمين : قسم** ذهب إلى هاجر فولدت ابنه إسماعيل " عليه السلام " ،ومنه تناسل العرب ومن ولد إسماعيل جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، وقد كان ﷺ أشبه الخلق بجده إبراهيم " عليه السلام " ، يقول ﷺ : **(رأيت ليلة أسرى بى أبى إبراهيم وأنا أشبه ولده به)** (١) .

والقسم الثانى ذهب إلى سارة فولدت إسحاق "عليه السلام" ، ومن إسحاق ولد يعقوب "عليه السلام" وهو "إسرائيل" وذريته هم بنو إسرائيل ، ومنهم كان أنبياء بنى إسرائيل جميعاً .

وهكذا انحصرت النبوة فى ذرية إبراهيم " عليه السلام " . . .

ونظراً لفضل إبراهيم " عليه السلام " أدعى كل قوم جاءوا بعده ، أنهم على ملته ، وأنهم أولى الناس به ، يروى ابن عباس أنه : (**إجتمع عند النبى ﷺ وفد نصارى نجران وعدد من أحبار اليهود ، فتنازعوا فى إبراهيم ، فقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلا يهودياً ، ونحن أولى الناس به ، وقالت النصارى : ماكان إبراهيم إلا نصرانياً ، ونحن أولى الناس به ، فأنزل الله قوله تعالي** : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦ ص٤٢٨ ـــ باب : وهل أتاك حديث موسى .

(٢) سورة آل عمران آية (٦٥) .

وبذلك ينكر الله على اليهود والنصارى قولهم :إن إبراهيم منهم ، ولهم ، وعرفهم أن رسولهم جاء بعده ، وكتابهم نزل بعده ، فمن أين لهم أن يجعلوه منهم ؟!

وبين لهم الحقيقة بوضوح فقال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

إن إبراهيم " عليه السلام " كان حنيفاً مسلماً ، بريئاً من الشرك والشركاء ، وأولى الناس به الذين اتبعوه فى دينه وإسلامه ، وأولهم محمد ﷺ والمؤمنون معه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

والإسرائيليون الآن يدعون ملكية فلسطين ، وبيت المقدس بدعوى أنهم ورثوها عن إبراهيم " عليه السلام " ، وهذه مزاعم مردودة ، فإبراهيم " عليه السلام " جد للعرب ، كما هو جد للإسرائيليين ، وقد نزل فى الشام ضيفاً على العرب أصحاب هذه البلاد ، فهم أولى بها .

وقد اختبر الله إبراهيم " عليه السلام " ببعض التكاليف فقام بها ، وأتمها ، وظهرت جدارته بما أختصه الله به ، وقد شهد له الحق سبحانه وتعالي وزكاه ، وأثنى عليه فى آيات كثيرة ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (٤) ، و قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿قال تعالى: سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران آية (٦٧) . (٢) سورة آل عمران آية (٦٨) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٥١) . (٤) سورة مريم آية (٤١) .

(٥) سورة هود آية (٧٥) . (٦) سورة الصافات آية (١٠٩) .

وقال تعالي : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (١) ، و قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

وإبراهيم " الطَّيِّلاَ " أسوة حسنة فى كل مجال ، وبخاصة فى الطاعة والانقياد لأنه " الطَّيِّلاَ " لما رزق بإسماعيل من هاجر تعلق قلبه به فغارت سارة ، وطلبت أن يسكن هاجر وولدها بعيداً عنها ، فاستجاب لطلبها ، وكلفه الله تعالي أن يضعهما فى مكان صحراوى ، حدده له ، هو مكان البيت الحرام بمكة ، فذهب بهما إليه راضياَ بأمر الله وترك لهما بعض الماء والسقاء ، وقفل راجعاَ من حيث أتى ، فتعلقت هـاجر بثيابـه وقالت له آلله أمرك بهذا ؟ فقال لها : نعم .... فقالت : إذاَ لايضيعنا .

ترك إبراهيم ولده البكر فى مكان قفر ، ورجع إلى الشام مطيعاً لأمر الله ، راضياً بقضائه فيه ، يروى البخارى بسنده أن إبراهيم بعدما أنطلق وقف عند الثنية حيث لايرونه ، واستقبل بوجهه البيت ، ورفع يديه وقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

واستجاب الله دعاءه ، إذ بعدما نفذ الماء والطعام الذى تركه إبراهيم ، جعل الغلام يتلوى ، فانطلقت أمه تبحث عن الماء ، أو عن منقذ لهما ، وحتى لاترى وليدها يتألم ، صعدت على الصفا أقرب جبل اليها ، ونظرت فى الوادى خلفه فلم تجد شيئاً ، فجرت إلى المروة فلم تجد شيئاً ، فرجعت إلى الصفا ثم إلى المروة هكذا سبع مرات ، ثم نظرت إلى وليدها فإذا بالملك عنده يبحث بجناحه حتى ظهر ماء زمزم ، فعادت إليه ، وشربت ، وسقت وليدها .. (٤) .

---

(١) سورة النجم آية (٣٧) . (٢) سورة النحل آية (١٢٠) .

(٣) سورة إبراهيم آية (٣٧) . (٤) البداية والنهاية ج١ ص ١٥٥ .

وأخذ الطير يتجمع فوق المكان، فعلم قوم من قبيلة جرهم العربية أن به ماء ، فاستأذنوا من هاجر فى الإقامة، فأذنت لهم، وأنست بهم ، وبدأت الحيـــاة تـــدب فى المكان وتزوج إسماعيل " عليه السلام " إمرأة من الجراهمة ، وتعلم العربية ، ومنـــه تناســـل العرب بعد ذلك فهم العرب المستعربة (١) .

وارتبطت قلوب الناس بمكة ، ورغب الكثير فى الإقامة بها ، ورزق الله أهلها من كـــل الثمرات والخيرات .

وطاعة إبراهيم " عليه السلام " لله واضحة لأنه لما أمره الله بترك ولده الوحيـــد فى صحراء جرداء لم يتردد،وأسرع بالطاعة والتسليم،واكتفى بالدعاء له، واثقاً بالله تعالي

ومن صور الطاعة والانقياد عند إبراهيم " عليه السلام " أن ولده إسماعيل هذا لما شب ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾ وصار قادراً على العمل فى المعاش ، وطلب الرزق ، كلف الله إبراهيم بأمر جديد هو ذبح ولده إسماعيل ، وهو وحيده الذى ليس له غيره ، أجاب ، وأمتثل ، وأطاع ربه ، وعرض الأمر على إسماعيل تطييباً لقلبه ، وتهويناً عليه ، فوافقه إسماعيل محتسباً ، صابراً . . يصور القرآن الكريم حوار إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ويبين إستسلامهما معاً لأمر الله ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (٢) .

قمة عالية من الإيمان ، وطاعة مطلقة لله ، ونكران للذات فى مقام العبودية لله أب يذبح ولده بيده ، وولد يستسلم لأبيه ، تنفيذاً لأمر الله ، إنها الطاعة والانقياد .

ونجح إبراهيم "عليه السلام" فى امتحان الله ، وفدا الله تعالي إسماعيل بكبش عظيـــم

---

(١) الكامل ج١ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) سورة الصافات آية (١٠٢) .

يقـــــول تعالي : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

أى عندما استسلم إسماعيل للذبح وتشهد ، وكبر إبراهيم عند مرور السكين على رقبته ، جاء أمر الله بنجاة إسماعيل . يقول السدى وغيره : أمر الله الســـكين أن لاتقطع شيئاً فصارت كالإسفنج يمر على البدن .

ونادى الله إبراهيم أن قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك بصورة بينـــة ظاهرة ، ورأى إبراهيم أمامه كبشاً أبيض ، أعين ، أقرن ، ارسله الله تعالى اليـــه مـــع ملائكته ليذبحه، ويفدى به ولده المطيع " اسماعيل ".

ذبح ابراهيم "عليه السلام" الكبش وضحى به تنفيذا لامر الله تعالى ، وافتدى بذلك ولـــده ، الوحيد ، البكر " اسماعيل " الذي عرف بـــ " الذبيح " (٢) .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١٠٣ ــ ١٠٧) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص١٥٦ ــ يذهب بنو إسرائيل إلى أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل ، وهو رأى مردود ، لأن الذبيح هو إسماعيل لما يلى :

أ ــ بعد أن ذكر القرآن قصة الذبح قال الله تعالي ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾، فالتبشير بإسحاق كان بعد قصة ذبح إسماعيل .

ب ــ فى البشارة بإسحاق قال الله تعالي : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ فالتبشير بيعقوب ينفى أن يكون الذبيح إسحق لأنه سيكون أبا ليعقوب ، وأن لا فلا معنى للبشرى

ج ــ جاء فى التوراة : أن الله أمر إبراهيم بذبح وحيده وبكره إسحق والوحيد والبكر هو إسماعيل ووضع كلمة إسحق من تحريف المحرفين وهى متناقضه مع بداية الجملة .

وشاء الله تعالي أن يبنى مسجد فى الأرض ، على أساس المسجد الحرام الذى بنته الملائكة أول مرة ، فعرف إبراهيم بمكانه ، وأمره أن يشيده فيه ، بمساعدة ولده إسماعيل ، فذهب إبراهيم إلى مكان البيت الذى أظهره الله له فوق أكمة مرتفعة بجوار زمزم وأخذ فى البناء ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (٢)وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٣) .

فكان إبراهيم "عليه السلام" يبنى البيت ، وإسماعيل يأتيه بالحجارة ، ولما ارتفع البناء ، وضع إسماعيل حجراً ليقف عليه إبراهيم " عليه السلام " فغاصت قدمه فيه ، وكان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة إلى عهد عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" فأخره "رضي الله عنه"عن البيت قليلاً لئلا يشغل الطائفون المصلين عنده ، ووضعه حيث مكانه الآن .

إن المسلمين الصادقين ، أتباع محمد ﷺ هم أولى الناس بإبراهيم ، لأن محمداً ﷺ دعا إلى ما دعا إليه إبراهيم " عليه السلام" .

وقد جعل الله تعالي الحج فريضة إسلامية، ليعيش المسلمون ذكريات إبراهيم وإسماعيل ، وهاجر ، وهم يعبدون الله ليقتادوا بهم فى الطاعة والانقياد .

كما أن المسلمين فى كل مكان يتجهون إلى البيت الحرام فى صلواهم كل يوم إيماناً بالله ، وارتباطاً بهذه الذكريات .

---

(١) سورة الحج آية (٢٦) . (٢) سورة البقرة آية (١٢٥) .

(٣) سورة البقرة آية (١٢٧) .

ولحكمة أرادها الله تعالي أقام إبراهيم البيت علـــى أسســـه الأولى ، ليكـــون للمسلمين بعد ذلك حرماً آمناً ، وبيتاً يطيعون الله فيه ، وكان من الممكن أن يكلـــف إبراهيم " عليه السلام" ببناء بيت المقدس أو ببناء غيره ... لكنها حكمة الله وإرادته .

وقد عاش إبراهيم " عليه السلام " مع سارة فى " حبرون " وهى مدينة الخليل الحالية يذكر ياقوت الحموى أن إبراهيم " عليه السلام " لما ماتت زوجته " سارة " اشترى موضـــعاً لقبرها ، ودفنها فيه ، فلما مات " عليه السلام " دفن فى نفس القبر (١) .

رحم الله أبا الأنبياء إبراهيم ، ووفق المسلمين لحسن التأسي والإتباع .

******

(١) معجم البلدان ج٢ ص٢١٢ .

" النقطة الثانية "

(الأماكن والأقوام التى التقى بهم إبراهيم " عليه السلام ")

تنقل إبراهيم " عليه السلام " فى أماكن عديدة ، وعايش أقواماً مختلفين ، وشاهد مذاهب كثيرة .

فلقد ولد ونشأ فى بلدة " كوثى " أو " أور " من أرض بابل ، من أعمال الكلدانيين ، وتزوج سارة ابنة عمه .

عاش الكلدانيون فى موطنهم بأرض ـــ بابل ـــ وهى فى مكان العراق الحالية ، وكان لهم حضارة ، ومدنية ، وعرفوا النظام الملكى ، حيث ملكهم " النمرود بن كنعان " .

وقد اتخذ الكلدانيون آلهة متعددة فعبدوا الأصنام ، والأوثان ، والنجوم ، والأشخاص .

وأدعى " النمرود " الألوهية ، وقال للناس أنا أحيى وأميت فصدقوه ، واتخذوه إلهاً لهم مع الآلهة الأخرى .

وكثرة آلهة القوم ، واشتغالهم بصناعتها ، والمتاجرة فيها دليل على توغلهم فى الفساد ، والضلال .

دعا إبراهيم " عليه السلام " قومه إلى توحيد الله وعبادته ، ونبذ الشرك والشركاء ، لكنهم أبوا ، وأصروا على ضلالهم ، فتركهم إبراهيم وهاجر إلى مكان آخر أمره الله به وعينه له .

ترك إبراهيم موطنه وهاجر منه ومعه الذين آمنوا بدعوته، وهم زوجته سارة ، وابن أخيه لوط ، ونزل بأرض الكنعانيين ، وأقام بـــ " حران " قريباً من دمشق الحالية

وكان الكنعانيون يعبدون الكواكب ، ويضعون على كل باب لبيوتهم هيكلاً لكوكب يعبدونه ، وكانوا يتوجهون ليلاً إلى القطب الشمالى .

وكان لآلهتهم أعياد ،وطقوس ، وقربات ، يقومون بها لكسب نفع ،أو دفع ضر.

لقد أقام إبراهيم ومن معه بأرض الشام مدة من الزمن ، حتى نزل ببلاد الشام قحط شديد أدى إلى أن يرحل إبراهيم ومعه سارة إلى مصر ، ودخلا قرية يحكمها جبار من الجبابرة .

وكان المصريون يعبدون الأشخاص ، والأصنام ، والأنعام ، إلا أن إبراهيم " عليه السلام " لم يمكث مع المصريين طويلاً ، فرحل منها بعد أن نجى الله سارة من طغيان الجبار ، ومحاولة اعتدائه عليها ، وأهداها هاجر حين أخافه الله منها .

ورجع إبراهيم إلى بلاد الشام مرة ثانية قريباً من بيت المقدس ، وتنقل بين قراها فسكن بلدة " السبع " وحفر بها بئراً ، وبنى مسجداً ، وسكن ببلدة بين الرملة وإيليا هى مدينة الخليل الحالية ، وكانت تسمى " حبرون " وبينها وبين بيت المقدس مسيرة يوم .

واستقر إبراهيم فى بلاد الشام ومعه زوجته، وجاريتها هاجر، ومعهما لوط وزوجته ، وعن هذه الإقامة ، يقول الله تعالي : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) ، وهذه الأرض هى أرض بيت المقدس ، لقوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٢)

ولم يستمر لوط " عليه السلام " مع إبراهيم " عليه السلام " فى منطقة بيت المقدس ، بل تركها وذهب إلى " سدوم " التى تقع شرقى البحر الميت حيث بلغ الناس دعوة الله ، وكان قريباً من إبراهيم " عليه السلام " .

---

(١) سورة الأنبياء آية (٧١) .

(٢) سورة الإسراء آية (١) .

بعد عودة إبراهيم وزوجته من مصر، وهبت سارة جاريتها هاجر لإبـــراهيم لتلد له ولداً ، فلما تزوجها حملت وولدت إسماعيل فتعلق قلب إبراهيم بولده ، فغارت سارة وتألمت، وطلبت من إبراهيم أن يسكنها وولدها بعيداَ ، فـــأمره الله باســـكانهما مكاناَ هو مكان مكة المكرمة الحالية .

رحل إبراهيم " عليه السلام " إلى بلاد الحجاز ، وأسكن هاجر وإسماعيل فى مكـــان اختاره الله له ، ثم عاد إلى الشام ، وكان يزور ولده إسماعيل ، وأمه هـــاجر ، حيـــث مقامهما فى بلاد الحجاز ، بين الحين والحين ، كما كان يزور لوطاً فى قرية " سدوم " وهى إحدى قرى " غورزغر " وكان أهلها كفاراً فجاراً .

وصار لإبراهيم " عليه السلام " جيش قوى ببيت المقدس ، وتبعه ملـــوك بيـــت المقـــدس ، واستقر بها " صلوات الله وسلامه عليه "

وحينما نعلم أن إبراهيم " عليه السلام " أرسل لقومه خاصة ، فعلينا أن نـــدرك أن المراد بقوم النبي هم أهله الأقربون ، والمقيمون معه ، والمتكلمون بلغته ، وبذلك يتضح أن قوم إبراهيم " عليه السلام " الذين دعاهم هم الكلدانيون ، والكنعانيون ، ومـــن عـــاش معهم وتكلم بلغتهم .

****

" النقطة الثالثة "

(حركة إبراهيم " عليه السلام " بالدعوة)

تحرك إبراهيم " عليه السلام " بالدعوة فى كل مكان ذهب إليه ، وتصدى للضـــلال والكفر ، وحاول مخلصاً أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقذهم من الغواية إلى الهداية .

دعا كل من اختلط بهم ، دعا أباه ، وقومه فى بابل ، وملكهم النمرود ، ولما رحل إلى الشام دعا عبدة الكواكب والأصنام ، وكان له مع كل فريق مواقف خالدة

ونظراً لتنوع المواقف ، واختلاف المواجهة ، وتعدد طرق الحوار ومناهج الدعوة فى كل موقف ، سأتحدث عنها موقفاً موقفاً .

١ ـــ حركة إبراهيم بالدعوة مع أبيه :

آزر هو أبو إبراهيم " عليه السلام " واسمه فى التوراة " تارح " وربما كان هذا لقبه . عمل آزر بصناعة التماثيل من الخشب ، ونحتها من الحجارة ، وكان يعطيها إبراهيم ليبيعها ، يروى ابن الأثير أن إبراهيم " عليه السلام " كان يعرضها على الناس ويقول : **من يشترى من لا يضره ، ولا ينفعه ، فلا يشتريها أحد ، وكان يأخذها ، وينطلق بها إلى النهر فيصوب رءوسها فيه ويقول : إشربى ، إشربى : استهزاء بها** (١) .... لأن الله أعطاه الرشد،وسعة العقل قبل النبوة (٢) ، فأدرك مافى تأليه الأصنام وعبادتها من ضلال ، فقال ما قاله، وفعل ما فعله بها، ومن دلالة رشده فى تصرفه عند بيع الأصنام أنه لم يعص أباه، ولم يقل كذباً ، ولم يغش أحداً ، ولم يترك واجباً . . ! !

فلما بلغ مبلغ الرسالة ، وكلفه الله بالتبليغ بدأ بدعوة أبيه براً به ، لأن من البر إرشاد الأب إلى ما فيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، وقد أحسن الوالد لابنه بتربيته ، والإنفاق عليه وواجب على الابن رد هذا الإحسان بدعوته إلى الحق ، وجذبه إلى صراط الله المستقيم .

وحتى يُقطع اعتراض الناس إذا اعترضوا وقالوا : لماذا لم تدع أباك إلى ما تدعونا إليه ، ولو كانت دعوتك خيراً لبدأت بأبيك وأهلك .

---

(١) الكامل ج١ ص٩٦ ، يتحدث المؤرخون عن آزر ، ويقولون : إنه أب إبراهيم ، أو عمه ، والأولى أخذ قوله تعالي : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ على ظاهره ، فهو أبوه .

(٢) أشار المفسرون إلى هذا الرشد عند تفسير قوله تعالي :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾.

وحتى لايتصور أحد أن الإنسان غير مسئول عن دعوة أبائه لمقامهم ومترلتهم ، بل هو بذلك يعد مسئولاً إن ترك دعوتهم وإرشادهم .

وقد تناول القرآن الكريم دعوة إبراهيم " عليه السلام " لأبيه فى قوله تعالي : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ (١)

هذه الآيات قد وضحت الكثير عن إبراهيم " عليه السلام " وعن دعوته لأنها بينت :

ـــ أخلاقه " عليه السلام " .

ـــ ومنهجيته فى دعوة الأقربين .

ـــ ووسيلته وأسلوبه فى دعوته أباه .

أما أخلاقه " عليه السلام " فهى أخلاق الرسول الداعية ، إنه محب لأبيه يمتلئ قلبه خوفاً من أى أذى يلحقه ، ولو كان مساً خفيفاً رقيقاً ، ولذلك فهو ينصحه ، ويحاول معـــه أن يثير دوافع التدبر ، والتفكير بكل رفق ، وهو " عليه السلام " يقدر أباه ، وينزله مترلته ، فيبدأ حديثه باللفظ المعبر عن التقدير والإخلاص، ومناداته بقوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾، ويكرره إبرازاً لأدبه وحسن خلقه ، ومن المعلوم أن فى النداء تعظيم ، وفى لفظ الأب حنان وقربى .

---

(١) سورة مريم الآيات (٤١ ـــ ٤٥) .

ومن خلقه " ﷺ " مراعاة مقام الأبوة ، ببيان أن التوجه بالدعوة ليس استعلاء ، وإنما هو علم أتاه من الله ، ورسالة تحمل مسئوليتها ، ومنافع عديدة يتمني لأبيه أن يظفر بها

وعن منهجيته فى دعوة أبيه نلحظ من الآيات الوضوح التام ، والبصيرة الكاملة لكافة جوانب الدعوة ، فهو يدعو إلى عبادة الله ، النافع ، الضار،العليم ، الخبير ويعلم أن أباه يعبد الأصنام التى يصنعها بيده ولا فائدة من ورائها ، .. ويدرك أن الشيطان هو الذي يزين للناس الشرك وعبادة الأصنام ، ويعمل جاهداً لتكوين حزبه الضال على أساس الولاية بين أفراده لتستمر طاعتهم له ، ويصعب عليهم ترك أصحابهم وضلالهم ، وبذلك يتمادون فى الضلال والكفر .

وقد واجه أباه مواجهة مباشرة بهذه الحقائق ، وعلم رده وموقفه .

ومن **أساليبه فى دعوة أبيه** ، استعمال أسلوب الاستفهام ، لأنه يوقظ انتباه المستمع ، ويدفعه إلى التفكير ، ويشركه فى اكتشاف الإجابة ، فيخلص لها ، ويلتزم بها لصدورها من قناعته .

ويذكر له حقيقة ترضى الأب وهى اكتساب الابن للمعارف الجديدة ، والوصول إلى علم مفيد ، وإعجاب الأب بإبنه يرضى،وحالة الرضا بداية الفهم والسماع .

ويبين لأبيه أن الله هو الرحمن ، ولذلك فطاعة الشيطان الداعي إلى الشرك عصيان لله ، وقد تؤدى المعصية إلى عذاب من الله ، وهو أمر يخافه إبراهيم على أبيه ولو كان مساً خفيفاً ، ولذلك فهو ينصحه .

وماذا كان موقف الأب من دعوة ابنه له ؟

لم يؤمن آزر ، ورد على إبراهيم بقسوة وشدة وقال : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ (١) .

كبر فى نفسه أن ينصرف إبراهيم عن عبادة الأصنام ،وكان يتمناها له ، صناعة ، وتجارة ، وعبادة ، وهدده بالرجم بالحجارة وباللعن والسب ، وأمره أن يهجره زمناً

---

(١) سورة مريم آية (٤٦) .

طويلاً ، ينسيه ما سمعه منه ، وأملاً في أن يعود إبراهيم عن دعوته ، وتركه إبراهيم " عليه السلام " أيضاً مؤملاً هو الآخر في إيمانه ، وقال له : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ (١) .

وترك إبراهيم أباه ، وودعه في أمن وسلام ، واستمر يدعو الله له ، ويستغفره أملاً في إيمانه ، فلما تبين له أنه لن يؤمن تبرأ منه ، ومن آلهته ، وأعتزله وأبتعد عنه وعن آلهته،لأن ظهوره معهم يضعه في صورة الراضي عن دينهم ، وأفعالهم ، وهذا لا يجوز ، لأن على المنكر مقاطعة صاحب المنكر مادام لا يسمع لنصح أو إرشاد .

٢ــ حركة إبراهيم بالدعوة مع الملك :

ادعى النمرود الألوهية ، وقال للناس : أنا أحيي وأميت ، وتحكم في أرزاقهم وحياهم ، وعاث في الأرض فساداً ، فلما جاءه إبراهيم " عليه السلام " بدعوة التوحيد ، وتسليم الأمر لله رب العالمين ، لم يرض بهذا ، وأخذ يجادل في الدفاع عن ذاته إلهاً للناس .

يصور القرآن الكريم دعوة إبراهيم للملك وحواره معه في قوله تعالي : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة مريم آية (٤٧ ــ ٤٨) .

(٢) سورة البقرة لآية (٢٥٨) .

فقد أنعم الله على النمرود ، وأتاه الملك فى بابل ، وكان عليه أن يسارع إلى توحيد الله وعبادته ، شكراً لنعمه ، وازدياداً لفضل الله ، لكنه كفر وتجبر ، وأبى ترك مزاعمه ، وافتراءاته ، **قال لإبراهيم : من ربك ؟**

قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت .

قال النمرود : وأنا أحيى وأميت !

ومع اختلاف مراد كل منهما من الإحياء والإماته ، لأن النمرود يقصد أنه قد يأتى برجلين تحتم قتلهما، فإذا أمر بتنفيذ القتل فى أحدهما فقد قتله، وإن أمر بالعفو عن الثانى فقد أحياه ، كما يعنى إنه إذا حبس رجلين بلا طعام ولاشراب وأطعم أحدهما وسقاه فقد أحياه ، وإن ترك الثانى بلا زاد ولا ماء حتى يموت فقد قتله .

أما مراد إبراهيم "عليه السلام" فهو يعنى التحكم فى الروح التى بها الحياة فى الإنسان يحيا بوجودها ، ويموت بسلبها ، ولاتحكم لإنسان ما فى هذه الروح .

كان يمكن لإبراهيم أن يجادل النمرود ، ويبين أن مراده ممكن لأى إنسان ، ولايصح فى مجال العقيدة أى تدليس وظن ، لأنها تعتمد على اليقظة العقلية ، والبيان القاطع .

كان " عليه السلام" يمكنه ذلك ، لكنه آثر قطع الجدل والمراء ، وطلب منه أمراً آخر له صلة بالإماته والإحياء ، والإيجاد والإعدام .

قال له : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، فعجز النمرود عن الرد ، وسكت مضطراً ، لأن الشمس تأتى وتغرب فى فلكها منذ أن خلقها الله تعالي ، ولايمكن للنمرود أن يدعى لنفسه شيئاً فى حركتها لأنها أسبق منه فى الوجود والحركة .

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ ، وباء بغضب الله ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ..

يبين الرازى فى التفسير أن النمرود بعد عجزه عن المواجهة لجأ إلى التهديد ، وقال لإبراهيم : لإنك تزعم أن ربك يحيى الموتى فاسأله أن يحيى لنا ميتاً ، وإن لا قتلتك .

فطلب إبراهيم من الله رؤية كيفية إحياء الموتى **ليطمئن قلبه من ناحية الملك الذى هدده بالقتل** ... يقول الله تعالي عن هذا : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

فأخذ إبراهيم " عليه السلام " الطيور الأربعة ، وقطع لحومها ، وريشها وخلطها ، وقسمها أربعة أقسام ، ووضعها على أربعة أجبل ، ثم دعاها إليه ، فجاءته الطيور الأربعة حية كما كانت ، فأثبت إبراهيم " عليه السلام" أمام النمرود قدرة الله على الإحياء ، وقطع عليه الجدل فى هذه المسألة ، فرضى إبراهيم ، وإطمأن .

وهذا التفسير الذى آرتآه الفخر الرازى وغيره هو الأولى (٢) بالقبول لأنه يدفع مقالة أعداء الحق ، الذين زعموا أن طلب إبراهيم يدل على شكه ، وأيضاً فإن إبراهيم " عليه السلام " رسول الله الموصوف بالصلاح ، والرشد ، واليقين ، والحلم ،والإنابة والصديقية ، وكان أمة ، وإماماً ، وشاكراً ، وهو الذى وفى .

إبراهيم هذا لايحتاج إلى دليل لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين ..

ولِمَ يكون الدليل المطلوب إذا قلنا إن إبراهيم طلبه لنفسه فى رؤية كيفية إحياء الموتى بالذات ؟!...والأدلة أمامه كثيرة .. كل هذا يرجح ما ذهب إليه الرازى.

---

(١) سورة البقرة آية (٢٦٠) .

(٢) تفسير الرازى ج٤ ص ٤١ .

وأيضاً حين نتأمل فى سؤال الرجـــل الذى مر على القرية وهى خاوية قال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (١) .. فسؤاله بـــ " أنى " هو سؤال عن الكيفية ، كما سأل إبراهيم بـــ " كيف " .. إلا أن الله عاقبه لكونه كان شاكاً فى قدرة الله على إحياء الموتى وبعثه مرة أخرى ، وقد عاقبه الله بأن أمـــاته مائة عام ثم بعثه ، وأراه حماره وقد عاد للحياة ، ولذلك قال الرجل معلناً إيمانه بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، مصدراً قوله بالفعل المضارع " أعلمُ " الدال على الحدوث والاستمرار (٢) .

أما إبراهيم " عليه السلام " فسؤاله كان لتحدى النمرود ، ومناظرته ، ولذا لم تكن معه عقوبة ، وختمت الآية بفعل الامر ﴿ وَٱعْلَمْ ﴾ ليوجهه إلى النمرود ، آمراً إياه بالإيمان ، وليعلم أن الله عزيز حكيم ، فهو سبحانه غالب لايغلب ، يقدر لكل أمر ما يناسبه بدقه ، يقول للشئ كن فيكون ، ولن يقال : إن إبراهيم " عليه السلام " هلع من النمرود ، ولذا طلب من ربه ما طلب بل هو خوف عادي ، و الخوف العادي طبيعة بشرية ، وإبراهيم طلب من الله تعالي مستسلماً لإرادته ، مطمئناً بقدرته ، راضياً بما يقضى له، وهو اليقين عينه، وهو الإيمان المطلوب.

إن خوف إبراهيم حذر لابد منه ، وطلبه من الله نجاح للدعوة ، ولو كان إبراهيم " عليه السلام " الذى يفزع ،ويرتعد ، ويجبن لخاف من النار يوم أن وضع فيها.

المهم هنا ملاحظة انتقال إبراهيم " عليه السلام " بالدليل مع الملك ، فترك ما فيـــه جدل ومراء إلى دليل مفحم ، يحقق المطلوب بأسلوب موجز ، وبطريق مستقيم .

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٩) .

(٢) تفسير الرازى ج٤ ص٤٠ .

٣ـ حركة إبراهيم بالدعوة مع عبدة الأصنام :

كانت الأصنام من معبودات قوم إبراهيم ، اتخذوها آلهة ، ووضعوا لها طقوسها يتقربون بها ، معتقدين أنها تضر وتنفع ، وأقاموا لها المعابد والبيوت ، وزينوا الأصنام والأوثان ، ليقصدها الناس عابدين ، راجين .

وكانت الأصنام والأوثان صناعة رابحة ، وتجارة مثمرة ، وقد رأينا أن آزر كان يصنعها ، ويتاجر فيها .

وكما واجه إبراهيم أباه بالدعوة ، وكما واجه الملك بالحجة ، واجه قومه كذلك ، فدعاهم إلى التوحيد ، ونبذ عبادة الأصنام والبعد عن الضلال والكفر .

وقد اتبع إبراهيم " عليه السلام " فى دعوة عبدة الأصنام منهجاً دقيقاً ، محكماً ..

بدأ " عليه السلام " بعرض أصول الدعوة ، وإظهار المطلوب منهم بإيجاز ، قال لهم :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وبذلك حدد قضيته معهم فى كلمات قصيرة ، وبين لهم أنها الخير لحياتهم ومستقبلهم ، فخيرية التوحيد حقيقة بينة ، لكل من له عقل ينظر به إلى المخلوقات بتدبر ونظر .

ثم انتقل إلى استثارة عقولهم ، وإيقاظ الجانب الإدراكى المعرفى لديهم، وذلك بالسؤال الذى يجعلهم يفكرون فى إجابته ولو لأنفسهم ، قال لهم :﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ (٢) ، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ (٣) ، ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ ؟ (٤) .

---

(١) سورة العنكبوت آية (١٦) .
(٢) سورة الصافات آية (٨٥) .
(٣) سورة الشعراء آية (٧٠) .
(٤) سورة الأنبياء آية (٥٢) .

إن هذا السؤال يبحث عن معرفة حقيقة الآلهة ، وقدرتها ، ومدى صلاحيتها لأن تؤله وتعبد ، لكن القوم هربوا من الإجابة ، وردوا على إبراهيم بأنها مواريث الآباء ، وأنهم مقلدون لهم ، قالـــوا له : ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾ (١) ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

فانتقل بهم إلى أسئلة أخرى لكشف عجز الأصنام والأوثان ، حتىيبعدهم عن تأليهها ، وعبادتها ، قال لهم : قال تعالى: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ؟ (٣) ، ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ؟ (٤) ، ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ؟ (٥) .

وهذه الأسئلة تشير للإجابة البدهية التى تؤكد هوان معبود اتهـــم ، وضـــلال معتقدهم ، وخطإهم ، لأن ما يصنعه الإنسان بيده حادث، ولا يجوز أن يكون الحادث المصنوع إلهاً أبداً .

وكذلك فمن الأمورالمسلمة لديهم أن الأصنام والأوثان ، لاتسمع ، ولاتبصر، ولاتشعر، إنهالاتضر، ولاتنفع ، فهى جماد لايتحرك ، صماءلاتعقل، عاجزة عن فعـــل أى شئ مهما كان ضئيلاً ، فكيف بعد ذلك تعبد من دون الله تعالي ؟

ومرة أخرى يحاولون صرف إبراهيم عن قضية رسالته ، فيقولون له : ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾ (٦) .

والمقلدون فى مقالتهم هذه يتصورون إبراهيم " عليه السلام " لاهياً ، عابثاً ، يلعب معهم بمقالته لهم ، وليس هو كذلك أبداً ! !

---

(١) سورة الأنبياء آية (٥٣) .
(٢) سورة الشعراء آية (٧٤) .
(٣) سورة الصافات آية (٩٥) .
(٤) سورة الشعراء الآيات (٧٢ ـــ ٧٣) .
(٥) سورة الأنبياء آية (٦٦) .
(٦) سورة الأنبياء آية (٥٥) .

يقول الزمخشرى : (ما أقبح التقليد ، وما أعظم كيد الشيطان حين يستدرج المقلدين إلى تقليد آبائهم فى عبادة الأوثان ، وهم يعتقدون أنهم على شئ ، مجـــادلون لأهل الحق عن باطلهم) (١) .

فانتقل " عليه السلام " بعد ذلك إلى التفصيل فى بطلان عقيدتهم، لأن الإله المعبـــود يجب إتصافه بالحياة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والإرادة ، والقـــدرة ، وبكافـــة صفات الكمال ليسمع الدعاء ، ويجيب المضطر ، ويرزق الناس ، ويسير الكون كلــه بإرادته وقدرته ، ويعلم كل شئ مهما كان خافياً ، ويملك أمر الـــدنيا والآخـــرة ، ليصرف الحياة ، ويحاسب الناس ، ويجازى المحسن بإحسانه خيراً ، ويعاقب المسئ على إساءته عذاباً وضراً .

تؤكد البداهة العقلية ضرورة تميز الإله الحق بهذه الصفات ، ولذا وضح إبراهيم لقومه أن أصنامهم لاتملك أى صفة من هذه الصفات ،: **قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** (٢) .

فبين لهم " عليه السلام " بأن معبوداتهم مصنوعة بأيديهم ، واتخاذها آلهة تعبد بأسماء معينة من اختراعاتهم وأكاذيبهم ، وهى لاتملك عطاء ، ولا تقدر عليه ، وهى فى وجودها محتاجة لغيرها .

فكيف تعبد إذاً ! ! ، .... ولم تخشى وتتقى إذاً ! !

إن الله سبحانه وتعالي هو الإله الحق ، يدعوهم إبراهيم إلى عبادته وحده ، ونبـــذ كافة الشركاء من دونه ، لأنه سبحانه متصف بكل كمال يليق به ،فهو سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٥٧٥ . (٢) سورة العنكبوت آية (١٧) .

ــ الخالق لكل موجود فهو : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (٢)

ــ وهو صاحب الفضل والإنعام على كل مخلوق ، فهو : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٣) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

ــ وإليه المرجع والمآب ، فهو سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٥) .

ــ وهو الذى يستحق العبادة وحده ، لتدوم النعم وتزيد : ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦).

ومع كل هذا التوضيح ، والبيان ، تمسك القوم بأصنامهم ، وأصروا على ضلالهم ، وتيقن إبراهيم "عليه السلام" أن القوم منصرفون عنه وعن دعوته ، فترك

---

(١) سورة الشعراء آية (٧٧) . (٢) سورة الأنبياء آية (٥٦) .
(٣) سورة الشعراء الآيات (٧٨ ــ ٨٠). (٤) سورة الصافات آية (٩٦) .
(٥) سورة الشعراء الآيات (٨١ ــ ٨٩) . (٦) سورة العنكبوت آية (١٧) .

حوارهم ، ومواجهتهم ، ولجأ إلى إثبات عجز الأصنام عملياً عسى أن يكون العمل أجدى من مجرد الكلام لو كانوا يعقلون . وخطط لما أراد ، يقول الله تعالي عن خطة إبراهيم تلك : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

والآيات تبين ما فعله إبراهيم " عليه السلام " ، فقد أقسم للناس وأكد لهم أنه سيكيد للأصنام بعد رجوعهم إلى بيوتهم ، فلما رجعوا إلى بيوتهم ذهب إبراهيم إلى بيت أصنامهم ووجد عندها طعاماً ، تركه القوم للآلهة تأكل منه ، وتباركه ، فقربه إبراهيم للأصنام ، مستهزئاً، ساخراً وهو يناديهم : ألا تاكلون ؟ ،مالكم لا تنطقون ؟ ثم أحضر فأساً وكسر بها أصنامهم ، وقطعها جذاذا إلا كبيرهم ، فقد تركه ، وعلق الفأس برقبته ، ليؤكد لهم عملياً فساد عقيدتهم ، وهوان آلهتهم ، لانها لاتنفع ولاتضر ولاتعقل ولاتنطق ولا تدفع عن نفسها شيئا .....!!!!!!

وفوجئ الناس بتكسير الآلهة ، وعظم الفعل على جهالة الجبابرة ، فعزموا على أن ينتقموا لأصنامهم من هذا الجاني الذي أهان دينهم ، وكسر أصنامهم ، ووضعهم فى حال ضعف وضياع .

وبدل أن يراجعوا أنفسهم ، ويتركوا عبادة الأصنام ، لأنها لو كانت آلهة حقيقية لحفظت نفسها ، وهزمت هذا المعتدى ، ولأخبرتهم بهذا الذي بيت لها ولهم ، بدل هذه المراجعة أخذتهم العزة بالإثم ، وأجتهدوا فى كشف الفاعل ومعاقبته .

. . . وكانت محاكمة إبراهيم " عليه السلام" بواسطة سلطة الضلال . . .

---

(١) سورة الصافات الآيات (٩١ ــ ٩٣) .

(٢) سورة الأنبياء الآيات (٥٧ ــ ٥٨) .

سألوا الناس عن فاعل هذه الجريمة لمعاقبته على فعلته الشنيعة الظالمة ، وطلبوا من الجمهور أن يبلغهم بالمجرم إذا علموا عنه شيئاً ، فأجاب الناس بأن شخصاً يسمى إبراهيم يذكر هذه الأصنام بسوء ، ولا يعترف بألوهيتها ، ويدعو إلى نبذ عبادتها .

فجمعوا الناس ، واحضروا إبراهيم أمامهم ، لينال العقوبة على رءوس الأشهاد وحتى يكون عبرة لهم جميعاً .

وبدأت المحاكمة :

سألوا إبراهيم " عليه السلام " : ﴿ **قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ** ﴾ (١) ؟

أجاب " عليه السلام " وهو يشير للأصنام بالأصبع الأكبر بيده اليمنى ، **قال تعالى:**

﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ** ﴾ (٢) .

فتحير الملأ ، وعجزوا عن الرد ، وفقدوا الجواب أمام الجماهير المحتشدة ، وتداولوا فى الأمر، واعترفوا بهوان الأصنام ،لكن إبليس دفعهم بالعزة الآثمة ، وقوى فيهم الضلال والهوى ، فردوا على إبراهيم بإجابة تؤكد ما ينادى به ، وتعترف بدليله ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، **قال تعالى:** ﴿ **فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ** ﴾ (٣) .

ووجد إبراهيم " عليه السلام " نفسه فى موقف مفيد للدعوة حيث الجماهير تتابع ، وتسمع ، والملأ المعارض يعترف بأن الأصنام لاتنطق ، وبالتالي فهى لاتسمع ، ولاتنفع ولاتضر .

---

(١) سورة الأنبياء آية (٦٢) .

(٢) سورة الأنبياء آية (٦٣) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٦٤ ـــ ٦٥) .

هنا أخذ إبراهيم "عليه السلام" يعلن خطأهم ، ويعلى دعوة الحق أمامهم قال عليه السلام :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

اسقط فى أيديهم ،ولما لم يتمكنوا من المواجهة لجأوا إلى الظلم والتحكم، شأن كل ظالم جبار يحمى سلطانه ، وعزته ، بقوة البطش والتخويف ، لأن قوة العدل لاتسانده ، وقوة الحق ليست معه ، **قال تعالى:** ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (٢) ، وظنوا أنهم بهذا سيعلوا شأنهم ، وتحترم آلهتهم .

وإنما اختاروا القتل بالتحريق ليساهم الجميع فى القتل ، ولأنه أكثر إيلاماً من القتل بوسائل أخرى ، وحتى يكون مشاهداً للقاصى والدانى ، وجندوا الرأى العام بمختلف وسائلهم .... بنوا بناء ضخماً ، وجمعوا الحطب ، وصبوا عليه الزيت وأشعلوا النار، واحضروا المنجنيق وقذفوا به إبراهيم بعد أن قيدوه ، وربطوه .

وهكذا أحكموا الكيد والتدبير ..

يذكر الزمخشرى فى الكشاف أن القوم لما أرادوا إحراق إبراهيم حبسوه شهراً ، وبنوا بيتاً عالياً كالحظيرة ، وجمعوا أصناف الخشب الصلاب ، وملأوا الرأى العام بكراهية إبراهيم حتى إن المرأة لتمرض فتقول:إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم ، وصار كل شخص يقول لأخيه اقتلوه أو حرقوه ، ثم اشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق فى الجو من وهجها، ثم وضعوا إبراهيم فى المنجنيق مقيداً ، مغلولاً ، ورموه في النار (٣) .

لكن الله غالب على أمره، فرد كيدهم فى نحورهم ، وكشف عوراتهم

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات (٦٦ ــ ٦٧) .   (٢) سورة الأنبياء (٦٨) .

(٣) تفسير الكشاف ج٢ ص٥٧٨.   (٤)سورة الأنبياء آية (٦٩) .

واستجابت النار لخالقها ، فكانت سلاماً على إبراهيم ، ولم تحرق منه إلا القيد والرباط ، ورأى الناس مكان النار وقد أخضر زرعه ، وإبراهيم يتنزه ، ويتنعم وسطه . . . . ونجا إبراهيم " عليه السلام " من كيد أعدائه . . .

وبقى الناس على ضلالهم ، وكفرهم لأن إبراهيم لم يطلب من الله استئصالهم ، ولأن حكمة الله قضت باستمرارية العمران ، والبشرية ، فى الأرض تمهيداً لمجئ الرسالة الخاتمة التى تتجه إلى الناس فى كل زمان ومكان يحملها إلى الخلق محمد ﷺ ، واتباعه من بعده الى يوم القيامة .

٤ ــ حركة إبراهيم بالدعوة مع عبدة الكواكب :

بعد أن نجى الله إبر اهيم " عليه السلام " من النار ، وعدم تأثر قومه بهذه المعجزة ، واجههم بما هم عليه ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (١) ، ووضح لهم سر تمسكهم بالضلال وهو أنهم جعلوا الأوثان وسيلة تجمع عبادها فى مودة وتعاون ، ولذلك ارتبطت بعواطفهم ، وأعمت عقولهم ، وأبصارهم .

ثم تركهم ، ورحل من ديارهم ، وقد أمره الله بالهجرة إلى بلاد الشام ومعه لوط وزوجته ، يقول تعالي : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) . والأرض المقصودة هى بلاد الشام ، ونزل إبراهيم "عليه السلام" فى " حران " موطن العرب " الكنعانيين " .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٢٥) .

(٢) سورة الأنبياء آية (٧١) .

كان الكنعانيون يعبدون الكواكب ، ويصنعون الهياكل ، والتماثيل التى ترمز لها ، وكانوا ينسبون الحوادث إليها ، ويتصورونها تضر وتنفع ، ولذلك رسموا رموزها على أبواب بيوتهم ، وكان الواحد منهم يعبد عدداً من الآلهة ، بعضها فى الليل ، والآخر فى النهار (١) .. وهكذا عاش إبراهيم "عليه السلام" فترة بين الكنعانيين ، تعلم لغتهم ، وشاهد عاداتهم ، ودياناتهم ، وعرف ماهم عليه فى حياتهم ونشاطهم ،ولم يرض بشئ من فسادهم وضلالهم .

إن إبراهيم "عليه السلام" صناعة ربانية ، يقول الله تعالي : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) إن الله سبحانه وتعالي عرف إبراهيم "عليه السلام" به، وأراه بالبصر والبصيرة ، أنه سبحانه الرب المالك للسموات والأرض وما فيهما،من شمس وقمر ونجوم ، وجبال وأشجار وسهول ، وأن الكل مقهور تحت الملكوت الاعلى ، مفتقر إلى الله فى وجوده ، واستمراره ، وكافة شئونه ، وبذلك كان إبراهيم "عليه السلام" من الموقنين باستحالة وجود إله غير الله تعالي (٣) .

لم يرتض إبراهيم "عليه السلام" أن يترك الناس على ضلالهم ، ويستمر فى عزلته ، بل قام فى أصحاب الكواكب يدعوهم إلى الله تعالي .. ولاحظ " عليه السلام " أن الكواكب تختلف عن الأصنام من عدة نواح :

ـ فالكواكب تتحرك وتسير فى فلك منتظم، بينما الأصنام لاحراك لها ، وتبقى فى الموضع والصورة التى وضعت فيها .

ـ الكواكب تتخذ مداراً علوياً سماوياً بينما الأصنام جماد فى الأرض

ـ الكواكب تتكون من عناصر مجهولة وهى لبعدها تجعل الإنسان يذهب فى تحليلها كل مذهب ، بينما الأصنام معلومة التكوين والتركيب .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٥٠ . (٢) سورة الأنعام آية (٧٥) .

(٣) تفسير أبى السعود ج٢ ص ١٥٢.

ـ الكواكب تفيد الإنسان بالضوء ، والحرارة ، وتساعده فى السير والحركة ، بينما الأصنام خالية من أى فائدة .

ـ لايمكن للإنسان أن يتحكم فى الكواكب وهو مع الأصنام صانعها ، وبائعها ، والمتحكم فيها .

هذه الفروق جعلت إبراهيم " عليه السلام " يبطل عبادة الكواكب بمنهج ، وبأسلوب يختلف عن طريقته فى إبطال عبادة الأصنام ، يقول أبو السعود : إن إبراهيم "عليه السلام" سلك طريقة فى بيان استحالة ربوبية الكواكب تختلف عن طريقته فى بيان استحالة ربوبية الأصنام ، لأن ربوبية الكواكب أخفى بطلاناً واستحالة ، فلواستعمل مع عبدتها طريقته مع عبدة الأصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد، وللجوا فى طغيانهم يعمهون (١).

يصور القرآن الكريم طريقة إبراهيم " عليه السلام " فى إبطال عبادة الكواكب بقوله تعالي : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

فهو " عليه السلام " لم يبدأ ببيان بطلان ألوهية الكواكب كما فعل مع عبدة الأصنام وإنما أخذ يركز على غياب الكواكب وأفولها ليعرفهم أن الإله لايغيب ولايفنى ، لأن المغيب والفناء نقص لايليق بمعبود .

---

(١) تفسير أبى السعود ج٢ ص١٥٣بتصرف . (٢) سورة الأنعام الآيات (٧٤ ـ ٧٩).

وكان يمكنه لو ركز على طلوع الكوكب إثبات بطلان ألوهيتها ، لأن الطلوع دليل الحدوث ، وفى الطلوع احتياج للفاعل الصانع ، ولكنه " عليه السلام " تركه ، وركزعلى الأُفول ، لأن الأفول يدل على الزوال والتغير، والزوال والتغير علامات نقص تخرج صاحبها عن حد الكمال فلا يصح أن يكون الآفل رباً وإلهاً .

واستدلال إبراهيم " عليه السلام " بالأفول مكنه من مجاراة القوم فى معتقدهم ، وإقبالهم على مناظرته ، وقد تحيروا من أفول الآلهة ، فآتاهم إبراهيم " عليه السلام " من حيث تحيرهم ، واستدل عليهم بما اعترفوا بصحته وذلك أبلغ فى الاحتجاج (١) .

لما رأى إبراهيم الكوكب ، قال معهم : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين لأن الإله لايتغير ، ولايفنى .

فلما رأى القمر طالعاً قال معهم : هذا ربى ، فلما أفل طلب الهداية من ربه الحق لأن ألوهية القمر ضلال وضياع .

فلما رأى الشمس طالعة جارى الناس وقال : هذا ربى هذا أكبر ، لأن الناس كانوا يعتقدون أن الشمس ملك الفلك ، ورب الأرباب ، يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار ، فلما أفلت تبرأ من شركهم ، وأعلن إيمانه بالله الواحد الأحد ، خالق السموات والأرض .

والمجاراة عند إبراهيم " عليه السلام " منهج تربوى ، وقوله هذا ربى كان بلسانه فقط ، لأن الله أراه منذ البداية ملكوت السموات والأرض ، فلا رب له سواه ، وكان يطلب منه الهداية خلال المجاراة .

يقول الشهرستانى : (وطلب الهداية من الرب سبحانه وتعالي هى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون فى مدارج البداية ؟ ؟) (٢) .

---

(١) الملل والنحل ج١ ص٥٥ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ج١ ص٥٦ .

والمتبرئ من شرك القوم دليل على اقتناعه بعقيدته ، فهو وإن جاراهم فلحاجة قصدها ، وغاية عمل لها . . . والتبرؤ من كفرهم ، وعباداتهم ، فى النهاية دليل قصده منذ البداية ، وإن لا لأستغرق الأمر عنده كثيراً من العمل والأجل .

ومن فطانة النبوة قوله لما رأى الشمس هذا أكبر ، لأن هذا التعبير يبطل تأليه الكواكب والقمر، لأنها أصغر تزول بوجود الأكبر ، وأيضاً ففى العبارة شهادة حق عندهم تجعلهم يثقون فى رأيه ، ويسلمون بعدله ونصفته ، فإذا ما تبرأ منها بعد ذلك لزوالها صدقوه ، وكانوا معه .

لكن عبدة الكواكب استمروا على ضلالهم ، ولم يأبهوا بدعوة ابراهيم وأخذوا في مجادلته وحاولوا تخويفه من آلهتهم ، ولذلك تركهم "عليه السلام" بعد ماأدى واجبه ، وقال لهم ماحكاه الله عنه ،قال تعالى: ﴿ **وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (١) .

*****

" النقطة الرابعة "

(ر كائز الدعوة فى قصة إبراهيم " عليه السلام ")

نظراً لتنوع البيئات والأقوام الذين دعاهم إبراهيم " عليه السلام " فقد كثرت الدروس والعبر التى تستفاد من قصته " عليه السلام " .

ولأهمية إبراهيم فى تاريخ الدعوة ، قال الله تعالي : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ** ﴾(٢) ، وإنى أحاول مستعيناً بالله تعالي أن أوضح بعض

---

(١) سورة الأنعام آية (٨٠) . (٢) سورة الممتحنة آية (٤) .

جوانب الأسوة فى دعوة إبراهيم " عليه السلام " فى إطار الركائز التالية ، وذلك بإيجاز اعتماداً على سبق ورودها فى القصة .

" الركيزة الأولى "

(شخصية مبلغ الدين)

يعتبر إبراهيم " عليه السلام " شخصية مثالية فى مجال الدعوة إلى الله تعالي ، فهـــــو " عليه السلام " كمل إيمانه بالله تعالي ، ووصل فيه إلى حد العلم، الواضح واليقين التام ، وبذلك صار متمكناً من نقل الإيمان إلى غيره ، ومن المعلوم أن فاقد الشئ لايعطيه ، ولايتصور أن يكمل الناقص غيره أبداً ، يقول الله تعالي : ﴿ **وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ** ﴾ يفسر العلماء هذه الآية فيوضحون أن إذ ظرفية ، ومعنى الآية : أرسلنا إبراهيم لقومه وقت أن صار قادراً على مخاطبة قومه، وتكميلهم بما أرسل به .

والكمال الإيمانى عند إبراهيم " عليه السلام " واضح في سيرته كلها ، فقد واجـــه قومه فى بابل ، وعرفهم بالله ، الواحد ، الأحد ، المتصف بكل كمال ، المـــتحكم فى كل أمر وإليه المرجع والمآب .

يروى أنه لما ألقى به فى النار جاءه جبريل "عليه السلام" وسأله : الك حاجة ؟ فرد عليه : أما إليك فلا وأما إلى الله فعلمه بحالي يغنى عن سؤالى .

ونجاه الله من النار ، وأمره بالهجرة من موطنه ، فأطاع ربه : ﴿ **وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ** ﴾ وحط رحله فى المكان الذى حدده الله له . ولما رزق بإسماعيل فى شيخوخته تعلق بولده الوحيد البكر ، وحينئذ أمره الله تعالي بإسكانه مكاناً قفراً ، خالياً من النبات ، والماء ، والناس ، فأطاع ربه ، وأسكن ولده وأمه هاجر فى مكان مكة الحالية طاعة لله تعالي، وقفل راجـــعاً إلى الشام حيث إقامته مع سارة زوجته الأولى، لقد تركهم بجسده وعايشهم بعقله وعواطفه، يروى أنه " عليه السلام " لما وصل عند

الثنية (١) ، وقف فى مكان يراهم منه ، ولايرونه ، ونظر إليهم ودعا الله لهم بما أورده القرآن الكريم .

ولما شب إسماعيل ، وصار قادراً على السعى والعمل أمر الله إبراهيم " عليه السلام " بذبحه فأطاعه ، وأخبر إسماعيل بأمر الله فأطاع إسماعيل أيضاً ، وأسلما الأمر لله ، وأخذا فى التنفيذ ، إلا أن الله تعالي أنزل كبشاً من الجنة ليذبح فداء لإسماعيل .

إن إبراهيم " عليه السلام " قدوة إيمانية عالية ، ولذلك جعله الله للناس إماماً ، واختصه وبنيه بالنبوة والكتاب إلى يوم القيامة .

وقد ربط الله تعالي أمة محمد ﷺ بإبراهيم " عليه السلام " فهم يتجهون فى صلاتهم إلى الكعبة التى بناها إبراهيم ، ويعيشون حياة هاجر وإسماعيل فى فريضة الحج، وهم يطوفون بالبيت ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويتضلعون من ماء زمزم ، ويضحون فى عيدهم الكبير ، يفعلون ذلك عساهم أن يستفيدوا بعظمة هذه الأسوة فى قصة إبراهيم " عليه السلام " ويعملوا بها .

إنه " عليه السلام " كان عارفاً بكل من دعاهم إلى الله تعالي ، فهو يعرف لغتهم ، ومذاهبهم ، وعاداتهم ، ومكان تجمعهم ، ولذلك خاطبهم بلسانهم ، وفهم ردودهم ، وحاورهم ، وكان " عليه السلام " يخاطب كل فريق فى تدينه،ومذهبه، أيا كان إلهه ، وضلاله ومن هنا كانت دعوته لأبيه غير دعوته للملك ، غير دعوته لعبدة الأصنام والكواكب وغيرهم ، لأنه لو ابتعد بدعوته عن واقع القوم ما أهتم به أحد ، ولعاش فى واديه بعيداً عن الناس .

لقد كان " عليه السلام " يستدل بالأدلة المفهومة ، المتصلة بالناس ، وأصنامهم وضلالهم ، ولذلك لم يتمكنوا من الرد على تساؤلاته ، وإنما كانوا يلجأون إلى التهديد والعدوان بعيداً عن موضوع الحوار .

---

(١) الثنية : مكان يشرف على الحجون ومنها دخل النبى ﷺ مكة فى عمرة القضاء .

وقد أوتي " عليه السلام " فطنة فى الدعوة ، وعبقرية فى الجدل والحوار ، وقد سبق عرض مواقفه مع أبيه ، ومع النمرود وكيف جارى عبدة الكواكب حتى انتهى معهم إلى استحالة ألوهية النجوم والكواكب ، وموقفه فى تكسير الأصنام ، وحديثه عن هوانها برهان فطنته التى جعلت الناس يقولون بما قاله فى الأصنام،ونطقوا بكل وضوح :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ .

ومن فطنته " عليه السلام " أنه تخلص من المواقف الصعبة ، بإجابات صادقة، فهمها أعداؤه على،وجه يرضيهم، من ذلك قوله لجبار مصر عن سارة : إنها أختى ، فصدقه الجبار ، مع إنه " عليه السلام " كان يقصد أخته فى الإيمان ، لأنها زوجته .

ولما كسر الأصنام وسأله الناس : من فعل هذا ؟ أشار بأصبعه الكبير نحو الصنم الكبير، وقال : بل فعله كبيرهم هذا ، يقصد أصبعه ، وفهم الناس أنه يقصد الصنم الكبير .

وقوله لعبدة الكواكب : هذا ربى ، على وجه المجاراة ، مع أنه يعرف حدوثها وعدم صلاحيتها للربوبية ، وقد ضمن كلامه ما يشير إلى صدق عقيدته من اللحظة الأولى .

" الركيزة الثانية "

(منهجية الدعوة إلى الله)

بتتبع دعوة إبراهيم " عليه السلام " نستنبط خطة دقيقة ، تصور منهجاً كاملاً فى حركة الدعوة يعتمد المبادئ التالية : ـــ

١ ـــ التخلية قبل التحلية :

يقصد العلماء بهذا المبدأ تطهير الإنسان ظاهراً وباطناً من صور الفساد ، وألوان الضلال على اختلافها ليتسنى له الانتقال إلى الصواب والهدى فى أمن وهدوء ، لأن الإنسان الواحد لايجتمع فيه الأضداد حين تتحد جهاتها ، فهو لايكون كافراً ومؤمناً فى وقت واحد ، وبدين واحد .

وحينما يجمع الإنسان المتعارضين يصاب بالقلق والاضطراب ، ولايكون مخلصاً لواحد منهما ، ولذلك كانت إزالة الكفر وهو ما يعرف **بالتخلية** أولاً أمراً واجباً وبعده يغرس الإيمان وهو ما يعرف **بالتحلية** . .

إن الكوب الواحد لايمتلئ بالنجاسة والطهارة معاً فى وقت واحد ، وحتى نملأه بالماء الطاهر يجب أن ننظفه من الماء النجس أولاً .

هذا المبدأ منهج أساسى عند علماء التربية ، والنفس ، والاجتماع ، لما فيه من فائدة وأثر .

اتبع إبراهيم " عليه السلام " هذا المبدأ ولذلك كان يبدأ مع من يدعوهم ببيان فساد ما هم عليه من دين ، يقول الله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا** ﴾ .

ويبدأ مع عبدة الكواكب بمجاراتهم فى عبادتهم لينتهى بهم إلى بيان فسادها . . وبعد ذلك يدعوهم إلى الإيمان بالإله الحق الذى أرسله لهم .

٢ ــ مراعاة أوليات لها أهميتها :

تتضمن عملية الدعوة جوانب عديدة ، تحتاج من القائم بالبلاغ إلى معرفتها ، **فهناك موضوع الدعوة**، وأساسياته العقيدة، والشريعة، والأخــلاق ، وفى موضــوع الدعوة تظهر أمور تحتاج إلى التركيز ، وتفرض نفسها لأهميتها ليبدأ بها حامل الرسالة ... **وهناك المدعوون** ، وهم طبقات ، وأفراد ، وبعضهم أولى من غيره بدعوته أولاً، وبعده يكون الأخرون .

كما توجد **الوسائل والأساليب** ، وهى متنوعة ، عديدة ، إلا أن بعضها أحق بالبدء به من غيره .. وهكذا.

ولذلك صار معلوماً أن للدعوة أوليات يجب ملاحظتها بالبــدء بــالأهم، ثم بالمهم .. وهكذا ، وقد لاحظ إبراهيم " عليه السلام " هذه الأوليات فبدأ بها ...

فلقد بدأ بدعوة الملك لما له من مقام وتأثير فى الناس ، وخص أباه بالدعوة مع أنه واحد من عبدة الأصنام .. ثم كانت بعد ذلك دعوته إلى الناس .

ومع موضوع الدعوة كان ينادى فى الناس بالتوحيد الخالص لأنه أول قضــايا الدعوة ، وأهمها ، ومن وحد أطاع واستسلم ، ومن ناحية الوسيلة كان يبدأ بالمواجهة المباشرة ، ثم يكون الإستفهام ، والجدل والمجاراة .

وكان " عليه السلام " يفضل استخدام الأساليب العاطفية التى ترقــق القلــوب ، وتصنع الألفة والمودة ، فيناديهم **بقوله** : (**يا أبت**) ، (**ياقوم**) ، وكان إذا يئس من إيمانهم يتبرأ منهم، ومن آلهتهم ، ويعلن لهم ضيقه ، وسقمه ، ويكيد لهم ولأصنامهم ، ويكسرها ، ويهينها .

وحوادث القصة تشير إلى مراعاة الأوليات لما لها من فائدة فى الــدعوة إلى الله تعالي .

٣ ــ التوافق مع الواقع :

عاش إبراهيم " عليه السلام " مع الواقع وهو يدعو إلى دين الله تعالي فهــو" عليه السلام " يلاحظ ما للملك من مقام وسلطان ، فلا يصطدم به ، ولايماريه ، وإنما يلجأ إلى دليل موجز مقنع لم يتمكن الملك من الرد عليه .

كان يمكن لإبراهيم "عليه السلام" أن يبين للملك ضعفه ، وعجــزه وحاجتــه إلى خالقه .. ومع ذلك تركه إلى ما ذكر من دليل مراعاة لوضعية الملك ، وإرضاء لمترلتــه .. مع التزام بالحق ، وتوافق مع الواقع .

وكان لإبراهيم "عليه السلام" مع أبيه نفس المسلك فلم يصرح بضلاله ، و لم يصطدم مع مشاعره ، وإنما وجه إليه عدداً من الأسئلة فى أسلوب رقيق ، تبين مراده ، وتحافظ على مقام البر بأبيه ، وحتى حين أراد أن يواجهه بضلاله أشرك القوم معه فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ .

إن التعامل مع الواقع فن يجب المحافظة عليه فى كل وقت لتتلاءم الدعوة مــع كل زمان ومكان .

****

" الركيزة الثالثة "

(وسائل دعوة إبراهيم)

استعمل إبراهيم " عليه السلام " كافة الوسائل التى تمكنه من تبليغ دين الله للنــاس الذى أرسل إليهم به .

فلقد استفاد بوسيلة **الاتصال الشخصي** ويراد بهــا التوجــه إلى أشــخاص معروفين ، ومخاطبتهم فرداً ، فرداً .

وللاتصال الشخصي فائدة ، وهو أن الداعى يطلع على أثر دعوته فـيمن يخاطبـه ، ويمكنه مناقشته فى الشبه التى يثيرها معه .. ومن فوائده أنه يدفع العقـل إلى الـتفكير والنظر بعيداً عن الجماعة .

استفاد إبراهيم " عليه السلام " بهذا الأسلوب فدعا أباه ، ودعا الملك على ضوء ما فهمنا من القرآن الكريم .

وتوجه إبراهيم " عليه السلام " إلى الناس **بوسيلة الاتصال الجمعى** ، ويراد به مخاطبة جمهور من الناس بواسطة ، أو بغيرها ، سواء كان اجتماعهم وفق نظام وخطـه أو بصـورة تلقائية دعا إبراهيم " عليه السلام " قومه وهم مجتمعون فى يوم عيدهم ، وبين لهـم هـوان آلهتهم ، وفسادها .

ودعا إبراهيم " عليه السلام " **بالوسيلة العملية** بعد أن كسر الأصنام، ووضح لهـم أنها آلهة لاتنفع نفسها ، ولاترد عدواناً يقع عليها ، ودعاهم إلى ترك عبادتها ، وعبادة الله وحده .

ولما خاطب عبدة الكواكب اتخذ من الكواكب نفسها وسيلة توضيحية تشرح عدم استحقاقها للعبادة أبداً .

والمجاراة فن ناجح فى الدعوة إلى الله تعالي ، وهو أن يسلم الداعية للمخاطب ظاهراً بما يؤمن به ، ويجعل نفسه شريكاً له فى معتقده ، ثم يأخذ فى التساؤل عن هذا المعتقد ، ليظهر حقيقته ، ويوضح مدى قربه أو بعده عن الحق .

لقد اتبع الغزالي هذا المنهج حينما شك فى كل المـذاهب ، وأخـذ ينـاقش أصحاب كل مذهب بأسئلة يظهر بها فساد المذهب حتى وصل إلى المـذهب الحـق ، ووضع منهج الانقاذ من الضلال .

وهذا لون من المجاراة ..

اتبع إبراهيم " عليه السلام " هذا المنهج مع من دعاهم إلى الله ، وقد أورده القـرآن الكريم للعبرة والفائدة .

" الركيزة الرابعة "

(أساليب الدعوة)

بمراجعة آيات القرآن الكريم وهى تتحدث عن دعوة إبراهيم " عليه السلام " نرى استعمال إبراهيم " عليه السلام " لعدد من الأساليب ، **وأهمها أسلوب الاستفهام** ، فلقد استعمله فى خطاب أبيه، ومناقشة عبدة الأصنام ، واستعمله مع ابنه إسماعيل حين سأله عن الذبح وقال له : ماذا ترى ؟

إن الاستفهام يرد للإنكار ، وللتقرير ، وللتعجب ، كما يرد للبحث عن الحقيقة ، وهو فى كل أحواله مفيد ، لأنه يحرك عقل طرفى النقاش حول البحث عن غاية السؤال وإجابته ، ويجعل كل طرف يبرز ما لديه من فكرة يراها صحيحة ، وقد يقدم الاستفهام دليلاً مقنعاً ، لأن المسئول إذا عجز عن الإجابة فقد يسلم بما يريده السائل ، ويرضى بفكرته .

ولذلك فإنه أسلوب يحتاج إلى فطنة حامل الرسالة، ليختار من الأسئلة ما يحرك المشاعر ، ويظهر الحق .

ومن أمثلة فطنة إبراهيم " عليه السلام " مع استفهاماته قوله :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ؟

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ؟

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟

فهذه أسئلة يعرفون إجابتها ، لأنهم يصنعون الأصنام بأيديهم ، وينحتونها فى مصانعهم ، ويبيعونها للناس ، ويعبدونها معهم بعد أن يطلقوا عليها أسماء الآلهة من عند أنفسهم ، ولذلك فإن السؤال حينئذ إنكار قوى ، لتألية الأصنام ، وضرورة إعمال العقل ، وتوجيه السؤال فى هذا المجال أسلوب حسن فى الدعوة .

ومن الأساليب التى استعملها إبراهيم " عليه السلام " فى الدعوة مجاراة الخصم، واستدراجه نحو الإيمان ، لأن الاستدراج يوهم المشاركة فى الاعتقاد ، والتوحد فى السلوك ، وحينئذ يلتقى الداعى والمدعو فى تفهم القضية ، ويقبلان على إكتشاف حقيقتها .

والإنسان عموماً يحب من يشاركه فى الدين ، وينفتح قلبه له لأنهما معاً فى مسار واحد ، والمجاراة تحقق هذا لحامل الدعوة .

جاء إبراهيم للناس ، وعرفهم أنه رسول الله ، وطلب منهم أن يشتركوا معه فى التوجه للإله ، فلما رأى كوكباً .. أخبرهم أنه معهم فى عبادته ، وقال : هذا ربى .. ثم تبرأ منه لأفوله ، وزواله ، لأن الزائل لايصلح للألوهية .. ثم انتقل من الكوكب إلى القمر ، وإلى الشمس .. وأخيراً تبرأ من كل آلهتهم لهوانها ، وزوالها ، وبذلك كانت الحجة معه عليهم .

ومن أساليب إبراهيم " عليه السلام " فى الدعوة أنه كان ينتقل فى الموقف الواحد، من دليل لدليل آخر إذا رأى جدلاً ، ومماراة ، من القوم ، لأنه يركز على قضيته، فكل ما يفيدها يأتى به .

ولو نظر لنفسه لأعتز بمقالته ، ودافع عنها ، لكنه " عليه السلام " عاش لرسالته ، ووفى ما عليه ، وآتاه الله أجره فى الدنيا ، **قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾** (١).

*****

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٠) .

٧

لوط عليه السلام

لوط " عليه السلام " ابن أخ إبراهيم " عليه السلام " نشأ معه فى بابل ، واستمع لـه ، وصدقه، وآمن بدعوته ، وهاجر معه إلى " حوران " ، ولما هاجر إبراهيم إلى مصر انتقل لوط إلى " سدوم " وهى قرية تقع شرق النهر فى غور الأردن على البحر الميت ، وهو بذلك كان قريباً من مقام إبراهيم " عليه السلام " بعد عودته من مصر .

والحديث عن لوط ودعوته يحتاج إلى دراسة النقاط التالية :

" النقطة الأولى "

(التعريف بقوم لوط)

قوم لوط هم أهل " سدوم " لأنه عاش بينهم ، وتكلم بلسانهم ، واتخذ بلدهم سكناً له وموطناً (١) .

عبد قوم لوط عدداً من الآلهة، إلا أنهم استغرقوا فى إشباع شهواتهم ، وملذاتهم ، واخترعوا فى الإشباع الجنسي مالم يعرفه أحد قبلهم ، فكان الرجل يأتي الرجل سعيداً بفعلته ، مع أنه شذوذ معارض للفطرة .

وقد أعطاهم الله تعالي كثيراً من نعمه وآلائه ، فأخذوها ووضعوها فى غير موضعها ، ولذلك وصفهم الله تعالي فقال : ﴿ **وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ** ﴾ (٢)

---

(١) سدوم : مجموعة من القرى متجاورة سكنها لوط فصار أهلها قومه ، لأنه سكن معهم ، وتكلم بلغتهم (معجم البلدان ج٣ص٢٠٠) .

(٢) سورة الانبياء آية (٧٤) .

ولتجمع أهل القرية على فعل الخبائث أسند الله الفعل إلى القرية، لبيان تمكن أهلها فى السوء ، مع أنه فاحشة ، ينكرها العقل السليم ، ويأباها الذوق والعفاف ، لكنهم لسوئهم كانوا يفعلونها جهرة، وبلا حياء، أو تحرج ، حتى أنهم شيدوا الاندية لإتيان الفاحشة فيها بصورة جماعية ، يقول الله تعالي : ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (١) .

وسيطرت هذه الفاحشة على نشاطهم ، وحياتهم ، لدرجة أنهم كانوا يرصدون الطرق ، أملاً فى العثور على رجل وافد يشبعون معه شهوتهم .

استمروا على ما هم عليه حتى أتاهم لوط " عليه السلام " ودعاهم إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من فاحشة ، وعدوان .

لم يهتموا بالدعوة ، وكفروا بالله ، واستمروا فى غيهم حتى نزل بهم أمر الله فأهلكهم ودمرهم .

وكما غيروا الفطرة ، وقلبوها على غير وجهها ، قلب الله عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها ، ونجى الله لوطا " عليه السلام " ومن آمن به .

*****

" النقطة الثانية "

(**التعريف** بـ " لوط " عليه السلام ")

آمن لوط " عليه السلام " برسالة عمه إبراهيم ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، واستقر فى " سدوم " بعد عودة إبراهيم " عليه السلام " من مصر .

وتزوج من عرب " سدوم " وتكلم بلسانهم ، فهم قومه الذي بعث فيهم .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٢٩) .

أرسله الله إلى " سدوم " وما حولها من القرى ليدعوهم إلى التوحيد الخالص ، ويبعدهم عن الفحشاء التى سيطرت عليهم ..

وكان للوط ابنتان من زوجته ، آمنتا بدعوته ، وأتبعوه فى الطاعة لله والانقياد لرب العالمين .

أما زوجته فلم تؤمن بدعوته ، وكانت مع قومها ، تنقل لهم أخبـــاره " عليه السلام " وتعرفهم بمن يترل عليه من الضيوف ليتمكنوا منهم ، ويشبعوا شهواتهم ، ولذا فقد هلكت مع الهالكين .

واستمر الإيمان منحصراً فى بيت لوط وحده ، يقول الله تعالي : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وقد مدح الله لوطا ، وبين مترلته العالية ، وقدره الســامي ، فقال تعالي : ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾ (٣) وكان " عليه السلام " على رأس المؤمنين الذين نجوا من هلاك الظالمين .

*****

" النقطة الثالثة "

(حركة لوط " عليه السلام " بالدعوة)

لما بلغ لوط " عليه السلام " الأربعين أرسله الله تعالي إلى قومه فى " سدوم " ليصلح دينهم وحياتهم ، فبدأ " عليه السلام " يبين لهـم ما يدعـوهم إلـيه ، وهو توحيد الله تعالي

---

(١) سورة الذاريات آية (٣٦) .

(٢) سورة الأنبياء آية (٧٥) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٧٤) .

وإخلاص العبادة له ، ووضح لهم أنه أخ لهم ، أمين ، مخلص فى دعوتهم ، يعمل على تحقيق الخير والسعادة لهم بلا أجر أو مقابل ، لأنه سينال أجره من الله الذى أرسله ، قال لهم ما حكاه القرآن الكريم ، قال تعالي : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) .

وهكذا دعاهم فى هدوء ورفق ، وبين لهم بصدق وأمانة ، لكنهم كذبوه ، وهددوه بالطرد ، واتهموه بالعدوان على سلوكهم ، وطلبوا منه أن يبتعد عن الناس ، ومن أقوالهم له : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٤) .

كذبوا دعوته ، وهددوه بالطرد ، وأمروه بالبعد عن الناس ، وجعلوا التطهر تهمة يستحق فاعلها الطرد ، والإخراج من القرية ، والنفي من البلاد .

استمر لوط " عليه السلام " فى دعوة قومه ، وأخذ فى توضيح ضلالهم ، وفساد ما هم عليه ، وبين لهم أن إنهماكهم فى الفاحشة هو الذى أفسد عقولهم ، وأضلهم عن الصواب .

وأخذ فى دعوته طريقة الإستفهام ليوقظ مشاعرهم ، وينبه عقولهم إلى ما عساه قد غاب عنهم ، قال لهم : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَٰلَمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٦١-١٦٤) .
(٢) سورة الشعراء آية (١٦٧) .
(٣) سورة الحجر آية (٧٠) .
(٤) سورة النمل آية (٥٦) .
(٥) سورة الشعراء آية (١٦٥) .

وهو سؤال بسيط ، لكنه يبين بعدهم عن الفطرة السليمة ، وشذوذهم المخالف لأسباب الوجود، فقد أوجد الله الحياة على أساس تزاوج الذكروالأنثى ، وسار على ذلك أمر الناس إلى يومهم هذا ، فما بالهم يشذون ؟!!!! ويأتي الذكر مثيله !!!!!

وبين لهم " عليه السلام " أن فعلهم عدوان وظلم حيث قال : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (١)

وعرفهم أن ذلك إسراف وجهل ، ومضاد للفطرة،وكله فحش وضياع، قال لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٢) قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٣) .

ووضح لهم أن التمادى فى هذه الفاحشة قطع للنسل،وعدوان على الرجال ، وقتل للحياء .. وسوف يتحملون وزره ، ووزر من يأتى به إلى يوم القيامة لأنهم المخترعون له ، و لم يسبقهم أحد إلى فعله ، قال لهم "عليه السلام" : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٤) ، بين لهم ، ونصحهم ، وخوفهم من عذاب الله ... في الدنيا ، وفي الاخرة ..

لكن ...القوم أصموا أبصارهم ، وبصائرهم ، واستهزأوا به ، وردوا عليه :
﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الشعراء آية (١٦٦) .
(٢) سورة الأعراف آية (٨١) .
(٣) سورة النمل آية (٥٥) .
(٤) سورة العنكبوت الآيات (٢٨ ـــ ٢٩) .
(٥) سورة العنكبوت آية (٢٩) .

وظنوه كاذباً ولم يأبهوا به، وبدعوته ، فاتجه لوط لربه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

ضيوف لوط :

أراد الله ابتلاء قوم لوط قبل إهلاكهم، فأرسل إلى لوط " عليه السلام " عدداً من الملائكة ، فى صورة رجال حسان ، أتوه سائرين على أرجلهم ، بعد أن مروا على إبراهيم " عليه السلام " أولاً، وبشروه وزوجته سارة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب .

لما رأى لوط ضيوفه خاف عليهم ، وتألم لعجزه عن صد قومه عنهم ، وأسرعت زوجته إلى الناس تخبرهم بمجئ ضيوف لوط، وتصف لهم محاسنهم، وجمالهم فجاءه الرجال مسرعين لقضاء شهواقم ، ورغباقم الشاذة .

وعرض عليهم " عليه السلام " أن يتزوجوا بناته ، بطريقة شرعية ،قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (٢) .

ردوا عليه بكل استهتار وكبر ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (٣) .

فقال لهم "عليه السلام" ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٤)، فعرفهم لجوءه إلى الله ، وأنه لو تمكن من ردهم بقوة الناس لفعل ، لكنه يستسلم لله ، ويعتمد عليه ، هنا طمأنته الملائكة ، وعرفته أنهم رسل من الله جاءوا لإهلاك القوم الظالمين ،قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٠) . (٢) سورة هود آية (٧٨) .

(٣) سورة هود آية (٧٩) . (٤) سورة هود آية (٨٠) .

إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (١) .

وسار لوط " عليه السلام " ومن آمن معه فى جزء من الليل ، وعند الصبح جاءهم صيحة ، ورفع الله القرية فجعل عاليها سافلها ، ورماهم بحجارة من سجيل ، فأهلكهم جميعاً ، **قال تعالى:** ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (٢) ، لقد أنزل الله عليه الحجارة ، معلمة من الله ، على كل حجر اسم من سيقتله ، وكانت العقوبة مساوية لجرمهم ، فى صيغتها وشدتها ،فإنهم غيروا الفطرة ، وقلبوا الحقائق ، وعبدوا غير الله ، وأتوا الذكران ، وتفاخروا بالفسق ، فكانت عقوبتهم إنقلاب القرية عليهم ، وإهلاكهم وهم جلوس بواسطة أحجار صغيرة تلقى على رؤسهم ، وهى السجيل المنضود ، وإبقاؤهم عبرة لغيرهم .

ومازالت قريتهم " سدوم " باقية حيث كانت، عند البحر الميت، للتذكر والاعتبار ، **قال تعالى:** ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

وهكذا .. أهلك الله قوم لوط بعقوبة تتناسب مع ضلالهم وفسادهم .

" النقطة الرابعة "

(ركائز الدعوة فى قصة لوط)

تمدنا قصة لوط " عليه السلام " ، ودعوته لقومه بعدد من الدروس ، والعبر ، نشير إلى أهمها فى الركائز التالية :

الركيزة الأولى : العلاقة بين الدعاة :

بعث لوط " عليه السلام " فى " سدوم " وهى مجموعة قرى تقع فى شرق النهر ، وبعث إبراهيم فى قومه عند بيت المقدس غرب النهر ، وكانت المسافة بينهما قصيرة

---

(١) سورة هود آية (٨١) . (٢) سورة هود آية (٨٢) . (٣) سورة العنكبوت آية (٣٥) .

قطعتها الملائكة مشياً حتى أتوا لوطا " عليه السلام " .

فلوط وإبراهيم " عليهما السلام " بعثا فى وقت واحد ، وكان إبراهيم يتتبع أخبار لوط ويتمنى له النجاح والفوز ، ولذا حينما أخبرته الملائكة بإهلاك أهل " سدوم " خاف على لوط ، ونبه الملائكة إلى وجود لوط فى القرية، فطمأنوه، وقالو له ما حكاه الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (١) .

هذا التواصل والتناصر يجب أن يكون أساس التعامل بين دعاة اليوم، ليستفيد كل بما عند أخيه من تجربة ، وعلم ، وخبرة ، لأن نجاح الواحد نجاح للآخر .

ولا يصح مطلقاً أن يكون التنافس ، والتضارب موجوداً بين الدعاة ..

إن جميع الدعاة يخدمون دينهم ، ولن ينجحوا فى أداء مهمتهم إلا بالحب والتعاون والموالاة .

الركيزة الثانية : منطق أعداء الحق :

من دعوة لوط " عليه السلام " نرى أعداء الحق ، وجرأهم على الباطل، والتبجح به،وفقدانهم كل ألوان الحياء فى الأقوال والأفعال ، حيث نراهم يوجهون الاتهامات المخترعة للوط، ويصورون المزايا سوءا ، ويقلبون العفة والطهر إلى خطإ وعدوان .

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(٢)، فجعلوا الطهارة جريمة ، ونظروا إلى العفة كأنها عامل من عوامل التخلف ، والإضرار بالمجتمع ، ولذلك حذروا لوطاً من دعوته للطهارة والعفة ، وإن لا طردوه من " سدوم " وأخرجوه منها ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٢) .

(٢) سورة الأعراف آية (٨٢) .

يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ (١) ، واقموا لوطاً " عليه السلام " بأنه يفسد الناس ، وينشر بينهم السوء بدعوته ، وتســاءلوا منكرين ، ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢) ، أنكروا عليه اتصاله بالناس بعدما نهوه عن ذلك ، مع أنه يتصل بهم داعياً إلى الخير ، هادياً إلى الصراط المستقيم ..

وبلغ من وقاحتهم، وجرأتهم، أنهم كانوا يأتون المنكر علانية، بلا حياء ، ولما علموا بقدوم ضيوف لوط، أتوه مسرعين ، لينالوا بغيتهم، قائلين للوط بعدما عرض الزواج ببناتـــه ، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾(٣)،وكأن الشذوذ صار حقاً معروفاً لهم، وعليه أن يسلم به ، ولا يعارضهم .

إن أعداء الدعوة اتهموا لوطاً " عليه السلام " ، سفهاً منهم ، بما يلي :

١- ملازمته للطهر والعفة ، ودعوته إلى التمسك بهما ، جريمة منكرة .

٢- دعوة لوط الناس إلى التوحيد وعبادة الله ، دعوة إلى الفساد ، والفرقة .

٣- اتصال لوط بالناس،وتحريضهم على نبذ الأصنام،وترك المنكرات،يعد إساءة للنظام.

هذا هو منطق أعداء الدعوة ، يلبسون الباطل ثوب الحق ، ويعتمدون علـــى سلطانهم ، وبطشهم، وما دروا أن الله منفذ وعده وهو على كل شئ قدير .

وعلى الدعاة أن يتمسكوا بقضيتهم ، ويدعوا إليها ، بخلق ، ولين ، ويتحملوا كل هذه السفاهات بصبر ، وعزيمة ، وقد واجــه لــوط " عليه السلام " تهديــد قومــه له وللمؤمنين ، وبين لهم أن الباطل لن يكون حقاً أبداً ، والجريمة هي الجريمة ، والشذوذ مرفوض بالشرع والعقل ، ولذلك هو يرفضه ، ويدعو قومه إلى البعد عنـــه ، كمـــا قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الشعراء آية (١٧٦) .

(٢) سورة الحجر آية (٧٠) .

(٣) سورة هود آية (٧٩) .

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٦٨ ــ ١٦٩).

الركيزة الثالثة : الاهتمام بعلاج المرض وأسبابه :

دعا لوط "عليه السلام" قومه إلى التوحيد ، لكنه رأى فيهم انصرافا إلى الشهوة ، واستغراقا فى الهوي ، الأمر الذى حول نشاطهم إلى الفسق والشذوذ .

وكانت لهم أصنامهم ، لكنها كانت هامشية فى حياتهم ونشاطهم ، ولذلك ركز لوط " عليه السلام " على المرض المتفشي فيهم ، وأخذ يبين لهم مساوئه عساهم يبتعدوا عنه ، فهو سوء فى نفسه ، وسبب لبعدهم عن الله تعالي ، وتركهم عبادة خالقهم سبحانه وتعالي

إن مسلك لوط "عليه السلام" هو ما يعرف .. بالتخلية أولاً قبل التحلية ، وهو منهج حسن فى دعوة الناس إلى الله تعالي ، ينتهى بهم إلى توحيد الله تعالي بصدق وإخلاص .

ودعوة لوط " عليه السلام " إلى ترك ماهم فيه من شذوذ ، ليس بعيداً عن دعوتهم إلى التوحيد ، لأن الإلتزام بالفطرة التى خلق الله الناس عليها يتصل تلقائياً بمقتضي الاعتقاد فى الله وحكمته ، ولطف تدبيره ، ولذا كان الانحراف عن الفطرة متصلاً بالانحراف عن العقيدة الصادقة،وبعداً عن منهج الله للناس.

الركيزة الرابعة : أساسيات فى الدعوة :

نلحظ فى دعوة لوط " عليه السلام " بعض الأساسيات الاجتماعية التى توجد فى حياة الناس وفى مجال الدعوة ، وأهمها :

١ــ ارتباط الشذوذ الخلقي بالانحراف الديني ، والعكس بالعكس تماماً ، فى كل مكان وزمان .

فلقد أدى إهمال الدين فى عصر النهضة الأوربية إلى ظهور نظريات الانحراف الفكرى والخلقي ممثلة فى نظرية فرويد ، ونظرية دارون ، و نظرية ماركس .. لأن أصحابها وضعوا أنفسهم فى موضع الله وأخذوا يشرعون ، وينظمون للناس .

٢ ــ المعاندون لدين الله تعالي يعملون ابتداء على إفساد الأخلاق، ليتسنى لهم القضاء على الدين كله بعد ذلك ، **ومن وسائلهم** اتهام الطهر والعفاف بالعدوانية والتخلف، كأن يجعلوا حجاب المرأة سبباً لنشر الرذيلة، وينادوا بتحرير المرأة ،

وهم أول من يعرف أن الاختلاط أدى إلى نشر الرذيلة ، والشذوذ ، وسوء الخلق بين الرجال والنساء على حد سواء .

٣ ــ ضرورة استعلاء المؤمن بما هداه الله إليه ، مع التيقن بأن الحق كله معه فيستمسك به ، ليدوم مع الصواب والخير ، قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

٤ ــ ضرورة تحديد الأمراض الاجتماعية ، وإبراز أخطارها أمام الناس ، ليبتعدوا عنها ، وحتى لايتمكن أعداء الحق من تزيينها ، وزخرفتها أمام الجمهور .

إن قوم لوط لم يتمكنوا من جريمتهم إلا بعد أن زينها الشيطان لهم ، ولذلك ورثوها لأبنائهم ، وكانوا يتسابقون إليها حباً ، وإعتزازاً .

٥ ــ أهمية مواجهة الأمراض الاجتماعية بالعقوبة المناسبة ، لأن القائمين بهذه الأمراض ، يبذلون جهدهم لإحيائها ، ونشرها ، وإذا لم يرتدعوا فلن ينتهوا ، ولذلك وجب القضاء عليهم بالعقوبة المناسبة .

٦ ــ الحاجة شديدة إلى تعاون أجهزة التوجيه ، ومؤسسات تكوين الرأى العام للعمل معاً فى خطة موحدة ، لصيانة المجتمع من الأمراض الضارة ، لأن تفكك الأجهزة يضر ، ولا يفيد ، ويعطى ذريعة لأهل الهوى ليستمروا فى ضلالهم .

---

(١) سورة الحج آية (٥٤) .

٨

شعيب عليه السلام

واصل الموكب العظيم من رسل الله دعوة الأقوام إلى دين الله تعالي ، ليبقى الخير فى الأرض ، وليستمر الناس على ذكر بالحق ، وطريق الله المستقيم ، ومن هؤلاء الرسل شـعيب " عليه السلام " .

ويبدو أن دعوة شعيب " عليه السلام " كانت بعد دعوة لوط بمدة وجيزة ، لقوله تعالي : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (١)

فقوم لوط وما حدث معهم قريب من قوم شعيب زماناً ومكاناً .

يرى بعض المؤرخين أن نسب شعيب ينتهى إلى الكلدانيين ، يقول ابن عساكر : (أم شعيب بنت لوط وكانت ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام) (٢)

وعلى هذا تكون دعوته بعد لوط مباشرة ، وفى زمـن معاصـر لإسماعيـل وإسحاق ولدى إبراهيم " عليهم السلام " .

يؤيد ذلك التصور الجغرافى للعالم العربي يومـذاك ، فـإبراهيم " عليه السلام " فى فلسطين ، ولوط فى " سدوم " ، وشعيب فى "معان" ، وإسماعيل فى الحجاز والـيمن وبذلك تكون دعوة الله شاملة للجزيرة العربية وبلاد الشام .

والحديث عن شعيب " عليه السلام " ودعوته تقتضي التحدث، فى النقاط التالية :

---

(١) سورة هود آية (٨٩) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ١٨٥ .

" النقطة الأولى "

(التعريف بشعيب " عليه السلام")

شعيب " عليه السلام " نبى عربى ، بعثه الله تعالي لقومه من العرب العاربة ، وقد تميز شعيب "عليه السلام" بالفصاحه والبلاغة ، وحسن التوجيه والبلاغ ، يقول عنه ﷺ : (**أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أباذر**) (١) .

وكان بعض السلف يسمي شعيباً عليه السلام" خطيب الأنبياء " لما أشتهر به من دقة و فصاحة ، وبلاغة فى دعوة قومه لدين الله تعالي ، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيب قال : (**ذاك خطيب الأنبياء**) (٢) .

وكانت بعثته إلى قومه قبل زمن موسى " عليه السلام " ، وهنا نلاحظ أن إسماعيل " عليه السلام " كان رسولاً إلى عرب جنوب الجزيرة العربية ، وتشمل الجراهمة وهم أهل مكة ، والعماليق ، وأهل اليمن ، بينما شعيب كان رسولاً إلى عرب شمال الجزيرة العربية، حيث كانت مدين تسكن المكان الذى يتوسط بين مكة وفلسطين قريباَ من " تبوك " الحالية، منذ زمن بعيد ،ويذهب بعض المفسرين إلى أن شعيباً كف بصره لقوله تعالي : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ (٣) ،قالوا إن ضعفه بسبب العمى،وقد رده الله إليه سبحانه وتعالي (٤)

ولما أصر قومه على الكفر ، رحل شعيب والمؤمنوّن معه إلى مكة، وأقاموا بها حتى جاءهم منيتهم فدفنوا بمكة ، يذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه أن شعيباً ومن آمن به ماتوا ودفنوا بمكة ، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوه ودار بنى سهم .

---

(١) يبدو أن عروبة شعيب " عليه السلام" المرادة فى الحديث عروبة اللسان والإقامة لأن نسبه يرجع إلى الكلدانيين .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص١٨٤ .

(٣) سورة هود آية (٩١) .

(٤) انظر الكامل فى التاريخ ج١ ص ١٥٧.

" النقطة الثانية "

(التعريف بقوم شعيب)

أرسل الله شعيباً "عليه السلام" إلى قومه مدين، وهى قبيلة عربية تسكن فى " معان " الواقعة بين الشام والحجاز .

وقد سكن بينهم شعيب بعد هجرته من أرض " بابل " واتقن لغتهم فصار واحداً منهم .

وقد انعم الله على " مدين " بنعم عديدة ، أشار إليها قوله تعالي ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمۡ ﴾ وهذه الكثرة بعد القلة شاملة لعددهم ، ولمعاشهم ، وكافة جوانب حياتهم .

فلقد كانوا عدداً قليلاً فصاروا شعباً عريضاً ، وكانوا ضعفاء فصاروا قوة يقعدون للناس بكل طريق ، وكانوا فقراء فصاروا أغنياء ، يعملون ويتصرفون فى نتاج بساتينهم بالبيع والشراء .

وكان لهم فى مجال التجارة سبق وتفوق ، وكان موقع قراهم سبباً لهذا التفوق حيث تروح القوافل وتغدوا محملة بألوان التجارات صيفاً وشتاءً .

ومع هذه النعم السابغة كفر القوم بالله ، وأشركوا معه آلهة أخرى ، وعبدوها من دونه سبحانه وتعالي .

وشاع فيهم الفساد ، وشمل معاملاتهم ، وأخلاقهم ، ومن صور فسادهم :

١ ـــ التطفيف فى الكيل والميزان ، فكانوا إذا اشتروا مكيلا أو موزونا استوفوه ، وإذا باعوه انقصوه .

٢ ـــ بخس الناس حقوقهم ،والبخس أعم من التطفيف، لأنه يشمل المعدود ، والغش ، والحيل، وإنقاص ما للآخرين ، والتعدى على كافة الحقوق المادية والمعنوية .

٣ ــ الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، والبغي بغير الحق، والعدوان على الأنفس والأعراض ، وإفساد الأخلاق بنشر الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن ، وهدم العمران بالجهل وعدم النظام ، وإنقاص الحقوق ، واللهو ، والعبث ، والعدوان .

٤ ــ صد الناس عن الخير والاستقامة ، يروى ابن عباس : أن مدين كانوا يجلسون فى كل طريق ليخبروا المارة بأن شعيباً كذاب ، ويخوفوهم إن اتبعوه ، وقد يراد بالصراط الذى اتخذوه وسيلة للصد عن الحق أى وسيلة تمكنهم من ذلك حسية أو معنوية ، ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

٥ ــ محاولة تشويه الحق ،وتحويل الدين إلى منهج معوج وفق ما يشتهون ، ويريدون، وهو المراد من قوله تعالي : ﴿ **وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ .

ولهذا بعث الله لهم أخاهم شعيباً يدعوهم إلى التوحيد، وحسن المعاملة ومكارم الأخلاق ، فكان ما كان منهم .

يشير القرآن الكريم إلى أن شعيباً "عليه السلام" أرسل لقبيلة مدين الذى هو منهم ، يقول الله تعالي : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾ ، فهو أخوهم ، كما يشير إلى أنه أرسل لقبيلة أخرى عرفت بأصحاب الأيكة كانت تجاور " مدين " وتشبهها فى العروبة ، والضلال ، والفساد ، يقول الله تعالى: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ .

يذهب قتاده وغيره من المفسرين إلى أن أصحاب الأيكة ليسوا هم مدين ، مستدلين بدليلين :

الأول : أن الله قال مع مدين (**أخوهم شعيب**) ولم يذكر ذلك مع أصحاب الأيكة .

الثانى : أن الله أهلك مدين بالصيحة ، وأهلك أصحاب الأيكة بالظلة ، فهما قبيلتان مختلفتان .

وقد رأى بعض العلماء أنهما قبيلة واحدة وأن الأيكة شجرة عبدها مدين ، واتخذوها إلهاً من دون الله تعالي ، وأن الله تعالي لم يذكر مع أصحاب الأيكة الأخوة لأنه لا يناسب ذكر الأخوة مع ذكر إلاههم " الأيكة " .

والذى أراه — والله أعلم — أنهما قبيلتا عربيتان سكنتا شمال الجزيرة العربية جاءهم شعيب " عليه السلام " بدعوة الله ، لأن التطور البشرى بدأ يظهر فى تجمع الناس على فكر واحد ، وبخاصة من تجاور منهم ، وقد سبق شعيب " عليه السلام " بإرسال إسماعيل " عليه السلام " إلى الجراهمة ، والعماليق ، وأهل اليمن ، وهم قبائل متعددة .

دعا شعيب قومه مدين، وأصحاب الأيكة ، ووضح لهم الطريق وحاورهم ، وبين لهم ، لكنهم استمروا على ضلالهم ، فأهلكهم الله تعالي ، ونجى الله تعالى شعيباً والمؤمنين معه .

****

" النقطة الثالثة "

(حركة شعيب " عليه السلام " بالدعوة)

اختار الله شعيباً " عليه السلام " للرسالة ، وكلفه بدعوة قومه ، فأخذ فى تنفيذ أمر الله له ، ونادى فى قومه بما كلف به .

وبالنظر فى حركة شعيب " عليه السلام " وهو يدعو قومه نراه يسلك منهجاً حكيماً فى توجهه للناس .

فهو — أولاً — يعرض قضيته الأساسية ، ويدعو قومه إلى التوحيد وعبادة الله تعالي وحده قائلاً لهم ما حكاه الله عنه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١)

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٦) .

وقال لأصحاب الأيكة ما قاله لمدين ، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١)

نراه " عليه السلام " يقرن بدعوة التوحيد الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، من باب ترغيب الناس فيما ينتظرهم ، ويذكرهم بالحساب ليستقيم سلوكهم .

ثم أخذ — **ثانياً** — يقدم الأدلة المؤيدة للدعوة ، الشاهدة على أحقية الله بالعبادة وحده ، قال لهم ما حكاه الله تعالي :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣)

يبين لهم "عليه السلام" أن الله سبحانه وتعالي خلقهم،وخلق الأجيال السابقة جميعاً ، وقد بارك لهم فى كل ما خلق ، وزاده كثرة وبركة ، وهاهى آيات الله تبين لهم صدق دعوته لهم " عليه السلام " ، وعليهم أن يتدبروا فى عاقبة الأمم التى سبقتهم ليعتبروا ، وحتى لا يحل بهم ما حل بالأمم السابقة .

ثم ينتقل " عليه السلام " — **ثالثاً** — إلى توجيههم نحو إصلاح معاملاتهم وأخلاقهم بعد فسادها وضلالها ، ذلك لأن دين الله تعالي لايفرق بين طهارة القلب ، وطهارة السلوك ، فلابد لعباد الله المخلصين أن يطهروا قلوبهم بعقيدة التوحيد ، وينظفوا جوارحهم وأخلاقهم بمنهج الله الواحد ، وبذلك يستند الوجود كله إلى أصل ثابت هو الإيمان بالله تعالي ، والصدق فى عبادته ، والتوجه إليه .

---

(١) سورة الشعراء آيات (١٧٧ — ١٧٩) (٢) سورة الشعراء آية (١٨٤) .

(٣) سورة الأعراف آية (٨٦) .

دعاهم " عليه السلام " إلى إصلاح المعاملة والأخلاق فقال لهم ما حكاه الله عنه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (١) .

وقد بين لهم " عليه السلام " ما فى سلوكهم من عدوان، لخلو معاملاتهم من العدل ، ولإنقاصهم حقوق الناس ، ولنشرهم الفساد فى الأرض ، وصدهم الناس عن الإيمان ، وقطع الطريق على المارة ، وأمرهم أن يغيروا هذا المسلك السئ ، ويوفوا الناس حقوقهم ، كيلاً ، ووزناً ، وعداً ، ولا يعتدوا على حقوق الآخرين ، ويتركوا الفساد فى الأرض ، وليس من حقهم ، ولا يليق بهم أن يجلسوا فى الطرقات ، ليقطعوا سبيل المارة ويبعدوهم عن الحق ، واتباع شعيب " عليه السلام " ، وقال لهم : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وقد نبههم " عليه السلام " أنهم فى غنى عن فعل هذه المظالم ، وأنهم لايحتاجون مالاً يأخذونه ظلماً من الناس بلا حق ، فقال لهم : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (٣) ، فهم أغنياء ، وما أعطاهم الله يكفيهم ، وزيادة ، وليس لهم حاجة

---

(١) سورة هود الآيات (٨٤ ــ ٨٦) .   (٢) سورة الأعراف آية (٨٦) .

(٣) سورة هود آية (٨٤) .

فى أموال الناس ، لأنهم لو آمنوا لسلكوا هذا المسلك الطيب من تلقاء أنفسهم ، فما يعطيه الله كاف ، وهو الخير كله .

لكن القوم لم يسمعوا ، ولم يؤمنوا ، واستمروا فى جهالتهم ، وضلالهم وقاموا بالرد على شعيب ومواجهته بعدة صور :

فمرة يستميلونه بالمدح قائلين له : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (١) ، ظناً منهم أنه باحث عن مجد شخصى ، وراغب فى السلطان والتعظيم ، لكنه " عليه السلام " ليس من هذا الطراز ، فهو رسول الله ، ولذلك لم يتأثر بمديحهم .

وأخرى يتهمونه بالكذب فى دعوى أنه رسول ، وفى قوله إن الله إله واحد ، قائلين ، ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (٢) ، فكذبوه فى رسالته ، لتصورهم أن الرسالة لاتكون لبشر ، ولذلك عدوه واحداً من الكاذبين الذين يدعون الرسالة بين الحين والحين ، فوضعوا أنفسهم فى موطن الحكم على رسالة الرسول بلا بينة أو برهان ، وذلك من ضلالهم ، وعدوانهم .

ومرة يتهمونه بأنه مسحور ، قائلين له : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٣) ، ولم يبينوا له من سحره ؟ ، ولم يذكروا دلالة السحر فى دعوته لهم ؟ وهل المسحور يعرض قضية تتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق بهذه الصورة التى عرضها لهم ؟

إن كل الدلائل تشير إلى كذب القوم وضلالهم فى هذه الدعوة .

ومرة يتصورونه جاهلاً يمنعهم من حرية التصرف فيقولون متهكمين، كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (٤) ، فهم بقولهم هذا يهزأون

---

(١) سورة هود آية

بالصلاة وكأنها هى التى أضلت شعيباً ، فجعلته ينادى بمخالفة الآباء ، ويمنع حرية التصرف الاقتصادي ، ويهزءون بشعيب ؛ لأنه يأخذ دينه وصلاته من خياله، لا من ربه ، ويزعمون أن دعوته ليست نابعة عن إقتناع منه لتميزه بالرشد والحلم ، والحليم الرشيد لايقول مثل قوله ...... وهذا من ضلال القوم ، وجهلهم ، لأن من مقتضيات العقيدة الصحيحة إتباع المنهج الإلهي الصحيح فى الشريعة ، والأخلاق ، أما الزعم بانفصال العقيدة عن أمور الحياة ، ونظام الوجود ، وألوان الأخلاق فهو باطل فى دين الله تعالي .

وبعد كل هذه الاتهامات الضالة انتقل القوم إلى التهديد ، فلقد حكى الله عنهم ما قالوه له ، قال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (١) ، و قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ (٢) ..

فهو " عليه السلام " فى نظرهم ضعيف ، أتباعه قليلون ، ولولا عصبته، وقرابته لرجموه ، وهاهم يعلنون له عزمهم على طرده من البلاد ، وإبعاده عن إفساد العباد، هو ومن معه ، إن لم ينته ، ويترك دعوته ، ويعود إلى ملتهم ، مكرهاً ، لكنه " عليه السلام " وضح لهم أنه لن يعود أبداً إلى ملتهم ، وضلالهم ، بعد أن أنقذه الله تعالى، وأتاه رحمة من عنده ، ورزقه رزقاً طيباً ، كما وضح لهم أنه يدعوهم إلى الحق الذى يؤمن به ، ويثق فيه ، ولايصح لأصحاب الحق أن يخالفوا ما يدعون إليه ، لأن مخالفة الحق كذب وإفتراء على الله ، لايرتكبه الرسل ، والدعاة أبدا ، ولذلك قال لهم " عليه السلام "

---

(١) سورة هود آية (٩١) .

(٢) سورة الأعراف آية (١٨٨) .

ما حــكاه الله تعالي : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ (١)

يئس القوم من شعيب بعد تهديده ، ولذلك لجأوا إلى قومه لإبعادهم عن شعيب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ (٢) .

قابلهم شعيب بأخلاق النبوة، والدعوة، وبين لهم عدة أمور :

١ ــ فهو " ﷺ " رسول الله إليهم ، يدعوهم إلى الحق ، وينصحهم بكل ما يحقق لهم الخير ، بلا أجر يأخذه منهم ، فليس له حاجة ليكذب عليهم، وعلــى الله ، قـــال لهـــم : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (٤) .

٢ ــ وبين لهم أن الله عليم بأحوالهم ، وأقوالهم ، وسيحاسبهم على انحرافهم هذا ، قال لهم : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٥) ، ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٦) .

٣ــ ونصحهم حتى لاتكون عداوتهم له سبباً فى عدم الإيمان ، وترك التفكير ، وإهمال النظر ، وعليهم أن يفكروا فى الدعوة من كل نواحيها ، فى حقيقتها ، وفائدتها، ومصير مـــن يخالفها ، معتبرين فى ذلك بالأمـــم التى سبقتهم ، قـــال تعـــالى

---

(١) سورة الأعراف آية (٨٩) .　　(٢) سورة الأعراف آية (٩٠) .
(٣) سورة الشعراء آية (١٨٠) .　　(٤) سورة الشعراء آية (١٧٨) .
(٥) سورة هود آية (٩٢) .　　(٦) سورة الأعراف آية (٨٦) .

﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (١) ، لكنهم لم يتأثروا بهذا التخويف،و لم يعتبروا بمصارع السابقين المعروفين لهم .

٤ ـــ عاتبهم فى استخفافهم بحق خالقهم ، وخوفهم من عبادة غير الله تعالى ، قال لهم ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٢)

٥ ـــ أكد لهم " عليه السلام " تمسكه بالعبودية الخالصة لله ، والإقرار المطلق بحقه سبحانه وتعالي ، ولذلك فهو مستمر فى دعوته غير آبه بمعارضتهم ، واثق بنصر الله وعونه ، يسير بأمر الله ما دام فى الحياة ، قال لهم ما حكاه الله تعالي : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣) .

وأخيرا كانت المفاصلة الواضحة ، حيث ظهر المؤمنون بإيمانهم ، وتمسك المعارضون بكفرهم ، وأنقسم القوم إلى فريقين ، قال فريق الكفر لشعيب ، ما حكاه الله تعالى ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٤)

ورد عليهـــم شعيـــب " عليه السلام "بقوله تعالى : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى

---

(١) سورة هود آية (٨٩) . (٢) سورة هود آية (٩٢) .

(٣) سورة هود آية (٨٨) . (٤) سورة الشعراء آية (١٨٧) .

عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (١) ، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (٢)

لقد أعلن لهم أنه نصحهم بصدق ، وأمانة ، لكنهم قابلوا الدعوة بالجحود ، والكفر .. وعليهم أن يترقبوا مصيرهم حين يترل بهم العذاب ، ولن يتألم ، أو يتأسف على هلاكهم لأن ما سيترل بهم هو قضاء الله العادل فى الكافرين .

وكانت النهاية مفجعة ..

نجى الله شعيباً والذين آمنوا معه ، يقول تعالي ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ (٣) .

أما الضالون المكذبون فقد نزل بهم العذاب فى صور عديدة فأهلكهم جميعاً ، يقول تعالي : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٦)

---

(١) سورة هود آية (٩٣) .
(٢) سورة الأعراف آية (٩٣) .
(٣) سورة هود آية (٩٤) .
(٤) سورة الأعراف آية (٩١) .
(٥) سورة هود آية (٩٤) .
(٦) سورة الشعراء آية (١٨٩) .

إنه عذاب واحد ، وإن اختلفت مسمياته، ذلك أنه أصابهم حـــر شـــديد ، وانقطع عنهم الهواء سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ، ولا ظل ، ولا دخولهم فى الأسراب ، فهربوا من محلتهم إلى البرية ، فأظلتهم ســحابة ، فـــاجتمعوا تحتـــها ليستفيدوا بظلها ، فلما اجتمعوا جميعاً تحتها ، جاءهم من السماء صيحة عالية، ارتجت لها الأرض رجـــا عنيـــفاً، فأزهقـــت الأرواح، وخربت الأشباح ، وماتوا جميعـــاً وهم جاثمون على ركبهم ، وبذلك اجتمع فى مماتهم جنود الله تعالي ،التي سلطها عليهم وهي : الظلة، والصيحة، والرجفة ، وهكذا تعددت أسباب مـــوتهم كمـــا تعـــددت مفاسدهم وضلالاتهم والله على كل شئ قدير .

****

" النقطة الرابعة "

(ركائز الدعوة فى قصة شعيب " عليه السلام ")

قصة شعيب مع دعوة الله غنية بالدروس ، مليئة بالعبر والفوائد ، وهى تمدنا بالركائز الدعوية التالية : ـــ

الركيزة الأولى : المعرفة الشاملة بالمدعوين :

من أساسيات دعوة شعيب " عليه السلام " التوجه إلى قوم يعرف عنهم كل شئ ، عقيدتهم ، ومعاملاتهم ، وأخلاقهم ، ولذلك نراه يعايش هذه الحقائق حين الـــدعوة ، حيث يحدد لهم جوانب الضلال والفساد بدقة ، ويبين أوجه الخطأ فيه،ويـــدعوهم إلى الحق بالدليل والبرهان .

فلقد بين لهم " عليه السلام " أن الله الذى يدعوهم لعبادته وحده، مستحق لـــذلك، فهو خالقهم ، ورازقهم ، وأمرهم كله بيده ، وليس هناك ما يدعوهم إلى الظلـــم فى البيع والشراء ، والتعدى على الناس ، وسلب الحقوق ، وصد العامة عـــن الإيمـــان ، ومحاولة تشويش الحق بخلطه بالباطل ، وكل هذه حقائق يقر بها الناس، ولذلك لم يردوا

عليه فيها ، وإنما تركوها ، وأخذوا يجادلون فى مسائل جانبية من حيث قلة أنصـــاره ، وتهديده بالطرد ، والسخرية به ، شأن المفسدين فى كل وقت .

إن المناقشة الموضوعية التى تقصد الحق تصل إليه بســـهولة .. أمـــا هـــؤلاء المفسدون فكانوا يسلكون مسلكاً غوغائياً ، لايفيد فى الحــــــــوار أبـــداً .. لكـــن شعيباً " عليه السلام " كان لهم بالمرصاد فكلما شوشوا رد عليهم وأخذهم إلى دعوته وقضيته

الركيزة الثانية : تكامل المنهج الإلهى :

فى دعوة لوط " عليه السلام " وجدناه ينادى بالتوحيد ، ويركز بعده على ضرورة ترك ماهم فيه من شذوذ ، والتخلق بأخلاق الله .

ومع شعيب " عليه السلام " رأيناه ينادى بالتوحيد ويركز بعد ذلك على فساد القوم فى معاملاتهم وأخلاقهم .وفى هذا بيان فى ضرورة إيمان الناس، بالمنهج الإلهى بصـــورة متكاملة، بلا فصل بين العقيدة والشريعة والأخلاق ، فلقد أنزل الله لكل أمر قـــدره، وعرف البشر بالعقيدة الصحيحة ، والشريعة الربانية ، والخلق الكريم ، وأنزله وحيـــاً على لسان رسله ... ومن هنـــــا فلا مجال لمؤمن أن يأخذ جانباً ويترك غـــيره ، لأن ترك الثاني إهمال للأول فى الحقيقة ، يقول سيد قطب : (**لا تستقيم عقيدة التوحيـــد فى القلب ثم تترك شريعة الله فى المعاملة والخلق ، ولايمكـــن أن يجتمـــع التوحيـــد والشرك فى شخص واحد**) (١) .

وكيف يكون الإنسان موحداً فى عقيدته مشركاً فى عمله وسلوكه ؟ !!

من هنا نعرف سر توجهات لوط وشعيب " عليهما الســـلام " فى الـــدعوة وتركيزهما على إصلاح العقيدة والشريعة والأخلاق.

وفى ذلك درس لأولى الألباب ..

---

(١) فى ظلال القرآن ج١١ ص ١٢١ـــ طبعة دار البيان العربى .

الركيزة الثالثة : منطلقات الدعوة :

نلحظ فى دعوة شعيب " عليه السلام " دقة توجهه بالدعوة إلى الناس ، فلقد اتبع منهجاً مؤثراً له قيمته فى تحقيق الألفة ، وكسب المودة .

من ذلك أنه أخذ يناديهم بلفظ محبب ، معبر ، قائلاً لهم " ﴿ يَـٰقَوْمِ ﴾ ، ومن المعلوم أن الرائد لا يكذب أهله ، وابن العشيرة يحميها ، ويدافع عن مصالحها ، ولذا فإظهار روح القومية عامل يقرب القلوب ، ويحقق المودة ، ويؤدى إلى الاستماع والفهم ، ويجعل الحوار مثمراً مفيداً .

ومن أمثال هذه الكلمات المفيدة فى الخطاب ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ ، ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ ... ﴿ يَـٰبُنَىَّ ﴾ ، ولذلك كان من دقة شعيب أن ناداهم حين دعوهم بهذا النداء المفيد .

ومن ذلك التعامل بحسن الخلق، ولين الجانب، فهو برغم أن دعوته موجهة إلى بطلان عقيدهم ، ومعاملاهم ، كان يبين لهم أنه ناصح أمين ، يحب الخير لهم ، ويدعوهم لما فيه الفوز والفلاح ، وحينما كانوا يشتدون فى الرد على دعوته قائلين ، ما حكاه الله تعالى عنهم :﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾** ﴾ ، كان يلاطفهم فى الخطاب ، ويقول لهم **ما حكاه الله تعالى** : ﴿ **قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (١) .

---

(١) سورة هود آية (٨٨) .

ويقول لهم فى لين ورفق ، ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (١) .

ومن ذلك التعامل مع الناس بواقعية ، فهو من الناس، ولهم أخطاؤهم، ولذلك ترفق معهم فى الخطاب ، ودعاهم إلى التوبة ليغفر الله لهم ، وحصر دعوته فى الباطل الذى يعيشون فيه ، وهو الشرك ، وسوء المعاملة ، وإفساد الناس .

ومن حكمته أنه " عليه السلام " كان يعبر عن طلبه بصورة مباشرة ، وموجزة ، وواضحة ، ولذلك نرى تصوير القرآن الكريم لدعوة شعيب يأتى فى كلمات موجزة .

وقد بين " عليه السلام " لهم الآثار المترتبة على موقفهم من الدعوة حيث رغبهم فى الطاعة ، وخوفهم من المعصية بصورة مفصلة مركزة ، ولكنهم استمروا على ضلالهم ، و لم يتأثروا بما قيل لهم ، وقالوا له : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٢) ...

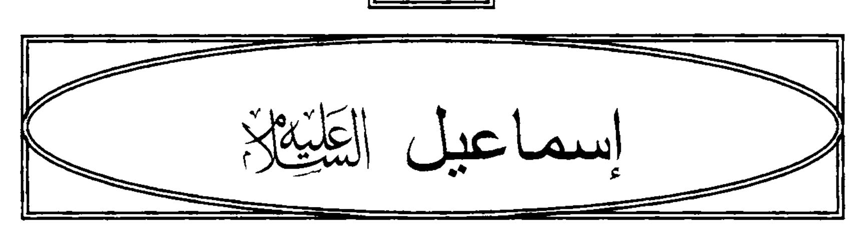
فأنزل الله بهم وعيده وأهلكهم جميعا .

******

---

(١) سورة هود آية (٩٠) .

(٢) سورة الشعراء آية (١٨٧) .



٩
إسماعيل عليه السلام

بلغ إبراهيم " عليه السلام " من العمر ستاً وثمانين سنة ، ولم يرزق بولد ، فدعا ربه :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١) ..

فاستجاب الله دعاءه وبشره بالولد عقب دعائه ، يقول تعالي :

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (٢) ..

وحتى يتحقق قدر الله ، وتوجد هذه البشارة فى أرض الواقع ، وهبت سارة لإبراهيم أمتها " هاجر " المصرية ، فتزوجها ، وحملت بـــ " إسماعيل " وولدته فى أرض الشام ، بجوار بيت المقدس حيث مقام أبيه ، فى قرية " حبرون " وهى مدينة "الخليل" الحالية .

لكن سارة رأت تعلق قلب إبراهيم بولده ، فتألمت ، وغارت ، وطلبت من إبراهيم أن يسكن هاجر وولدها بعيداً عنها ، وأوحى الله لإبراهيم " عليه السلام " أن يحقق لسارة طلبها ، وعرفه بالمكان الذى يسكن فيه هاجر وولدهاً .

رحل إبراهيم " عليه السلام " بهاجر وإسماعيل صوب الجنوب ،حتى وصل إلى واد جاف،لا زرع فيه ولا ضرع ، لا ماء ولا نماء ، لا ثمر ولا شجر ، وأنزلهما فيه ، وترك لهما قليلاً من الزاد والماء ، وقفل راجعاً من حيث أتى ، فتعلقت هاجر به وهى تناديه : يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا ؟ من يحمينا ؟ من يسقيننا ؟من يطعمنا ؟ تناديه وتكرر النداء ... ثم قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ !

---

(١) سورة الصافات آية (١٠٠) .

(٢) سورة الصافات آية (١٠١) .

قال إبراهيم " عليه السلام " : نعم ...

فأجابته هاجر " رضى الله عنها " وقالت : إذاً لا يضيعنا (١)

ورفع إبراهيم يده إلى السماء وهو يقول : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (٢) .

واستجاب الله دعاء إبراهيم " عليه السلام " ، ونبعت زمزم ، وجاءت أفواج من الجراهمة ، وسكنوا المكان فتأسست مكة المكرمة .

تعلم إسماعيل العربية ، وصار رجلاً يافعاً ، واختبره الله تعالى بأن أمر أباه إبراهيم " عليه السلام " بذبحه ، فلما أخبره أبوه بذلك أستسلم له ، **قال تعالى:** ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٣) ..

وأسلم نفسه لأبيه لينفذ ما أمره الله به ، وقال له : يا أبت أشدد وثاقي، وحد الشفرة وتلني للجبين، حتى لا تقع عينك على عيني، فتأخذك الرحمة والشفقة دون تنفيذ أمر الله ، وخذ ثيابي ، واقرأ على أمي مني السلام ... خضع إسماعيل " عليه السلام " صابراً مخلصاً ، ففداه الله بذبح عظيم .

وقد تزوج إسماعيل " عليه السلام " من الجراهمة زوجتين ، طلق الأولى ، وأمسك بالثانية لأنه بعدما تزوج الأولى جاء إبراهيم " عليه السلام " من الشام ليتفقد أحواله وأمه ، فوجد أن هاجر" رضى الله عنها " قد ماتت ، وأن إسماعيل قد تزوج ، فسأل عن بيته، حتى إذا جاءه لم يجد إلا زوجته،فسألها:أين إسماعيل ؟ قالت:خرج يبتغي رزقاً..

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٥٤ .

(٢) سورة إبراهيم آية (٣٧) .

(٣) سورة الصافات آية (١٠٢)

فسألها: كيف عيشتكم ؟ قالت : نحن بشر وسوء حال .. فقال لها : إذا جاء إسماعيل فأقرئي عليه السلام ، وقولي له : غير عتبة بابك ، فلما رجع إسماعيل فكأنما شعر بشئ ، فقال لها : هل زارنا أحد ؟قالت : نعم ، وأخبرته بما جرى ، فقال لها : ذاك أبي يأمرني بطلاقك ، فطلقها وألحقها بأهلها .. ثم تزوج بأخرى من الجراهمة أيضاً،فجاء إبراهيم مرة أخرى فلما سألها عن عيشتها ؟ قالت ، نحن بخير وسعة ، والحمد لله ... قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : ما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .. ثم قال لها : إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام ، وقولي له : ثبت عتبة بيتك ... فلما رجع إسماعيل أخبرته زوجته بما جرى ، فقال لها : ذاك أبي يأمرني بالإمساك بك (١) .

وأمسك إسماعيل " عليه السلام " بزوجته الثانية ، ورزق منها بالذرية ، وبث الله منهما أمة العرب ، ومن أمة العرب جاء محمد " صلى الله عليه وسلم " .

فلئن كان إسحاق هو أبو الإسرائيليين ، فإن إسماعيل هو أبو العرب .

وقد ساهم إسماعيل مع إبراهيم فى بناء الكعبة على القواعد التى وضعتها الملائكة .. وبعد أن أتما بناءها دعوا الله ربهما ، **قال تعالى:** ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (٢)

واستجاب الله الدعاء ، فنشأت مكة قرية جديدة ، سكنها أبناء إسماعيل الذين كونوا أمة جديدة هى أمة العرب،وجعل الله الكعبة البيت الحرام قبلة للعالم كله ، تتعلق بها القلوب والعقول ، ويقصدها الناس رجالاً وركباناً من كل فج عميق .

---

(١) الكامل ج١ ص٢٥٨ ـــ ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة الآيات (١٢٧ ـــ ١٢٩) .

كان إسماعيل " عليه السلام " نبياً يدعو قومه، الجراهمة، والعماليق، وأهل اليمن، بدين الله تعالى ، مخلصاً لربه ، حليماً صابراً فى خلقه ، ملتزماً بكل ما أوحى الله به إليه ، صادقاً فى كل ما دعا به " رضى الله عنه وأرضاه " ، يقول الله تعالي عن إسماعيل " عليه السلام " : ﴿ **وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا** ﴾ (١) .

ويلاحظ هنا أن إسحاق " عليه السلام " ولد ونشأ فى بلاد الشام ، قريباً من بيت المقدس ، وهى مسكونة بأهلها الكنعانيين ، وتناسل منه يعقوب " عليه السلام " ، ومن يعقوب جـــاء يوسف " عليه السلام " واخوته ، وقد انتقلوا جميعاً إلي مصر ، وعاشوا بها إلى زمن موســـى " عليه السلام " .

أما إسماعيل فقد نشأ فى أرض صحراوية غير مملوكة لأحد ، أحياها هو وبنوه بماء زمزم ، وصاروا ملاكها ، وأصحابها .

وكانت العظمة فى أبناء إسماعيل أن أختار الله منهم خاتم الأنبياء، محمداً "صلى الله عليه وسلم" رسولاً إلى العالم كله ، بدين الإسلام الناسخ لكل الأديان ، الصالح بإذن الله إلى يوم القيامة ، يقول تعالي : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ (٢) ..

فإسماعيل " عليه السلام " هو جد نبينا صلى الله عليه وسلم ، يروى مسلم بسنده عن وائلة بن الأسقع " رضي الله عنه " قـــال : سمعت رســـول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول : (**إن الله اصطفى كنانة مـــن ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم**) (١) .

---

(١) سورة مريم الآيات (٥٤ ـــ ٥٥) .

(٢) سورة آل عمران آية (٨٥) .

وعاش إسماعيل عمره فى مكه ، ولما جاءته المنية دفن ﷺ بها (٢) .

يذكر المؤرخون أن إسماعيل " عليه السلام " دفن مع هاجر فى حجر إسماعيل بمكة ، لكن ذلك لم يثبت بحديث مرفوع ، ولو كان كلام المؤرخين صحيحاَ لأشتهر الخبر لما له من صلة بالإسلام ، فالمسلمون يحجون إلى مكة ، ويتخذون حجر إسماعيل مصلى تستحب الصلاة فيه ، وهذا لايجوز إن كان قبراً ، لإسماعيل " عليه السلام " .

****

---

(١) صحيح مسلم ج١٥ ص ٣٦ .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ١٩٣ .

أنبياء بني إسرائيل " عليهم السلام "

انحصرت النبوة بعد إبراهيم " عليه السلام " في ذريته ، يقول تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) ، وانشطرت النبوة بولديه إسماعيل وإسحاق "عليهما السلام" إلى سطرين ، **وجاء الشطر الأول** من إسماعيل حيث نشأ العرب، وختمت النبوات بمحمد ﷺ النبي العربي الأمي .

وجاء الشطر الثاني من إسحاق إذ ولد له يعقوب المعروف بإسرائيل ومن ذرية إسرائيل (يعقوب) جاء أنبياء بنى إسرائيل ، وهم يوسف ، وأيوب ، وذو الكفل ، ويونس ، وموسى ، وهارون ، وإلياس ، واليسع ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى " عليهم جميعاً سلام الله وبركاته " .

ومن أنبياء بنى إسرائيل من أرسل لغير الإسرائيليين كـ " يونس" عليه السلام الذي أرسل إلى أهل (نينوى) وهم ليسوا من أبناء يعقوب إلا أن أغلب الأنبياء بعد يوسف " عليه السلام " بعثوا إلى بنى إسرائيل .

ويبدو أن أنبياء بنى إسرائيل كان يكمل بعضهم بعضا فليس أحدهم ناسخاً لمن سبقه ، وإنما كان يأتي بجديد يتمم رسالة الله لقومه ، يحيى ما نسى ، ويصحح ما حرف ، ويشرع لماجد .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٢٧) .   (٢) سورة الأنعام الآيات (٨٤ ـــ ٨٦) .

ولعل ما تميز به الإسرائيليون من حب للمادة ، وميل للسيطرة والاستعلاء ، ورغبة في الخلود والدوام كان ينسيهم تعاليم الله ، ويدفعهم إلى الاختراع والتحريف ، ويبعدهم عن الروحانيات السامية ، والأخلاق الفاضلة .

ولذلك اقتضت حكمة الله تعالي بتتابع الرسل فيهم ، لإيقاظهم ، وإبراز الدعوة الإلهية بينهم بصفائها ، وصدقها ، و أخلاقها ، يقول الرازي : وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة ألاف سنة (١) .

إن القرآن الكريم لم يعرض مع أنبياء بنى إسرائيل جوانب الدعوة جميعاً ، وإنما أبرز مع كل نبي جانباً معيناً يفيد المجتمع والناس ، حتى إذا عشنا مع سائر الأنبياء نرى صورة متكاملة للدعوة من ناحية الحركة بالدعوة ، والركائز المفيدة فيها .

وقد درج المؤلفون في دعوات الله وهم يكتبون عن أنبياء بنى إسرائيل الاكتفاء بأهمهم كيوسف وموسى وعيسى " عليهم السلام " لتوسع الجوانب التي أوردها القرآن الكريم عنهم ، ووضوح دعوتهم إلى قومهم .

ولكني أوثر هنا وأنا أكتب في تاريخ الدعوة أن أتناول بالكتابة كل أنبياء بني إسرائيل ما دام قد ذكرهم القرآن الكريم ، أطيل الكتابة عن من ورد ذكرهم مطولاً ، واختصر مع من ذكروا باختصار ، وبذلك أتناول سائر جوانب الدعوة في بنى إسرائيل وفى غيرهم ، واستنبط من سير أنبيائهم الدروس والعبر .

وإنه لمهم أن أعيش مع أصول الإسرائيليين ، وأتعرف على طبائعهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وأديانهم عسى أن تتضح أمامنا طبائع اليهود المعاصرين ، الذين يعيشون بيننا في مواجهة تحتم ضرورة التعامل معهم بوعي ، وفهم ، وحذر .

وإني لأرجو من الله التوفيق والسداد....

---

(١) تفسير الرازي ج١٣ ص ٥٨ .

١٠

إسحاق عليه السلام

تزوج إبراهيم " عليه السلام " من ابنة عمه سارة ، واستقرا بجوار " بيت المقدس" بعد ترحال من بلدهما " كوثى " إلى " حوران " إلى مصر ، وقد بلغ سن إبراهيم مائة وعشرين عاماً ، وبلغت سارة التسعين ، ولم تنجب بعد لعقمها ، وفجأة جاءت الملائكة لإبراهيم تبشره بولد تلده " سارة " ، وعن هذه البشارة يقول الله تعالي ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (١) ..

كانت سارة تقوم بخدمة ضيوف زوجها ، وتسمع حديثهم من وراء ستر ، فضحكت تعجباً من هؤلاء الضيوف الذين لا يأكلون ، ولا يمدون أيديهم للطعام ، وقيل ضحكت سروراً بالبشرى التي حملتها الملائكة لها ، لأنها علمت أنها ستنجب " إسحاق " وستعيش حتى ترى ولده " يعقوب " ، وقيل ضحكت بمعنى حاضت .

ولقد اصطفى الله تعالي إسحاق ، وكلفه بالرسالة ، واختاره ليسير على خطي أبيه إبراهيم " عليه السلام " ، يقول الله تعالي : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة هود آية (٧١) .

(٢) سورة الصافات الآيات (١٠٩ ــ ١١٣) .

فإسحاق " عليه السلام " نبى ، ومن الصالحين ، هداه الله إلى الدين المستقيم، وأختاره لنفسه ، وجعله إماماً للناس يدعوهم إلى الخير ، ويهديهم بأمر الله إلى الدين الحق ، ووفقه لإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والمحافظة على كافة جوانب العبادة الصحيحة ، التى تسعده فى الدنيا ، وتذكره بالآخرة ، وتجعله من الأخيار الذين اصطفاهم الله تعالي ، يقول الله تعالي : ﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

ويقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢) .

يصف النبى " صلى الله عليه وسلم " إسحاق " عليه السلام " فى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمر " رضي الله عنه " قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم ": (**الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق**) (٣) .

وقد رزق إسحاق " عليه السلام " بولدين هما يعقوب وعيصو ، و" يعقوب " هو المعروف بـ " إسرائيل " ومنه تناسل الإسرائيليون جميعاً ، أنبياء وشعباً ، إلا أنهم لم يستمروا فى بلاد الشام، فلقد ألفوا حياة البادية والتنقل ، إلى أن ولي يوسف " عليه السلام " أمر الخزائن والمال فى مصر، وجاء إخوته فعرفهم وقال لهم : ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنعام آية (٨٧).   (٢) سورة الأنبياء الآيات (٧٢ ـــ ٧٣) .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٨ ص٣٦١ .

(٤) سورة يوسف آية (٩٢) .   (٥) سورة يوسف (٩٩) .

وهكذا ترك الإسرائيليون الشام لأصحابها ، ونزلوا بمصر متمتعين بسلطان يوسف ومكانته ، واستمروا على ذلك حتى هربوا منها مع موسى " عليه السلام " .

إلا أن إسحاق ظل مقيماً طوال حياته فى أرض الشام بقرية " حبرون " (١) التى هى من أرض كنعان ، ولقى " عليه السلام " ربه عن عمر يبلغ مائة وثمانين سنة (٢) ، ودفن مع أبيه " إبراهيم " " عليه السلام " فى المغارة التى دفن بها من قبل .

****

---

(١) حبرون : بالفتح ، ثم السكون ، وضم الراء ، اسم القرية التى دفن فيها إبراهيم ، وسارة ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف " عليهم السلام " ، وهى مدينة الخليل الحالية (انظر : معجم البلدان ج٢ ص ٢١٢) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ١٩ .

١١

يعقوب عليه السلام

يعقوب " عليه السلام " هو بشرى الله لإبراهيم حين جاءته الملائكة، وبشرته بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

وقد أشتهر بمسمي " إسرائيل " ومعناها فى العربية " عبد الله " ، وعن زواج يعقوب ، وأولاده يروى ابن كثير أن يعقوب " عليه السلام " اختلف مع أخيه ، عيصو، فاشتكى إلى أمه وأبيه، فنصحاه بان يذهب إلى خاله بـ " حران " ويبقى عندهم مدة ، ويتزوج إحدى بناته ، فلما قدم على خاله بـ " حران " ، وجد له ابنتين ، فخطب الصغرى لجمالها ، واشترط خاله أن يمهرها برعى الغنم سبع سنين ، ، فلما أتمها أنكحه خاله الكبرى، لأن من عادتهم أن لاتتزوج الصغرى قبل الكبرى ، وقال له إن أردت الصغرى فاخدمنى سبع سنوات أخر لتتزوجها أيضاً ، وكان الجمع بين الأختين سائغاً فى ملتهم ، فلما انتهت المدة الثانية تزوج الصغرى ، ووهب خال يعقوب لكل من بنتيه جارية ، فدخل يعقوب بالبنتين والجاريتين ورزقه الله منهم اثني عشر ولداً (١) ، منهم يوسف الذى عاش عمره فى مصر، بعد أن ألقاه إخوته فى الجب ، وقد عاد يعقوب بزوجاته إلى ديار أبيه عند الكنعانيين .

وكلف الله يعقوب بالرسالة ، وبعثه إلى قومه ، و كان يوصي أبناءه بدين الله تعالي ، يقول سبحانه : **﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾** (٢) ..

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٩٤ ــ ١٩٥ بتصرف .

(٢) سورة البقرة آية (١٣٢) .

وقد تميز يعقوب " عليه السلام " بالحلم، والصبر ، والاعتماد المطلق على الله تعالى ، فهو" عليه السلام " قابل غياب يوسف وأخيه بقوله : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١) .

وكان يوجه أبناءه برفق وأناة ، ويتعامل مع أخطائهم بمنهج النبوة ، فهو يعلم ما بنفوسهم وطبائعهم ، ولذلك نراه يقول ليوسف حينما أخبره برؤياه : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) .

ويقول لأبنائه حينما جاءوه بقميص يوسف ملوثاً بالدم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ (٣) .

ولما غاب عنه ابنه الثاني قال لإخوته : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٤) .

ولما تجلت الحقائق وجاءه أبناؤه قائلين له : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٥)

رد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٦)

---

(١) سورة يوسف آية (١٨) .
(٢) سورة يوسف آية (٥) .
(٣) سورة يوسف آية (١٨) .
(٤) سورة يوسف آية (٨٧) .
(٥) سورة يوسف آية (٩٧) .
(٦) سورة يوسف آية (٩٨) .

وكان آخر وصاياه لأولاده حين حضرته الوفاة أن يتمسكوا بعبادة الله تعالي ، يقول سبحانه : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١) ..

ولقى ربه راضياً مرضياً ، ومات بأرض مصر عند ابنه يوسف ، ثم نقل جسده بعد ذلك ، ودفن مع إسحاق وإبراهيم " عليهم السلام " .

وقد ذكروا أنه لما مات يعقوب " عليه السلام " بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه ، ثم ذهب به إلى أهله فى فلسطين ، ودفنوه فى المغارة الكائنة بـ " حبرون " مع أبيه وجده "عليهم الصلاة والسلام " (١) .

******

---

(١) سورة البقرة آية (١٣٣) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢٢٠ .

١٢

يوسف عليه السلام

يوسف " عليه السلام " من رسل الله وأنبيائه إلى بنى إسرائيل وهو ابن يعقوب " عليه السلام " ، تميز بكرم المحتد ، وكرم الخلق ، وكرم السلوك ، روى البخارى بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ **سئل : من أكرم الناس ؟**

قال : أتقاهم لله .

قالوا : ليس عن هذا نسألك .

قال : أكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبى الله ابن خليل الله .

قالوا : ليس عن هذا نسألك .

قال : فعن معادن العرب تسألوني ، الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا (١) .

ويوسف كلمة عربية ، يرجع أصلها إلى الحزن والأسف ، وهو اسم يتناسب مع حياة يوسف " عليه السلام " المليئة بالمحن والمشاق .

وقد جاءت قصته مفصلة فى سورة واحدة سميت بإسمه هى سورة " يوسف "

ومن قراءتنا للسورة نلحظ أنها تنحو بالقصة منحى متفرداً ، فهى تتحدث عن يوسف ، ومولده ، ونشأته ، وحياته ، وأخلاقه ، وموقفه من أخوته ، وهكذا حتى تنتهى به عزيزاً فى مصر ، ووالياً على خزائنها ، ومعه قومه إلى أن يموت .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٨ ص ٣٦٢ ــ كتاب التفسير ــ باب يوسف "عليه السلام"

إنها تشبه السيرة الذاتية المعاصرة ، وهى تطبيق لمنهج القرآن فى إيراد قصص أنبياء بنى إسرائيل حيث يختص كل نبى بلون معين ، وجانب خاص ، لأنهم جميعاً كانوا يدعون لدين الله الواحد ، يكمل بعضهم بعضا ، ويتممه .

والحديث عن يوسف يحتاج إلى عدة نقاط : ـــ

" النقطة الأولى "

(التعريف بالمجتمع التى عاش فيه يوسف " عليه السلام ")

لما تزوج يعقوب " عليه السلام " ببنتى خاله وجاريتيهما، رزقه الله عدداً من الأبناء ، ومنهم كان يوسف من زوجته "راحيل" التى وافتها المنية بعد ولادة يوسف بمدة وجيزة ... وتطورت الأحداث مع يوسف ، فألقاه إخوته فى الجب ، إلى أن أخرجته إحدى القوافل التجارية من الجب ،وباعته لعزيز مصر ، وقضى حياته فى مصر إلى أن لقى ربه .

وكانت مصر فى هذا الوقت تحت حكم " الرعاة "(١) ، الذين عاصروا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب "عليهم السلام" ، وعلموا شيئاً عن دينهم .

والرعاة هم الهكسوس ، وكانت مدة حكمهم فى مصر أكثر من قرن ونصف ومن حديث القرآن عنهم خلال ذكره لقصة يوسف " عليه السلام " نلمح بعض خصائص المجتمع المصرى .

ـــ فهو مجتمع غير موحد ، لا يعرف الله على وجه الحقيقة ، ولذلك لم يكن يوسف " عليه السلام " على دينهم ، وذلك مفهوم من قول يوسف "عليه السلام" لأصحابه فى السجن :

﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (٢) .

---

(١) كان الرعاة يسمون حاكمهم بـــ (الملك) أو (العزيز) وكان المصريون يسمونه بـــ (فرعون) .

(٢) سورة يوسف آية (٣٧ ، ٣٨) .

ـــ وهومجتمع يعرف شيئاً عن دين الله الذى نقل إليهم من جيرانهم ، وبخاصة أن الحكام لم يكونوا من الفراعنة ، مدعي الألوهية ، ولذلك تركوا الديانـــة المصريـــة القديـــمة، وبحثوا عن دين آخر، فأخذوا من جيرانهم بعض ما عندهم ، وهو قدر لايكفى فى دين الله تعالي .

ندرك هذه اللمحات الدينية من قوله تعالى حكاية عن النسوة : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (١) .. فهن يعرفن الله ، ويعرفن الملائكة .

ومن حكاية قول العزيزلإمرأته: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢) ، فهو يعرف الإستغفار والتوبة .

ومن حكاية قول إمرأة العزيز : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) ، فهى تعرف أن الهادى هو الله ، وأن كيد الخائن إلى بوار ، بأمر الله تعالى .

وقد ساعدت هذه اللمحات يوسف " عليه السلام " فى نشر دعوة الله ، حينما ولى الأمر فى مصر بعد ذلك ، ومكن لقومه بنى إسرائيل .

ـــ تميز المجتمع المصرى بنظام سياسى متقدم ، ففى الوقت الذى عاش جيرانهم فى بداوة نجدهم يعرفون نظام الملك، وولاية العهد ، والوزارات ، والدواوين العديدة ، وقد تولى يوســـف " عليه السلام " بعد خروجه من السجن ولاية الأموال والأقوات يوزعها على المصريين ، وعلى أهل البقاع المجاورة ، وقد رأينا إخوة يوسف يأتون إلى مصر من أرض كنعان للحصول على القوت .

---

(١)سورة يوسف آية (٣١) .　　　(٢) سورة يوسف آية (٢٩) .

(٣) سورة يوسف آية (٥٢) .

ـــ تميز المجتمع المصرى بالسبق العلمي وبخاصة فى مجال العلم بتعبير الرؤى ، ولأمـــر أراده الله تعالي نجد فى سورة يوسف عدداً من الرؤي وتعبيراتها ، نجد رؤيا يوســـف ، ورؤيا أصحابه فى السجن ، ورؤيا الملك ، وقد تحققت دلالاتها ، وأستفيد عملياً بمـــا دلت عليه .

ومـــن دلالـــة الســـبق العلـــمي ما يـــستفاد مـــن الآيـــات الآتيـــة الـــتى أشتملت عليها سورة يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٢) ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ (٣) ، ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ (٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ (٥) ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (٦) .

ـــ تميز المجتمع المصرى بمدنية راقية حيث كان للنسوة اجتماعـــاتهن ، وآراؤهـــن ... وكان لهن سلوك مدنى متقدم فى الطعام والشراب ، كما هو مفهوم من لقاء النســـوة بإمرأة العزيز ، وإعداد المائدة العامرة ، وتقديم السكاكين ليأكلن بها ،وعاش يوسف فى هذا العصر ، واستفاد بإيجابياته، ونجاه الله تعالي من سلبياته ..فتربى فى بيت الملـــك ، وتعلم ، وعرف ، فلما بدأت سلبيات الترف تظهر أمامه، قضى الله عليـــه بـــدخول السجن ، فبقى فيه يدعو الناس لعبادة الله وحده ، و لم يخرج من السجن إلا بعد إعلان براءته .

---

(١) سورة يوسف آية (٢١) .
(٢) سورة يوسف آية (٢٢) .
(٣) سورة يوسف آية (٣٧) .
(٤) سورة يوسف آية (٥٥) .
(٥) سورة يوسف آية (٦٨) .
(٦) سورة يوسف آية (١٠١) .

ويبدو أن الملك لما أدخل يوسف السجن كان يتابع أخباره إعجاباً به ، وبأخلاقه، وبالضرورة سمع عن دعوته حيث أعجب بها ، بلا إعلان حتى لا يغضب كهنة الأصنام ، وعبدة الأوثان وغيرهم ، ولذلك كان شديد الترحيب بيوسف حين جاءه من السجن وقال له : ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

وهكذا مكن الله ليوسف، فتولى أمر خزائن الأرض ، وصار حاكماً فى مصر ، ولعل هذا الوضع ساعده على نشر دعوة التوحيد بين الناس .

ولما جاء بنو إسرائيل إلى مصر تعاونوا مع الهكسوس ، و لم يندمجوا فى المجتمع المصرى ، وكانوا للرعاة عوناً على المصريين ، ولذلك لما أسترد الفراعنة زمام الأمور مرة أخرى فى الأسرة الثامنة عشرة أخذوا فى مقاومة الإسرائيليين، وديانتهم ، وتمكنوا من طردهم من مصر فى زمن موسى " عليه السلام " (١) ، ذلكم هو المجتمع الذى عاش فيه يوسف " عليه السلام " حتى لقى ربه .

*****

" النقطة الثانية "

(التعريف بيوسف " عليه السلام ")

وهب الله يعقوب " عليه السلام " أثنى عشر ولداً ، أحدهم يوسف " عليه السلام " ، وقد تزوج يعقوب " عليه السلام " عدداً من النسوة ، ورزق من راحيل بولدين ، فليوسف أخ شقيق ، والباقون أخوة لأب ، وأخو يوسف الشقيق هو " بنيامين " ، وترتيب يوسف بينهم الثانى عشر ، وقد تميز منذ صغره بسعة العقل ، وسلامة الخلق ، وكان محل حب أبيه لنجابته ، وصغره ، ويتمه بموت أمه ، وزاد من حب أبيه له الرؤيا التى رآها ،

---

(١) فى ظلال القرآن ج١٢ ص ١٨١ ــ ١٨٣ بتصرف ، ويرى صاحب الظلال أن مقاومة المصريين للإسرائيليين لم تكن دينية ، وإنما كانت سياسية ، ونفسية غالباً .

وقصها له ، وعنها يقول الله تعالي : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (١) ..

وقد فهم يعقوب " عليه السلام " من هذه الرؤيا البشارة بنبوة يوسف " عليه السلام "، وعلم أن أمر الرسالة سينتقل من بعده له ، فنصحه بعدم إخبار اخوته بهذه الرؤيا منعاً للكيد ، ومحافظة على المودة والألفة .

وإخوة يوسف الأحد عشر هم الأسباط ، وعنهم عبرت الرؤيا بالكواكب ، أما القمر فهو أبوه ، وأما الشمس فهى أمه ، أو خالته .

وقد راعت أقدار الله يوسف " عليه السلام "، وأحاطته العناية الإلهية ، فنشأ متمتعا بجمال فائق ، عبر عنه النسوة بقولهن : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢) ،وصار يضرب به المثل فى الجمال .

يذكرالسهيلى أنه كان علىالنصف من حسن آدم ، لأن آدم بلغ نهاية الحسن (٣) .. وجاء فى بعض الروايات أن أهل مصر أصابهم الجفاف فى عصر يوسف ، فكانوا ينسون جوعهم بالنظر إلى يوسف تلذذاً بجماله وحسنه (٤) ، يقول النبى" صلى الله عليه وسلم " : **(رأيت يوسف ليلة أسرى بى فى السماء الرابعة ، فقيل كيف رأيته ؟ فقال : كالقمر ليلة البدر) (٥) .**

و تميز يوسف " عليه السلام " بالرشد ، والفهم ، يقول الله تعالي : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٦) .

واشتهر بصدق المعاملة ، والإخلاص فى عبادة الله ، والاعتراف بالمعروف يسدى إليه ، يدل على ذلك قوله تعالي :﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٧) .

---

(١) سورة يوسف آية (٤) . (٢) سورة يوسف آية (٣١) . (٣) البداية والنهاية ج١ ص ٢٠٥ .
(٤) مدرسة الأنبياء ص ١٢٢.(٥) بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٤٧ .
(٦) سورة يوسف آية (٢٢) .(٧) سورة يوسف آية (٢٤)

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١) .

وعرف بالعدل ، والإنصاف ، والصبر، والتحمل ، وعفة اللسان ، ونبل الأخلاق ، فكان هو هو بخلقه وشخصيته فى كل أحواله، رغم تقلبها الواضح ، وتنوع انقلابها ، وتحولها ، فتارة هو فى الجب، وأخرى فى بيت العزيز .. ومرة فى السجن ، وأخرى والياً لخزائن أرض مصر .

وقد عاش " عليه السلام " حتى تحققت رؤياه ، ومات بأرض مصر ودفن بها ، ثم نقل جثمانه إلى فلسطين فى زمن موسى " عليه السلام " ، يدل على ذلك ما رواه أحمد فى مسنده عن أبي موسى الأشعرى أن بعض الصحابة سألوا رسول الله " ﷺ " عن عجوز بني إسرائيل .

فقال عليه السلام : (**إن موسى " عليه السلام " حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق ، فقال لبنى إسرائيل : ما هذا ؟ .. قال له علماؤهم : إن يوسف" عليه السلام " حين حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من أرض مصر حتى ننقل عظامه معنا ، فقال موسى : أيكم يدري أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما علم أحد قبره إلا عجوز بني إسرائيل ، فأرسلوا إليها ، وأتوا بها وسألوها عن قبر يوسف ... فانطلقت بهم إلى بحيرة فيها ماء ، فأمرتهم أن يجففوا ماءها ، فلما جففوها حفروا بها واستخرجوا منها عظام يوسف ، فلما أقلوه معهم من أرض مصر ، إذا الطريق مثل ضوء النهار**) (٢) .

وتحتاج الإحاطة التفصيلية بنشأة يوسف " عليه السلام " ، ومعرفة أطوار حياته إلى دراسة موضوعات رئيسية فى قصته ، وأهمها :

---

(١) سورة يوسف آية (٢٣) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، والحديث صحيح صححه الهيثمي والألباني ، والعظم يسمي به البدن ـــ قصص القرآن ص٢٤٨.

(١) يوسف وإخوته .

(٢) يوسف فى بيت العزيز .

(٣) يوسف فى السجن .

(٤) يوسف والحكم .

(٥) يوسف وبنو إسرائيل .

وسأتناولها فيما يلى ...

أولاً : يوسف وإخوته :

رأى إخوة يوسف اهتمام يعقوب " عليه السلام " به أكثر منهم ، وتمكن الشيطان من نفوسهم ، فملأها بالحسد والحقد ، وأنساهم حق الأبوة ، وحق الأخوة ، وقدر الله عليهم أن يكونوا كذلك ، فكبر فى نفوسهم أن يميل قلب أبيهم ليوسف الصغير أكثر من ميله لهم ، وهم كبار ، ورجال، يمثلون عصبة قوية .

كبرت هذه الأحاسيس فى نفوسهم ، وسيطرت على حياتهم ، فقال بعضهم لبعض : ﴿ **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾** ﴾ (١) .

قالوا ذلك وأنساهم الشيطان أن الحب القلبي عطاء إلهي لا يملكه الإنسان ، وأما العدل العقلي والمادي الذي يملكه الإنسان فلا تقصير فيه من أبيهم (٢) ، ومع ذلك رأوا أن أباهم على خطإ واضح ، وفكروا فى تصحيح هذا الخطأ ..

قال قائل منهم : ﴿ **ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ** ﴾ ...

---

(١)سورة يوسف آية (٨) .

(٢) جاء فى تفسير الألوسى أنه لا لوم على الوالد فى تفضيل بعض أولاده فى المحبه القلبية لأن المحبةالقلبية لا تدخل تحت وسع البشر (التفسير ج١٢ ص ١٧١) .

لكن اقتراح القتل لم يكن مسلماً لديهم ، لأنه جريمة قتل يباشرونها بأنفسهم وإخفاؤها والخلاص منها أمر صعب ، وفعلها لا يليق بهم .

ولذلك كان **الاقتراح التالي** وهو ﴿ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ومعناه أن يرموه فى صحراء قاحلة ليموت بعيداً عنهم إما بالجوع ، أو بالعطش أو بافتراس الوحوش الضارية ..

والاقتراح الثاني لايقل وحشية عن الاقتراح الأول فكلاهما إزهاق للروح ، وسفك للدم .

ومن ألاعيب الشيطان بهم ، أن زين لهم تؤامرهم، فعللوه برغبتهم فى إبعاد أبيهم عن ضلاله ، وبأنهم سوف يتوبون ، ويكونون من عباد الله الصالحين ، وسهل لهم الشيطان الجرم بتقديم العزم على التوبة قبل ارتكاب الإثم ، لئلا يتراجعوا .

يصور الله تعالي هذا التآمر بقوله تعالى : ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (١) .

لكن واحداً منهم توسط فى الرأي ، واقترح رأياً به يبعد يوسف عن أبيهم ، وفى نفس الوقت يعيش فى أرض بعيدة مجهولة ، **قال تعالى:** ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢) ، رضوا هذا الرأي واتفقوا عليه ، وبدأوا فى التنفيذ ...

ذهبوا لأبيهم وطلبوا منه ان يرسل يوسف معهم للرعي والعمل ، فلم يوافق على طلبهم لصغر سنه ، فذكروا له أنه لن يعمل ، وأنهم سيتركونه يلعب ، ويجرى ، ويتنزه ، ويستأنس بأمثاله من الصغار .

فبين لهم أنه لا يصبر على فراق ولده الصغير ، وبعده عنه يحزنه ، وأيضاً فهو يخاف عليه من الذئب لصغره ، والبرية ملأى بالذئاب .

---

(١) سورة يوسف آية (٩) . (٢) سورة يوسف آية (١٠) .

تعهد الأبناء لأبيهم بالمحافظة عليه ، وأكدوا أمامه أنهم يحبون له ما يحبونه لأنفسهم ، وهم جماعة لا يقدر الذئب عليهم ، ولا خير فيهم إن غلبهم الذئب وأكله .

فوافق يعقوب " عليه السلام " على إرساله معهم ، يصور القرآن الكريم الحوار بين يعقوب وبنيه ، فيقول سبحانه : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

وأخذوا يوسف معهم ، وذهبوا به إلى بئر يرتاده السيارة من التجار للتزود بالماء ، وعزم جمعهم على تنفيذ ما اتفقوا عليه ، فألقوه فى الجب ، ونزل جبريل فحمله ، ووضعه فى جانب من البئر بحيث لايصل إليه الماء ، وبشره بالفرج ، وعلو الشأن ، وأنه سينجو ، وأن الله سيجمعه بأبيه وإخوته بعدما يمكن له فى الأرض ، يقول تعالي : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢) .

وجاءوا لأبيه بقميصه الذى خلعوه منه ، وعليه بعض الدم ، وقالوا له إنا شغلنا بالرمى والسبق عن يوسف ، فأكله الذئب ، وحاولوا إخفاء جرمهم بأن جاءوا متأخرين ليلاً على غير عادتهم ، وبالبكاء الحار لفراقه ، وبقميصه الملوث بالدم ، يقول تعالي : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف الآيات (١١ ــ ١٤) .

(٢) سورة يوسف آية (١٥) .

(٣) سورة يوسف الآيات (١٦ ــ ١٨) .

لكن يعقوب " عليه السلام " لم يصدقهم فى مقالتهم له، لأنه رأى من القرائن والأحوال ما يؤكد كذبهم ومنها :

ـــ رؤيا يوسف " عليه السلام " تؤكد أنه لن يموت هكذا .

ـــ أخذوا يوسف ليلعب ، وإذا بهم يعتذرون بلعبهم دونه .

ـــ زعموا أن الذئب أكله ، والذئب لا يأكل ضحيته كلها ، بل يكتفى بقطعة منها

ـــ لو تصورنا أن الذئب أكله ، فهل يأكله كله فى مرة واحدة ؟

ـــ جاءوا بالقميص سليماً وعليه دم ، وهذا لا يتصور لأن الذئب يمزق القميص وهو يقتل ضحيته .

ـــ فى حديثهم إشارة إلى الكذب قالـــــوا : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

ـــ رأى" عليه السلام " في تأخرهم ، وبكائهم الخداع ، والتحايل ، وعدم الصدق .

أسلم يعقوب " عليه السلام " أمره لله صابراً ، وقال لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) .

وجاءت قوافل التجار ، وأناخت بإبلها بجانب البئر ، وأرسلوا ساقيهم ليترع لهم الماء، فلما أدلى الوارد دلوه تعلق يوسف بالحبل، وشده الوارد، فلما رآه استبشر ، وقال : هذا غلام ، وعرف التجار بالأمر ، فكتموا خبر العثور عليه ، وجعلوه بعضاً من بضاعتهم التى أحضروها من بلاد الشام إلى مصر ، وباعوه بثمن رخيص، لأنهم لم يتكلفوا فيه ثمناً ، ولم يهتموا بشأنه مخافة ظهور قومه ، واسترجاعه منهم .

واشتراه عزيز مصر ورباه .. وكان ما كان حتى تولى " عليه السلام " أمر الخزائن لتميزه بالحفظ ، والعقل ، وسعة النظر .

---

(١) سورة يوسف آية (١٧) .　　　(٢) سورة يوسف آية (١٨) .

وتمر الأيام ، ويعم القحط أرض كنعان ، ويأتى إخوة يوسف ليمتاروا لقومهم من خزائـن يوسـف : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(١) .

عرفهم لأنه فارقهم رجالاً ، وأنكروه لأهم فارقوه صبياً ، وهو الآن عليـه أهبـة المـلك ، ورونق الرئاسة ، وعنده الخدم والحشم ، وأما هم فحالهم لن يتغير .

أعطاهم ما طلبوا ، وأمدهم بالطعام والعدة التى يحتاجون إليها فى سفرهم ، فلما حدثوه بالعبرية ، قال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ قالوا له : نحن أبناء يعقوب نبى الله ، وقد رزقه الله اثني عشر رجلاً ، هلك واحد منا فى البرية وبقى أحد عشر ... قال لهم : أنتم عشرة فأين الحادى عشر ؟ قالوا : هو شقيق من هلك لأبيه وأمه ، وهـو أخ لنا مـن أبينا ، تركناه مع أبيه ليتسلى به لأنه أحبنا إليه ... هنا قال لهم يوسف" عليه السلام " : ائتوني بأخيكم هذا لأعطيكم ما تطلبون بعد ذلك ، فإن لم تأتوني به ، فلن أعطيكم شيئاً ، ولن أسمح لكم بدخول البلاد ، فوعدوه بأهم سيطلبون ذلك من أبيهم ، ويؤكدون له الحاجة الماسة لإحضار أخيهم معهم (٢) .

وأمر يوسف فتيانه بأن يضعوا أثمان الحبوب التى دفعها إخوته فى رحالهم ، وكانت هذه الأثمان منتجات صناعية كالنعال والثياب وغيرها .

ولما عادوا لأبيهم ، وفتحوا متاعهم ، وجدوا مع الطعام بضاعتهم التى اشتروا بها، وقد ردت إليهم ، دليلاً على كرم عزيز مصر ، واهتمامه بهم ، فعرضوا الأمر على أبيهم ، وطلبوا منه أن يرسل أخاهم معهم ليمتاروا ،وبخاصة أهم يتعاملون مع ملك كريم ، يعطيهم مجاناَ، يطعمون قومهم ، ويدخرون بضاعتهم ، ويزدادون كـيل بعير لأخيهـم ، ويحافظون عليه ، وذلك فى مدة قصيرة يسيرة (٣) ،قال لهـم أبـوهم

---

(١) سورة يوسف آية (٥٨) . (٢) أقرأ الآيات (٥٩ ـــ ٦٣) من سورة يوسف .

(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٨٤ .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١) .

أعطوا العهد لأبيهم ، فقال لهم حين هموا بالسفر إلى مصر بأخيهم : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

وقد أمرهم بذلك حتى لا تصيبهم العين ، فنفذوا طلب أبيهم ، ودخلوا من عدد من الأبواب ، ووصلوا إلى الملك فقرب أخاهم إليه ، وعرفه بأنه أخوه يوسف ، وعليه أن يصبر ولا يحزن .

وجهزهم بجهازهم ، ووضع الصواع فى رحل أخيهم سراً ، ولما هموا بالرحيل نادى منادي الملك ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣) .

أنكر إخوة يوسف إتهامهم بالسرقة ، وردوها عنهم وقالوا : ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤) .

فرد جنود الملك : ما جزاء السارق إذا ثبتت عليه سرقة الصواع ؟

---

(١) سورة يوسف آية (٦٦) . (٢) سورة يوسف آية (٦٧) .

(٣) سورة يوسف الآيات (٧٠ ــ ٧٢) ، والصواع آلة الكيل من ذهب أو من فضة .

(١) سورة يوسف آية (٧٣) .

فرد إخوة يوسف " عليه السلام ": جزاؤه فى شريعتنا أن يسترق سنة ، وهلموا بالبحث ، فمن وجد فى رحله الصواع فالرق جزاؤه .

واستمر يوسف فى تحقيق غرضه بحيلته تلك،قال تعالى:﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١) .

ومكن الله ليوسف بهذه الحيلة ، حيث أجرى عقوبة شريعة يعقوب بإبقاء أخيه سنة كاملة، لأن شريعة ملك مصر كانت تقضى بالضرب والغرامة فقط ... وهنـــا قال إخوة يوسف له : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (٢) وأرادوا بأخيه يوسف (٣) ، فأسرها يوسف فى نفسه و لم يظهر لهم تألمه من مقالتهم .

وحاول إخوة يوسف أن يخففوا عن أبيهم، فاقترحوا على الملك أن يطلق سراح أخيهم، ويأخذ أحدهم مكانه مراعاة لظروف أبيهم الشيخ الكبير ، فرفض يوسف لأن ذلك يخالف الشرع والعدل .

وأصـــر يوسف على الرفض ، فأمرهم كبيرهم، بأن يرجعوا لأبيهم، ويقصوا عليه ما حدث ، على أن يبقى هو فى أرض مصر، حتى يأذن له أبوه بالعودة، أو يقضى الله له (٤) .

---

(١) سورة يوسف آية (٧٦) .   (٢) سورة يوسف آية (٧٧) .

(٣) قالوا المراد بسرقة يوسف أن عمته كانت تربيه بعد مولده ، وكانت تحبه ، فلما جاء أبوه يأخذه وضعت منطق إسحاق فى وسطه ، وزعمت سرقته ، فلما ظهر عند يوسف أبقته عندها سنة كشرع ذلك الزمان ، وقيل : إن يوسف سرق صنم عمته ، وكسره ، ورماه ، فبقى عندها سنة .

(٤) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٤٢ .

وجاءوا إلى أبيهم يؤكدون له حادثة السرقة ، وهم شهود عليها ، ومعهم فى الشهادة رجال القوافل ، وأهل القرية ، والكل يؤكد صدق ما قلناه لك .

ومع صدق أبناء يعقوب " عليه السلام " فى حديثهم مع أبيهم هذه المرة ، فإنه " عليه السلام " يرد عليهم قائلاً لهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١) .

إنه ما زال يأمل فى عودة الغائبين إليه جميعاً ، وهم يوسف ، وأخوه ، وكبيرهم الذى بقى فى مصر .

وأعرض عنهم أبوهم ، وتولى بعيداً ، أسفاً على يوسف ، وانقلب سواد عينه بياضاً من شدة البكاء ، وتنوع الغيظ الذى يكتمه .

فتعجب أبناؤه من ذكره يوسف بعدما طالت الأيام به ، وكبر سنه ، وأشرف على الموت والهلاك ، وواجهوه بهذه المشاعر ، قائلين له : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

رد عليهم يعقوب بأنه يشكو أمره لله ، وأمله ورجاؤه كله فيه ، وعليهم أن يرجعوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه بلا يأس ،أوقنوط ،فرحمة الله واسعة ، لا ييأس منها إلا الكافرون ،قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف آية (٨٣) .

(٢) سورة يوسف آية (٨٥) .

(٣) سورة يوسف آية (٨٧) .

فلما جاءوا يوسف ، دخلوا عليه ، وقالوا له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) .

فرد عليهم يوسف " عليه السلام " : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢) .

هنا ظهرت لهم الحقيقة ، وانكشف المخبوء ، وتعجبوا قائلين له : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣) .

وهنا عادوا إلى أنفسهم ، وتذكروا هذا الماضي البعيد ، واعترفوا له بخطإهم ، وطلبوا منه العفو والصفح ، و قالوا له ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٤)

فعفا عنهم ، وأحسن إليهم ، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٥) .

وهكذا ...

تعارف الإخوة على يوسف وأخيه ، وعادوا لأبيهم يحملون له البشرى ، ويعرفونه بكل ما حصل معهم .

---

(١) سورة يوسف آية (٨٨) . (٢) سورة يوسف آية (٨٩) .

(٣) سورة يوسف آية (٩٠) . (٤) سورة يوسف آية (٩١) .

(٥) سورة يوسف آية (٩٢) .

ثانياً : يوسف فى بيت عزيز مصر :

حينما أخذ التجار يوسف صغيراً من الجب ، ذهبوا به إلى مصر ، وباعوه بثمن زهيد .

شاءت إرادة الله تعالي أن يكون الذى أشتراه هو وزير مصر الأول ، ليتحقق له ما قضى به سبحانه وتعالي .

وكان يلقب وقتذاك بـــ (العزيز) ، ولم يكن للعزيز ولد ، فأخذ يوسف لزوجته وقال لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ (١)

فبدل الله يوسف بالجب قصر الملك، ليتمتع فيه بكرم المترلة ، وطيب الطعام ، وحسن الملبس ، والاطلاع على أمور الناس ، وأحوال المعاش ، وليتعلم ما يعرفه أمثاله من أبناء الملوك والأمراء .

وكانت أمنية العزيز من تبنى يوسف أن يساعده فى مهامه ، أو يتخذه وزوجته ولدا يئول إليه الأمرمن بعده .

ورحبت إمرأة العزيز بهذا الصغير ، واهتمت بتربيته ، وأعتنت بتعليمه ، وسرعان ما أحبه كل من عاشره من خدم وحشم القصر ، لما كان يتمتع به من جمال باهر ، وأدب رفيع ، وطاعة سريعة .

وقد تأثرت زوجة العزيز بيوسف ، وتعلق قلبها به ، وشغفت بالحياة معه ، فكانت تتزين أمامه ، وتظهر مفاتنها ومحاسنها لتميله إليها ، لكنه لم يلتفت إلى شئ من هذا ، واستمر مستمسكاَ بالعفة والطهارة ، والخلق الكريم .

انتقلت زوجة العزيز من التعريض للتصريح ، وأعدت العدة لتنال من يوسف ما تشتهى ، وتبغى ، قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة يوسف آية (٢١) . (٢) سورة يوسف آية (٢٣)

نعم ... هو فى بيتها ، شاب أعزب ، يعيش تحت سيف العبودية ، يجد نفسه أمام أميرة شابة، جميلة ، تتهيأ له ، وتعد المكان ، وتطلب منه أن يستجيب لطلبها وقد هَيأت له واستعدت ، وتكرر الطلب منها مرات متعددة .

لم يتأثر يوسف بهذه المغريات ، وإنما تذكر ربه فاستعاذ به من أى سوء ، وتذكر العزيز الذى أكرم مثواه ، فقال لها على الفور : ﴿ **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (١)

أى أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه ، وزوجك هو سيدى ، وربى ، الذى أكرمنى وربانى، فكيف أخونه فى أهله، وأجيبك إلى ما تريدين ، وفى الإستجابة لك ظلم وعدوان على حق الله، وحق الناس ، ولايفوز الظالم بخير أبداً (٢) .

وبهذا الموقف من يوسف "عليه السلام" تظهر أخلاقه بوضوح ، فهو مؤمن، صاحب عقيدة، يستعيذ بالله تعالى ، ويسأله المعونة في أداءحق سيده، الذي أكرمه، وأحسن مثواه، ولا يصح التعدي على حقوق الآخرين ابدا .

ويكبر الأمر فى نفس إمرأة العزيز ، وتحس بطعنة توجه لكبريائها ، فلا هى حققت غرضها ، ولا هى تعففت ، **فتهم بضرب يوسف** ، **ويهم هو بالدفاع عن نفسه** ، فيتذكر حقها عليه فيجرى بعيداً عنها ، وتجرى وراءه وتلحق به ، وتقطع ثيابه من دبر حين أدركته قريباً من الباب .

وعند وصولهما إلى الباب يجدان العزيز عنده ، وعندئذ تحاول المرأة تبرئة نفسها ، وتتهم يوسف بمحاولة الإساءة إليها ، والفتك بها ، وطلبت ضرورة مجازاته بالسجن ، أو بالتعذيب، لينال جزاء جرأته على سيدة القصر، وإمرأة العزيز ،

---

(١) سورة يوسف آية (٢٣) .

(٢) فتح القدير للشوكانى ج٣ ص ١٧بتصرف .

وعن هذا الموقف يقول الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وجد العزيز نفسه أمام قضية خطيرة تهمه ..تدعى إمرأة العزيز أن يوسف أراد بها الفاحشة ، وينفى يوسف التهمة عن نفسه ، ويذكر الحقيقة : ﴿ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ويحتكم العزيز إلى حاكم للقضاء من أهل زوجته، وإليه الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ وسمى القاضى شاهداً لما يحتاج إليه من التثبت والتأمل والتصور الصحيح للواقع كأنه رآه ، وكان القاضى من أهلها ، قيل هو ابن عمها ، أو ابن خالها ، أو مستشار الملك ، ويرى السهيلي أنه طفل تكلم فى المهد حيث ذكر النبى " ﷺ " شاهد يوسف ضمن من تكلموا فى المهد ، وكان القاضى عادلاً حكيماً ، قال للملك إن كان القميص قطع من أمام فهى صادقة لجذبها القميص وهو مقبل عليها ، وإن كان القميص قطع من دبر فهى كاذبة لقطعها القميص وهو يجرى منها .

قال الشاهد : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

---

(١) سورة يوسف الآيات (٢٤ ــ ٢٥)و يذهب المفسرون في تفسير قوله تعالي ﴿ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ مذاهب كثيرة ، فمنهم من يقول : همت به هم فعل وهم بها هم ترك ، ومنهم من يقول : بل هم بها هم فعل لولا أن رأى برهان ربه ، ومنه من يقدم ويؤخر فيقول المعنى لولا أن رأى برهان ربه لهم بها إلى غير ذلك من الأقوال ، ونحن نرجح ما أشرنا إليه .

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (١) .

نظر الملك إلى القميص ، فلما رآه قد من دبر علم الحقيقة، وتأكد من صدق يوسف وبراءته ، فقال ليوسف ولزوجته، ما حكاه الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢) ، أراد الملك بذلك ستر الموضوع بتركه ، والتوبة عنه ، والاستغفار له ، لكن أمر النساء لايبقي سراً أبداً .

وسرعان ما أخذ النسوة يتحدثن عن إمرأة العزيز ، وشغفها بحب يوسف ، وخيانتها لزوجها ، وتفريطها فى طهارتها ، سمعت إمرأة العزيز بحديث النسوة ، وأرادت إحاطتهن بما لم يحطن به ليعذرنها، فدعتهن إلى طعام ، وأجلستهن على المقاعد الوثيرة ، وسلمت كل واحدة سكيناً تستعمله فى أكلها ، وبدل أن تحضر لهن الطعام أخرجت يوسف إليهن بحسنه وجماله ، فلما رأينه سحرن به ، وقطعن أيديهن بالسكاكين ، وهن لايدرون ، وقالوا جميعاً : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣) ، حينئذ أبدت إمرأة العزيز عذرها ، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤) ، يرى يوسف هذا الموقف فيعلن بكل وضوح، أن السجن أحب إليه من إرتكاب ما يدعونه إليه ، ويسأل الله تعالي أن يصرف عنه كيد النسوة ليبقى طاهراً ، نظيفاً .

---

(١) سورة يوسف آية (٢٦ ـــ ٢٧) . (٢) سورة يوسف آية (٢٨ ـــ ٢٩) .

(٣) سورة يوسف آية (٣١) . (٤) سورة يوسف آية (٣٢) .

ثالثاً : يوسف فى السجن :

بعدما ظهرت براءة يوسف رأى العزيز سجنه مدة ، يتصور الناس بها براءة زوجته ، وإدانة يوسف فيم أتهم به .

والتقى فى السجن بصنوف من الناس ، وتعامل معهم بخلقه و طهارته ، واشتهر بينهم بالأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى المسجونين بعيادة مريضهم ، والقيام بحاجاتهم فأحبوه ، وأخذوا برأيه ومشورته (١) .

ودخل السجن فتيان أحدهما ساقى الملك ، والثانى خبازه ، لأنهما أتهما بمحاولة دس السم للملك فى طعامه وشرابه ، ولما لقيا يوسف تعارفا عليه ، وتعلقا به كسائر النزلاء ، .. ثم إن كلا منهما رأى مناماً وجاء إلى يوسف ليؤوله له .

رأى أحدهما أنه يعصر للملك عنباً، وكانوا يسمون العنب خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وطلبا من يوسف " عليه السلام " أن يؤول لهما ما رأيا لما يعرفان عنه من الصدق ، والعلم ، والتعبير .

وكان يمكن ليوسف أن يعرفهما بتأويل ما رأيا مباشرة ، لكنه " عليه السلام " وجدها مناسبة حسنة للدعوة إلى الله تعالي .

قال للرجلين : إنه يعرف تأويل الرؤيا ، وسيخبرهما بما سيأول إليه أمرهما ، وعلى أى تدل أحلامهما ، وسيرد على استفتائهما ، وقدم لهما برهاناً على مدى معرفته، وهو أن يخبرهم بطعامهم قبل أن يجئ إليهم، وذلك أمر عجيب يدل على معرفته المعجزة ، وأخبرهم بطعامهم قبل أن يأتيهم ، وصدق فى قوله لهم ،وأخذ فى بيان سر معارفه ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٧٧ بتصرف .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ (١) ..

وهذا أمر يجعل الفتيين يفكران فى حقيقة هذا الرب،الذى علم يوسف هـذا العلم ، وجعله يتميز عن سائر الناس ، إنه علم غيبى نافع ، وكأني بهم يسألون : من هذا الرب ؟ وهل هو غير إله المصريين . ومن أتباع هذا الرب ؟

يتابع يوسف " عليه السلام " حديثه عن دينه فيقول للفتيين ، ما حكاه الله تعالى: ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢)

فيعرف مستمعوه من مقالته أنه ليس على دين الرعاة، لأنهم لايؤمنون بالله حقاً ، ولكنه على دين أبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم الرسل المشهورون بالصدق ، وتعليم قومهم الدين الحق .

وعرفهم أن دينه ودين آبائه يقوم على التوحيد ، وإبطال الشرك، وعبادة الله وحده ، لأنه لا يليق بعاقل أن يعبد آلهة يتخذها من الحجر، أو الشجر، أو المعادن، أو من غيرها .

وأخذ يوسف بعد ذلك فى بيان أدلة التوحيد ، وأدلة إبطال الشرك بصورة مقارنة وسهلة ، قال لهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف آية (٣٧) .   (٢) سورة يوسف الآيات (٣٧ ـــ ٣٨) .

(٣) سورة يوسف آية (٣٩) .

وهو سؤال إنكارى يحمل مراد يوسف ، فالله الذى أعبده واحد ، ذل كل شئ لعز جلاله ، وعظمة سلطانه ، بينما الآخرون يتخذون عدداً من الألهة لاتضر أبداً ، ولاتنفع مطلقاً ، فأيها أحق بالعبادة ، إله واحد قادر، أم آلهة متعددون لاتنفع ، ولاتضر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً، قال لهم ما حــكاه الله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١) .

فالله وحده صاحب السلطان ، والقدرة ، والبراهين تشهد له ، بينما آلهة القوم من إختراعات الناس ، وأكاذيبهم ، وعليهم أن يعلموا أن القضاء ، والتصرف ، والحكم بيد الله ، والملك كله له يفعل ما يشاء ويريد ، وعليهم أن يعلموا بضرورة التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وذلك يقضى بتوجه العبد لله بالعبادة والرجاء ، لأنه النافع الضار ، وليس للألهة المزعومة شيئاً من ذلك أبدا ، فكيف تكون آلهة مع الله ؟ !

وبذلك ختم دعوته مبيناَ أن الدين الذى يعرفهم به هو الدين الحق ،وهو الصراط المستقيم ، الخالى من العوج ، الذى يسعد صاحبه ويكتب له الخير فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلاحظ أن يوسف " عليه السلام " استفاد من تقدير الناس له فجعله سبباً وصلة إلى دعائهم إلى التوحيد ، والإسلام ، وبخاصة بعد ما لمح من سجية الفتيين حب الخير ، والإنصات له ، والإقبال على دعوته (٢) .

---

(١) سورة يوسف آية (٤٠) .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٧٩ .

ويبدو أن يوسف " عليه السلام " كان يباشر الدعوة داخل السجن ويطبقها عملياً ، ولذلك رأينا تحول المجتمع إلى دين يوسف " عليه السلام " ، يدل على ذلك قول إمرأة العزيز قبيل خروج يوسف من السجن ، كما حكاه الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

إنها تصور الله بصفاته ، فهو الذى يهدى ، وهو الرحمن ، وهو الغفور الرحيم وكل هذه صفات يقر بها المؤمنون بالله .

وبعد أن عرض على أصحابه دعوته ، عبر لهما الرؤيا ، ودلهما على ما تشير إليه ، وهىأن من رأى نفسه يعصر خمراً ، فسوف يخرج من السجن ، ويعود إلى سيده ليسقيه خمراً كما كان ، وأما الثانى فسوف يعاقب بالصلب ، ويترك حتىتأكل الطير من رأسه ، ورغبة فى الخروج من السجن ، **قال** يوسف للفتى الذى ظن أنه ناج من الموت ، أذكرنى عند الملك ، وحدثه عن براءتى ، عسى أن يتذكر ، ويصدر قراراً بالأفراج عنى،.......... لكن الملك لم يتذكر ، والفتى الناجى لم يذكر ، فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ،قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٢)

ولما أراد الله إخراج يوسف من السجن أجرى الحوادث نحو مراده سبحانه وتعالي بحكمة ودقة ، فرأى الملك رؤيا فزع منها ، رأى : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ **(٣)** ، وطلب من

(١) سورة يوسف الآيات (٥٢ ــ ٥٣) . (٢) سورة يوسف آية (٤٢) .

(٣) سورة يوسف آية (٤٣) .

وزرائه ، وأولي الأمر عنده أن يفسروا له ما رأى ، فردوا عليه بأن ما رأى ليس حلماً ، وإنما أخلاط فى الدم ، وأغاليط يراها النائم انعاسكاً لظروف نفسية ، وحياتية ، ولذلك فليس لها معنى تدل عليه ، إنها أضغاث أحلام .

هنا يتذكر ساقى الملك الذى نجا ، وخرج من السجن،يتذكر صاحبه يوسف ، وما عرف به من قدرة على التأويل ، وعلم بالتعبير ، فيخبر الملك بتمكنه من تعبير هذه الرؤيا ، لأنه يعرف رجلاً فى السجن ، عنده علم بالتعبير ، هو يوسف ، قال لهم الساقى : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (١) ، فأعدوا له العدة ، وأرسلوه إلى يوسف فى سجنه ، وسهلوا له مقابلته ، وجاء الساقى إلى يوسف وطلب منه متلطفاً وقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ (٢) ، ناداه باسمه العلم ، وبالصفة التى عرف بها بين كل من عامله ، وهى الصدق ، وطلب تعبير رؤيا الملك ، وقصها عليه بالتفصيل ، ففسرها له يوسف " عليه السلام " ، وعرفه أن البقرات السبع السمان ، والسنبلات السبع الخضر ، عبارة عن سبع سنوات متصلة يعملون فيها بجد واجتهاد ، ويرزقون خلالها ثمراً طيباً ، وقمحاً وفيراً ، وعليهم أن يأخذوا ما يكفيهم ، ويدخروا الباقى فى سنبله حتى لا يصاب بالسوس ، ، لينفعهم خلال سبع سنوات تعقب السبع الأولى ، حيث فيها تجدب الأرض وينقطع المطر ، ويشتد الأمر على الناس فيأكلوا مما أدخرتم لهم فى السنوات السبع الأولى .

وبعد ذلك تاتى سنة يعم خيرها ، ويتنوع ثمرها ، ويفيض ماؤها ، ويكثر نتاج الزرع والضرع ، ويعودون خلالها إلى ما كانوا يعصرون من قبل ، لكن الأمر يحتاج إلى تعامل دقيق ، ورعاية حكيمة ، طوال هذه المدة .

---

(١) سورة يوسف آية (٤٥) .

(٢) سورة يوسف آية (٤٦) .

يحكى القرآن الكريم عرض الرجل رؤيا الملك على يوسف فيقول سبحانه :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) .

كما يحكى القرآن الكريم تفسير يوسف لهذه الرؤيا فيقول سبحانه : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢) .

يعود الساقى إلى الملك بتأويل الرؤيا ، فيسر الملك بهذا التفسير ، لكنه يقف أمام بعض التساؤلات :

ـــ الرؤيا تشتمل على سبع صالحات ، وسبع طالحات ، وتفسيرهما بالوفرة والجدب أمر مسلم ، لكن من أين جاء الحديث عن السنة التى يكون فيها المطر والعصير ؟

ـــ وأيضاً إذا كان الماء والمطر سبباً لكل حياة ، فلم عودة الناس إلى ما كانوا يعصرون على وجه الخصوص ؟

ـــ من أين جاء يوسف بعلم تعبير الرؤيا دون الآخرين ، وقد نشأ بينهم ، وتعلم علومهم ؟

ـــ ومع تسليم الملك بصدق التعبير ، فإنه رأى أن الأمر يحتاج إلى إدارة حكيمة، وأمينة ، تسير بالمجتمع إلى الخير ، وفق الخطة التى رآها فى حلمه، وكما فسرها لهم يوسف " عليه السلام " .

فكر الملك فى كل هذا ، ورأى تميز يوسف بالعلم ، وإخلاصه فى النصح وما كان لمثله أن ينصح وهو مسجون ظلماً ، لكنه " عليه السلام " نصح مخلصاً ، لينقذ

---

(١) سورة يوسف آية (٤٦) .　　　(٢)سورة يوسف الآيات (٤٧ ـــ ٤٩) .

المصريين وغيرهم ، من سنوات القحط، والجوع .

ويبدو أن الملك كان على شئ من دين سماوى ، وكان قد سمع عن نشاط يوسف" عليه السلام " فى دعوة الناس داخل السجن ، فصدق بكل ما سمع ، ورأى أن يكل الأمر ليوسف ، ليدير شئون الزراعة، وتوزيع الميرة ، فى أرض وادى النيل ، ويتولى خزائن مصر فى المرحلة القادمة .

فأمر بالإفراج عنه ، وجاء رسول الملك لإخراج يوسف من السجن لمقابلة الملك ، وجاء رسول الملك إلى يوسف أولاً، وأخبره بقرار الملك ، لكن يوسف رفض الخروج إلا بعد أن يتحقق من براءته من التهمة التى أودع بسببها فى السجن ، وطلب من الرسول أن يسأل الملك زوجة العزيز ، ويسأل النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى القصر، وبذلك يعلم الجميع براءته ، ويعيش معهم نظيف السمعة ، طاهر الخلق خالصاً ، صادقاً .

يحكى القرآن موقف الملك ورد يوسف عليه ، بقوله تعالي : ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾** ﴾(١) .

أحضر الملك النسوة، وزوجة العزيز، وسألهم : ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ (٢) .

هذه شهادة النسوة ، وفيها يعلنون براءة يوسف من أى سوء .

أما زوجة الملك فقد اعترفت أمام الجميع اعترافاً تفصيلياً ، يظهر الحق كاملاً ، ويبين براءة يوسف ، وتقر بذنبها ، وتتوب إلى الله ، آملة أن يعرف يوسف أنها برأته فى غيبته ، و لم تخنه بشهادة زور ضده، وعللت سبب اعترافها المفصل بأمور :

---

(١) سورة يوسف آية (٥١) .　　(٢) سورة يوسف آية (٥٢) .

الأول : أنها تخاف من عقوبة الله تعالي إن كذبت عليه ، لأن الحقـائق الـتى تؤمن بها أن الله لايهدى كيد الخائنين .

الثانى : إظهار ضعف نفسها ، والنفس أمارة بالسوء ، وهى بذلك الإعـلان تردع النفس ، وتؤدبها ، وتوجهها نحو الأخلاق الفاضلة لتكون متمتعة برحمة الله .

الثالث : تطمع بتوبتها ، وإقرارها فى غفران الله ورحمته لأنه سبحانه وتعالي غفور رحيم .

يوضح الله تعالى شهادة إمرأة العزيز التفصيلية ، فيقول سبحانه :﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١) .

ويبدو أن الملك وزوجة العزيز قد دخلا فى دين يوسف على نحو ما ذكـرت قبل ، وكما يظهر من الألفاظ التى لاينطق بها إلا موحد يعرف الله تعالي

وبعد ظهور براءة يوسف " عليه السلام " ، جاءه الرسول وأخرجه من السجن إلى عالم الحرية الواسع .

---

(١) سورة يوسف الايات (٥١ ــ ٥٣) ، يرى بعض المفسرين أن مراد زوجة الملك من قولها ليعلم أنى لم أخنه ، أى ليعلم زوجى أنى لم أخنه مع أحد ، وما كان مع يوسف كان مراودة منى امتنع عنها يوسف ، ويذهـب آخرون إلى أن الكلام من أول : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ من كلام يوسف ، والأولى ما ذكرته فإن الحديث كله مروى على لسان زوجة العزيز فى جلسة الإعتراف ، وكان يوسف وقتها فى السجن وأيضاً فإن من الممكن فهم قولها : لم أخنه أى لم أخن زوجى حيث لم يقع المحذور الأكبر و لم أخن يوسف بالكذب عليه وهو غائب ، وتكلمت بالحق والصدق .

رابعاً : يوسف والحكم :

بعد اعتراف النسوة ، وزوجة العزيز ، وإقرارهن الواضح ببراءة يوسف أمام الملك ، أرسل الملك مرة أخرى رسولاً من قبله لإحضار يوسف ، لغاية حددها لهم حين كلف رجاله بالإتيان بـه ، يقـول تـعالي : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (١) ، وبذلك حدد هدف إحضاره وهو استخلاصه لنفسه ، ومعنى ذلك أن يجعله مستشاره ، ووزيـره الأول ، لما تصوره فيه من نجابة ، وفهم ، وحسن تخطيط وإدارة ، وسمو خلق وطهارة ، وشدة إخلاص وأمانة .

وجاء يوسف إلى الملك ، وجلس معه : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ يشير القرآن إلى ما دار بينهما بقوله ﴿ كَلَّمَهُۥ ﴾ لتذهب النفس إلى أنه كلمة فى شئون السياسة ، والإقتصاد ، والتجارة ، والزراعة ، والأخلاق ، وكل كلام يتصوره الإنسان من ملك مهتم بشعبه ، مع شاب جاد ، لديه تصور مستقبلى ،لإنقاذ البلاد، والعباد، من ورطة ستحل بهم .... فلما كلمه أعجبه ، وأصـدر قراره ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٢) ، أى ذا مكانة عالية راقية ، ومحل ثقة وأمانة على أسرار الحكم والسياسة ، وإدارة شئون المعاش ، وحياة الناس .

طلب يوسف عملاً محدداً يقدر عليه ، ويناسب ما عنده من إستعداد وطاقة ، فهو حافظ للأمانة ، عليم بشئون الحياة والدين ، ولذلك قـال يوسـف " عليه السلام " : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف آية (٥٤) .

(٢) سورة يوسف آية (٥٤) .

(٣) سورة يوسف آية (٥٥) .

وإنما سأل ولاية خزائن الأرض، والإشراف على الإهراء ، التى يجمع فيــه الغــلات ، ليدخر فيها من السنوات الطيبات للسنوات العجاف ، التى أخبرهم بشأنها ، ويتصرف بالأحوط والأصلح ، والأرشد .

وقد أراد الله ليوسف " عليه السلام " ذلك ، فمكن له فى مصر ، ووضعه على خزائن الأرض ليكون مقصد الناس وقت الجدب ، يطلبون منه ، ويعطيهم ، ويدعوهم إلى الله تعالى .

ولا يمكن تصور أن يوسف ترك أمر الدعوة ، لأنه لم يتركها وهو فى السجن فكيف يتركها بعد أن صار متمكناً ذا سلطان وجاه ؟

وفى قصة مؤمن آل فرعون " عليه السلام " ورد ذكر يوسف " عليه السلام " وبيان أنه دعا المصريين إلى عبادة الله وحده ، وأظهر لهم المعجزات الدالة على صدقه ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١) ، فهم فى زمن موسى " عليه السلام " كانوا يعرفون أن يوسف " عليه السلام " بعث فيهم ، ودعاهم إلى الله ، وجاءهم بالمعجزات ، لكنهم لم يؤمنوا به .

إن القصة لم تتحدث بالتفصيل عن دعوة يوسف " عليه السلام " ، لأنها فى السورة تتخذ مساراً آخر ، لتحقيق غرض يفيد الدعوة والدعاة ، وعســاه " عليه السلام " كــان يكتفى بالدعوة العملية، وبالإشارات الموحية فى بعض الأحيان، وبالتوجيه الواضح حين يقتضيه المقام .... فمن الناحية العملية كان صاحب خلق ، ودين ، وحسن معاملة . ومن ناحية الإشارات نقرأ ماذكره للناس ، مبيناً إيمانه بالله الواحد الأحد ،... ومــن ناحية التوضيح رأينا ما فعله فى السجن .

---

(١) سورة غافر آية (٣٤) ، يرى بعض المفسرين أن يوسف المذكور فى الآية هو حفيد يوســف الصديق (انظر تفسير أبى السعود ج٥ ص ٩) .

خامساً : يوسف وبنو إسرائيل :

خرج يوسف من السجن ، وصار محل ثقة الملك ، يبين ابن كثير أن الملك كان يسمى " **الريان بن الوليد** " ، وأن وزيره الأول هو " **أطفير** " الذى اشترى يوسف ، ورباه ، وهو زوج من راودت يوسف " عليه السلام " .

أراد يوسف أن يصلح الناس فى معاشهم ، ودينهم، فطلب من الملك أن يوليه الخزائن، فاستحسن الملك ما طلب ، وعزل أطفير ، وولى يوسف مكانه ، وبعدها هلك أطفير بمدة وجيزة ، فزوج الملك يوسف زوجة العزيز ، فلما دخل بها قال لها : أليس ذلك خيراً مما كنت تريدين ؟

فقالت : أيها الصديق لاتلمنى فإنى كنت إمرأة جميلة ، ناعمة فى ملك ودنيا ، وكان صاحبى لايأتى النساء ، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رايت ورأى النسوة(١) .

وتولي يوسف وزارة مصر الأولى ، وتزوج زليخا فوجدها عذراء ، فولدت له أولاداً .

وقد أشتهر يوسف بالعدل ، والإنصاف ، والصدق ، وإعانة الضعفاء فأحبه الجميع ، ويقال إن الملك آمن بدعوة يوسف ، وسلم الأمر له ، فصار كل شئ فى مصر تحت حكمه (٢) ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ والملك راض عنه .

ومما يدل على أن يوسف " عليه السلام " صار متمكناً فى كل جوانب الحياة فى مصر أنه تعامل مع إخوته منفرداً ، ولم يرجع لرئيس معه ، فى محاكمة أخيه ، أو مناقشة إخوته ، أو إحضار أهله جميعاً إلى مصر .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٨٣ .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢١١ .

يروى الفضل بن عياض مصوراً سلطان يوسف " عليه السلام ": أن إمرأة العزيز وقفت على ظهر الطريق حتى مر يوسف بسلطانه فقالت : (**الحمد لله الذى جعل الضعفاء ملوكاً بطاعته ، وجعل الملوك صغاراً بمعصيته**) (١) .

ومضت السنوات الأولى ، وجاء الجدب والقحط ، فورد الناس علي يوسف من سائر الأقاليم ، يمتارون لأنفسهم ، وعيالهم ، فكان لايعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة ، وكان " عليه السلام " لايشبع نفسه ، ولا يأكل ، هو والملك ، والجنود ، إلا أكلة واحدة فى وسط النهار، حتى يتكافأ الجميع .

كان يوسف " عليه السلام " رحمة من الله تعالي على أهل مصر، وعلى من جاورهم وكان أبناء يعقوب " عليه السلام " أعراباً ، يعيشون فى البادية ، ويتنقلون حيث العشب والماء فلما نزل القحط بالناس حل الجدب ببنى إسرائيل ، ولذلك جاء أبناء يعقوب يمتارون من مصر ، وكان ما كان بين يوسف" عليه السلام " وإخوته على نحو ما ذكرت ، ...وأخيراً أعطاهم قميصه ، وقال لهم : ﴿ **ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾** ﴾(٢)، ذلك أن أباه يعقوب"عليه السلام" قد كف بصره ، لكثرة بكائه على فراق يوسف وأخيه ، وكان دائماً يذكرهما .

ولما غادرت القافلة ومعها قميص يوسف أرض مصر ، هاجت ريح حملت رائحة القميص إلى يعقوب ، فقال لمن معه : ﴿ **إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾** ﴾ (٣) ، عرف ريح يوسف ولم يقطع به، حتى لايتهم من بنيه ، وقومه ، بالجرى وراء الأمانى والأحلام ، وجاء حامل القميص فألقاه على وجهه فعاد إليه بصره ، وهنا قال لإخوته : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾** ﴾ (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٨٢ .
(٢) سورة يوسف آية (٩٣) .
(٣) سورة يوسف آية (٩٤ ـــ ٩٥) ،
(٤) سورة يوسف آية (٩٦) .

فطلبوا من أبيهم أن يغفر لهم ، واعترفوا بخطإهم ، فسامحهم ، وأخبرهم بأنه سيدعو الله لهم ، ويستغفره فهو سبحانه الغفور الرحيم ، يقول الله تعالي : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١) .

وجاء الإسرائيليون جميعاً إلى مصر مع نبيهم يعقوب ، وكان عددهم يقترب من أربعمائة رجل وإمرأة ، وعاشوا بمصر مكرمين .

يذكر ابن كثير أن إخوة يوسف حملوا أهلهم جميعاً ، ورحلوا بهم من بلاد كنعان قاصدين أرض مصر ، فلما علم يوسف بإقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه ، وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب " عليه السلام " ، وأهله ، ويقال إن الملك خرج بنفسه مع يوسف للترحيب بالركب القادم ، ولما وصلوا إلى البلدة قال لهم يوسف : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢) .

وعاش الإسرائيليون فى مصر متمتعين بقوة السلطان ، وعزة يوسف " عليه السلام " قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٣) .

ويبدو أن الإسرائيليين عاشوا فى عزلة عن المصريين ، وحافظوا على كافة خصائصهم النفسية ، والمادية ، والبدوية ...... الخ .

---

(١) سورة يوسف الآيات (٩٧ ـــ ٩٨) . (٢) سورة يوسف آية (٩٩) .

(٣) سورة يوسف آية (١٠٠) .

ولذلك بقى المجتمع مكوناً من طبقتى المصريين، والإسرائيليين، المتباعدتين عن بعضهما حتى بعث الله موسى " عليه السلام " ، وأرسله رسولاً إلى المصريين، وبنى إسرائيل معاً .

ومن عجائب المقارنات أن المصريين خرجوا مع الملك، ويوسف لإستقبال بنى إسرائيل يوم مجيئهم ، وعند خروجهم تخفوا، وأخذوا معهم ذهب المصريات، بلا حق لهم فيه ، وهو الذهب الذى صنعوا منه العجل ليكون لهم إلهاً .

ويختلف المؤرخون فى عدد الإسرائيليين يوم خروجهم من مصر ، وبعضهم يذكر أنهم بلغوا أكثر من سبعمائة ألف مما يعنى أنهم عاشوا مدة طويلة فى أرض مصر .

*****

" النقطة الرابعة "

ركائز الدعوة فى قصة يوسف " عليه السلام "

قصة يوسف " عليه السلام " مليئة بالدروس ، غنية بالعبر والعظات ، ولذلك ختم الله السورة بقوله تعالي : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١) .

ودروس القصة هى ركائز للدعوة والدعاة ، يجب اتخاذها أسوة ، وقدوة ... وأولو الألباب هم أسبق الناس إلى الإستفادة من قصص القرآن الكريم ، وهدى الله تعالي .

وإنى ـــ بعون الله تعالي ـــ أبرز من قصة يوسف الركائز التالية : ـــ

---

(١) سورة يوسف آية (١١١) .

" الركيزة الأولى "

تربية الرسول الداعية

نشأ يوسف " عليه السلام " فى بيت النبوة ، وتعلق به قلب أبيه ، ،وبخاصة بعدما أدرك ما سيكون عليه شأنه من مترلة دينية ، واجتماعية ، وكان يهتم به كثيراً ، ويوجهه نحو معالى الأمور ، ومكارم الأخلاق ، ويعرفه بالله تعالي ، من ذلك أنه لما قص يوسف ما رآه عليه ، قال له ما حكاه الله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (١) .

فلقد رأى رؤياه وهو صغير ، يقول وهب : رأى يوسف وهو ابن سبع أن أحد عشر عصا طوالاً غرزت فى الأرض كهيئة الدائرة ، وأن عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها ، ورأى رؤية الكواكب وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وفى كل مرة يأتى لأبيه يقص له ما رأى ، لقوة ما يشعر به من حب وثقة ، لأن أباه كان يحيطه بالحنان والرحمة ، ويتعامل معه بأخوة وتقدير بعيداً عن الغلظة والقسوة (٢) ،وكان يوجهه نحو ما يحسن خلقه ، ودينه ، وسلوكه .

ومن التوجيهات التربوية الحسنة المستفادة من الآيات مايلى : ـــ

١ ـــ تحذير الولد من أسباب الضرر ، وذلك أمر له أهميته فى التربية ، وعلى الأباء أن يولوا هذا الجانب عناية خاصة ، لأن أدوات التوجيه عديدة ، وكلها تتجه للولد منذ مولده للتأثير فيه ، وأغلبها يهتم بتقديم القيم الفاسدة ، ونشر أخلاقيات لاتتناسب مع تعاليم الإسلام ، وكرامة الإنسان .

---

(١) سورة يوسف الآيات (٥ ـــ ٦) .

(٢) تفسير الرازى ج٩ ص٨٩ .

وكثير من الآباء يهملون توجيه الأبناء فى طفولتهم ، ظناً منهم أن الوقت لم يحن بعد للتوجيه ، والإرشاد ، فيتركون الأطفال يلعبون ، ويأخذون من هنا ، ومن هنا ، ويفاجأ الآباء بأبناهم يتمردون على القيم الحسنة ، والأخلاق الطيبة ، بسبب إهمالهم ، وتربيتهم فى الوقت المناسب .

لقد أثبت علم النفس أن الطفل يبدأ فى إكتساب الخلق والسلوك بعد مولده مباشرة ، من أمه وأبيه ، ولذلك وجب على الأباء أن يعايشوا أبناءهم ويقتربوا من مشاكلهم وقضاياهم ، فهم مسئولون عن أبنائهم ، يقول النبى ﷺ : (**إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**) (١) ويقول ﷺ (**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول**) (٢) .

ولذلك نعيش مع يعقوب " عليه السلام " وهو يحنو على يوسف ، ويحاوره ، وينصحه وكان توجه يوسف إلى أبيه تلقائياً يقص عليه ما رأى ، ويسعد برأيه وتوجيهه .

استمع يعقوب لرؤى يوسف الصغير ، ولم يعلق عليها بتفسير ، وإنما أدرك منها المنزلة العالية التى سينالها يوسف من بين إخوته ، ولذلك نصحه بأمور محددة .

الأول : لاتخبر إخوتك بالرؤيا حتى لايتآمروا عليك ، ويتخلصوا منك ، حسداً وحقداً ، من عند أنفسهم ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وهذه حقيقة بشرية ، حيث تتملك النفس غير المؤمنة ، أنانية طاغية ، تدفعها لإرتكاب أعمال سيئة ، ضد من يتمتع بنعم وافرة ، وخير واضح ، ولذلك يحسن بالإنسان المؤمن إذا أتاه فضل من الله أن يستره ، ويخفيه ، لأن المحروم من هذا الفضل يتحول إلى حاسد ، حاقد .

وقد رأى يعقوب من بنيه مدى ألمهم، من تصورهم أن يوسف أحب إليه منهم ولذلك كان تحذيره .

---

(١) صحيح ابن حبان .

(٢) سنن أبى داود .

وعلى الإنسان أن يعلم عداوة إبليس للناس ، ويعلم أنه يستغل النفوس الضعيفة ، يوسوس لها ، ويحرضها على المعصية ، ويزين لها السوء .

الثانى : دعوة الولد إلى الإستقامة فى الخلق والسلوك ، عسى أن يختاره الله ، ويوفقه لإكتساب المعارف والعلوم الدينية ، وقد دعا يعقوب " عليه السلام " يوسف إلى ذلك قائلاً له : إن الله سبحانه كما أراك مستقبلك قادر على اصطفائك ، واختيارك ، وتعليمك ، وإتمام نعمته عليك ، بالنبوة لتكون إمتداداً لفضل الله الذى جعله لأبويك من قبل إبراهيم ، وإسحاق " عليهم السلام " .

وفى تذكير يعقوب " عليه السلام " ليوسف " عليه السلام " بآبائه الرسل ، عامل تربوى ، يجعله يسير على هداهم ، ويتمنى لنفسه أن يكون رسولاً مثلهم، فالإنسان يعتز بأبائه ، ويتمنى أن يتشبه بهم ، ويسعد كثيراً بالتواصل المتين مع أصوله وقبيلته ، ولكن .. هل هذا مناسب لعقلية الطفل الصغير ؟

الإنسان فى مرحلة الطفولة شديد التعلق بأبيه ، سريع التأثر به ، يحب ملازمته ويتمنى أن يكون معه دائماً .

ويمكن للوالد أن يوجه ولده الصغير إلى القيم الدينية ، والاجتماعية ، بأسلوب سهل ، يستطيع الصغير أن يتصوره .

وقد وجه يعقوب " عليه السلام " يوسف الصغير إلى الله ، وبين له أن الله كما أراه الرؤيا الصالحة فإنه يديم خيره ، وفضله عليه بالعلم ، والطاعة ، والنبوة .

وقد تم له ما عمل له ، فتفوق يوسف فى العلوم ، وبخاصة فى تأويل الرؤيا ، وتنظيم أمور المعاش ، وإقامة العدل ، والإلتزام بالصدق والأمانة ، والمحافظة على حق الله وحق الناس ، يقول الله تعالي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

لايَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١) .

وقد عاش يوسف مؤمناً بالله تعالي ، مطيعاً له سبحانه ، ملتجئاً لجنباته فى كل حالاته ، حيث نراه يستعيذ بالله من فعل السوء ، ويدعو الله ليصرف عنه كيد النسوة وفى نهاية قصته يقر بنعمته عليه ، وعلى أهله ، وعلى الناس أجمعين ، ويقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢)

وهكذا يعدد كافة النعم التى عاشها ، وتمتع بها إخوته ، وأهله ، ويشكر الله على عطائه ، وفضله .

" الركيزة الثانية "

أخلاق الرسول الداعية

تعلم يوسف من أبيه " عليه السلام " الخلق الكريم ، والأدب الفاضل ، وقد تجلى ذلك فى مراحل حياته جميعاً .

ومن أخلاقه التى تميز بها "عليه السلام" طهارته ، وعفته ، وقد رأيناه يوم أن راودته التى هو فى بيتها ، وهيأت نفسها له ، وكررت ذلك معه ، وبذلت كل ما أمكنها .

ورغم أنه شاب،له طاقته،وقوته، لم يضعف امام سيدة تميزت بالجمال، والجاه، وإنما لازم الطهارة والعفة،وحاول أن يوقظ فيها العقل،والخلق،وهو يقول لها ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يبين لها عليه السلام أسباب عدم استجابته لرغباتها ، وهى فى نفس الوقت أسباب لها يجب

---

(١) سورة يوسف آية (٢١ ــ ٢٢) .   (٢) سورة يوسف آية (١٠٠) .

أن تمنعها عن ما سعت إليه .

فالسبب الأول :وهو الإستعاذة بالله ، واللجوء إليه ، تبعد المستعيذ عن الفاحشة ، لأنه سبحانه وتعالي حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

والسبب الثانى : وهو مراعاة حق الرب إن أراد به الله ، فهو إلاههما ، وإن أراد به السيد فهو زوجها ، ومراعاة حق الرب تقتضى أن يبتعدا معاً عن المعصية .

والسبب الثالث :وهو الاعتراف بالفضل يقتضى عدم الإساءة لصاحبه ، وكلاهما قد أكرم الرب لهما فى حياهما ، ومعاشهما .

والسبب الرابع : وهوأن حقائق الوجود البشرى تؤكد أن المعتدى على حق غيره يبوء بالإثم والخسران ، وهى لهما معاً .

وهكذا واجه يوسف دواعي الغواية التى فعلتها المرأة وهى ، المراودة ، وغلق الأبواب ، والتهيؤ ، بدواعيه إلى العفة وهى خوف الله ، والمحافظة على عرض سيده الذى أكرمه ، ومخافة الخسران والبوار .

وظل يوسف متمسكاً بطهارته بعدما تجمعت النسوة ، واشتركن مع زوجة العزيز فى المراودة ، وهددنه بالسجن ، والهوان والإذلال ، وقال لهن متضرعاً إلى ربه :

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ (١) .

إن اختلاط الرجل بالمرأة ، والخلوة بالأجنبية من أكبر عوامل الإفساد ، ونشر الفاحشة ، ولذلك كان الإسلام قاطعاً فى تحريم هذا الإختلاط .

يروى البخارى بسنده عن عقبة بن عامر **أن رسول الله ﷺ قال : إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ، قال ﷺ : الحمو الموت** (٢) .

---

(١) سورة يوسف آية (٣٣) .

(٢) صحيح البخارى ـــ كتاب النكاح ج٩ ص ٣٣٠ .

والحمو قريب الزوج كأخيه ، وابن عمه ..

وآثار إختلاط الرجال بالنساء فى المدرسة ، أو فى البيوت ، أو فى العمل ، أو فى غيرها ضارة جداً ، وينبغى الإقلاع عنه .

ومن أخلاقه العفو والتسامح ، فلقد أعتبر عليه السلام إعتراف النسوة بخطإهن أمام الناس كافياً فى حقه عليهن ، ويوم أن عرف إخوته ما وصل إليه أمره سامحهم ،وقال لهم : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

ومن أخلاقه بره بأبيه ، وحرصه عليه ، حيث نراه عليه السلام يسارع بإرسال القميص إليه ليطمئن على أولاده ، وأحضره على رأس أهله ، واستقبله خارج المدينة ، ورفعه على العرش ، وأكرمه ، وأكبره عليه السلام .

" الركيزة الثالثة "

(الحرص على الدعوة)

عاش يوسف فى السجن مدة ، ومع ذلك لم ينس أنه صاحب عقيدة صحيحة وأن عليه أن يوصلها للناس ، ليؤمنوا بها ، ويتحولوا إلى الإلتزام بتعاليمها .

وهذا مسلك الداعية دائماً مع دعوته ، لأنه يعيش لها ، وبها، ولايرى لنفسه وظيفة سواها .

ونتصور يوسف " عليه السلام " ينشر دعوته بين المسجونين ، بعدما عرف بينهم بالصلاح والخلق الكريم .

صحيح أن القرآن الكريم عرض صورة واحدة للدعوة قام بها يوسف مع صاحبيه ، لكني أعتبر هذه الصورة نموذجاً لسلوكه فى السجن مع الناس ، وآثر القرآن ذكر هذا النموذج تصويراً لمسار يوسف مع الدعوة ، ومعلماً رئيسياً فى حياته ، وفى نفس الوقت ففيه الغناء لإعطاء تصور كامل عن منهج دعوته " عليه السلام " .

لو لم يكن يوسف مخلصاً لدعوته لآثر الصمت ، ولعاش فى السجن حزينـــاً ، شاكياً ، متأثراً بالآلآم التى تلاحقه من إخوته ، ومن النسوة ، ومن الملك ... ولظـــل يسائل نفسه ... من أحق بالسجن أنا أم هؤلاء ؟

لكنه " عليه السلام " لم يعش هذه الآلآم ، وإنما أسلم أمره لله ، ورضى بقضائه وقدره ، وأعلن ذلك لرفقائه فى السجن قائلاً ما حــكاه الله تعــالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (١) .

إن معرفته بالله أسلمته لقدرته سبحانه وتعالي ، فالحكم كلــه لــه ، وعلــى الإنسان أن يستسلم لجلاله ، ويفنى فى عبادته ، ويلازم دينه القويم ، ومنهجه المستقيم لقد تحول السجن فى حياة يوسف إلى مدرسة متكاملة ، أغنته عن الأهل ، والأصحاب ... وأمدته بالوقت الذى استثمره فى التأمل ، والطاعة ، والعبادة ، والدعوة ، حيــث أشتهر فى السجن بالإحسان ، والكرم ، وحب الخير لرفقائه أجمعين ، والإخــلاص فى أخذهم إلى الله ، وتعريفهم بخالقهم ، فهو واحد لاشريك له فى ألوهيته ، وربوبيته ، وليس له ند ، ولايصح أبداً أن يتخذ الإنسان مع الله شريكاً من هوى النفس ، أو من ضلالات الناس .

والحكم والتشريع كله لله فقط ، ولايجوز مطلقاً أن يقوم غيره بهذا الأمــر ، سواء كان فرداً أو جماعة ، حتى لايكون شريكاً لله فى ألوهيته وحاكميته .

---

(١) سورة يوسف آية (٤٠) .

والعبادة بمفهومها الواسع تعني الخضوع المطلق ، والطاعة الشاملة ولاتكون إلا لله .

ويدرك العقل مدى الترابط بين هذه المفاهيم المستفادة من الآيات ، فقصد العبادة لله نتيجة حتمية لكونه الحاكم الواحد ، وهذا الحكم ملازم لوحدانيته ، وقدرته

إن الواحد القهار لابد أن يكون حاكماً ، ولابد أن يعبد وحده عن استحقاق وتمكن ، ولا شئ لغيره من ذلك أبداً .

وكأني بـ " يوسف " عليه السلام حينما جاءه رسول الملك ليخرجه من السجن ، وهو يقول له : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ كأني به يفضل حياة السجن داعياً ، مؤمناً ، على الحياة خارج السجن متهماً منبوداً ، فلما ظهرت براءته خرج " عليه السلام " إلى عالم الحرية يطلب حقه إفادة للناس ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

" الركيزة الرابعة "

منهجية الدعوة

تقدم قصة يوسف منهجية عالية فى الدعوة إلى الله تعالي فى أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : التدرج فى الوصول للغاية (١) .

المفاجأة تؤدى إلى الدهشة ، والتغيير الكلي لايتم دفعة واحدة ، ولذلك يرى علماء التربية ضرورة التدرج فى التعليم والتربية ، مع تقديم السهل من قضايا الدعوة على

---

(١) يختلف التدرج عن المجاراة ، لأن المجاراة تسليم للخصم بما يعتقد ، ثم تكون المناقشة بعد ذلك ، أما التدرج فهو المناقشة ابتداء على أن تتم شيئاً فشيئاً ، وتقديم القضية جزءاً جزءاً .

غيره ، والإنتقال من البدهيات والمسلمات إلى ما يحتاج لدليل وبرهان .

والطبيب حين يعالج مريضه يتدرج فى تقديم الدواء تبعاً لتقبل المريض ، واستعداد بدنه .

وعلى الدعاة أن يسلكوا هذا المسلك ليحققوا لدعوتهم نجاحاً ، وتمكناً فى قلوب الناس .

وقد اتبع يوسف " عليه السلام " هذا الأسلوب مع من التقى بهم ، وقد اشتملت قصته على نماذج لهذا التدرج .

فهو " عليه السلام " حين عرض عليه صاحباه ما رأيا ، وطلبا منه تفسيرها لهما ، أخذ يدخل إلى نفسيهما مدخلاً لطيفاً ، رفيقاً ، متدرجاً حيث بدأ بتأكيد الثقة فى علمه وأخذ ينبئهما بالطعام الذى سيأتيهما قبل إتيانه .

وبعدها بين لهما أن هذا العلم جاءه من ربه ، الذى يعبده ، ويؤمن به ، وبالضرورة سيتساءل صاحباه : ما دينه ؟ وما ربه ؟

وهو على الفور يوضح لهما أنه ليس على دين الناس ، إن دين الناس باطل ، فهم يكفرون بالله ، ولايؤمنون باليوم الآخر .. أما دينه فهو دين إبراهيم وإسحاق " عليهم السلام " ، القائم على التوحيد الخالص ، والتوجه بالعبادة لله وحده

كل ذلك على وجه الحكاية ، وهم يسمعون ..

ثم ينتقل مرحلة أخرى فى شكل استفهام حول دينه ، ودين الناس، يوجهه لصاحبيه قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (١) .

إنه يخاطب فيهما الأخوة والصحبة ، ويسألهما سؤالاً لايحتاج لجواب ، لأنه أجاب عنه فى حديثه الذى سبقه مباشرة ، وإنما يقصد بالسؤال أن يفكروا فى عقيدتهم ويعودوا إلى فطرتهم ، ويتجاوبوا مع أصالتها .

---

(١) سورة يوسف آية (٣٩) .

جاء فى الظلال : (**وهو سؤال يهجم على الفطرة فى أعماقها ، ويهزها هزاً شديداً ، إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ، ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ إن الذى يستحق أن يكون رباً يعبد هو الله الواحد ، ومتى توحد الإله فواجب أن يتوحد الرب ... وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، ثم يدينوا لغيره ، ويتخذوه رباً من دون الله**) (١) .

وبعدها ينتقل يوسف خطوة أخرى ، فيتجه إلى بيان بطلان دين الناس ، من ناحية أن آلهتهم التى يعبدونها صنعوها بأيديهم ، وسموها بآلهة بزعمهم ، وليس لها من دليل وبرهان ..

وأخيراً يصل إلى مبتغاه ، منادياً بدعوته قائلاً : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ..

وهكذا تدرج يوسف " عليه السلام " فى دعوة صاحبيه ، ووصل إلى عرض دعوته فى نهاية المطاف ، ثم فسر لهما ما رأيا .

ومرة أخرى ..

نرى يوسف " عليه السلام " مع إخوته لقد التقى بهم ثلاث مرات ، فى **المرة الأولى** تحدث معهم وعرفهم ، واشترط عليهم إحضار أخيهم ليمتاروا بعد ذلك ، **وفى المرة الثانية** حضر أخوه فعرفه بنفسه ، وتحايل لإبقائه معه ، **وفى المرة الثالثة** عرفهم بنفسه وأعطاهم قميصه ، وبعد ذلك جاءوه بقومهم أجمعين .

إنه تدرج معهم منعاً للمفاجأة ، وإظهاراً لحقيقة النفوس ، وحتى يكون مجيئهم جميعاً لمصر مقبولاً ، ومن الجائز أن لايتحقق له ما أراد لو أعلنه لهم أول مرة .

---

(١) فى ظلال القرآن ج١٢ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ ــ ط. دار العربية .

وعلى الدعاة أن يستفيدوا بهذا الأمر المنهجى ، وذلك بتحديد المرض الـذى يريدون علاجه ، واتباع خطة تدريجية فى العلاج والتوجيه .

إن الخطبة الدينية يجب أن تتدرج فى العرض ، والطلب ، وتنتقل من فكرة إلى فكرة ، فى تدرج عقلي لتكون محل القبول والتأثير .

الأمر الثانى : القصة وسيلة للدعوة . .

القصة عمل فنى متكامل ، يقصد به التأثير فى القارئ والمستمع ، بعدما تجذبه إلى أحداثها ، وشخوصها .

وتعد قصة يوسف " عليه السلام " صورة متكاملة للقصة القرآنية ، حيث نراها تضم ثروة من الحقائق والمعارف ، وقدراً كبيراً من الإيحاءات والتوجيهات ، وتنوعاً فى الأدلة والبراهين التى تثبت حقيقة الدين ، وأحقيته فى الإتباع .

إن مجرد تذكر يوسف " عليه السلام " يجعل العقل يسبح فى السورة من أولها إلى آخرها ، وهو يتصور يوسف ، طفلاً ، وسجيناً ، ووالياً ، وبين إخوته ، وأهله ، ومع النسوة ، والملك .

إن القصة تجمع كافة العناصر بحيويتها ، ونشاطها ، فهى تصور المكان مع تنوعه ، وتغيره ، فهو الجب ، والسجن ، والقصر ، والعرش .

وتصور الأشخاص بنفوسهم ، وطبائعهم، فهاهم إخوته بأوصافهم وصفاتهم ، وها هو أبوهم وصلته بأبنائه ، وها هى إمرأة العزيز ، وأصحابه فى السجن ، والعزيز .

وفى القصة العقد التى يتضح حلها بعد حوار ، ونقاش ، ، ولعل أشـهرها ، رؤيا يوسف التى ظهر تعبيرها عملياً فى نهاية القصة .

ولكن ....

ماسر التأثير بالقصة ؟

إن القصة تشد خيال المتابع لها ، ليتعقب أحداثها ، ويتنقل معها من موقف لآخر وهى تجعل المتابع لها يشارك بوجدانه أبطال القصة ، راجياً لهـم الخـير ، أو رافضاً عملهم ، ومسلكهم .

وهى تثير الانفعالات النفسية للمتابع لها ، وتحرك عالم اللاشعور لديه ، وتجعله يتخذ موقفاً من الذى يراه ويسمعه .

إن اتخاذ الموقف من أحداث القصة هو بداية التأثر بها ، والاستفادة بالتوجيهات المقصوة منها .

والإسلام يدرك الميل الفطرى للإنسان نحو القصة ، ولذلك أوردها فى القرآن للفائدة والعبرة .

والقصص القرآنى أنواع ثلاثة : ــ

النوع الأول : القصص التاريخى ، وتشمل القصة التاريخية ، الواقعية ، المقصودة ، بأماكنها ، وأشخاصها ، وحوادثها ، .. وهى كل قصص الأنبياء التى وردت متضمنة كافة العناصر الفنية الواقعية .

النوع **الثانى** : قصة النموذج الواحد مثل قصة ولدى آدم لأنها تعرض نموذجاً ، واقعياً ، وحيداً ، قابلاً للتكرار فى كل العصور .

النوع الثالث : القصة التمثيلية ، وهى التى تركز على الحدث وتسكت عن الأشخاص ، مع قابليتها للتطبيق ، وذلك مثل قصة أصحاب الجنتين (١) .

وقصص القرآن الكريم بكل أنواعه يقصد التأثير ، وتحقيق غاية مقصودة ، ولذلك يعرض الواقع كما هو ، ويبرز الإيجابيات والسلبيات ، مع التعليق الموجز عليها ليأخذ المتابع هدنة ، يتمكن خلالها من الحكم والمشاركة بعقله ، لابعواطفه فقط .

إن المسلم وهو يتابع قصة يوسف " عليه السلام " ، وهى قصة تاريخية يجد نفسه بالضرورة أمام رأى يتخذه مع كل حدث ، وكل شخصية ، ومع الرأى يكون الموقف ، ويكون التأثر .

---

(١) منهج التربية الإسلامية ج١ ص ٢٣٧ .

والقرآن فى قصصه يتخير من الأحداث ما يحقق غرضه ، ولذلك نراه يسكت عن أحداث ، ومواقف ، ويكتفى بغيرها ، ومع ذلك تستمر جاذبيته ، ويبقى تأثيره ، يقول الشيخ / محمد عبده : (إن قصص القرآن الكريم لم يقصد سرد الوقائع مرتبة حسب أزمنتها ، وإنما المراد بها الاعتبار ، والعظة ، ببيان النعم متصله بأسبابها ، لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها ، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير ، وأدعى إلى التأثير) (١) .

إن على الدعاة أن يستفيدوا بقصص القرآن الكريم من ناحيتين :

أولاهما : الاستشهاد بمقاطع من القصة فى دعوتهم الناس ، كمقطع العفة فى حياة يوسف " عليه السلام " ، لأن هذا الاستشهاد يعد دليلاً عملياً ، عاشه الناس فى عالم الواقع ولذلك فهو بعيد عن الخيال ، والأحلام .

والثانية : الاستفادة بالقصة القرآنية كرمز ، يساعد على توضيح المراد ، ومعالجة الواقع ، من غير حساسية ، أو تجريح ،لأن ربطها بالقرآن الكريم يعد إبرازاً لمبدإ مقرر شرعا.

لقد ألف الفيلسوف "بيدبا " كتابه " كليلة ودمنة " على ألسنة الحيوانات والطيور ، ليصلح به الناس بعيداً عن الإثارة ، والتصادم، وقد استطاع تحقيق هدفه بهدوء ، ولم يغضب أحدا .

والقصة القرآنية حين تخرج من جو القرآن الكريم يكون لها من السحر ، وقوة التأثير ، وسرعة التصديق ما ليس لغيرها من كلام الناس .

إن القصة مليئة بالتوجيهات المعبرة ، والدروس المفيدة ، وعلى الدعاة أن يستفيدوا من منهجية القصة ، ويسلكوا مسلكها فى الدعوة والتوجيه .

---

(١) تفسير المنار ج١ ص ٣٢٧ .

" الركيزة الخامسة "

حقائق لابد منها

هناك بعض القضايا التى وردت فى قصة يوسف " عليه السلام " أود أن أبينها بإيجاز :

الحقيقة الأولى : (العلاقات الأخوية) ..

الإخوة ، وهم أبناء أب وحد ، وينتسبون لعائلة واحدة ، يمكن أن يدب الشقاق بينهم وينتشر الحسد فى قلوبهم ، إلى الحد الذى يقتل فيه الأخ أخاه .

والقصة توضح أن ذلك الأمر يقع بين الناس لأسباب كثيرة من أهمها :

١ ــ البعد عن منهج الله تعالي ، لأن البعد عن منهج الله يجعل الإنسان مادياً ، أنانياً ، يعمل لنفسه فقط ، ولا يرضيه قضاء الله إن تفوق عليه غيره .

٢ ــ إهمال القيم الأخلاقية التى تدعو إلى المودة ، والحب ، والتسامح ، والعفو ، لأن إهمال هذه القيم يؤدى إلى الكراهية والعدوان .

٣ ــ انتشار الجهل ، لأن الجهل يجعل صاحبه لا يعرف الحقيقة ، وربما تصور العدل ظلماَ وهو لا يعرفه ، ولعل لصاحبه عذراً ، وهو يلومه .

٤ ــ عدم غلق أبواب الشيطان للولوج إلى النفس، لأنه يوسوس بالعدوان ، ويزين الضرر ، وفتح الأبواب أمام الشيطان فرصة ينتهزها إبليس وجنوده .

٥ ــ عدم تسوية الأباء بين أبنائهم ، وقد رأينا كيف فعل الشيطان بقابيل ، وبإخوة يوسف " عليه السلام " .

الحقيقة الثانية : (طلب الرئاسة) ..

نرى فى قصة يوسف " عليه السلام " أنه طلب الرئاسة ، وزكى نفسه ، لينال ما طلب ، وذلك فى قوله تعالي: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

وهذا الواقع يؤدى إلى التساؤلات الآتية : ــ

ــ كيف زكى يوسف نفسه؟

والله تعالي يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (١) .

ـــ وكيف يطلب الرئاسة لنفسه؟ ، والنبى ﷺ يقول : (**إنا لأ نولى هذا الأمر من سأله ولا من حرص عليه**) (٢) ، ويقـــول لعـــبد الرحـــمن بـــن ســـمرة : (**لاتسأل الإمارة**) (٣) .

ـــ وكيف يطلب يوسف الإمارة من سلطان كافر ؟ !

ـــ ولم ترك يوسف الإستثناء حيـــث قال : ﴿ **إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ ؟ ولم يقل إن شاء الله ؟

ـــ وهل يجوز لأى مسلم أن يطلب الإمارة لنفسه كما فعل يوسف " عليه السلام " ؟

وللوقوف على الرأى فى هذه التساؤلات ، علينا أن ندرك أن المجتمع البعيـــد عن الدين يعلو فيه الفاسق ، ويختفى فيه المؤمن ، وحينئذ فلا مانع من أن يبرز المـــؤمن صفاته ليستفاد به ، وقد علم يوسف أن واجباً عليه إصلاح شأن الناس ، وإيصال الحق لذويه ، ومن هنا طلب القيادة ، وزكى نفسه ، لإصلاح المجتمع ، وتبليـــغ دعـــوة الله تعالي .

ولامانع من طلب الرئاسة من سلطان كافر ، لأنها لن تنال إلا من هذا الطريق وقد ترك يوسف الإستثناء فى حديثه، حتى لايتصور الملك عجز يوسف لأنه لايفهـــم معنى الإستثناء المقصود ، ومن الممكن تصور أن يوسف " عليه السلام " استثنى في نفسه .

وطلب الرئاسة فى الجو الذى طلبها فيه يوسف ضرورة دينية ، لأن الجماهير لاتتحول إلى الديـــن الحق ، إلا إذا ســـلمت أمامـــها مؤسسات التوجيه ، وتلاقت فى طريـــق

---

(١) سورة النجم آية (٣٢) .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ باب ما يكره من الحرص على الإمارة ج١٣ ص ١٢٥ .

(٣) تفسير الرازى ج٩ ص ١٦٤ .

واحد ، تبنى ولا تهدم ، تشيد الخير ، وتقوض الفساد ولا تتناقض الأراء لرواد المجتمع الواحد .. وذلك لايكون إلا بتولى يوسف الأمر كله ، وقد تم له ما أراد ، حيث ترك الملك له كل شئ ، وتمكن يوسف من كل شئ .

وبهذا لا لوم عليه فى طلب الرئاسة ، وتزكية النفس ، وللمسلم أن يطلب رئاسة يقدر على الوفاء بها ، بطرق يرضى بها المجتمع الذى يعيش فيه ، حتى إذا ما أستجيب له يقوم بدوره مع الناس متآلفاً ، ودوداً .

الحقيقة الثالثة : (تمنى الموت) ...

فى نهاية قصة يوسف " عليه السلام " نقرأ قوله تعالي : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١) .

فقد سأل "عليه السلام" ربه حينما تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه،وإخوته وبما من الله عليه بالنبوة والملك .. دعا ربه أن يديم عليه نعمته في الآخرة وأن يتوفاه مسلماً ، وأن يلحقه بالصالحين من إخوانه النبيين والمرسلين " عليهم صلوات الله وسلامه " .

والسؤال هنا :

هل يجوز ليوسف " عليه السلام " أن يتمنى الموت وهو صحيح ؟

وهل يجوز لأتباع محمد " ﷺ " هذا التمني ؟

إن تمني الموت لايجوز مطلقاً ، لا ليوسف ، ولا لأي مسلم آخر .

ولذلك قال المفسرون : إن يوسف " عليه السلام " طلب ذلك حين حضرته الوفاة ، أوأنه طلب من ربه أن يتوفاه على الإسلام يوم يحين أجله ، وذلك كما يقول الرجل وهو يدعو : اللهم أحيني مسلما ، وأمتني مسلما .

---

(١) سورة يوسف آية (١٠١) .

وماذهب إليه المفسرون أولى من قول بعضهم إن ذلك كان جائزا في شـــريعة يوسف " عليه السلام " .

ومن المعلوم أن حياة الرسل للدعوة ، فإذا ماتمت يقترب أجلهم ، لقد شعر الصحابة بقرب أجل النبي " ﷺ " لما نزل قول الله تعالى : ﴿ **ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا** ﴾ (١) ، ولما نزلت سورة النصر سر الصحابة وبكى ابن عباس ، ولما سئل قال : **هذا أجل رسول الله ﷺ** .

وفي شريعة الإسلام لايجوز للمسلم أن يتمنى الموت لأن الموت يقطع العمل ، وأما الحياة فإنها فرصة المؤمن يزداد بها خيراً ، في شكره النعم ، أو صبره على البلاء .

وإذا تعرض المسلم لضر أو أذى ، فإن الله سبحانه وتعالى يجيز له الهجرة نصرة لدينـــه ، يقـــول الله تـــعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا** ﴾ (٢) .

ومن هنا فقد نهى النبي " ﷺ " عن تمني الموت حيث قال : (**لايتمنى أحدكم الموت لضرٍ نزل به ، فإن كان ولابد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحـــيني ماكانـــت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كان الموت خيراً لي**) (٣) .

أما إذا عمت الفتنة و لم يجد المرء لنفسه خلاصا منها فإنه يجوز له أن يـــتمنى الموت ولهذا قال علي بن أبي طالب "رضي الله عنه" في آخر خلافته ، لما رأى أن الأمور لاتجتمع

---

(١) سورة المائدة آية (٣) .

(٢) سورة النساء آية (٩٧) .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ باب الدعاء بالموت ج١١ ص ١٥٠.

له ، ولايزداد الأمر إلا شدة قال : (**اللهم خذني إليك فقد سئمتهم ، وسئموني**) ، وقال البخاري " رحمه الله " لما وقعت له الفتنة وجرى له مع أمير خرسان ماجرى ، قال :(**اللهم توفني إليك**) .

وفي الحديث الصحيح **أن الرجل ليمر بالقبر ـ أي في زمن الدجال ـ فيقول ياليتني مكانك ، لما يرى من الفتن ، والبلايا ، والأمور الهائلة** (١) .

الحقيقة الرابعة : عدم تعجل النتيجة :

أوحى الله إلى يوسف وهو فى الجب بما سيأول إليه أمره ، وطال به الزمن ، ولما جاءه إخوته ، لم يتعجل إظهار الحقيقة ، وإنما تدرج فى الظهور لأخيه ، وإخوته ، وأبيه ، وذلك أمر حسن فى شئون الحياة الدنيا .

أما فى شئون الدين فهو أشد حسناً ، وأعظم أثراً ، لأن التربية الهادئة ، المركزة ، تبنى المبادئ على أساس متين ، وتجعل البناء صلباً يتحمل الأنواء ، والأعاصير والزلازل .

والدين يواجهه أعداؤه فى كل عصر ومصر ، ولذلك لزم أن يكون قوى البناء متين الدعائم ..

وأيضاً فإن تعجل النتيجة والأثر ، لايحقق النتيجة المأمولة ، وكثيراً مايؤدى إلى التصادم ، والانفعال ، والعصبية ، وهذا أمر لايفيد الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٢ .

١٣

أيوب عليه السلام

أيوب " عليه السلام " رسول الله إلى قومه الذي جاء ذكره فى القرآن مختصراً .

و" أيوب " اسم أعجمى غير منصرف ، وقيل : بل هو اسم عربى ومعناه فى العربية ، والعبرية الرجوع إلى الله فى كل حال ، فى المحنة والبلاء ، والمنحة والرجاء ...

وقد اتخذ بلاء أيوب " عليه السلام " صوراً عديدة ، فقد ابتلاه الله تعالى بالنعم ، والخير ، فشكر ربه المنعم ، المتفضل ، واستمر يذكره أناء الليل ، وأطراف النهار ، عابداً ، خاشعاً ..

كما ابتلاه الله بالأذى ، والضر ، فصبر ، ورضى ، واحتسب صبره ورضاه لله رب العالمين .

وبلغ من تحمله لقضاء الله ، وقدره ، أنه لم يطلب من الله رفع الأذى لينال بالصبر رضوان الله تعالى .

وما طلب من الله النجاة إلا شفقة بزوجته بعدما رأى حالها ..

وقد تحمل أيوب " عليه السلام " فى بلائه فصبر ، وظل راضياً بقضاء الله تعالى ، ولذلك ففى قصته دروس وعبر .

والحديث عن أيوب " عليه السلام " يتضمن النقاط التالية :

" النقطة الأولى "

التعريف بـــ أيوب " عليه السلام "

أيوب بن موص بن زراح بن إسحاق (١) من ذرية إبراهيم " عليه السلام " ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (٢) ، والضـــمير فى ذريته يعود إلى إبراهيم " عليه السلام " ، وأيوب نبى أوحى الله إليه ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ (٣) .

وقد تزوج أيوب ابنة عمه ، قيل : اسمها رحمة بنت يوسف بن يعقوب (٤) ، وكان مبعثه " عليه السلام " بـــ " حران " (٥) .

وقد مدحه الله تعالى ، وأبرز صفاته الخيرة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ (٦) .

فلقد إلتزم " عليه السلام " مقام العبودية ، وأسلم أمره لله تعالى ، وابتلى فصبر ، وكان كثير التسبيح لله رغم ما كان فيه من بلاء .

لم يتحدث القرآن الكريم عن دعوة أيوب " عليه السلام " ، واكتفى بالحديث عن خصائصه ، وصفاته ، وما ابتلى به .

يقول الحافظ ابن حجر : (وكان له البثنية(٧) ، سهلها ، وجبالها ، وله فيها أهل ومال ، وولد ، فسلب ذلك منه شيئاً فشيئاً ، وهو يصبر ، ويحتسب ، ثم ابتلى فـــــى

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٢٠.(٢) سورة الأنعام آية(٨٤) . (٣) سورة النساء آية (١٦٣)
(٤) البداية والنهاية ج١ ص٢٢١ . (٥) فتح البارى ج٦ ص ٤٢١ . (٦) سورة ص آية (٤٤)
(٧) بفتح الباء والثاء ، وكسر النون اسم ناحية من نواحى الشام بين دمشق وأذرعات (معجم البلدان ج١ ص ٣٣٨) .

فى جسده بأنواع من البلاء ، فرفضه الناس إلا إمرأته) (١) .

وقد استمر أيوب " عليه السلام " فى دعوة الناس إلى الله تعالى سبعين عاماً ، وكان فيها عظيم التقوى ، رحيماً بالمساكين ، يكفل الأرامل ، والأيتام ، ويكرم الضيف ، وينصح بالحق فى رفق ولين ، ومن رفقه بقومه ، وشدة تقواه أنه كان يمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله ، فيرجع إلى بيته يكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق ، ومخافة أن يكبهما الله فى النار (٢) .

وذات يوم قال أخ له لآخر : لو كان الله يعلم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء ، وسمعهما أيوب ، فجزع من ذلك جزعاً لم يجزع مثله قط ، فقال لله : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع ، فصدقنى ، فصدق من السماء ، وهما يسمعان ... اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار فصدقنى ، فصدق من السماء ، وهما يسمعان (٣) .

وهذه كلها شواهد حق على حسن خلقه ، وصدقه فى دعوة الناس التى استمرت سبعين عاماً .

وبعد ذلك نزل به البلاء ، ففقد ماله ، وأهله ، وولده ، ولم يبق معه إلا زوجته ، وأصيب بعد ذلك فى بدنه حتى لم يبق فى جسده عضو سليم .

وقد عاش أيوب " عليه السلام " فى البلاء مدة طويلة ، اختلف العلماء فى تحديدها ، وأقلها فى أقوالهم ثلاث سنين ، وأكثرها ثمانى عشرة سنة ، ... وقد قابل أيوب هذا البلاء بالصبر ، والاستسلام لله ، عبودية ، وخضوعاً ، قالت له زوجته : يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك ... فقال لها : لقد عشت سبعين سنة ، صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر على البلاء سبعين سنة (٤) .

---

(١) فتح البارى ج٦ ص ٤٢١ . (٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٩ .

(٣) البداية والنهاية ج١ ص ٢٢٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٨٨ .

وكما اختلف العلماء فى تحديد مدة البلاء ، اختلفوا فى صــوره ، وأنواعــه وبخاصة ما كان فى بدنه ، ويذهبون فى ذلك إلى أراء كثيرة، أوصلها الإمام القرطبى إلى خمسة عشر صورة .

والذى أراه ـــ والله أعلم ـــ أن الله ابتلى أيوب " عليه السلام " ، فصبر حتى صــار يضرب بصبره المثل ، وكان مما ابتلى به المرض ، وأراه مرضاً لاينفــر النــاس منــه ، ولايلحق به نقصاً فى شخصه ، فهو " عليه السلام " رسول ، مكلف بدعوة النــاس ، ولــو كان به نقص ذاتى ، أو مرض منفر ، لاعتذر الناس به عند الله ، وكان لهم عذرهم فى أن الذى نفرهم هو المرض .

ولذلك فهو مرض لاينفر ، كالروماتيزم ، وآلام العظام ، والضعف العام ، وهكذا .. والإبتلاء متحقق بهذه الأمراض التى لاتنفر، كما يتحقق بغيرها ، والضر به لشدته ، ولمدته الطويلة ، وحينما قال الله له : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ضربها ، ولم يكن عاجزاً .

وأى فائدة تترتب على إلقائه فى مزبلة ، أو امتلاء جسده بالدود ، أو تقــيح جسده ، أو عبث الدواب به ؟ ، لافائدة فى كل هذا ؟ والأنبياء والرسل كرام عند الله تعالى .

ولذلك كان أيوب فى أثناء بلائه يصدق من الله تعالى ، ويكرم أمام الناس ، يمدح الله تعالى أيوب " عليه السلام " بصبره على البلاء ، وصدقه فى العبودية ، واستمراريته على الذكر والتسليم ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

إنصرف الناس جميعاً عن أيوب " عليه السلام " ، ولم يبق معه إلا زوجته فقد استمرت معه تخدمه ، وتساعده ، وتعمل لدى الناس لتنفق عليه من أجرها " رضى الله عنها " ، واستمرت على ذلك، حتى انصرف الناس عنها، خوفاً من انتقال مرض زوجها إليهم ، فعمدت إلى إحــدى ضفيرتيها، وباعــتها لإحدى بنات الأشراف، بطعام طيب وفير

ثم باعت الضفيرة الثانية وأنفقت ثمنها على أيوب ، وأطعمته .

وأين إبليس فى بلاء أيوب ؟ وما دوره فى الإضلال ؟

لم يغب إبليس ...وإنما قام بدوره مع زوجته ، حيث جاءها فى صورة طبيب يصف لها دواء أيوب ، فلما أتت زوجها تعرض عليه إحضار طبيب يشفيه ، تألم منها لنسبتها الشفاء لغير الله ، وضجرها من قدر الله ، وأقسم ليضربنها .

وأنطلق إبليس إلى رجلين صديقين لـ " أيوب " ، وقال لهما : إحملا لـ " أيوب " خمراً ، فإن شرب منه برئ ، فلما أتياه ، وعرضا عليه الخمر ، قال لهما : جاءكما الخبيث ، كلامكما ، وشرابكما ، وطعامكما على حرام ، فقاموا من عنده .

وأتى إبليس إلى أيوب ، ووسوس له ، وأخبره بأن زوجته بغت بمال أنفقته عليه ، فتألم وأقسم ليضربنها مائة سوط ، فلما جاءته سألها عن مصدر المال الذى تأتى به ، فكشفت له عن رأسها ، وأخبرته بأنها باعت ضفيرتيها ، لتنفق ثمنهما ، وتطعمه .

يذكر المفسرون صوراً عديدة لمحاولات إبليس مع أيوب منها أن الله كلم إبليس ، وأنه مكن له فى السماء السابعة .

يورد القرطبي بعضاً منها ثم يعقب برأى ابن العربى، وفيه أن ذلك كلام لايصح ؛ لأن الله أهبط إبليس من الجنة بلعنته ، وسخطه ، مطروداً من السماء إلى الأرض ، ومحال أن يرقى بعد ذلك إلى مقام الأنبياء ، وأما قولهم أن الله كلمه، فمحال أن يكلم الله إبليس أو جنوده ، وأما قولهم أن الله سلطه على أيوب، وماله، وولده ، فهو أمر متروك لإبليس وذريته مع الخلق جميعاً ، ولاحاجة لتوجيه خاص بأيوب ، وأما قولهم : إن إبليس قال لزوجة أيوب : أنا إله الأرض فلو تركت ذكر الله ، وسجدت لى لعافيت زوجك ، فلا يصح ، لأن هذا كلام لايقبله مؤمن عادى ، فكيف تسمعه زوجة نبى مؤمنة ؟ ! (١) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٠٩ بتصرف .

تألم أيوب " عليه السلام " لحال زوجته حينما رأى رأسها ، ورق لها ، فسأل الله أن يكشف عنه الضر ، والأذى ، رحمة بزوجته .

ولما تم الأجل الذى قدره الله تعالى واتجه أيوب إلى ربه ، وسأله كشف الضر ، وقال ما حكاه الله عنه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١) ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢) .

والمراد **بالنصب** : الضر الذى أصابه فى بدنه ، والمراد **بالعذاب** : الضر الذى أصابه فى ماله وولده (٣) .

وقيل النصب : الشر والبلاء مادياً أو معنوياً كالوسوسة ، والشك ، **أما العذاب** : فهو البلاء والشر المادى فقط (٤) .

ونلمح أدبه " عليه السلام " مع ربه وهو يدعوه ، إذ نراه ينسب الضر إلى الشيطان ، ويسأله أن يرفعه عنه ....

واستجاب الله لـ " أيوب " عليه السلام ، وانفرجت الغمة ، وذهب البلاء ، وقال الله لأيوب : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٥) .

أمره سبحانه وتعالى بأن يضرب الأرض برجله ، فضربها " عليه السلام " ضربة فنبعت عين ، فأمره الله أن يغتسل منها ، فاغتسل فذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فنبعت منه عين أخرى ، وأمره أن يشرب منها ، فلما شرب ذهب جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً (٦) بعدما اغتسل من عين ، وشرب من الأخرى .

---

(١) سورة الأنبياء آية (٨٣) .　　(٢) سورة ص آية (٤١) .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٩ .　　(٤) انظر تفسير القرطبى ج١٥ ص ٢٠٠٧ .

(٥) سورة ص آية (٤٢) .　　(٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٩ .

وكافأه الله أيضاً على صبره الجميل ، بأن أعاد له أهله ومثلهم معه ، يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

وللعلماء في إعادة أهله له أقوال متعددة :ــ

الأول : أن الله أحياهم بأعيانهم، وأتاه مثلهم **في الدنيا** ، وينسب هذا القول إلى ابن عباس وابن مسعود ومجاهد " رضى الله عنهم " .

الثانى : أن الله تعالى خيره بين إحضارهم بذواقم ، أو تركهم فى الجنة على أن يؤتى له بأمثالهم ، فأختار بقاءهم فى الجنة ، وإحضار أمثالهم له فى الدنيا .

الثالث : أوتى أجرهم فى الآخرة ، وأعطى أمثالهم فى الدنيا (٢) .

ومع الآراء الثلاثة فقد أوتى بأمثالهم، وضاعف الله فى نعمه ... ومن عجيب قدر الله أن زوجته لماجاءته بعد أن اغتسل ، وألبسه الله حلة من الجنة لم تعرفه ، فقالت له ، يا عبد الله : أين ذهب هذا المبتلى الذى كان ها هنا ، فو الله القدير ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، ، فقال لها : فإنى أنا هو ، وأعاد الله لزوجته شباها ، وأنجبت له عدداً من الأولاد .

وبالنسبة لقسمه الذى حلف فيه ليضربنها ، فقد علمه الله حيلة يبر ها قسمه ، من غير إيذائها ، رحمة به ، وها ، قال الله تعالى له : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (٣) .

فأخذ بيده حزمة من الحشيش الأخضر اللين، ها مائة عود صغير، وضرها به مرة واحدة خفيفة ، وبذلك بر قسمه ، ولم يؤذ زوجته .

---

(١) سورة ص آية (٤٣) .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، وقد رجح الرازى فى تفسيره الرأى الأول ج١٣ ص ٢١٥ .

(٣) سورة ص آية (٤٤) .

وهكذا انتهت محنة أيوب ، بعودة ما كان فيه من خير ، وضاعف الله له العطاء ، تكريماً له .

يروى الحاكم أن أيوب " عليه السلام " كان له أندران ، أحدهما للقمح ، والثانى للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الفضة حتى فاض .

يروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى " صلى الله عليه وسلم " أنه (**بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لاغنى لى عن بركتك**) (١) .

فنزل عليه الذهب فى شكل جماعات الجراد ، فأخذ يجمعها ، ويلتقطها فى ثوبه ... فلما سأله الله عن عطائه إياه أقر له " عليه السلام " بأنه أغناه ، لكنه مع ذلك لايستغنى عن الزيادة رحمة من الله وبركة .

وهكذا عاش أيوب فى النعم الوافرة، وخيرات الله الكثيرة، حتى لقى ربه عن عمر يزيد على تسعين عاماً " صلى الله عليه وسلم " .

" النقطة الثانية "

ركائز الدعوة فى قصة أيوب " عليه السلام "

يمكننا أن نأخذ من قصة أيوب عدداً من العبر ، تعود إلى القائم بأمر الدعوة ، وكأن الله تعالى فصل لنا هذا الجانب ليكون معلماً ، لكل من يقوم بأمر الدعوة ، يرى به ما سيقابله من مشاق ، وما يحتاج إليه من صفات ، وما يجب عليه من حسن معاملة وخلق ، ليكون على بينة من طبيعة الناس ، ومشاق الدعوة ، وضرورة التبليغ .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦ ص ٤٢٠ ـــ باب (وأيوب إذ نادى ربه) .

وسأحاول إبراز أهم الركائز فما يلى :

الركيزة الأولى : تكامل شخصية مبلغ الدعوة : ــ

مبلغ الدعوة ، والقائم بشأنها ، لايحقق مراده من النجاح إلا إذا أخلص فى سعيه ، وكمل فى ذاته .

وأول ما يحتاجه الداعية ، أن يمتن صلته بالله ، ويرضى بقضائه وقدره ، فى السراء ، والضراء .

وليعلم الدعاة أن : (**أشد الناس بلاء ، الأنبياء ، ثم الأولياء،ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً ، أشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة**) (١) .

وإن الصبر ليعد الدليل الأوضح على قوة إيمان صاحبه ، وصدقه فى العبودية لخالقه، فالبلايا للمؤمن إمتحان، واختبار ، يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٢) .

وقد رأينا فى قصص الأنبياء السابقين كثيراً من إبتلاء الله لهم ، وصبرهم على ما قدره الله عليهم ، ولذلك كان الصبر نصف الإيمان .

جاء فى الحديث القدسى : (**إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أو ماله ، أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، إستحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديوانا**) (٣) .

---

(١) سنن الترمذى ــ كتاب الزهد ــ باب ما جاء فى الصبر ج٤ ص ٦٠٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الملك آية (٢) .

(٣) مدرسة الأنبياء ص ١٧٦ .

وقد رأينا أيوب " عليه السلام " ابتلى فى نفسه ، وماله ، وأهله ، وولده ، فلم يجزع أبداً ، وظل على حسن التقوى ، وجميل الصبر، مدة طويلة راضياً بقضاء الله فيه .

وحاجة الدعاة إلى الصبر ضرورة ، لأنهم دائماً يجاهون أعداء الله فى الأرض ، وكثيراً ما يتمكن الأعداء منهم ، وحينئذ يكون الصبر ملاذهم ومأواهم ، وهو الأسلوب الأمثل لإثبات قوة الحق ، وإظهار صلابة الإيمان ، وعزته .

ولحكمة أرادها الله تعالى ابتلى الأنبياء جميعاً بصور شتى من البلاء ، ليكونوا الأسوة لدعاة الله من بعدهم .....

ومن الصفات التى يجب أن يتحلى بها الداعية ، أن يكون رفيقاً بمن حوله ، ومعاشريه ، وأولهم أهله وبنوه ، فهم المجال الأقرب لدعوته ، وإيمانهم دليل على صدق الدعوة .. ولذلك أمر الله تعالى رسوله محمداً " ﷺ " قائلاً : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ (١) .

وهذا أيوب " عليه السلام " لما أقسم على أن يضرب زوجته مائة سوط، علمه الله أن يبر بقسمه، ولا يؤذى زوجته ، ليتعلم كيف يكون رفيقاً ، رقيقاً معها ، ولم يأمر الله تعالى أيوب " عليه السلام " بترك الضرب بالكلية ، ليعلم أن من حق الزوج أن يؤدب زوجته فى حدود الرفق والمودة ، والرحمة ، ويرى الشافعى أن هذا المخرج جائز فى الإسلام فى غير الحدود ، ويوافقه أبو ثور وأصحاب الرأى (٢) .

ومما يساعد الدعاة على القيام بواجب الدعوة أن يكون بيته مثواه الآمن ، وراحته ، وسكنه ، ليستعين بذلك على المشاق ،والصعاب، التى يواجهها مع الناس .

لقد أرشد إبراهيم ولده إسماعيل " عليه السلام " بطلاق زوجته الأولى لما رأى فى أسلوبها ، ولقائها ، ضجراً ، وتألماً ، وشكاية من قدر الله تعالى .

إن القائم بأمر الدعوة إذا أدى حق الله ، وحق الناس، وحافظ على ذلك تتكامل شخصيته ، ويحقق لدعوته الخير والفلاح .

---

(١) سورة طه آية (١٣٢) .

(٢) تفسير القرطبى ج١٥ ص ٢١٣ ــ ٢١٤ بتصرف .

الركيزة الثانية : الثقة المطلقة فى الله :

حينما تشتد الخطوب ، ويكثر البلاء ، ويجد الداعية نفسه وحيداً ، فريـــداً ، عليه أن يركن إلى الله تعالى ، ويستجير بمعونته ونصره ، فهو سبحانه القادر على كل شئ ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهو سبحانه يقلب الليل والنهار، بما يشاء وبما يريد .

إن الثقة فى الله تملأ القلب قوة ، وتشحن النفس بالشجاعة والإقدام ، وتجعل العقل يتيقن بما عند الله أكثر من يقينه مما فى يد نفس صاحبه .

إن الصدق فى الإيمان هو الذى يجعل المؤمن يقدم على الموت فى سبيل الله ثقة بوعد الله تعالى (١) .

وهو الذى يجعل المؤمن يلازم الطاعة الخالصة ، والدنيا من حوله تموج بالفتن ، وتدعو إلى الضلال والهوى .

إن الدعاة إلى الله أجراء عند الله ، أينما كانوا، وحيثما حلوا، وكيفما أرادهم سيدهم أن يعملوا عملوا ، وليس عليهم بعد ذلك التطلع إلى المصير .

وكذلك لم يكن عجيباً عند العقلاء ما نراه من أنبياء الله تعالى ، وهم يستمرون فى الدعوة إلى الله ، بلا أتباع ، وبلا أنصار من الناس ، لأنهم إتبعوا ربهم ، وانتصروا به وحده سبحانه وتعالى .

وأيوب " عليه السلام " مثل أعلى فى هذه الثقة ، لم يذهب إلى طبيب يعالجه ، ولم يلتمس طريقاً يشفيه ، ولما أراد الله له النجاة والشفاء، أخذه إليه، فناداه قائلاً ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، وحينئذ أمره بالإغتسال فى الماء الذى نبع له بعد أن ضرب الأرض بقدمه ، وأعاد له ما أخذ منه ، من أهل ومال ، ومثله معه .

---

(١) لأصحاب رسول الله " ﷺ " صور رائعة فى مجال التسابق للشهادة والجهاد والموت فى سـبيل الله تعالى .

الركيزة الثالثة : الأخذ بالأسباب المشروعة : ـــ

ليس بعيداً على الله أبداً أن يتم شفاء أيوب بلا عمل منه ، لكن الله تعالى أمره أن يضرب الأرض بقدمه ، لينبع الماء ، يغتسل منه ، ويشرب ، وبذلك يزول ما ببدنه وباطنه من أذى .

لقد أمره الله تعالى بذلك ليتعلم والأدميون من بعده، أن الله تعالى يجرى أقداره على أسباب يقوم بها الناس ، حتى لايتكلوا ، فكأنه استعمل الدواء ، فأشفاه الله من الداء ، وصارت سنة فى الناس أن يأخذوا بالأسباب ، متوكلين على الله ، يقول النبى " ﷺ " : (**يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء**) (١) .

ومن الأخذ بالأسباب قول الله تعالى لمحمد " ﷺ " : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٢) ، إن الله تعالى قادر على أن ينصر رسوله بـــ " كن " ولكنه أجرى النصر على الأسباب، فهيأ طائفة من المؤمنين يؤيدون رسول الله " ﷺ " وينصرونه ، وحتى يعلم المسلمون على طول الزمن أن الإسلام يحتاج إلى جهد المسلمين ، وصدقهم فى الدفاع عنه .

وبالنظر فى تاريخ الدعوة، نرى جريان القدر الإلهى على الأسباب البشرية غالباً حتى لايتكل الناس .

فالمجتهد يفوز ، والكسول يخبو ، والساعى إلى الحق يصل إليه .....

ومن الأخذ بالأسباب ومراعاة الواقع ما نراه من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز " ﷺ " : فلقد أنكر عليه ابنه عبد الملك عدم إسراعه فى إزالة الإنحراف مرة واحدة . قال له : لاتعجل يابنى فإن الله ذم الخمر فى القرآن مرتين ، وحرمها فى الثالثة ، وإنى

---

(١) سنن الترمذى ـــ باب ما جاء فى الدواء ج٤ ص ٣٨٣ ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سورة الأنفال آية (٦٢) .

أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة ، فيدفعوه جملة ، وتكون من ذا فتنة) (١)
وفى هذا درس للدعاة .

*****

الركيزة الرابعة : أهمية الدعاء :

شرع الله للناس اتصالاً عاجلاً به ، يلجأون إليه لتحقيق حاجاتهم ، وهو الدعاء ، والتوجه لله تعالى .

إن الدعاء الخالص هو العبادة الحقيقية ، لأنه دليل تقدير العبد للمعبود ، وثقته فيه .

والدعاة إلى الله تعالى أحوج الناس إلى هذا السبيل ، وعليهم اللجوء إلى الله فى السراء ، والضراء ، ليديم لهم العطاء ، ويتحقق لهم النصر ، ويتمكنوا من نشر دين الله بصفائه بين الناس .

---

(١) الموافقات ج٢ ص ٩٣ ــ ط. دار المعرفة .

١٤

ذو الكفل عليه السلام

وردت قصة ذى الكفل فى آيتين من آيات القرآن الكريم فى سورتي(الأنبياء)، و (ص) ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١) ، ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢) .

يرى بعض العلماء أن ذا الكفل ليس نبياً ، ولكنه عبد صالح ، تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى لهم حاجاتهم ، ويحكم بينهم بالعدل، وبالحق ، ففعل ذلك فسمى بذى الكفل ، وقيل لأنه تكفل بأمر فوفاه ، وقيل لأنه تحمل ضعف غيره في العمل ، وثوابه ضعف ثواب غيره أيضاً ، وينسب هذا الرأى لمجاهد ، وقتاده (٣) .

ويذهب آخرون وعلى رأسهم الحسن وابن تيمية والرازى ، والأكثرون إلى أنه" عليه السلام " نبى من الأنبياء مستدلين بما يلى :

١ــ إن الكفل اسم مفيد ، ومعناه النصيب ، وسماه الله بذلك على سبيل التعظيم ، فوجب أن يكون الكفل هو كفل الثواب ، لأن الله جعل عمله ضعف عمل غيره ، وجعل ثواب عمله ضعف ثواب عمل غيره ، وكان فى زمنه أنبياء ، وهذا يرجح كونه نبياً ، لأنه لايجوز أن يكون ثواب الرجل الصالح إن قلنا بعدم ثبوت نبوته أفضل من ثواب النبى، مهما كان العمل الذى كلف به .

---

(١) سورة الأنبياء آية (٨٥) . (٢) سورة ص آية (٤٨) .

(٣) تفسير القرطبى ج١١ ص ٣٢٨ .

٢ــ إن الله قرن اسمه وذكره ، باسم وذكر إسماعيل وإدريس " عليهم السلام " ، وهؤلاء أنبياء ، فهو نبى مثلهم ، لأن الغرض من الآية ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم الناس .

٣ــ إن السورة ملقبة بسورة الأنبياء ، فكل من ذكره الله تعالى فيها ، فهو نبى (١) .

يذكر الترمذى أن ذا الكفل من أنبياء بنى إسرائيل ، وبرغم أن الآيات لم تفصل فى حركته بالدعوة ، إلا أن الأوصاف التى أوردها عنه " عليه السلام " تدل على ملامح دعوته ، وأهمها : ــ

ــ **ذو الكفل** : حيث تكفل بما عهد إليه ، ووفى بكل ما كلف به ، وذلك دليل على قيامه بأمر الدعوة والبلاغ ، لأنها موضوع رسالته التى كلف بها ، والقضية التى بعث لها ، وكان " عليه السلام " يتكفل لكل إنسان بحاجته ، فقصده أصحاب الحاجات ، وبهذا سهل أمامه الاتصال بهم، ودعوتهم إلى الله تعالى .

ــ من **الصابرين** : وهذه صفة أساسية فى نبوته ، فبها يؤدى حق الله ، وحق الناس ، ويتحمل كافة المعارضات ، والعداوات ، التى توجه لشخصه ، أو لكونه رسولاً ، أو لدعوته ، من الضالين المكذبين على إختلافهم ، وتنوعهم .

ــ **من الأخيار** ، وخيرية الرسول دائماً تكون لنفسه ، وللناس ، وهو ينصحهم ، ويرشدهم ، ويحاول إصلاح حياتهم وأخراهم ، ويبصرهم بما يجب عليهم لله تعالى .

وهذه الملامح مستفادة من الصفات المذكورة ، وأما بيان الوقائع الدالة عليها فلم يتكلم عنها المفسرون ، والمؤرخون ، وكل ما فصل فيه البعض لا دليل عليه ، ولذلك كان الإكتفاء بالإجمال أولى .

---

(١) تفسير الرازى ج١١ ص٢١١ .

١٥

يُونس عليه السلام

من رسل الله تعالى " يونس " " عليه السلام " ، وهو من أبناء يعقوب " عليه السلام " ، بعثه الله تعالى إلى غير الإسرائيليين ، والحديث عنه يحتاج إلى عدة نقاط .

" النقطة الأولى "

التعريف بقوم " يونس "

بعث الله يونس " عليه السلام " إلى الأشوريين ، الذين أسسوا لهم حضارة عرفت بهم ، ونسبت إليهم ، ويقع موطنهم حول نهر " دجلة " وروافده .

وأشهر مدنهم آشور ، وأريلا ، والكلخ ، ونينوى ، وتقع هذه المدن فى الجهة المقابلة لمدينة " الموصل " الحالية .

وقد نشأ الأشوريون فى البادية ، إلا أنهم تغلبوا على أهل المدينة ، وأسسوا دولتهم ، وحضارتهم .

وكان للأشوريين عاصمتان ، آشور ، وهى عاصمة فصل الشتاء ، ونينوى ، وهى عاصمة فصل الصيف .

وقامت حضارة الأشوريين على القسوة ، والحرب ، ولذلك كانوا يأخذون الجزية من جيرانهم ، ويبسطون نفوذهم على كثير من الشعوب .

وكانوا يعبدون أصناماً لهم سموها بأسماء مدنهم ، وجعلوا إلههم الأكبر هو أشور ، وبه يسمى ملكهم ، وكانوا يتوجهون بالعبادة لأشور " الملك " ، ويتقربون إليه بالعطايا ، ويسيرون على أوامره ونواهيه (١) .

---

(١) قصة الحضارة ج٢ ص ٢٦٤ ــ ٢٧٧ بتصرف .

وكانت دعوة " يونس " " الطَّيْلاً " للأشوريين ، إنطلاقاً من عاصمتهم " نينوى " يدل على ذلك ما حدث مع رسول الله " ﷺ " يوم أن ذهب إلى " الطائف " حين التقـى بـ " عداس " غلام بنى ربيعة النصرانى ، حيث قدم عداس للنبى " ﷺ " قطف عنب ، فمد النبى " ﷺ " يده إليه ، وقال : باسم الله قبل أن يأكل ، فقال عداس : إن هـذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له النبى " ﷺ " : من أى البلاد أنت ؟ فقال : أنا من نينوى .. ، .. فقال له النبى : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال لـه عداس : وما يـدريك ما يونس ؟ فقال له النبى " ﷺ " : ذلك أخى كان نبياً ، وأنـا نبى (١) .

دعا يونس " الطَّيْلاً " قومه إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما هم عليه من خلـق سئ ، وظلم، وعدوان على الناس .

ومن البدهى أن الله أمده بالمعجزة ، ونزل عليه الوحى، لتحديـد جوانـب الدعوة التي أخذ يبلغها للناس .

لكن القوم أصروا على ضلالهم وفسادهم ، وتمسكوا بعبادة الملوك والأوثان .. ، فلما طال الزمن وهم على ضلالهم ، غضب يونس " الطَّيْلاً " من عنادهم ، وأنذرهم بعذاب الله الذى سيترل عليهم لإصرارهم على الكفر والضلال ، فلما ظهر العـذاب فـوق الرءوس فر من بلدهم ، وإتجه إلى الشرق حيث البحر والسفن ، ليتمكن من السـفر بعيداً عنهم .

لكن القوم بعد ما تركهم يونس " الطَّيْلاً " خافوا من نزول ما خوفهم منـه ، وقذف الله فى قلوهم التوبة ، والرجوع إلى الله تعالى ، فلبسوا مسوح الرهبان ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، وأخذوا يستغيثون بالله، ويتضرعون إليه ليكشف عنهم غضبه ، ويترل عليهم رحمته ، فاستجاب الله لهم ، ورفع العذاب بعدما إقترب منهم ، وأظلهم .

---

(١) السيرة النبوية ج٢ ص ٢٦٦ ـــ دار التراث .

يصور الله تعالى موقف يونس "عليه السلام" من قومه ، وإيمان قومه من بعده ، فيقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١) ، ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ (٢) ، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٣) .

والآيات تشير إلى غضب يونس " عليه السلام " من قومه ، وفراره منهم ، وأن القوم آمنوا بعد فراره فنفعهم إيمانهم ، ورفع الله عنهم عذاب الخزى الذى كاد أن يحل بهم ، ومتعهم فى الحياة الدنيا ، وسوف يمتعون فى الآخرة بإذنه تعالى لإيمانهم ، وتقواهم

يقول ابن كثير : (وقد اختلف المفسرون فى إنتفاعهم بهذا الإيمان ، فى الدار الآخرة .. على قولين .. والأظهر من السياق إنتفاعهم به ، لإطلاق مسمى الإيمان عليهم ، والإيمان ينقذ من عذاب الآخرة) (٤) والله أعلم .

وأخذ يونس " عليه السلام " دورته التى قدرها الله له ، وعاد داعياً ، وأرسله الله مرة أخرى ، يقول تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

لكن هل هؤلاء المؤمنون هم قومه الذين فر منهم قبل ذلك ، أم أنهم قوم آخرون ؟ ؟ !

يفترق العلماء فى هذه المسألة إلى فريقين ، وأميل إلى رأى من قال : إنهم ليسوا قومه السابقين لأسباب : ــ

١ــ أن قومه السابقين آمنوا بعدما تركهم وفر منهم ، أما هؤلاء فقد أمنــوا

---

(١) سورة الصافات الآيات (١٣٩ ــ ١٤٠) . (٢) سورة الأنبياء آية (٨٧) .
(٣) سورة يونس آية (٩٨) . (٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٣٣ .

بعدما دعاهم لقوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾ .

٢ـــ أن أقوامه السابقين كانوا جمعاً غفيراً ، أما هؤلاء فكانوا عدداً قلـــيلاً فى حدود مائة ألف أو يزيدون .

ولا مانع من أن يكون " عليه السلام " أرسل لقومه المؤمنين ، وأرسل إلى هـــؤلاء أيضاً فآمنوا ، فتمتع الجميع بنعيم الله فى الدنيا حتى ماتوا ، وسوف يتمتعون بنعـــيم فى الآخرة بإذنه تعالى ، والله هو الرحمن الرحيم .

*****

" النقطة الثانية "

التعريف بـــ " يونس " " عليه السلام "

هو يونس بن متى ، من أنبياء بنى إسرائيل ، أرسله الله للأشـــوريين ، وكـــان ملكهم قد غزا بنى إسرائيل ، وسبى الكثير منهم ، فبعثه الله إليهم ، ليدعوهم إلى ديـــن الله تعالى ، ويرسل معه بنى إسرائيل ليعودوا إلى ديارهم .

دعا يونس " عليه السلام " أهل نينوى ، لكنهم أصروا على كفـــرهم ، وعبـــادهم للأوثان ، والأشخاص ، فتركهم " عليه السلام " ، وذهب مغاضباً .

يفسر العلماء ذهابه مغاضباً بما يليق بمقام النبوة بعدة أوجه :

الأول : أن المعنى ذهب مغاضباً من أجل ربه ، والمؤمن يغضب لله إذا عصى أمره ، وتركت طاعته .

الثانى : أنه غضب على قومه من أجل كفرهم ، وإشتد عليهم وفر منهم ، و لم يصبر على أذاهم .

الثالث : أنه ترك الناس وذهب مغاضباً للملك الذى يتولى أمور الناس ، لأنه لم يكن معه فى دعوته لهم (١) ، ووقف منه موقفاً سلبياً .

---

(١) كان الوحى يترل على أنبياء بنى إسرائيل، ويتولى الحكم والسياسة الملوك .

وأحسنها الرأى الأول ، ... وتدل هذه المغاضبة أيا كان المراد بها ، على ضيق صدر " يونس " ، وأنه لما تحمل أمر النبوة قام به بمشقة، وعسر ، ولذلك لم يصبر على قومه ، وكان يتوعدهم بالعذاب يحل بهم ، فلما أظلهم العذاب تركهم ، ولكنهم تابوا فرفع الله العذاب عنهم ، وعاتب الله يونس لأنه تعجل بتركهم (١) .

وكان عليه أن لايتركهم إلا بإذن من الله تعالى ، وأن لايغضب أبدا ..

يبين القرآن الكريم هذه الصفات فى يونس "عليه السلام" فيقول تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ (٢) .

حيث يأمر الله محمداً " ﷺ " أن لايكون كأخيه يونس فى الغضب ، والضجر ، والعجلة ، مع قومه ، ويوم أن دعا ربه وهو فى بطن الحوت كان مكظوماً ... يقول ابن عباس ومجاهد : أى مملوءاً غما .. ، .. ويقول عطاء وأبومالك " أى مملوءاً كرباً .. .. يقول الماوردى : والفـــرق بينهما أن الغم فى القلب (العقل) ، والكرب فى النفس (العواطف) ، ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

خرج يونس من عند قومه ، وذهب إلى البحر ليفر منهم بواسطة سفينة تقله بعيداً عنهم ، فوجد سفينة مملوءة ، فركبها ، وسارت السفينة ، وولجت بركابها فى البحر ، فلما جاءها الموج ، ثقلت بمن فيها ، وتوقفت فى عرض البحر ، فتشاور الركاب ، واتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم ، فمن أصابته القرعة ، ألقوه فى البحر ، ليتخففوا منه ، فلما اقترعوا وقع السهم على نبى الله يونس ، فلم ينفذوها عليه، لصلاحه وخلقه ، وأعادوا القرعة مرة ثانية ، وثالثة وفى كل مرة تأتى عليه ، فألقوه فى الماء ، حيث لا مناص من ذلك .

ويجرى القدر لتحقيق مراد الله تعالى ، ويأتى حوت عظيم يلقمه ، فيأمره الله تعالى بعدم أكل لحمه ، أو تكسير عظمه ، ويبتلعه الحوت ، ويستقر " يونس " فى بطنه حياً ، فأخذ يسبح ربه ، ويعبده ، واتخذ من بطن الحوت مسجداً ، واستغرق فى الذكر

---

(١) سورة القلم آية (٤٨) .　　　(٢) تفسير القرطبى ج١١ ص ٣٢٩ .

والتسبيح ، والدعاء ، ونادى ربه أن ينقذه من هذه الظلمات ، وتاب عن ما كان منه .. بعدما رأى أنه تضايق فى سعة الدنيا فضيق الله عليه فى بطن الحوت ، يصور الله ذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١) .

والآية تتحدث عن كونه ترك قومه غاضباً ، وظن أن لن نقدر عليه ، بمعنى أن لا نضيق عليه كقوله تعالى : ﴿ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ (٢) أو بمعنى الحكم والقضاء أى لانقضى عليه بالعقوبة (٣) ، وسكن فى بطن الحوت ، وعاش ظلمة الليل وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وتاب" عليه السلام " عن ما خالف فيه ، من ترك دعوة قومه وعدم الصبر عليهم ، وضجره من كفرهم ، وسأل الله أن يفرج عنه ما هو فيه .

لما محصه الله تعالى ، وأدبه ، وعلم صلاته ، وتسبيحه أمر الحوت أن يقذفه على الساحل ، فقذفه ضعيفاً ،نحيلاً ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٤) ، ونجاه الله تعالى إلا أنه كان عارياً يحتاج لستر ، وظل ، وطعام ، وشراب ، وأتم الله تعالى فضله عليه ، يقول تعالى : ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٥) .

والآية تشير إلى أنه ألقى فى العراء وهو ضعيف ، نحيل ، وقد رضى الله عنه ، وأكرمه بنعمه ، يقول تعالى : ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٦) فبنعمة الله التى أحاطته نبذ بالعراء وهو غير مذموم ، .. وقـــــد

---

(١) سورة الأنبياء آية (٨٧) . (٢) هذا رأى سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن ، وكثير من العلماء (الطبرى ج١١ ص ٣٣١) .

(٣) هذا رأى قتادة ، ومجاهد ، والفراء (الطبرى ج١١ ص ٣٣٢) . (٤) سورة الأنبياء آية: ٨٨

(٥) سورة الصافات الآيات (١٤٥ ـــ ١٤٦) . (٦) سورة القلم آية (٤٩)

أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، واليقطين كل شجر ممتد على الأرض لا ساق لـه ، وورقه كبير ، ولذلك قال بعض المفسرين : أنبت الله عليه شجرة من القرع لكثرة ظلها ، وصلاحية أكل ثمرها من أول طلوعه إلى آخره ، ونفعه للطعام ، والدواء ، وعدم إقتراب الذباب منه ، وهيأ الله لـ " يونس " دابة جبلية تسقيه من لبنها .

وصار على هذا الحال حتى أصبح سليماً ، معافى ، قوياً .

وأتم الله عليه نعمته فكلفه بالرسالة مرة أخرى ، وأرسله لقوم صدقوا به وأطاعوه ، يقول تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (١) ، ولامانع أن يكونوا قومه السابقين ، وحينئذ تكون دعوتهم من قبيل التذكير .

ومن الممكن أن يكونوا قوماً آخرين مع قومه وهو الأولى ، والله أعلم ..

وما نزل بـ " يونس " " عليه السلام " تمحيص ، وتأديب ، ولذلك كانت رحمة الله معه ، وجرت أقدار الله لتحقيق مراده سبحانه وتعالى، فى إعادته لدعوة الناس، بعدما عاش هذه المدة سجيناً فى بطن الحوت .

ولا ينبغى لأحد من الناس أن يتصور نقصاً بـ " يونس " " عليه السلام " فهو رسول الله " عليه السلام " ، يقول النبى " ﷺ " فى الحديث الذى رواه عنه ابن عباس " رضي الله عنهما " يقول : (**ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى**) (٢) .

ويقول الحافظ ابن حجر : (خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع فى نفسه تنقيص له فبالغ فى ذكر فضله لسد هذه الذريعة) (٣) .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١٤٧ ــ ١٤٨) .

(٢) صحيح البخارى ــ باب وإن يونس لمن المرسلين ج٦ ص ٤٥٠ .

(٣) فتح البارى ج٦ ص ٤٥٢ .

" النقطة الثالثة "

ركائز الدعوة فى قصة يونس

تقدم قصة يونس " عليه السلام " عبراً كثيرة فى مجال الدعوة إلى الله تعالى ، أجمل منها الركائز التالية : ــ

الركيزة الأولى : ضرورة الصبر والتحمل :

الإنسان مكون من جسد ، وعقل ، وعاطفة ، يرتبط بأى أمر يعايشه ، سواء كان أمراً مادياً أو معنوياً ، فالإنسان يحب المكان الذى تربى فيه ، ويحن إليه ، ويتمنى رؤية أصدقاء الشباب والصبا ، وإذا عشق فكرة، تفانى فى خدمتها ، وتنميتها ، ولذلك كان تغيير الإنسان أمراً شاقاً ، لأن التغيير يبعده عن أمور التصق بها .

فإذا ما كان التغيير إلى دين جديد ، كان أشق وأصعب ، لأنه يغير العواطف ، ويربطها بكل ما أحله الدين ، ويبعدها عن كل ما نهى الله عنه ، ويغير العقول ، وينقلها من مجال الوهم ، والضلال ، وخرافة القيم المادية ، إلى هدى الله ، وإنسانية الدين ، وقيم الخلق والحق ، ويغير أعمال الجسد بالتكاليف العملية، التى توجه الجسد فى كل حركاته وسكونه .. إنه تغيير يشمل الإنسان كله ، ولذلك فهو يحتاج إلى محاولات عديدة ، ومدة مديدة ، وطاقة شديدة .

إن القائم بدعوة الناس إلى الله ، وهو يباشر عملية التغيير ، عليه أن يكون صبوراً على الناس ، يتحمل صدهم ، ويناقش أراءهم ، ويقدم لهم دعوته بكل وسيلة ممكنة ، وبمختلف الأساليب لإقناع الناس ، وإدخالهم فى دين الله تعالى .

إن إبليس وجنوده يحولون بين الدعاة وبين الناس ، ليبقى الناس فى ضلالهم وكفرهم ، وينصرف الدعاةعن تحقيق غاياتهم .

وعلى الدعاة أن يوجهوا رداً كلما وجدوا صداً ، لأنهم لو ضجروا وتألموا لحققوا لإبليس غايته ، وما يعمل له .

وقد رأينا نوحاً " عليه السلام " يستمر فى دعوته ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يفر من ملاقاة الناس إلا بعدما أمره الله تعالى .

وإبراهيم " عليه السلام " هاجر بأمر ربه بعد أن نجاه الله من النار ، وفى قصة يونس درس فى هذا المجال ، فلقد ترك يونس القوم مغاضباً ، وفر إلى الفلك ، فأدبه الله تعالى حتى أقر بالخطإ ، وتاب إلى الله ، فلما تاب ، أعاده الله سبحانه إلى ما كان عليه .

الركيزة الثانية : الإخلاص فى العبودية :

يحتاج القائمون بأمر الدعوة إلى قوة تعينهم على مهام الدعوة ومشاقها ، وتساعدهم فى الوصول إلى القلوب والعقول ، وليس هناك إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه العليم بالقلوب ، والخفايا ، والقادر على تسخير الوجود كما يشاء ، والهدى هداه ، يوفق من يشاء للطاعة ، ويحرم من يشاء من التقى ، والرشاد .

ولذلك كانت حاجة الدعاة ماسة فى نوال عون الله وتوفيقه ، ولايتم لهم ذلك إلا بإخلاص العبودية ، والإلتزام بحق المعبود فى كافة الأحوال ، والأقوال والأعمال .. وبذلك يتمكن من القيام بواجب الدعوة ، أما إذا أهمل الله فى حياته ، وعاش بعيداً عن الطاعة لله ، فإنه يضر دعوته ، وفاقد الشئ لايعطيه ، والظل يعوج بإعوجاج أصله

إن الداعية يعمل لتحويل وجهة العباد إلى الله تعالى ، ولابد أن يكون فى مقدمة المتوجهين ، وبذلك يكون داعية بقوله ، وعمله ، وخلقه .

وقد ذكر الله سبحانه سبب قبول توبة يونس " عليه السلام " ، يبين الله ذلك ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) .

(١) سورة الأنبياء الآيات (٨٧ — ٨٨) .

وفى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه ، كما أجاب يونس ، وينجيه كما نجاه ، وهو قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

يروى أبو داود فى سننه عن سعد بن أبى وقاص عن النبى " ﷺ " قال :(**دعاء ذى النون فى بطن الحوت " لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين " لم يدع به رجل مسلم فى شئ قط إلا استجيب له**) (٢) .

يقول الدكتور / عبد الحليم محمود : (لقد كان يونس " عليه السلام " مسبحاً ، أى مترها لله تعالى ، نادى ربه بدعوة فى غاية الحق ، إنها :

أولاً : توحيد : لا إله إلا أنت .

وثانياً : تتريه : سبحانك .

وثالثاً : إعتراف بالتقصير : إنى كنت من الظالمين) (٣) .

ولعل أقوى ما يربط العابد بربه مداومة الذكر ، فى تضرع ، وخشوع ، لأنه بذلك يلتزم باب ربه ،كسائل يلازم الباب لحاجته ، فلا يلبث الباب إلا أن ينفتح ، وينال مراده ... يقول النبى " ﷺ " : (**ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ، قالوا : بلى يارسول الله !**

قال " ﷺ " : ذكر الله تعالى .

فقال معاذ بن جبل : ماشئ أنجى من عذاب الله من ذكر الله) (٤) .

ويقول " ﷺ " : (**ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده**) (٥) .

---

(١) سورة الأنبياء ــ آية (٨٨) .
(٢) سنن أبى داود .
(٣) فى رحاب الأنبياء والرسل ص ١٢٦ .
(٤) سنن الترمذى ج٥ ص ٤٥٩ .
(٥) سنن الترمذى ج٥ ص ٤٦٠ .

١٦

موسى عليه السلام

موسى(١) " عليه السلام " من أنبياء بنى إسرائيل ، أرسله الله تعالى لقومه ، وللمصرين ، وهو من أولى العزم، الذى خصهم الله بالعزم القوى ، والصبر الجميل ، والتحمل الشديد ، ولذلك ففى قصته عبر وفوائد ، وبخاصة أن أتباعه من بنى إسرائيل مازالوا يدعون تبعيتهم له ، واليهود منهم يتصورونه خاصاً بهم ، والنصارى يتصورون عيسى " عليه السلام " جاء على دين موسى " عليه السلام " إلا أن الله رفع شأنه فاتخذه إبناً له ، وصيره إلهاً معه .

إن العالم المعاصر يموج بالتيارات العديدة ، والمتعارضة من اليهود ، ومن غيرهم ، ولذلك كان من الأفضل الإحاطة بقصة موسى " عليه السلام " ودينه ، وأتباعه المعاصرين ، وما هم عليه من عنصرية ، وأباطيل ، ومما يحتاج لبيان توضيح الصلة بين أتباع موسى ، واليهود الحاليين ليكون الحديث صادقاً عن هؤلاء ، وهؤلاء .

وأسأل الله تعالى أن يوفقنى فى هذه الدراسة عن موسى " عليه السلام " والتى أراها تحتاج إلى بحث النقاط التالية :

" النقطة الأولى "

التعريف بقوم موسى

جاء يوسف " عليه السلام " ببنى إسرائيل جميعاً مع أبيهم إلى مصر ، من البادية ،

---

(١) موسى اسم معرب من العبرية ، أصله فى العبرية موشا ، ومو ، معناها ماء ، وشا ، معناها الشجر ، والاسم يشير إلى الماء والشجر اللذين كانا حول قصر فرعون فى مدينة " عين شمس " ، والذى التقط منه تابوت موسى (بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٦١) .

وأسكنهم فى حاضرة مصر ، وغيرها من المدن المصرية ، وعاشوا معه منعمين متمتعين ، بسلطان يوسف ، وعزته.وكان الرعاة (الهكسوس) هم ملوك مصر يوم مجئ آل يعقوب ، فتعاون الإسرائيليون مع الرعاة ، ولم يختلطوا بالمصريين ، وعاشوا فى عزلة ، بعيداً عن المصريين .

وقد تمكن المصريون من طرد الهكسوس مع بداية حكم الأسرة الثامنة عشرة ، فتغير حال الإسرائيليين ، وانقلب وضعهم فى المجتمع ، وأخذ الفراعنة يتعاملون معهم كدخلاء ، متعاونين مع الاعداء .

وكان من نتيجة ذلك أن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أخذوا فى تكليفهم بالأعمال الشاقة ، وصنفوهم فى الشغل ، فصنف يبنى ، وصنف يحرث ، وصنف يزرع .. ومن لم يكن له عمل فعليه الجزية ، وهكذا ساموا الإسرائيليين ﴿ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾

وقد أصدر فرعون ذلك الزمان قراراً بقتل أى ذكر يولد للإسرائيليين ، وترك الإناث يعيشون .

وسبب هذا القرار أن الكهنة والمنجمين ، أخبروا فرعون بأن مولوداً من بنى إسرائيل قد أظلنا زمانه الذى يولد فيه ، يسلبك الملك ، ويبدل الدين ، ويخرجك من مصر (١)

وقيل : إن السبب هو أن الإسرائيليين كانوا يتدارسون فيما بينهم ، ما نقلوه عن إبراهيم " عليه السلام " من أن الله سيخرج من ذريته، غلاماً ، يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك بعد أن أذاه ملك مصر فى زوجته سارة (٢) .

وقيل : إن السبب رؤيا رأها الملك من أن ناراً أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر جميعاً وسكانها ، ولم تضر بنى إسرائيل ، فأولها المعبرون بغلام إسرائيلى يولد ، يدمر ملك ملك فرعون مصر (٣) .

---

(١) تاريخ الطبرى ج١ ص ٣٨٧. (٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢٣٧ .

(٣) الكامل ج١ ص ١٧٠ .

أخذ فرعون الحيطة بقراره ، وأمر بتنفيذه بكل دقة ..

وحدث أن قيل لفرعون : أفنيت النسل ، وأنهم خولك ، وعمالك ، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ، ويستحيوا عاماً ، فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان (١) .

يصور القرآن الكريم فرعون هذا الزمان ، وعمله ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) .

وهكذا إنقسم المجتمع المصري إلى قسمين رئيسيين هما : —

القسم الإسرائيلي : وهم أبناء يعقوب بعد أن كثر عددهم ، وقد رأينا ما حل بهم بعد انتهاء حكم الرعاة ، وبعدما أخذ فرعون يتعامل معهم على أساس أنهم أعداء الدولة ، والنظام ، واتخذ من القرارات ما يكفل عدم تمكنهم من ملك مصر .

القسم الثاني : الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليين ، وعليهم يقوم نظام الملك ، وقد خضعوا لجبروت فرعون ، الذي ادعى الألوهية ، واتخذه المصريون ربهم الأعلى .

إن فرعون تكبر وعلا ، وقسم الشعب إلى طوائف ، وفرق بين الناس ليعلو عليهم جميعاً ، إنه كان من المفسدين .

وكان الإسرائيليون على دين يوسف " عليه السلام " ، إلا أنهم غيروا فيه ، وبدلوا ، وأدخلوا فيه بعضاً من ضلالات المصريين ، ولذلك تشوه التوحيد لديهم ، وأصبح خليطاً من الشرك والتجسيد ، ولم يبق معهم من دين آبائهم إلا مسماه فقط .

---

(١) تاريخ الطبري ج١ ص ٣٨٨ .

(٢) سورة القصص آية (٤) .

أما المصريون فكانوا يعبدون الأصنام ، والأوثان ، والحيوان ، ويتخذون فرعون إلهاً أكبر، ولذلك كانوا جميعاً محتاجين إلى رسول يدعوهم إلى دين الله الحق ، وقد جاءهم موسى " عليه السلام " بهذا الدين ومعه أخوه هارون " عليه السلام " .

" النقطة الثانية "

التعريف بموسى " عليه السلام "

حياة موسى " عليه السلام " متشعبة الجوانب ، غريبة الأطوار ، وقد أحاطه الله برحمته ، وقدرته ، ليكون رسوله إلى المصريين وبني إسرائيل ، وقال له سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (١) ، والتعريف به " عليه السلام " يحتاج إلى مدارسة حياته في عدد من الجوانب ، لنرى في كل جانب عجيبة من عجائب قدرة الله تعالى في عنايته بموسى " عليه السلام " وذلك فيما يلي : ــ

أولاً : ولادة موسى :

حينما أصدر فرعون قراره بقتل ما يولد للإسرائيليين من الذكور ، ووضع كل المحاذير حتى لا يفلت منهم أحد ، ولد موسى " عليه السلام " ، والله غالب على أمره ، فقدر سبحانه وتعالى أن يولد هذا المولود ، ويربى في دار فرعون نفسه ، وينشأ على فراشه ، ويغذى بطعامه وشرابه ، ثم يكون هلاكه في الدنيا والآخرة على يديه .. فالله فعال لما يريد ، وهو القوى العظيم .

وحتى يتحقق قدر الله تعالى نرى الحوادث تسير بعجب مدهش ، وبطريقة ناطقة بقدرة الله تعالى وحكمته ، ذلك أن أم موسى حملت به ، فأنكرت حملها على الناس ، ولم يكتشفها أحد من زبانية الطاغوت ، فلما وضعته ألهمها الله تعالى أن تتخذ تابوتاً ، وتضعه فيه ، فكانت ترضعه ، وتضعه في التابوت مخافة أن يكتشفه أحد ، وألهمها الله تعالى أن تضع التابوت في البحر أمام بيتها (٢)،وتربط التابوت بحبل تمسك

---

(١)سورة طه آية (٤١) .

(٢) كان بيت أم موسى على شاطئ البحر.

بطرفه ، لتتمكن من إرضاعه ، وفى نفس الوقت تحميه من عسس فرعون ، وعيونه وشاء الله أن ينقطع الحبل ، وتتقاذف الأمواج التابوت ، وتتحرك بـــه بعيـــداً ، وتأخذه إلى جوار قصر فرعون .

ويعجب العقل أن تكون النجاة فيما هو مظنة الهلاك ، ولكنه الله الذي قال لأمه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ فألقته في اليم ، وتحرك به الماء بعيداً عن عيونها وبيتها ، فكاد قلبها أن ينخلع منها فرقاً عليه ، وتعلقاً به .

يذكر المفسرون أن الجواري التقطن التابوت من البحـــر ، وأخذنـــه مغلقـــاً لسيدهن (**آسية بنت مزاحم**) ، فلما فتحته آسية رأت وليداً يـــتلألأ وجهـــــه بالنور ، والحسن ، فأحبته ، ورضيته لنفسها ولداً ، فلما جاء فرعون هم بذبحه ، فطلبت آسية منه أن يتركه ، ويهبه لها ، فرضي برجائها ليكون لها فقط ، فليس له به حاجة .

ووصـــل الوليد إلى بيت فرعون ، وأصبح مكفـــولاً برعـــاية الملك ، وزوجته .. ، .. يصور الله هذا الجانب من القصة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ (١) .

---

(١) سورة القصص الآيات (٧ ــ ٩) .

والوحي إلى أم موسى إلهام في القلب، يضعه الله فيه ، فيقتنع بــه صــاحبه ، ويطبقه (١) .

وقد ألهم الله أم موسى بأمرين : ـــ

١ـــ أن ترضعه عقب ولادته ، وتشبعه ، ولا تفعل كما تفعل الإســرائيليات إذا ولدن ذكراً ، لأنهن كن يقتلن أولادهن بأيديهن ، أو يسلمنه إلى جنــود فرعــون ليذبحوه

٢ـــ إذا خافت عليه من جنود فرعون، فعليها أن تلقيه في البحر بعد أن تضعه في تابوت ، وألهمها الله سبحانه وتعالى بأنه لن يصاب بأذى ، وأن الله سيعيده إليها ، وسيجعل الله له شأناً ، ومقاماً ، وسيكون رسول الله إلى الناس ، وعليها أن لا تخاف عليه من أى أذى ، كالضياع والموت ، ولا تحزن لبعده عنها ، أو مخافة القتل .

وتشير الآيات إلى التقاط آل فرعون لموسى من البحر ، وتربيته في بيتــهم ، آملين أن يكون قرة عين لهم ، وهم لايشعرون أنه سيكون لهم عدواً وحزناً ، وكــأن القدر يقول لهم : (**يا أيها الملك الجبار ، المغرور بكثرة جنوده ، وســلطة بأســه ، وإتساع سلطانه ، قد حكم العظيم سبحانه وتعالى ، الذى لا يغالب ، ولا يمــانع ، ولا تخالف أقداره ، أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى ، لايكون مرباه إلا في دارك ، وعلى فراشك ، ولا يغــذى إلا بطعامك ، وشرابك في مترلك ، وأنت الذي تتبناه ، وتربيه ، وتتفداه ، ولا تتطلع على سر معناه ... ثم يكون هلاكك على يديه ، لمخالفتك ما جاء به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحــى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السموات والأرض**

---

(١) يرى الجمهور أن الوحي لأم موسى كان إلهاماً على نمط ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ وذهب جماعة إلى أنه كان مناماً ، وذهب آخرون إلى أن ملكاً تمثل لها وكلمها به ، وقال مقاتل : أتاهــا جبريل بذلك فهــو وحــى إعلام لا إلهام ، والكل يراها غير نبية (تفسير القطبي ج١٣ ص ٢٥٠) .

هو الفعال لما يريد وأنه هو القـــوى الشديـــد ، ذو البأس العظيم ، ومالك الحول والقوة ، وصاحب المشيئة التي لا مرد لها) (١) .

وقد كاد الله لفرعون وهامان وجنود هما بهذا التدبير ، لما كانوا عليه من الخطإ والظلم ، والعدوان .

ولكن ، هل يتحمل الجنود الآثام التي قاموا بها ، بأمر من رؤسائهم ؟

الآية تشركهم في الخطإ ، وتجعلهم معاقبين به ، لأنهم أداته المنفذ ه ، ولولاهم ما تحقق له شئ .

ثانياً : رضاعة موسى :

وافق فرعون على المحافظة على الرضيع ، ووهبه لزوجته " **آسية بنـــت مـــزاحم** " ، فبدأت في البحث عن ظئر ترضعه بنفقه ، لكنه لم يقبل ثدياً ، و لم يأخـــذ طعامـــاً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ، فأرسلوه إلى الســـوق لعرضه على النساء عساه أن يرضع من إحداهن .

وكانت أم موسى كلفت أخته " **كلثوم** " بتتبع أثره ، ومعرفة أخباره ، من بعد ، حتى لا يكشف أمره أحد ، فلما رأته في السوق ، وشـــاهدت إعراضه عن النساء قالت لهم : هل أدلكم على أهل بيت يهتمون به ويكفلونه ، وهم له ناصحون ، ... فلما وصفتهم ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴾ سألـــوها : وما يدريك بذلك ؟ لعلك تعرفين أهله ؟ .. فقالت : لا ، ولكني أردت، وهم للملك ناصحون، ودلتهم على أم موسى ، فكلفوها بإحضارها ، فأحضرتها لهم ، والصبي يبكى في يد فرعون من الجوع ، فدفعه إليها فقبل الصبي ثديها ، ورضع منها .. فسألوا الأم : لم ارتضع منك ، ولم يرتضع من غيرك؟ ، قالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا إرتضع مني ، طلب فرعون من أم موسى البقاء في القصر لإرضاعه ، فرفضت لحاجة زوجها وأولادها ، فأعطوها الصبي بأجر تأخذه ، وهكذا عاد موسى إلى أمه ، واستقر أمرها

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٣٨ .

وسعدت بولدها ، وفى ذلك يقـول الله تعـالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (١) .

واطمأنت أم موسى على وليدها بعد أن أصابها الهلع يوم أن ألقته فى البحر ، حيث فرغ قلبها من كل شئ إلا من تذكر وليدها هذا ، وقدر الله للصبى أن يعود لأمه ، ترضعه فى بيتها ، وتأخذ أجرها من مال فرعون ، وتتمتع بحماية جنده ، وسلطانه .

وخاب حذر فرعون ، وقام بتربية الغلام الذى يخاف مجيئه ، ويعمل على قتله يوم مولده .

نعم .... إنه الله رب العالمين .

ثالثاً : تربية موسى :

أتم موسى مدة الرضاع عند أمه ، وبعدها إنتقل إلى بيت فرعون ، لتشرف آسية على تربيته ، وترعى شئونه ، وصار معروفاً بين المصريين أنه ابن فرعون ، وكانوا يسمونه موسى بن فرعون ، ويعرفون أن الإسرائيليين أخواله من الرضاع .

وحدث وهو صغير أن كانت آسية تداعبه ، وتلاعبه ، فناوله فرعون ، فلما حمله أخذ الغلام بلحيته فنتفها ، فهم بقتله لتصوره أنه هو هو ، قالت آسية : إنما هو صبى لا يعقل ، ووضعت أمامه ياقوته حمراء ، وجمرة نار ، وقدمتها لموسى الصغير ، فمد يده ، وأخذ الجمرة ، فحدثت عقدة لسانه ، فدرأت عن موسى القتل بذلك (٢)

---

(١) سورة القصص الآيات (١٠ ــ ١٣) .   (٢) الكامل فى التاريخ ج١ ص ١٧٣ .

وكبر موسى " عليه السلام " ، وصار له شأن فى مصر ، وكان يأكل مما يأكل فرعون ويلبس من ملبسه ، ويركب مركبه ، إلا أنه كان يحب العدل ، وينفر من الظلم ، ولذلك عزبه بنو إسرائيل ،وأحبوه ، وامتنع القبط عن إذلالهم ، وتسخيرهم .

وفى يوم ذهب موسى إلى أطراف مدينة (منف) ووصلها بعد نصف النهار ، وقد أغلقت الأسواق أبوابها ، ورجع الناس إلى بيوتهم ، فوجد رجلين يقتتلان ، أحدهمامن شيعته ، والآخر من عدوه ، والمراد من شيعته أتباعه ، وأصحاب مذهبه لأن الإسرائيليين كانوا على شئ من دين يوسف " عليه السلام " ، وأما عدوه فهو العابد للأصنام ، لأن الجميع كانوا يتصورون موسى أبناً لفرعون ، ويفسرون تعاطفه مع الإسرائيليين بسبب رضاعته منهم .

اقتتل هذان الرجلان فأستغاث الإسرائيلى بموسى ، ورأى موسى أن القبطى معتد ، سباب ، شتم الإسرائيليين جميعاً فجاء إليه، وضربه بقبضة يده فقضى عليه ومات .

يقول قتاده : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطباً ، فأبى ، فشتمه فاستغاث الإسرائيلى بموسى " عليه السلام " ، ومن المعلوم أن إغاثة المظلوم دين فى الملل كلها (١) . ، ولم يكن موسى يريد قتله ، ولذلك ندم على فعله ، وتاب لربه ، وطلب من الله المغفرة ، ووضح أن هذا من عمل الشيطان ، وإغوائه ... يقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير القرطبى ج١٣ ص ٢٦٠ . (٢) سورة القصص الآيات (١٥ ــ ١٦) .

وبهذا يعرف أن موسى " عليه السلام " ضرب القبطى بقبضة يده ، ووكزه بهـا ، فمات بسببها ، فلما قضى عليه ، أستغفر موسى ربه ، وتاب إليه ، فقبل الله توبته إنه هو الغفور الرحيم .

يتحدث المفسرون ، والمؤرخون عن عمر موسى فى هذا الوقت ، ويوردون أراء كثيرة ، تبعاً لإختلافهم فى المراد بالحكم ، والعلم ، الذى أتاه الله لموسى" عليه السلام " وذكره فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ، فمن يراه النبوة والفقه ، يذهب على أن موسى قد بلغ مبلغ النبوة ، وهو أربعون سنة ، ومن يراه الفهم والإدراك ، يذهب إلى أنه كان صغيراً لايتجاوز ثلاثين عاماً ، ومنهم كعب الذى يذكر أن عمر موسى فى هذا الوقت كان اثنتى عشرة سنة (٢) .

وأرى ـــ والله أعلم ـــ أنه كان صغيراً لأنه عاش عند مدين عشر سنوات على الأقل ، وتزوج وعاد إلى مصر مرة أخرى ، فأتاه الوحى حين عودته بسيناء فى الوادى المقدس ، وكلف بالرسالة عندها ، وهذا يرجح أنه لم يتجاوز ثلاثين عاماً وقت مقتل القبطى .

وعند صباح اليوم التالى أصبح موسى خائفاً ، يسير بين الناس ، يترقب الأخبار والحوادث ، وبينما هو كذلك إذا بالرجل الذى استنصره بالأمس ، يستغيث به مرة ثانية، لينصره على قبطى آخر يقاتله ، فرد عليه موسى غاضباً ، إنك سئ التفكير ، لاتقدر الأمور كما ينبغى ، تشاد من لاتطيقه ، وتجلب شر من لاتقدر عليه وهذا ظاهر فى مخاصماتك ، ومشاجراتك ، ... سمع الإسرائيلى هذا اللوم العنيف من موسى ، فاهتم فى قتل القبطى ، وخاف القبطى من وجود موسى فحذره مـــن

---

(١) سورة القصص آية (١٤) .

(٢) تفسير القرطبى ج١٣ ص ٢٦١ .

مساعدة الإسرائيلى ، حتى لايقتله كما قتل نفساً أخرى بالأمس .

يصور القرآن الكريم هذا بقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) .

والآيات توضح أن الإسرائيلى استغاث بموسى ، وأن موسى عنفه ، ويجب أن نعلم أن الذى أراد البطش بالقبطى هو الإسرائيلى ، وليس موسى ، وإنما وجه القبطى كلامه لموسى مخافة أن يساعد الذى هو من شيعته ، لأن حادثة الأمس صارت حديث المدينة ، وأن الملأ علموا أن موسى هو القاتل ، وأنهم يجدون فى البحث عنه فى كل أرجاء المدينة للقبض عليه وقتله .

أما القول بأن موسى أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، أو بالذى هو من شيعته فبعيد ، يقول الشيخ / العدوى : (ومن البعيد جداً أن موسى يخطئ مرة فى تشيعه للذى من شيعته ، ويكون من وراء ذلك قتل رجل بدون ذنب ، ثم يعاود الخطأ مرة ثانية ، بعد يوم واحد من توبته) (٢) !! ...

وكذلك من البعيد أن موسى يقابل الرجل الذى يستنصره فى المرة الثانية ويعنفه بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ثم يساعده مرة أخرى .

والحق أن مرجع الضمير فى أراد للإسرائيلى ، والضمير فى قال للقبطى .

وانقذ الله موسى من فرعون وملإه ، بعدما جدوا فى البحث عنه لقتله

---

(١) سورة القصص الآيات (١٨ ــ ١٩) .

(٢) دعوة الرسل ص ٢٦٩ .

يقول تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١) .

وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون ، وهو ابن عم فرعون ، لما علم بما قرره الملأ ، بحث عن موسى ، وجاءه من مكان بعيد مسرعاً ، وأخبره بأن الملأ يبحثون عنه لقتله جزاء على قتله القبطى ، ونصحه بترك المدينة ، والخروج من مصر بالكلية ، حتى لايقع فى أيدى الناس .

واستمع موسى لنصح الرجل ، وخرج من المدينة إلى جهة المشرق ، قاصداً بلاد مدين ، لما يسمعه عن أهلها من الخير والفضل .

رابعاً : موسى عند مدين :

خرج موسى " عليه السلام " من المدينة خائفاً يترقب ، ولم يكن يعرف الوجهة التى يقصدها ، ولذلك دعا ربه لينجيه من فرعون وملإه ، ويهديه إلى الصراط المستقيم ، ويوفقه لما فيه الخير والفلاح . ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢) ، ومدين اسم مدينة على بحر القلزم (الأحمر) تقع تجاه تبوك بين وادى القرى والشام ، وسميت القبيلة باسم المدينة (٣) ، وقيل بل هو اسم قبيلة سكنت هذا المكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وليس هو شعيب الذى وجد فى زمن موسى " عليه السلام " .

---

(١) سورة القصص الآيات (٢٠ — ٢١) .

(٢) سورة القصص آية (٢٢) .

(٣) معجم البلدان ج٥ ص ٧٧ .

وأرى رجحان هذا الرأى ، لأن شعيباً الرسول "عليه السلام" جاء بعد لوط "عليه السلام" لقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ ، ولوط "عليه السلام" كان معاصراً لإبراهيم "عليه السلام" ، أما موسى "عليه السلام" ، فقد جاء بعد أبناء أبناء يوسف ، فبينه وبين إبراهيم خمسة أباء على الأقل هم " يوسف ، بن إبراهيم ، بن يوسف الصديق ، بن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم " " عليهم السلام " ، وعلى ذلك فشعيب صاحب موسى ليس هو شعيب الرسول (١) ، والله أعلم ..

توجه موسى ناحية مدين ، وجد فى السير حتى وصل إلى منطقة فيها بئر ماء ، فتوقف عندها ليستريح من هذا السفر الشاق ، الطويل ، وجلس تحت شجرة ، ينظر للناس ويشاهد أحوالهم ، فإذا هم عدد من رعاة الغنم والماشية ، جاءوا بقطعانهم لتشرب الماء الذى تريد ، ورأى فتاتين ، تقفان بعيداً عن البئر ، وتمنعان غنمهما من الإقتراب نحو الماء ، أو نحو أغنام الآخرين ، .. ولاحظ موسى أن الرجال يسقون غنمهم الماء صافياً ، وما بقى من ماء البئر فهو لغنم الفتاتين .. ولاحظ أيضاً أن البنات تتأخر فى العودة، لأنهما تذودان غنمهما عن الماء ، إنتظاراً لإنتهاء الشباب من السقى .

لاحظ موسى ذلك فسأل البنتين ، ما خطبكما؟ ؛ وماهى الأسباب التى تدفعكما إلى التأخير ؟؟

قالتا : لانستقى أولاً حتى لانزاحم الرجال لضعفنا ، وأبونا شيخ كبير ، لايمكنه أن يحضر معنا ، وليس لنا أخ يأتى معنا ، فأشفق موسى عليهما ، وزاحم الرعاة ، وغلبهم على الماء ، وسقى للمرأتين غنمهما ، فعادا مبكرتين إلى أبيهما ، وأخذتا يحدثانه عن شهامة موسى ، ورجولته ، وقوته ، وأنه شخص غريب عن مدين وربما يحتاج لعمل وإقامة .

---

(١) تفسير أبى السعود ج٥ ص ٩ .

تحدث شعيب مع إبنتيه ، وموسى جالس تحت ظل شجرة عند البئر ، يدعو الله تعالى أن يرزقه من الخير ليعيش عابداً ، يتمكن من أداء ما وجب عليه ، عن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

واستجاب الله لموسى دعاءه ، وفكر شعيب فى إحضار موسى ليعلم شأنه ، ويكافئه على مساعدته لبناته ، ويشكره على مروءته ، ويتفق معه ليعمل عنده وفق شروط يرتضوها ، فأرسل إحداهما لإحـــضاره ، يقول الله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) .

أرسل شعيب إحدى بناته إلى موسى ، فجاءته ساترة وجهها بكم درعها ، وأبلغته دعوة أبيها ليذهب معها، ليعطيه أجر ما سقى لهما ، فذهب معها ، وقال لها : كونى ورائى ، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً ، فإنى لا أنظر أدبار النساء ، فتيقنت من أمانته ، كما رأت من قبل شهامته ، وقوته ، وصل موسى إلى شعيب ، وجلس معه ، وحدثه فى كل شئونه ، وروى له كافة الأحداث التى تركها فى مصر من قتل الأبرياء ، وتسخير الضعفـــاء ، واضطهاد المســـاكين ، فقـــال له شعيب أنت الآن

---

(١) سورة القصص الآيات (٢٣ ــ ٢٤) والأمة : هى الجماعة ، من دوهما : أى بعيداً عنهما ، تذودان : بمعنى تمنعان ، يصدر : بمعنى ينتهى .

(٢) سورة القصص الآيات (٢٥ ــ ٢٦) .

فى ديار خارجة عن مملكة فرعون فاطمئن ، ولاتخف ، وقدم له الطعام ، والمأوى ضيفاً كريماً ، بعد أن رفض أخذ أجرة على مساعدته للنسوة .

بعد أن اطمأن موسى عند شعيب ، وطعم ، واستراح ، قـالت البنت التى دعته لأبيها : يا أبت استأجره ، فهو قوى ، أمين ، فعرض شعيب رؤيته عليه ، واقترح عليه أن يتزوج واحدة من بناته، بعد أن يعمل لديه أجيراً مدة ثمانى سنوات وإن زادها إلى عشر، فالزيادة تبرع محض ، له أن يقبلها، أو يرفضها منعاً للحرج والمشقة .

وافق موسى على اقتراح شعيب ، على أن يترك تحديد أى الأجلين الذى سيقضيه موسى لوقته ، وله أن يختار أى الأجلين بلا لوم ، أو عتاب .

يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾ (١) .

أتم موسى " عليه السلام " المدة ، ودخل بأهله ، يروى ابن عباس **أن النبى** " ﷺ " **سأل جبريل** " عليه السلام " **أى الأجلين قضى موسى فأخبره أنه قضى عشر سنين** (٢) .

خامساً : تكليف موسى بالرسالة :

بعد أن أتم موسى " عليه السلام " عمله عند شعيب ، ودخل بزوجته ، استأذن شعيباً أن يأخذ زوجته ، ويرجع إلى مصر لزيارة والدته ، وأقاربه ، فأذن له ، فخرج بأهله ، وغنمه ، وصحبه فى رحلة العودة إلى مصر زوجته وولدان له .

تاه موسى وصحبه فى الطريق ، فنزلوا بوادى طوى ، فى طور سيناء ..

وجاء الليل بظلامه الدامس ، وبرده القارس ، وجاء المخاض لزوجته ، وأصبحوا فى حاجة ماسة للنار ، لأسباب عديدة : ـــ

---

(١) سورة القصص الآيات (٢٧ ـــ ٢٨) .   (٢) تفسير القرطبى ج١٣ ص ٢٨٠ .

ـــ إنهم يحتاجون للنار يعدون بها الطعام ، وبخاصة للأم التى ولدت .

ـــ ويحتاجون للنار تضئ لهم المكان ليعرفوا أين هم ، ويكتشفوا الحياة من حولهم .

ـــ ويحتاجون للنار يستدفئون بها من برد الشتاء الشديد .

ـــ ويحتاجون للنار ليعلم المارة أن ناساً هنا ، فيأتون إليهم ، ويستعينون بهم على معرفة الطريق إلى مصر .

أخرج موسى زنده ، وقدحه ، لكنه بدل أن يخرج ناراً، أظهر ضوءاً فقط ، وهنا أبصر موسى بجانب الطور من بعيد ناراً ، فقال لأهله استمروا فى مكانكم ، وسأذهب إلى مكان النار ، لأعرف خبر ما عندها ، وعسى أن أتمكن من إحضار جمرة نار ، ملتهبة تستدفئون بها من البرد ، وتستعينون بها فى إعداد الطعام ، والمؤانسة .

عن هذه الرحلة ، وحتى إقامة موسى وصحبه فى طور سيناء يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) .

والأجل الذى قضاه موسى هو المدة التى اتفق عليها مع شعيب ، وجذوة النار قطعة منها ، وهى القبس ، أو الشهاب ، ووعد موسى أهله بإحضار جزء من النار لحاجتهم إليه ، ورجا أن يجد عند النار أناساً ، يستهدى بهم عن الطريق إلى مصر .

وذهب موسى " عليه السلام " ناحية النار ، واقترب منها ، فإذا النار فى شجرة ، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء ، وشدة خضرة هذه الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة ، ولا كثرة ماء الشجرة ، ولا قوة الخضرة تغيران حسن ضوء النار ، وحاول موسى " عليه السلام " أن يختبر طبيعة هذه النار ، فأهوى إليها بضغث

(١) سورة القصص آية (٢٩) .

فى يده فلم يحترق ، وكان كلما اقترب منها ابتعدت عنه ، وإن ابتعد اقتربت ، ثم لم تزل تطمعه، ويطمعها، إلى أن وضح أمرها ، وناداه الله وكلمه ، وكلفه بالرسالة ، يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) .

وحدد الله لموسى أصول الدعوة التى سيبلغ الناس بها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) .

كلم الله تعالى موسى " عليه السلام " ، من جهة الشجرة ، وعرف من كلام الله تعالى عدداً من القضايا : ـــ

الأولى : عرفه الله بالمكان الموجود فيه وهو " الوادى المقدس " ، وقد تجلى الله فيه وطهره ، وأخرج منه الكفر ، والضلال ، ويجب على موسى أن يحافظ على طهارة المكان ، وقداسته ، ولله أن يفضل مكانا على مكان .

الثانية : أمره الله بخلع نعليه وهو بالمكان المقدس إحتراماً له ، وتواضعاً ، لينال بركة المكان ، يقول القرطبى : (**والعرف عند الملوك أن تخلع النعال تواضعاً ، فكأن موسى أمر بذلك على هذا الوجه**) (٣) ، ومن الجائز أن الأمر بخلع النعل كناية عن ضرورة تفريغ القلب من أمر الأهل والولد ، والمعاش ، وغيرها ، ليتفرغ كلياً للرسالة والدعوة .

---

(١) سورة القصص آية (٣٠) . (٢) سورة طه الآيات (١١ ـــ ١٦) .

(٣) تفسير القرطبى ج١١ ص ١٧٢ .

الثالثة : اختاره الله للرسالة، وكلفه باستماع الوحي، فوقف موسى " عليه السلام " وأخذ يستمع ، روى عن وهب بن منبه ، أنه قال : **من أدب الاستماع سكون الجوارح ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل وذلك هو الاستماع كما يجب لله تعالى ، وهو أن يكف العبد جوارحه ، ولايشغلها ، فلايشتغل قلبه عما يسمع ، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى ، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشئ سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم ، فيعمل بما يفهم** (١) .

قالوا : إن موسى " عليه السلام " لما أمر بالاستماع ، وقف على حجر ، واستند إلى حجر ، ووضع يمينه على شماله ، وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يستمع (٢) .

الرابعة : أخبره الله أن أول الدعوة توحيد الله تعالى في ألوهيته ، وربوبيته ، وأسمائه ، وصفاته ، فهو سبحانه واحد لاشريك له ، وهو الواحد القهار .

الخامسة : عرفه بحتمية قيام الساعة ، وفيها يحاسب الله الناس جميعاً لتجزى كل نفس بما تسعى .

السادسة : حذره الله من أعداء الله في الأرض ، لأنهم يبذلون أقصى الجهد لصد الناس عن الإيمان ، وهم في سعيهم ، ومحاولاتهم يبدأون بصرف الناس عن الطاعة شيئاً فشيئاً ، ويستمرون معهم حتى يصرفوهم عن الدين بالكلية ، وبذلك يكون الهلاك والموت ، وعلى موسى أن يحذرهم حتى لايردى .

تعجب موسى مما رأى، ومما سمع عند من كان يظنه ناراً ..

لقد جاء يقصد لهباً ، وناراً ، فأخذ نوراً ، ورحمة ... وكان يتمنى أن يجد من يهديه لطريق مصر ، فهداه الله إلى طريق إنقاذ الناس أجمعين .

سر موسى بما رأى وبما سمع ، وشعر أن الأمر ثقيل ، والمهمة شاقة ، تحتاج إلى قوة ، وثقة ، وإيمان ، ويقين ، فأمده الله تعالى ببعض الآيات التي تمكنه من القيام

---

(١) تفسير القطبي ج١١ ص ١٧٦ .

(٢) نفس المرجع ج١١ ص ١٧٦ .

بواجبه ، بقول الله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

والآيات تشير إلى بداية وحى الله لموسى " عليه السلام " ، ومع بداية الوحى يحتاج الرسول إلى معجزات، يتأكد بها من اختيار الله له ، وكان ما رآه موسى " عليه السلام " عند الشجرة كافياً ، إلا أن الله تعالى أظهر له معجزتين أخريين تأكيداً لأختياره ، وبرهاناً على قومه ، وقد علم الله عتوهم واستكبارهم ، وتدريباً له على تلقى الوحى ، وتحمل التكاليف ، وهاتان المعجزتان هما : ـــ

المعجزة الأولى : معجزة العصا .. بدأ الله سؤال موسى عما بيمينه ، والجواب هو العصا ، لكن موسى أخذ يتحدث عن وظيفة العصا ، حباً فى إطالة الحديث مع ملك الوحى ، أو مع الله ، حيث قال : هى عصاى أملكها ، وأتحامل عليها حين أمشى ، وأضرب بها أغصان الشجر ليسقط فتأكله غنمى ، ولها منافع أخرى كثيرة ... وكأنى بموسى " عليه السلام " قد استشرف عظمة المقام ، فأراد أن يسأله الله عن هذه المنافع الأخرى ، ليطول الكلام ، ويمتد اللقاء .. إلا أن الله أمره بإلقائها على الأرض ، فألقاها ، فإذا حية تسعى ، خاف موسى من الحية ، فأمره الله أن يأخذها بيده ، ولايخاف منها ، وسيعيدها الله عصا مرة أخرى كما كانت .

المعجزة الثانية : أمر الله موسى " عليه السلام " بأن يضع يده تحت إبطه ، وسوف يرى أنها إبيضت بلا مرض ، ولا أذى ، فإذا أراد أن يعيدها إلى حالتها الطبيعية فعليه أن يضعها مرة أخرى تحت إبطه ، ويخرجها .

اطمأن موسى " عليه السلام " إلى اختيار الله له ، وبدأ يتحرك للدعوة ويعمل لها .

سادساً : قيامه بالدعوة :

طلب موسى من ربه أن يجعل معه أخاه هارون وزيراً ، يعينه ، ويشد أزره ، فاستجاب الله له،وأمده بما طلب،وقام موسى بواجب التبليغ لفرعون وقومه، يدعوهم إلى التوحيد ، وطاعة الله،ويطلب من فرعون أن يترك الإسرائيليين لشأنهم، وأن يرسلهم أحراراً إلى موسى " عليه السلام " ليعيدهم إلى التوحيد الخالص الذى تعلموه من أنبيائهم ، ويعيدهم إلى الأرض المقدسة ، كما قام موسى " عليه السلام " بالدعوة فى قومه أيضا..

ولقى مشقة ، وعنتاً ، من هؤلاء ، وهؤلاء ، فقابلها ومعه هارون بصبر النبوة ، وخلق الرسل ، والثقة فى عون الله ، وقدرته ، وأيده الله بالمعجزات العديدة ، فى مواجهته للمصريين ، وللإسرائيليين سواء بسواء .

ويبدو أن غلبة الجانب المادى ، والجدل الكلامى سمة مصريي هذا الزمان ، ولذلك كانت معجزات موسى لهم حسية ، وكثر الحوار والجدل مع موسى بلا نتيجة

وكان الإسرائيليون يعيشون عبيداً للفراعنة ، ولذلك لم يجادلوا موسى ، وهم فى مصر ، وأظهروا له الطاعة ، والامتثال ، ودائماً كانوا يشكون له ما لقوه من فرعون ، يصور الله تعالى شكاياتهم ، فيقول سبحانه : ﴿ **قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١) ، فلما نجوا من ذل فرعون ، وانتقلوا إلى برية سيناء ، ظهروا على حقيقتهم ، وبان من مواقفهم مع موسى وهارون " عليهما السلام " ما فى طباعهم من خصائص .

فلقد جبلوا على المادية ، وألفوها ، وتعلقوا بها ، ولذلك طلبوا من موسى "عليه السلام" أن يصنع لهم صنماً يعبدونه ، ويلازمونه،ويرونه وهم يعبدون ، وطلبوا أن يروا

---

(١) سورة الأعراف آية (١٢٩) .

الله جهرة ، .. وعبدوا العجل الذى صنعه السامرى .

وفى طبعهم مخالفة من يعيشون معه ، ولو إلى الأسوأ ، فلقد طلبوا من موسى " عليه السلام " أن يطعمهم البصل ، والثوم ، وغيرها بدل المن والسلوى .

وفيهم الجبن والخوف ، فلقد استضعفوا هارون حين غاب عنهم موسى عليه السلام فكفروا ، وعبدوا العجل ، فلما جاءهم موسى خافوا ، ورجعوا إلى الدين مرة أخرى .

ولما أمرهم موسى " عليه السلام " أن يدخلوا بيت المقدس ، رفضوا لأن فيها قوماً جبارين .

ولما طلب منهم موسى " عليه السلام " أخذ الألواح بعزيمة ، وقوة ، ترددوا ، فلما هددهم بظلة الجبل ، وخوفهم من سقوطها عليهم امتثلوا .

ومن طبعهم نقض العهد والميثاق ، فلقد أخذ الله عليهم الميثاق فنقضوه، و لم يلتزموا .

ومن طباعهم أهم أمام الضعفاء جبابرة ، وأمام الأقوياء خاضعون ، أنظر إليهم كيف استهانوا بهارون " عليه السلام " لطيب خلقه ، ولينه ، وعفوه ، وكادوا أن يقتلوه ... فلما جاءهم موسى " عليه السلام " اعتذروا بأن تصرفهم كان خارج طاقتهم ، وأهم خدعوا .

تعامل موسى " عليه السلام " مع كل هذا ، واستمر فى الدعوة لدين الله تعالى بالحسنى ، وبالخلق .

وقد حاول مع قومه أن يدخل بيت المقدس ، لكنهم جبنوا ، فقضى الله عليهم أن يتيهوا فى سيناء أربعين عاماً .

إنها لرحلة طويلة ، وشاقة عاشها موسى " عليه السلام " فى مصر ، وعند شعيب ، وفى سيناء ، رحلة لايتحملها إلا رسول ذو عزم ، وقوة ، وقد أثنى الله تعالى على موسى "عليه السلام" فى القرآن الكريم ، ومن ثناء الله تعالى ، قوله سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ (٤) .

سابعاً : وفاة موسى :

يروى البخارى بسنده عن أبى هريرة "رضي الله عنه" قال : (**أرسل الله ملك الموت إلى موسى " عليه السلام " ، فلما جاءه صكه في وجهه ، فرجع إلى ربه ، فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، فقال له : إرجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله أن يعطى بما غطى يده ، بكل شعرة سنة ، فأتاه ، وأخبره فقال موسى : أى رب ، ثم ماذا ؟ .. قال : ثم الموت ، قال موسى : فالآن ، قال : فسأل موسى الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر**) (٥) .

وحقق الله لموسى طلبه ، وقربه من بيت المقدس التى سعى مع قومه لدخولها ، ولكنهم جبنوا ، وعاشوا فى التيه .

ولما حانت المنية ، وجاء الأجل ، مر موسى بملإ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه، ولا أنضر، ولا أبهج، فقال موسى : يا ملائكة الله ، لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد، فأدخل هذا القبر، وتمدد فيه ، وتوجه إلى ربك ، وتنفس ، ففعل ذلك ، فمات " صلوات الله

---

(١) **سورة** مريم الآيات (٥١ ــ ٥٢) . (٢) **سورة** الأعراف آية (١٤٤) .

(٣) **سورة** طه آية (٣٩) . (٤) **سورة** طه آية (٤١) .

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ **باب وفاة موسى** ج٦ ص ٤٤٠ .

عليه وسلامه " ، وصلت عليه الملائكة ، ودفنته (١) .

يقول رسول الله "ﷺ" : (**لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق ، تحت الكثيب الأحمر**) (٢) .

ويقول "ﷺ" (**مررت ليلة أسرى بى على موسى** " عليه السلام " **وهو قائم ، يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر**) (٣) رضى الله عنه وأرضاه "ﷺ" .

****

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ باب وفاة موسى ج٦ ص ٤٤١ .

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ـــ باب الموضع الذى رأى فيه المصطفى "ﷺ" موسى " عليه السلام "يصلى فى قبره ج١ ص ٩٥ .

" النقطة الثالثة "

حركة موسى " عليه السلام " بالدعوة

أخذ الوحي يترل على موسى " عليه السلام " ، وهو في طريقه إلى مصر ، وتأكد أنه رسول الله إلى الإسرائيليين ، وإلى فرعون وملإه ، فاطمأن لذلك ، وبدأ في مسار جديد ، يتحرك فيه بدعوة الله تعالى .

ويلاحظ أن دعوة موسى " عليه السلام " لفرعون وملإه تختلف في المنهج ، والوسيلة والأسلوب ، عن دعوته للإسرائيليين ، لاعتبارات كثيرة ، أهمها أن الإسرائيليين كانوا على ذكر بدين الله تعالى ، حيث عاش بينهم إسحاق ، ويعقوب ، ويوسف " عليهم السلام " ، بينما كان المصريون على كفر وضلال ، ومن المعلوم أن أثر دعوة يوسف "عليه السلام" للمصريين لم تستمر طويلاً ، لأن الإسرائيليين تعاونوا مع الهكسوس الذين أسسوا دولة الرعاة في مصر ، فلما تمكن المصريون من طرد الهكسوس عملوا على طرد الإسرائيليين وانعكس ذلك على دين يوسف " عليه السلام "في مصر ، وسوف نتحدث عن دعوة موسى " عليه السلام " للفريقين ، ولقارون في مباحث منفصلة فيما يلي : ــ

ـــ أولاً ـــ

حركة موسى بالدعوة لفرعون

كلم الله موسى " عليه السلام " ، وأيده بالمعجزات الباهرة ، وطمأنه على اختياره رسولاً يدعو لدينه ، وكلفه أن يبدأ بدعوة فرعون وملإه ، وقد اشتملت حركة موسى بالدعوة لفرعون على عدد من المسائل : ــ

المسألة الأولى :التعريف بفرعون :

عرف الله موسى " عليه السلام " بطبيعة فرعون ، وملإه ، فرغم أن موسى " عليه السلام " عاش في بيت فرعون ، وتربى في قصره ،وعاشره طويلاً ، وعرف كثيراً عنه ، رغم ذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى يفصل لموسى طباع فرعون وأتباعه ، ليكون على بينه وافية بهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى .

لقد كان فرعون فاسداً فى كل جوانب حياته ، أدعى الألوهية ، ونادى فى الناس أنـا ربكم الأعلى ، وأنكر على أتباعه أن يتخذوا إلهاً سواه ، وكان متكـبراً فى خلقـه ، مغروراً بالنعم التى يرفل فيها ، فلقد تصور أن تملكه لأمر مصر ، وسيطرته على أنهارها وزروعها ، يجعله فوق البلاد والعباد .

وأشتهر بالقسوة ، والظلم فى معاملة الرعية ، وأسرف فى الإفساد ، وإلحاق الأذى بالناس ، وتجبر ، وطغى ، وتمادى فى غيه ، ولم يسمع لناصح ، ولم يلتفت إلى الحق أبداً ، يصور الله تعالى حال فرعون ، وملإه ، ويبين ضلالهم ، وظلمهم ، وفسادهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣) ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٤) ، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٦) .

هذا هو فرعون على حقيقته كما صورته آيات القرآن الكريم .

---

(١) سورة القصص آية (٣٨) . (٢) سورة النازعات الآيات (٢٣ ــ ٢٤) .
(٣) سورة القصص آية (٤) . (٤) سورة الدخان آية (٣٠) .
(٥) سورة الزخرف آية (٥١) . (٦) سورة الفجر الآيات (١٠ ــ ١٢) .

إنه شخص مغرور ، اعتلى العرش ، واستعبد النـاس ، وفـرقهم شـيعاً ، واستخدمهم لنفسه ، ونشر الفساد فيهم .

إدعى الألوهية ، فصدقوه ، وأطاعوا أمره ، وإتجهوا إليه عابدين ، مستسلمين

وقد وضع فرعون خطة خبيثة ، تمكنه من استمرار التحكم ، والإسـتعلاء ، والطغيان ، تقوم هذه الخطة على إتخاذ مجموعة من الأفراد ، متميزين بعلم ومعرفـة ، ونشرهم فى الأقاليم المختلفة ، ليكونوا دعاة له ، مشرفين على اسـتمرارية ملكـه ، وسلطانه ، مبلغين ما يريد أن يوصله للناس ، وقد أغدق على هذه المجموعة الأموال ، والوظائف وشيئاً من سلطانه ، ووجاهته .

فهم الملأ المنتشرون وسط الناس ..

وهم العلماء السحرة الذين يديرون شئون المدائن ..

وهم الوزراء المحيطون به ..

ولذلك كان يكتفى بتوجيه أوامره لهذه المجموعة ، ليوصله هؤلاء بعد ذلك إلى سائر الناس ، فهم له مطيعون ، مؤيدون .

انظر إليه ، وهو يؤكد ألوهيته الوحيدة، ينادى بذلك للملإ ، ويجمعهم فى مؤتمر حاشد ليقول لهم : أنا ربكم الأعلى ، ومع اتخاذه لحاشيته تلك ، اتخذ جنوداً إشداء ، كونوا قوة طاغية ، كثيرة العدد ، والعدة ، لتكون فى مواجهة من يتصدى لألوهيته ، وجبروته .. يقول العوفى فى روايته عن ابن عباس : (**أوتاد فرعون هم الجنود الأقوياء الذين يشدون له الأمر ، ويعينونه على تحقيق ما يريد**) ، وكان لجنود فرعون قوة ظاهرة فى عددهم ، وعدهم كما يفهم من الاستفهام الوارد فى قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨** ﴾ (١) ، فقد سمى الله حديث فرعون حديث الجنود لما تمتعوا به من قوة وبطش .

---

(١) سورة البروج الآيات (١٧ ــ ١٨) .

وقد تمكن فرعون بهذا التخطيط من الاستخفاف بعقول الناس ، وعدم الاكتراث بهم ، وذلك الحال واضح من التوجيه الذى وجهه لوزيره هامان فى قوله الذى حكاه الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١) ، وفى قوله تـعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (٢) .

إنه فى هاتين الآيتين يأمر " هامان " وزيره الأول أن يتخذ من الطين آجراً ، لبناء برج عال ليصعد عليه ، ويوهم الرعية أنه بحث عن إله موسى فى الأماكن العالية فلم يجده ، لأنه لا إله للناس إلا فرعون .

ويقوم هامان ببناء البرج مع تيقنه بعدم جدواه ، ويطيعه الجنود ، ويعيش فرعون وسط الملإ والجنود إلهاً ، معظماً ، معبوداً ، يذكر بعض المفسرين أن هامان بنى الصرح من الطين ، حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء ، ثم صعد فرعون وإلى جانبه هامان ، ثم صوب فرعون سهماً إلى السماء، ورمى به، فعاد النصل مخضباً بالدم ، فلما رأى فرعون النصل وعليه دم قال : يا هامان لقد قتلت إله موسى ، **فضحك هامان وقال : ومع هامان تقول ذلك يافرعون** (٣) ! ؟!

وبدون الملإ والجنود لا يستطيع فرعون أن يظلم الناس ، ولاأن ينشر الفساد بينهم ، ولذلك يعاقب الله مع فرعون ملأه ، وجنوده ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ (٤) ، ويقـول سبحانـه

---

(١) سورة غافر الآيات (٣٦ ــ ٣٧) . (٢) سورة القصص آية (٣٨) .

(٣) تفسير الخازن ج٥ ص ١٧٤ ولعل الذى لطخ النصل بالدم طير كان فى السماء ،أو فتنة من الله لهم .

(٤) سورة القصص آية (٨) .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١) .

وهكذا .. أخذ الجنود ، والملأ نفس عقوبة فرعون ، لأهم أعوانه على الظلم ، ولولاهم ما تمكن من ظلم أحد ، .. وأيضاً فلقد أصبحوا ظلمة مفسدين ، على دين ، وأخلاق فرعون ، يقول تعالى : ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٣) .

وأهلكهم الله سبحانه وتعالى ، كما أهلك فرعون ، لأهم صاروا مثله فى الظلم ، والإفساد والتعدى على حقوق الله ، وحقوق الناس ، يقول تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤) .

المسألة الثانية : الاستعداد للبلاغ : ـــ

إستشعر موسى " عليه السلام " ثقل المهمة ، وأدرك حاجته إلى عدة تعينه على المشاق ، التى ستقابله ، ولذلك اتجه إلى الله تعالى مبيناً له العذر ، راجياً منه العطاء ،

---

(١) سورة القصص آية (٣٩) . (٢) سورة القصص آية (٣٢) .

(٣) سورة الشعراء الآيات (١٠ ـــ ١١) .

(٤) سورة القصص الآيات (٣٩ ـــ ٤٢) .

وقد حكى الله ذلك بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) .

لقد طلب موسى " عليه السلام " من ربه سبحانه وتعالى أن يمده بعدد من الخصائص شعر أنه فى حاجة إليها وهى :ـــ

ــ طلب موسى " عليه السلام " ــ **أولاً** ــ أن يشرح الله صدره ، ليذهب ما به من ضيق ، وإنفعال ، وتسرع فى الحكم ، والتنفيذ كما فعل يوم أن استغاث به الرجل من شيعته ، وحتى يتمكن بشرح صدره من تقبل المعارضة ، وحسن التعامل مع الأعداء برفق ، ولين ، ومن المعروف أن إنشراح الصدر يحول مشاق التكاليف إلى متعة ، ويجعل مصاعب الطاعة لذة وحلاوة ، كما يجعل السعى للغاية مليئاً بالحيوية ، والنشاط ، والأمل ... وهذا يفسر حالات السعادة ، والرضى ، التى كان يلقاها الصحابة وهم يعبدون ، وهم يموتون فى سبيل الله .

ــ وطلب موسى " عليه السلام " ــ **ثانياً** ــ أن ييسر الله أمره ، ويوفقه لكل عمل يرضى عنه ، ويبعده عن كل ما يضر ، ويؤذى .. وهو مطلب يضمن له النجاح فى الدعوة ، وفى غيرها ، لأن الإنسان بدون تيسير الله عاجز ، فهو محدود القوة ، والتصور ، والعلم .. والطريق طويل ، وشاق ، ولذلك كان التيسير الإلهى ضرورة للنجاح .

ــ وطلب موسى " عليه السلام " ــ **ثالثاً** ــ من الله ان يحل عقدة من لسانه، ليفهموا قوله ، وقد أتته هذه العقدة يوم أن ابتلع الجمرة من يد (**آسية**) وقد طلب موسى " عليه السلام " حل عقدة واحدة فقط ، ولو سألها جميعاً لكانت .

ــ وطلب موسى "عليه السلام" ــ **رابعاً** ــ من الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون لما يتميز

---

(١) سورة طه الآيات (٢٥ ــ ٣٥) .

به من الفصاحة ، والهدوء ، وعدم الغضب ، وبهذا عد موسى " عليه السلام " أنفع أخ لأخيه فى الدنيا ، حين سأل الله له النبوة ، والرسالة ، وقصد موسى " عليه السلام " من إرسال هارون معه أن يشد أزره ، ويقوى جانبه ، ويشاركه الرأى والنصيحة ، وينيبه فى بعض مهام البلاغ والدعوة

والغاية العظمى التى قصدها موسى " عليه السلام " أن يتمكن من الاستمرار فى الذكر ، والتسبيح ، والعبادة ، مع الطاعة المطلقة لله ، والقيام بمسئولية الدعوة إلى الله تعالى .

فاستجاب الله له على الفور ، وأعطاه كل ما سأله ، دفعة واحدة ، يقول سيد قطب : (**هكذا مرة واحدة ، فى كلمة واحدة ، ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ فيها إنجاز ، لاتسويف ولاتأجيل ، كل ما سألته أعطيته فعلاً ... ومع العطاء إيناس ، وتكريم ، وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد !!**) (١)

وبهذا زال خوف موسى " عليه السلام " ، وبدأ حركة الدعوة مع فرعون وملإه .

المسألة الثالثة : مواجهة فرعون : ـــ

استجاب الله لموسى ، وحقق له ما طلب ، وأصبح هارون رسولاً معه .. وبدءا سوياً فى دعوة فرعون وملإه إلى الله تعالى ، بعد أن تخلصا من الخوف من فرعون ورهبته ، تحوطهما عناية الله ، ورعايته .

وطلب موسى " عليه السلام " من فرعون أن يؤمن بالله إلهاً واحداً ، ورباً لاشريك له ،ويخصه وحده سبحانه بالطاعة ، والخضوع ، والانقياد .

وطلب منه أيضاً أن يترك بنى إسرائيل لموسى " عليه السلام " ، ليعود بهم إلى عقيدة التوحيد الخالص ، ويسكنهم الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوا فيها .

---

(١) فى ظلال القرآن ج٥ ص ٤٧١ .

حدد الله رسالة موسى " عليه السلام " لفرعون بقوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١) ، وبقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٢) .

وهكذا انحصرت مهمة موسى " عليه السلام " مع فرعون فى أمرين :

أولاهما : دعوة فرعون إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى ، والتوجه بالعبادة له وحده، والقيام بالدعوة لهذا الأمر جاء من قبل موسى وهارون اللذين أرسلهما الله رب العالمين ، لتصحيح أخطاء الناس ، حين يتخذوا آلهة أخرى مع الله تعالى .

ومع الدعوة إلى التوحيد ، نرى بالضرورة الدعوة إلى الإيمان بالرسالة ، والوحى المترل ، وباليوم الآخر بما فيه من حساب وعذاب .

ثانيهما : إنقاذ الإسرائيليين ، وفك أسرهم ، وتركهم يعودون مع موسى "عليه السلام" ، إلى بيت المقدس للسكن فيه ، وبعودهم يرجعون إلى عقيدة التوحيد الخالص بعد التخلص من الملوثات المادية ، والحيوانية ، التى شابت تدينهم .

وأخبر موسى وهارون" عليهما السلام" فرعون بأن معهما آيتين من معجزات الله ، لإثبات صدقهما فيما دعوا إليه .

---

(١) سورة طه الآيات (٤٧ ــ ٤٨) .

(٢) سورة الأعراف الآيات (١٠٤ ــ ١٠٦) .

وقد قام موسى وهارون بإيصال الدعوة لفرعون فى لين ، ورفق ، وترغيب ، واستمالة فهما يدعوانه إلى الهدى ، والأمن ، والسلام ، والنجاة فى إتباع الهدى ، وعرفاه بأن معهما آيتين من معجزات الله تشهدان بصدقهما .

رد فرعون عليهما وطلب منهما أن يظهرا هاتين الآيتين اللتين تحدثا عنهم ، ليرى مدى صدقهما .

فأظهر له موسى " الطَّيْلاَ " معجزة العصا ، ومعجزة اليد، التى تدرب عليهما فى طورسيناء يوم أن كلمه الله تعالى ، فأتهمهما فرعون بالكذب ، وبأن ما أظهراه هو السحر ، وأخذ فى مناقشة موسى ، ومحاولة صرفه عن الدعوة ، قال له : يا موسى أنسيت فضلنا عليك ؟ أنسيت أننا ربيناك فى بيوتنا ؟، وأنفقنا عليك فى صغرك من أموالنا ، ومتعناك بجاه الملك يوم أن إنتسبت إلينا وليداً ، واستمرت حياتك معنا مدة طويلة ؟ ، .. وهل نسيت يا موسى يوم أن قتلت مصرياً من قومنا وأنت من الجاحدين لنعمتى ، وحق تربيتى لك ، وأنكرت ألوهيتى ، ولم تؤمن بى كما آمن الآخرون ، وأخيراً هربت من ديارنا ؟ والآن تأتينا مرة أخرى بنفس جحودك وإنكارك .

وهذا الكلام من فرعون يدل على فهمه ، ومعرفته ، وبعده عن السفاهة ، والسذاجة ، غير أن إبليس أضله ، وأبعده عن الحق والصواب .

رد عليه موسى " الطَّيْلاَ " ، لن أنكر نعمة أسديت إلى ، وما كنت أقصد قتل الرجل ، ولم أتصور أن إنساناً يموت من وكزة ، وكان فرارى خوفاً من ظلمكم ، وجوركم ، لأنكم لن تتصوروا خطإى ، وستحكمون على بتعمد القتل ... وقد أكرمنى الله تعالى بالنبوة، وأرسلنى وأخى إليك، وإلى قومك لأدعوك بدعوة الله تعالى .

ولكن لم تترك يا فرعون قضية استعبادك للإسرائيليين جميعاً ؟ وإلحاق الأذى بهم . ولم لاتتهم نفسك بدل أن تمن على بما أنعمت ؟... وهل كنت أحتاج يا فرعون إلى ما أسديته إلى ، لو سرت فى الإسرائيليين بالعدل ، والصواب ؟ !

وكأني بموسى " عليه السلام " يذكر لفرعون أن سوء سياسته هو سبب ما ذكر من أفعال ، فبسبب الخوف منه كان إلقاء موسى وليداً فى البحر ، وكان فرار موسى من مصر ، ومن المقرر أن إذلال أمة يعد إذلالاً لكل فرد فيها .

يصور القرآن الكريم هذا الجزء من الحوار فى قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١) .

وبعد ذلك انتقل فرعون إلى سؤال موسى عن ربه ، قال له : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ (٢) إنه يسأل عن حقيقة الله ، لأنه يتصوره محسوساً ، مشخصاً ، على اعتبار أنه أحد الآلهة المنتشرة فى عقائد الناس .

فيرد عليه موسى وهارون : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٣) ، ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٦ — ٢٢) يرى المفسرون أن المراد بالكفر فى الآيات جحود النعمة أو إنكار ألوهية فرعون ، والمراد بالضلال : الخطأ غير المقصود ، أو عدم التوفيق للصواب .

(٢) سورة الشعراء آية (٢٣) .

(٣) سورة طه آية (٥٠) .

(٤) سورة الشعراء آية (٢٤) .

عرف موسى فرعون بالله عن طريق إبراز أفعاله ، وصفاته ، فهو الخالق لكل موجود ، فى السموات والأرض وما بينهما ، والمخلوقات جميعها تدين له وتئول إليه .

وهو سبحانه الذى يمكن كل مخلوق من أداء وظيفته ، ويهديه للقيــام بهــا ، وبذلك كانت الدقة ، وكان الجمال ، وكان التوازن بصورة دائمة ، لاتتخلف أبداً فى سائر المخلوقات ، وكلها تدل على قدرة الخالق ، العظيم ، الواحد ، سبحانه وتعالى .

يحاول فرعون بذكائه ، أن يحول النقاش بعيداً عن موضوع الألوهية ، فيقول لموسى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ (١) .

والسؤال عن القرون الأولى غير محدد الموضوع ، فهل هو عن عددهم ؟ أو عن دينهم ؟ ، أو عن حكم ضلالهم ؟ أو عن مسئوليتهم فى إبداع الضلال ؟، أو عن عذاب الله لهم ؟، أو عن سبب تركهم فى الفساد ؟، إنه غير محدد الموضوع ، ولذلك يحتاج إلى أجوبة طويلة ، متنوعة .

لكن موسى " عليه السلام " ــ بفطنة النبوة ــ يعيد فرعون إلى قضية الألوهية ، مع الإجابة عن سؤاله عن القرون الأولى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٢) ، وفى رد موسى نراه يجيب فرعون ، ويأخذه إلى تعريفه بالله تعالى

فيذكر له أن علم القرون الأولى، من كافة نواحيها، عند ربى الذى أدعوك إلى الإيمان به ، وهو سبحانه المتصرف فيهم ، ولاحاجة لنا إلى التفاصــيل ، ويكفينــا أن نعرف أنها عند ربى، فهو سبحانه متصف بالحق المطلق الــذى لاينســى ولايخطــئ ، ويكفينا ثقة فى علم الله تعالى، ما خلق من نعم ، فقد جــعل الأرض مهــداً ، وذللها

---

(١) سورة طه آية (٥٠) .   (٢) سورة الشعراء آية (٢٤) .

للعمل ،وللزراعة ، وسلك فيها طرقاً للحركة والتنقل ، وأنزل من السماء مطراً للسقى والزرع ، وأخرج من الأرض نباتات متنوعة للحب ، والفاكهة ، والزينة ، والرعى ، ليتمتع الإنسان ، والطير ، والحيوان ، وكل دواب الأرض بها ، وجعل سبحانه من ذلك آيات، وبراهين، تدل عليه، وهى أدلة يدركها صاحب العقل السليم .

وهذه الأرض التى أكرمنا الله بها ، وأفاض علينا بنعمه من خلالها ، هى المادة التى خرج منها الإنسان ، وإليها يعود حين الموت ، ومنها يخرج يوم البعث .

إن هذه الآيات تدور حول الإنسان فى وجوده ، وعدمه ، وحول الكون القريب من الإنسان ، من زرع ، وماء ، وأرض ، وحياة ، كما أنها تذكر الإنسان بحركته فى هذا الكون ، فقد خلقه الله لتعميره ، وسوف يسأله عن مسئوليته يوم يبعثه ويخرجه من الطين مرة أخرى .

ومن فطنة موسى "عليه السلام" ، أنه أتى بالآيات والبراهين ، التى يعتز بها فرعون ، فهو فخور بملكية أرض مصر ، بأنهارها ، وزرعها ، وثمرها ، ويجعل ذلك سبيله لادعاء الألوهية .... يأتى موسى " عليه السلام " إلى هذه الآيات ، ويوضح الخالق الحقيقى لها ، ويبين أنه الله رب العالمين ، وليس لفرعون منها إلا الملكية الصورية ،والتحكم الظالم ، أما الموجد لها فهو الله تعالى ، فهو الذى خلق وأوجد ، وحقه أن يعبد وحده ، وهو الله الواحد لاشريك له أبداً .

لم يتمكن فرعون من مواجهة حجج موسى " عليه السلام " بالحوار والمناقشة ، وإنما إتجه إلى إثارة الناس ضد موسى ، قال لهم : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

---

(١) سورة الشعراء آية (٢٥) .

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١) .

وفى حديث فرعون نرى لجوءه إلى الإثارة ، والتحريض ، وتوجيه الرأى العام ضد دعوة موسى ، وأخذ يبث فى الناس ضلاله ، وأكاذيبه ، بصورة مثيرة ، على شكل أسئلة تحريضية ضد موسى ودعوته ، ومن أسئلته :

ألا تستمعون لأكاذيب موسى وهو ينكر ألوهيتى ، ويثبتها لربه ؟!

وأليس لى ملك مصر أتحكم فى أرضها ، ومائها ، وسكالها ؟!

وأينا أفضل أنا بما أملك ،أم موسى الفقير الذى لايملك شيئاً ؟ !

وهل صورة موسى تصلح للرسالة وفى لسانه حبسة ؟

وهل يتصور أن إله موسى يملك كل شئ ، ويتركه فقيراً ؟! لِمَ لم يمده بالذهب ؟!، أو يرسل معه الملائكة تساعده ؟!

إن هذه الأسئلة مفهومة من الآيات ، قصد فرعون بها صرف الناس عن سماع دعوة موسى وهارون " عليهما السلام " .

ويلاحظ أن فرعون ألقى أسئلته فى جمع من قومه إثارة لهم ، لأن العقل الجمعى ، سريع الإنفعال ، يستجيب بطريقة تلقائية وسريعة للمثيرات العاطفية .. ولذلك تعد مخاطبة الجماهيرلأول مرة بصورة جماعية ،فى القضايا الكبرى لوناً من ألوان العبث ، والاستخفاف بالعقول ، ولذلك قال الله عن فرعون فى القرآن الكريم :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وسار الجمهور خلف فرعون بعدما استثارهم ، وأخذ فى الاستماع إلى حديثه وكلامه عن موسى " عليه السلام " :

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٥١ ـــ ٥٤) .

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) .

ونجح فرعون فى إستثارة الرأى العام ضد دعوة موسى،وأخذ فى تهديد موسى " عليه السلام " فأعاده موسى " عليه السلام " إلى الحوار مرة خرى ، وفكر فرعون فى الإستعانة بأتباعه من السحرة ، والعلماء .

المسألة الرابعة : التحدى الكبير ، وإيمان السحرة : ـــ

أقام موسى وهارون على فرعون الحجة ، وتبين أتباع فرعون قوة موسى بحجته ، وضعف فـــرْعون بألوهيته ، حينئذ لجأ فرعون إلى التهديد، قال تعالى على لسان فرعون : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣) ، فأعـــاده مـــوسى إلى الحـــوار : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤) ،إن موسى "عليه السلام" لم يواجه التهديد بالغضب ، وإنما واجهه بهدوء ، وروية، ومع الهدوء عرض مثير لبيان الحقيقة،والناس يسمعونه متسائلاً:أتسجننى وإن أتيتك ببرهان بين لايشك فيه عقل ؟ !، ولم يحدده له ، ولم يشر إليه ، ليتشوق فرعون ومن معه لمعرفته ، وقد كان ، فعاد فرعون إلى الحوار : قال تعالى: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٥)، فقدم موسى "عليه السلام" برهانى العصا واليد، شاهدة على صدقه . فلما رأى فرعون ذلك قال لأتباعه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الشعراء آية (٢٧) . (٢) سورة غافر آية (٢٦) .

(٣) سورة الشعراء آية (٢٩) . (٤) سورة الشعراء آية (٣٠) .

(٥) سورة الشعراء آية (٣١) . (٦) سورة الشعراء الآيات (٣٤ ـــ ٣٥) .

ولنتأمل في منطق سياسة فرعون ، وطريقته في مخاطبة الناس ، يعلن أن موسى ساحر ، ومجادل ، وأنه يعمل على طرد المصريين من بلدهم ، وبعد ذلك يطلب رأيهم ويعتبرها أوامر منهم ، يقوم بتنفيذها ، ويخطب فيهم ... فماذا تأمرون ؟ !! .

ويتصور الناس أن موسى ساحر حقاً ، ولذلك إقترحوامقاومته بنفس السلاح الذي يستعمله ، واقترحوا لفرعون أن يجمع من مختلف المدن المصرية أئمة السحر ، وأساتذة العلماء، على أن يعد لللقاء عدته ، لينهزم موسى على رءوس الناس .

واستحسن فرعون الفكرة ، وقال لموسى : ﴿ **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾** ﴾ (١) .

حدد فرعون وموسى موعد اللقاء ، في يوم عيد للمصريين، **هو يوم الزينة** ، وجعلوه ضحى ذلك اليوم ، حيث يتجمع الناس ، ويروا في وضوح الشمس ما يقع ، بلا خداع أو دعاية ، أو تدليس ، وسر موسى بذلك فهو واثق من نصر الله ، واللقاء فرصه لعرض دعوته، وإظهار صدقها على الجمع الغفير دفعة واحدة ، وأرسل فرعون إلى مختلف المدن لإحضار كبارا العلماء ، وقادة السحر ، وعرفهم بما جرى له مع موسى وهارون " عليهما السلام " ، فطمأنوا فرعون وأقسموا بعزته أنهم سيغلبون موسى ، واستفسروا عن المكافأة التي سيأخذونها ، فعرفهم أنه سيكافئهم مادياً ، ويقربهم إليه سياسياً ، واجتماعياً .

وجاء يوم الزينة ، والتقى العلماء والسحرة بموسى وهارون ، والجمع حاشد ، والكل ينتظر هزيمة كبيرة بموسى ، يقول ابن كثير : (**وحضر فرعون ، وأمراؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بكرة أبيهم ، آملين أن يغلب السحرة ، وتثبت ألوهية فرعون**) (٢) .

---

(١) سورة طه الآيات (٥٧ ــ ٥٨) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢٥٤ .

تقدم موسى إلى السحرة ، وبين لهم قضيته ، ونهاهم عن تعاطى السحر الباطل وخوفهم من عذاب الله إن لم يلتزموا بالحق والصواب ، وقد أدى نصح موسى لهم إلى تغيير نظر بعضهم إليه ، بعدما علم أن هذا الكلام لايصدر إلا من نبي ، ولذلك اختلفوا فيما بينهم ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١) ، قيل أنهم تنازعوا حول رسالة موسى وصدقه ، وقيل في كون فرعون إلهاً ، وقيل في صلة سحرهم بالحق ، والله أعلم في تنازعهم ، لكنهم اتفقوا على بقاء موضوع تنازعهم سراً ، وترك الفصل للوقائع والأحداث ،التي جاءوا لها ، على أن يذلوا أقصى طاقاتهم ، ويتحدوا في عمل واحد ليغلبوا ، فإذا ما غلب موسى لالوم عليهم لأنهم لم يقصروا ، يصور الله الحالة النفسية للسحرة قبل مباشرة التحدي ، فيقول سبحانه : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢) .

اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون أمامهم ، وقال كبيرهم لموسى إما أن تلقى ، وإما أن نبدأ نحن بالإلقاء ؟ وهو سؤال ينبئ عن رغبتهم في البدء ، لعلمهم أن رهبة الاستهلال تبقى في النفس لاتزول إلا بإضعاف قوتها التأثيرية .. قال لهم : إبدأوا أنتم ، فعمدوا إلى حبال وعصى، أعدوها لذلك ، قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقاً ، وكذلك الحبال كانت مصنوعة من جلد مجوف ، محشو بالزئبق ، وقد حفروا قبل ذلك في الأرض حفراً، ووضعوا فيها المواسير المملوءة بوقود النار ، فلما طرحت

---

(١) سورة طه الآيات (٦١ ــ ٦٢) .

(٢) سورة طه الآيات (٦٢ ــ ٦٤) .

العصي والحبال ، تحركت بفعل سخونة الزئبق ، وقيل إن من حيلهم إطلاق أبخرة كثيفة تؤثر في العين ، أو أنها كانت تتحرك بمحركات خفية كالمغناطيس وغيرها (١)

وقد جعلهم موسى " عليه السلام " يبدأون ، لأنه يثق في ربه ، ودعوته ، وحتى يتمكن من إبطال سحرهم أمام الناس ، متأكداً أن الله تعالى لايصلح عمل المفسدين .. نعم .. ألقوا حبالهم ، وعصيهم ، فتحركت في كل اتجاه ، وعظم سحرهم في أعين المشاهدين ، فخاف موسى " عليه السلام " من فتنة الناس بالسحر ، فطمأن الله موسى "عليه السلام" ، وأمره بأن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هي حية عظيمة ، ذات قوائم ، وعنق ، وبطن ، وشكل هائل مزعج ، جعلت الناس يفرون بعيداً خوفاً منها ، وأقبلت هذه الحية فابتلعت ما ألقوه من عصى وحبال، بسرعة مذهلة على كثرتها ، وتنوعها ، ونظر السحرة إلى الحية فوجدوا حجمها ثابتاً لايتغير ، فهالهم ذلك ، وتحيروا .. وأخيراً وجدوا أنفسهم ساجدين ، معلنين إيمانهم برب هارون وموسى .

يقول الله تعالىمصوراً هذا اللقاء : ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢)

يقول سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والقاسم ، والوزاعى ، وغيرهم من علماء التفسير إنما سجد السحرة بعدما رأوا منازلهم ، وقصورهم ، في الجنة وقد تهيأت لهم ، وازينت لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون ، وتهديده ، ووعيده ، لما هاله الأمر ، وعميت بصيرته ، وبصره ، وأخذ يتحدث بكلام كاذب لا يصدقه فيه أحد .

---

(١) دعوة الرسل ص ١٨٤ ، ١٨٥ .   (٢) سورة طه الآيات (٦٥ — ٧٠) .

ـــ قال فرعون للسحرة :آمنتم له ، مع أنهم حددوا إيمانهم، وجعلوه لله، إذ قالوا آمنا برب هارون وموسى ، فما موسى وهارون إلا مبلغا الدعوة ، وعاملان على الإيمان بالله رب العالمين .

ـــ وقال لهم : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، لأنه بطغيانه ، وجبروته ، يتصور نفسه سيداً على الأبدان ، وعلى العقول ، وما درى هذا الضال أن القلوب تميل للحق ، وتقتنع بالصواب ، وأنها لو تيقنت أسلمت ، ولو صدقت أطاعت ، لا سلطان عليها إلا لله تعالى ، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الله .

لقد كان فرعون ينتظر من السحرة أن يستأذنوه في أعمال القلوب ، مع أن السحرة لما شاهدوا الحق ، وانزاحت عنهم غشاوة الضلال ، انبهروا بالقدرة الإلهية ، فخروا ساجدين ، وبعدها أعلنوا إيمانهم .

ـــ وقال لهم : إن موسى لكبيركم ، ومن أين لفرعون هذه المقارنة ، وهل هو يسلم لموسى بأي منزلة ، حتى يجعله كبير علمائه وسحرته ، أم أن الفاجعة جعلت فرعون يهرف بما لايعرف .

ـــ وقال لهم : علمكم السحر ، ولم يسأل نفسه : متى التقى بهم موسى ؟ وأين علمهم ؟ وإن كانوا تلامذته فلم أقدموا على التحدي مع أستاذهم ؟

ـــ وأخذ فرعون في تهديدهم بالعذاب الشديد، الذي به يقطع أيديهم، وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم في جذوع النخل العالية ، ويتركهم للطير ، والسباع تأكل أجسادهم وأبدانهم ، وبعدها سوف يعلمون ، من الأشد عذاباً ، ومن الباقي .

وخاب فرعون في مقالته ، وتهديده ، لأنه يجهل حقيقة الإيمان ، ولايدرى أن الإيمان يشمل التصديق بالآخرة ، وما فيها من نعيم وثواب ، ويعلم عن يقين أنها خير من الدنيا ، ... ولذلك رد السحرة على فرعون قائلين له : أفعل ما شئت ، فكل ما

يمكنك فعله هو جزء من الحياة الدنيا ، والإيمان بالله يهون علينا المصائب ، ويجعلنا نتحمل الظلم والطغيان صابرين محتسبين ، إن الله في الحقيقة هو الخيز المطلق ، وهو الأبقى ، ليس كمثله شئ .

ويبدو ـــ والله أعلم ـــ أن فرعون (لعنة الله) عذبهم ، وصلبهم " رضي الله عنهم " ، ونفذ وعيده فيهم ، فما ضعفوا ، وما انتكسوا ، يقـــول عبد الله بـــن عباس "رضي الله عنه" : (**كانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخرة شهداء بررة**) (١) ، وكان آخر دعائهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

لقد ماتوا حين جاء أجلهم ، ولقوا ربهم مؤمنين ، صالحين ، ولو اتبعوا فرعون لماتوا لأجلهم أيضاً ، ولكانوا لجهنم حطباً ، لكنهم " رضي الله عنهم " آثروا الآخرة على الأولى ، وسلموا أمرهم لله تعالى ، فصاروا في الدنيا مثلاً عالياً للمؤمنين ، وفى الآخرة لهم الدرجات العلا ، لأنهم أتوا ربهم مؤمنين صالحين .

المسألة الخامسة : أنوار وسط الظلمات :

في وسط الظلمات يبزغ الفجر ، ومن وسط الآلام يتولد الأمل ، وما العمل الصالح إلا تكليف بالمشاق تصحبه راحة ، ورضي .... وها هو موسى "عليه السلام" يلقى العنت ، والمشاق في دعوة فرعون وملئه ، إلا أن الله خفف عنه مالا قاه ببعـــض المؤمنين ، الذين آمنوا بدعوته ، وسط الركام الهائل من الكفر والضلال ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين يمثلون نقطة ضوء وسط ظلام ، البغي والفساد ، في مصر القديمة زمن موسى وهارون " عليهما السلام " .

وسأورد شيئاً من قصص إيمانهم لأهمية التعريف بهم ، فقد تحملوا بلاء قاسياً ، وصبروا على الأذى الذي نزل بهم ، رغم شدته وجبروته ، ولأنهم من أقباط مصر ، ومن المقربين لفرعون ، ومن الذين عاشوا في قمة سلطان فرعون ليكونوامثلاً ، وقدوة

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٥٨ .

وسأذكر منهم مايلى : ـــ

(١) سحرة فرعون :

رأينا أن فرعون جمع خيرة علمائه ، وسحرته ، من المدن ، والقرى ، وحشرهم في يوم الزينة ، على أمل أن يغلب موسى وهارون " عليهما السلام " .

واجتمع السحرة ، وأقسموا بعزة فرعون ، ربهم وإلاههم على النصر ، والغلب ، ظانين أن موسى وهارون بعض السحرة الكاذبين .

ولما ألقى موسى عصاه رأوها غريبة ، عجيبة ، في صورة حية حقيقية لها أقدام ، ورأس ، وبطن ، وشاهدوها تبتلع عصيهم وحبالهم التي أعدوها ، ودعموها بمختلف حيلهم ، وطرقهم .. لما رأوا ذلك علموا صدق موسى في رسالته ، فسجدوا لله ، واتبعوا موسى مؤمنين بربه ، ولما يتأثروا بتهديد فرعون ، **قال تعالى:** ﴿ **قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ** ﴿٧٢﴾ ﴾ (١) ، وصلبهم فرعون ، وقطع أطرافهم ، وانتقلوا من دار الفناء إلى دار الخلد ، والبقاء ، في الفردوس الأعلى عند مليك مقتدر .

وقد اختلف المؤرخون في عددهم ، يذكر المكثرون أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف وأوصلوهم إلى ثمانين آلفا ، والمقلون يذكرون أنهم كانوا أربعين رجلاً (٢) .

والعقل يميل إلى القلة العددية لأنهم لو كانوا ثمانين ألفا لكونوا جيشاً ، وقوة ، تقاوم عدوان فرعون ، ولفتكوا به ، ولو تمكن منهم فرعون لاستغرق في تعذيبهم وقتاً طويلاً ، مع أن المؤرخين والمفسرين يذكرون أن فرعون قتلهم وصلبهم في يوم واحد .

وعلى ذلك فعدهم بالعشرات أو بالمئات ، أولى من القول بكثرتهم .

---

(١) سورة طه آية (٧٢) .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢٤٥ .

يقول ابن كثير : (إن هؤلاء المؤمنين لما أخذهم فرعون لقتلهم ، قالوا له يعظونه ، ويخوفونه بأس رب العالمين : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١) ، ويقولون له : إياك أن تكون منهم ، فكان منهم : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٢) فأحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لاتغالب ، ولاتمانع ، وحكم العلي العظيم بعذابه العذاب الأليم) (٣) .

(٢) **مؤمن آل فرعون :**

أمن السحرة برب موسى وهارون " عليهما السلام " واضطرب معسكر فرعون ، وظهرت صيحة التخلص من موسى بقتله لخطورته على المجتمع ، والدين ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (٤) ، والملأ هم سادة القوم ، وكبراؤهم ، يطلبون من فرعون عدم ترك موسى ومن معه أحراراً ، لأنهم يفسدون الناس ، ويدعون إلى ترك عبادة فرعون ونبذ عبادة سائر الألهة ، فيجيبهم فرعون بخطة وضعها إزاء هذه القضية ، وهي تقتيل ما يولد للإسرائيليين من ذكور ، وترك البنات ، حتى ينقطع نسلهم ، ثم يطمئن الملأ على قوته ، وعلوه ، وسلطانه ، كما هو شأنه دائماً .

---

(١) سورة طه آية (٧٤) . (٢) سورة طه الآيات (٧٥ — ٧٦).

(٣) البداية والنهاية ج١ ص ٢٥٨ . (٤) سورة الأعراف آية (١٢٧) .

إنه لم يتحدث معهم فى قتل موسى كما طلبوا ، لأنه فى قرارة نفسه ، **والله أعلم** ، كان متيقناً من صدق موسى ، وأنه كان يخاف إن أصابه بسوء بعدما رأى من آياته ، ومعجزاته ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾** ﴾ (١)

فقوله ذرونى من باب التمويه ، والإيهام بأنهم هم الذين يمنعونه من قتله ، ..
لأن من يقصد القتل لا يعلن عزمه ، وإنما يلجأ للتنفيذ مباشرة ، .. ويتم فرعون مقالته لهم بالخوف على الناس من موسى ، لأن موسى "عليه السلام" إما أن يبدل دينهم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وعليهم أن يحذروه ، ولايسمعوا قوله .

علم موسى بما يدور فى معسكر فرعون بشأنه،فلجأ إلى الله : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾** ﴾(٢)، أعتصم بالله، وتوكل عليه لينقذه من طغيان فرعون ومن كل طاغية ، يتكبر فى الأرض ، ولايؤمن بالله ، ولا بيوم الحساب ، فليس هنالك إذٍ ما يمنعه من الظلم ، والفساد ، والقتل والتدمير .

ولما قويت مؤمرات فرعون ، وتعاون الملأ على موسى ، غضب رجل من آل فرعون قيل هو ابن عم فرعون ، وليس إسرائيلياً ، لقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ** ﴾ ، وفهم الآية على السياق الوارد ، أولى من القول بالتقديم والتأخير، ليصير المعنى رجل يكتم إيمانه عن آل فرعون ، كما قال البعض ، على اعتبار أن الرجل كان إسرائيلياً ،ومما يرجح أن الرجل كان قبطياً من آل فرعون ، أن فرعون سمح له بهذا الحديث الطويل ، وانفعل بكلامه ، واستمع له ، ولو كان إسرائيلياً لعاجله بالعقوبة (٣) ، والأخذ بالظاهر هنا أولى .

---

(١) سورة غافر آية (٢٦) . (٢) سورة غافر آية (٢٧) .

(٣) تفسير الزمخشرى ج٤ ص ١٦١ ، ابن كثير ج٤ ص ٧٧ ، والقرطبى ج١٥ ص٣٠٦ .

آمن الرجل بموسى سراً ، ولم يجد بُداً من إظهار إيمانه ، وإعلان غضبه على فرعون وملإه لظلمهم ، وعدوانهم ، وتفكيرهم في قتل موسى وأخذ فى مناقشتهم بعقل ، وحكمه .

لقد نصح المؤمن قومه بحق ، وسلك فى نصحه لهم منهجاً رشيداً ، وخطة حسنة ، **فهو واحد منهم** ، يهمه شأنهم ، ويعرف طبائعهم ، واتجاهاتهم، ولذلك تعامل معهم بما يليق بهم وكان دائماً يخاطبهم بقوله : ﴿ **يَٰقَوْمِ** ﴾ .

ومن منهجه فى مخاطبة فرعون وقومه ، **تقدير فكرهم** ، ومحاولة إيقاظ عقولهم بالاستفهام المتكرر ، المتصل بواقع الحياة التى يعيشونها ، وكان ينتقل معهم من مسألة إلى مسألة، ترفقاً بهم ، وكان يبين لهم فى كل مرحلة حرصه عليهم ، وتمنيات النجـــاة لهم وأمل استمرار الملك فيهم :

أ ـــ قال الرجل لقومه : ماحكاه الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾** ﴾(١)،وهو بذلك يعرض عليهم الموضوع، ويناقش عقولهم ، بعيداً عن العصبية ، والانفعال ، ورد الفعل، وبلا تحيز ظاهر لموسى ، أو لدعوته ، ويبين لهم أن موسى **إما أن يكون كاذباً** ، **أو صادقاً** ، وخير لهم أن يتجنبوا إيذاءه فى الحالتين ، لأنه إن كان كاذباً فسيتحمل عقوبة كذبه بعيداً عنكم ، وإن كان صادقاً ، فستحل بكم عقوبة الكفر به ، فلا تضيفوا إليها جريمة قتله ، فيتضاعف عذابكم (٢) ، لأن إحتمال صدقه أقوى ، فقد جاءكم بالبينات المؤيدة له ،

---

(١) سورة غافر آية (٢٨) .

(٢) يقول المفسرون ومن معانيها " **كل الذى يعدكم** " ، فبعض بمعنى كل ، وذهب آخرون إلى أن المراد أن البعض مهلك ، فما بالكم بالكل .

واعلموا أن الكذاب ، المكثر فى الإفك ، لن يوفقه الله للخير أبداً ، مهما كان ..

ب ــ ثم انتقل إلى مسألة ثانية ، وهى قضية الملك ، **قال تعالى: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾** (١) .

وفى هذه المسألة يوضح لهم أن الملك بيدهم الآن ، وهم به ظاهرون فى الأرض وعلى الناس ، وهذا أمر يجب أن يحافظوا عليه ، وعليهم أن يفكروا فى بأس الله الذى خوفهم منه ، من ناحية كيفية مواجهته ، والانتصار عليه ، فى حال صدق موسى ، ولن يقدر عليه أحد لأنه من الله تعالى ...

فى هذه المسألة يضع نفسه معهم ، فى حال مجئ بأس الله ، وهو إظهار لحرصه عليهم ، وعلى الملك الذى جعله لهم خاصة من دونه ، إنه يوقظ عقولهم أمام حقائق الحياة ، حتى لايستمروا فى أمانيهم ، وأحلامهم ، التى لاتتصل بحقيقة الوجود ، وحركة الحياة .

وقد رأى فرعون خطورة حديث الرجل لأنه يلامس العقل المجرد ، ويعرض المسألة كما هى واضحة أمام الناس ، فأراد أن يصرف الناس عنه ، فقال لهم ما تشير إليه الآية فى أن الرأى الصائب هو رأيه ، وأنه يعمل لمصلحتهم، ورشدهم، وسعادتهم ، وعليهم أن يطمئنوا لذلك .

جـ ــ وبعدها انتقل الرجل إلى مسألة أخرى ، وهى خوفه على الناس من عذاب الله أن يحل بهم فى الدنيا ، **قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾** (٢) ، إنه يذكرهم بأحداث الأمم التى سبقتهم ، فقد

---

(١) سورة غافر آية (٢٩) .

(٢) سورة غافر الآيات (٣٠ ــ ٣١) .

كذبوا رسلهم ، و لم يؤمنوا بدعوتهم ، فأهلكهم الله تعالى ، جزاء كفرهم ، وضلالهم ، وأعلن الرجل لهم أنه يخاف عليهم من نزول الهلاك بهم ، لأن الله بعدله يمهل ولا يهمل .

د ـــ ثم يبين لهم أنه يخاف عليهم من عذاب الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .. ومع هذه المسألة يوضح الرجل لقومه ، أنه يخاف عليهم من عذاب يوم القيامة ، حيث لاقوة إلا لله ، وحيث لايرى الظالمون نصيراً ، أو معيناً ، ينادى بعضهم بعضاً ولا مجيب ، ويفرون من العذاب ، لكن إلى عذاب آخر أشد وأنكى ، لأن يوم الآخرة يوم شديد ، لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هـــ ـــ وينتقل الرجل إلى إظهار أخطاء القوم فى تقدير رسالة موسى وهـــارون ، اعتماداً على تجربة لهم سابقة ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾(٢)، وهذه التجربة دليل واضح على سوء التقدير لديهم، فلقد جاءهم يوسف "عليه السلام" من قبل بدين الله تعالى، ودعاهم إلى التوحيد ، وأظهر المعجزات الدالة على صدقه ، وهو نفس ما فعله موسى "عليه السلام"

---

(١) سورة غافر الآيات (٣٢ ـــ ٣٣) .

(٢) سورة غافر الآيات (٣٤ ـــ ٣٥) .

لكنهم كفروا برسالة يوسف " عليه السلام " ، ولم يؤمنوا به ، وقالوا بعد موته : لن يبعث الله من بعده رسولاً ، وظهر كذبهم بمجئ موسى وهارون " عليهما السلام " رسولين إليهم ، وهذا ضلال فى التفكير ، والتقدير ، سببه التمادى فى الشك ، والبعد عن الله تعالى .

إن موقفهم أساسه الكبر ، والطغيان ، والجدل فى الحق بلا دليل من العقل ، أو الشرع ، وبذلك حلت عليهم لعنة الله ، ونزل بهم غضبه ، لأن الله يطبع على قلب كل متكبرٍ ، جبار ، ومن تعود المعصية استمرأها ، ومن استمرأها صارت له مذهباً ، وطريقاً .

و ـــ ثم أخذ يبين لهم قيمة الحياة الدنيا ، وزخارفها بالنسبة للآخرة ، فمتاع الدنيا قليل ، وزائل ، أما متاع الآخرة فمستقر ، ودائم ، وكثير ، **قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾** (١) .

وقد تفضل الله على الناس فجعل جزاء السيئة بمثلها ، وأما من عمل صالحاً فجزاؤه غير محدد ، ويكفى أنه يدخل الجنة يتمتع فيها بغير حساب .

ز ـــ وينهى الرجل المؤمن حديثه مع الناس ، ويوضح لهم أنه يدعوهم إلى النجاة والخير،وهم يدعونه إلى النار والإثم ، وأنه سيدعهم ، ويترك الأمر لله العليم بكل شئ ، **قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ**

---

(١) سورة غافر الآيات (٣٨ ـــ ٤٠) .

ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١) .

وقد سكت فرعون عن الرجل أولاً لقرابته ، فلما تبين خطورته حاول قتله ، إلا أن الله نجاه منه ، **قال تعالى:** ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

٣ ــ آسية زوجة فرعون : **هى آسية بنت مزاحم** ، زوجة فرعون ، جعلها الله سبباً فى نجاة موسى من الذبح ، لأنها لما رأته فى التابوت سرت به ، وقالت لزوجها : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣) ، فوافقها ، ولما هم فرعون بقتله يوم أن نتف شعر لحيته اعتذرت له لصغره ، فعفا عنه .

ولما بعث موسى " عليه السلام " آمنت به ، وأسلمت لله رب العالمين ، ورفضت أن تعود للكفر ، رغم إلحاح فرعون عليها .

ويقال أن سبب إيمان آسية ، أنها سمعت كلام أرواح أبناء ماشطة فرعون وهم يبشرونها بالثواب الجزيل ، والعطاء الوافر ، ثم أطلعها الله تعالى على مقام الماشطة بعد وفاتها فازدادت إيماناً ، ورسوخاً .

وقد عذبها فرعون بربط يديها ، ورجليها فى أوتاد ، ووضعها فى حر الشمس ، وقال لجنوده : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على إيمانها بموسى

---

(١) سورة غافر الآيات (٤١ ــ ٤٤) .　　(٢) سورة غافر آية (٤٥) .

(٣) سورة القصص آية (٩) .

فألقوها عليها ، وإن كفرت فهى إمرأتى، فلما أتوها وسألوها رفعت رأسها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة ، فمضت على قولها ، وتمسكت بإيمانها ، فنزع الله روحهـــا ، فلما ألقيت الصخرة ، ألقيت على جسد بلا روح .

عن سلمان : كانت الملائكة تظللها من الشمس بأجنحتها ..

وعن أبى العالية : إن فرعون جاء لمشاهدتها وهى تعذب ، فأراها الله بيتها فى الجنة فضحكت، فقال فرعون : أتعجبون لهذه المجنونة، نحن نعذبها ، وهى تضحك ؟!!

وعن إمرأة فرعون يقول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١) ، وجعل الله إيمان آسية مثلاً يضربه للمؤمنين ، الذين تنكشف أمام بصائرهم الحقائق ، فيتمسكون بها ، ولاتغرهم الدنيا ، ولا يلعب بعقولهم إبليس وجنوده .

إن إمرأة فرعون ضربها الله مثلاً عالياً من عدة وجوه : ــ

أ ــ اختارت أن تكون عند الله ، وتحيا فى جنته ، بعيداً عن ملك فرعون ، وقصوره ، وخدمه ، وحشمه ، لأن دنيا هؤلاء الناس .. على نقيض حكم الله ، ليس لها قيمة وإن تزخرفت ، وتزينت .

ب ــ طلبت أن يكون لها بيت واحد فى الجنة عند الله ، وبذلك اختارت الجار قبل الدار، ولبيتٌ كريمٌ بصحبة كرامٍ ، خيرٌ من ألف بيتٍ يسكنه لئامٌ ، ظالمون .

ج ــ تبرأت من ظلم فرعون ، وعمله ، برغم أنها تعيش معه ، لكنها لم تتأثر بضلاله ، فجعلها الله مثلاً للمؤمنين ، ليعلموا أن الله حكمٌ عدل ، لايؤاخذ أحداً إلا بذنبه ، وأنه لايضر المؤمن أن يعاشر الكافرين ، والظلمة، إذا كان محتاجاً إليهم ، مادام

---

(١) سورة التحريم آية (١١) .

لايشاركهم الظلم ، ولا يعينهم عليه ، فو الله ما ضر كفر فرعون آسية فى شئ أبداً .

د ــ يلجأ المؤمن إلى الله فى وقت اضطراره ، وشدته ، وليس عليه إن حدد سبب الطلب ، والغاية التى يتمناها ، فهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه .

جاء فى الظلال : (**وموقف إمرأة فرعون مثل فى الاستعلاء على عرض الحياة الدنيا ، فى أزهى صـــوره ، فقد كانت إمرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذٍ ، تسكن فى قصر فرعون ، امتع مكان تجد فيه إمرأة ما تشتهى ، .. لكنها استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب ، بل اعتبرته شراً، ودنساً ، وبلاء ، تستعيذ بالله منه .**

وهى إمرأة واحدة فى مملكة عريضة ، قوية ، تقف وحدها وسط ضغط المجتمع وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية .... فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء ، ونادت الله .

إنها نموذج عال فى التجرد لله ، ... ومن ثم استحقت الذكر فى كتاب الله الخالد ، الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون ، وهى تتنزل من الملإ الأعلى إلى العالم كله ... وفى الزمن كله) (١) .

٤ ــ ماشطة بنت فرعون (٢) :

آمنت برسالة موسى " عليه السلام " ، وكانت تمشط لبنت فرعون شعرها ، وذات يوم جلست تمشطها ، فسقط المشط من يدها ، فقالت : باسم الله ، تعس من كفر بالله ، فقالت لها إبنة فرعون : ألك رب غير أبى ؟ .

قالت : ربى ، ورب أبيك ، ورب كل شيءٍ هو الله .

فلطمتها بنت فرعون ، وأخبرت أباها ، فأخذ يعذبها ، ويقيدها بالأوتاد ، ويسلط عليها الحيات ، ويسألها : ما أنت منتهية ؟

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٨ ص ١٧٤ ــ دار العربية للطباعة والنشر .

(٢) أنظر قصتها فى تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٩٤ .

فتقول له : ربى وربك ورب العالمين هو الله ، فأخذ يذبح أولادها أمامها ، واحـــداً ، واحداً ، ولكنها تزداد إيماناً ، لأن أرواح أبنائها كانت تأتيها ، وتبشـــرها بـــالثواب وتدعوها إلى الصبر ، وكشف الله لها الغطاء ، فرأت مترلتها فى الجنة ، وتحملت مانزل بها حتى لقيت ربها " رضى الله عنها " .

وهكذا كانت النجوم تبعث الضوء ، والأمل ، فى ظلمات الليل البهيم ليبقى الأمل ، ويستمر الخير بين الناس ، وإن كان قليلاً .

المسألة السادسة : استمرار فرعون فى ضلاله :

استمر موسى " عليه السلام " فى دعوة فرعون ، وأمده الله تعالى بالآيات البينـــات تشهد بصدقه ، وتؤيده فى دعوته ، ، وأهم هذه الآيات هى : ـــ

١ ـــ **العصا** ، **قال تعالى:** ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴿٣٢﴾ ﴾ (١) .

٢ ـــ **اليد** ، **قال تعالى:** ﴿ **وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢).

٣ ـــ الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، **قال تعالى:** ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴿١٣٣﴾ ﴾ (٣) .

ومع ذلك استمر فرعون فى كفره ، واستخفافه بالناس ، حيث كان لايرى لهم إلا رأيه ، ولايقر لغيره (إن خالفه) برأى أو سداد .

ومن أقواله للناس : **قال تعالى:** ﴿ **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴿٥١﴾ **أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴿٥٢﴾ **فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ**

---

(١) سورة الشعراء آية (٣٢) .　　　(٢) سورة الشعراء آية (٣٣)

(٣) سورة الأعراف آية (١٣٣) .

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢) ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣) .

وهكذا استخف فرعون بعقول أهل مصر ، واستعبدهم ، ودعاهم إلى عبادته فاتخذوه إلهاً ، رغم وضوح الطريق ، وظهور الحجة ..... لكنه الضلال والظلم يعادى الحق ، ولايرض له بالوجود .

المسألة السابعة : نهاية فرعون :

أصر فرعون وقومه على الكفر ، ولم يأبهوا بالآيات بعدما عاينوها ، ولمسوها فى حياتهم ، وكانوا كلما أحاطتهم الضفادع ، والقمل ، والجراد ، والطوفان ، والدم ، استغاثوا بموسى ، فإذا رفعت عنهم عادوا لكفرهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٤) .

واتهم فرعون موسى بالسحر ، وبالجنون ، واشتد فى إيذائه للإسرائيليين ، فاتجه موسى "عليه السلام" لله ، مستجيراً به ، سائلاً إياه أن ينزل نقمته بفرعون وقومه ، وأن يطمس على أموالهم ، ويشد على قلوبهم ، ليستمروا فى العذاب ، فاستجاب الله له

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٥١ ــ ٥٣) .

(٢) سورة الشعراء آية (٢٧) .

(٣) سورة القصص آية (٣٨) .

(٤) سورة الأعراف الآيات (١٣٤ ــ ١٣٥) .

يقـــول تـــعالـــى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (١) ، فأنزل الله بهم القحط ، والجدب ، والجوع ، وكانت تأتيهم فترات خصب وسعة ، فيقولون هذه لنا بعملنا ، واستحقاقنا ، وإذا جاء الجدب ، والقحط تشاؤموا بموسى " وما علموا أن كل ما يترل بهم هو قدر الله تعالى " .

وأصروا على كفرهم ، وأعلنوا ذلك لموسى ، فجاء من قبل الله عذاب فى صورٍ شتى ، ومتتابعة ... يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (٢) .

يذكر المفسرون أن موسى "عليه السلام" عاش مع قوم فرعون بعد إيمان السحرة أربعين عاماً ، يظهر لهم الآيات ، وهم بين الكفر والإيمان مترددون ، منافقون .

قالوا لموسى ، أدع ربك يمطرنا **فجاءهم الطوفان** ، فكفروا ، فأهلك الله زرعهم ودوابهم ... فسألوا موسى رفع الطوفان ، فرفعه الله ، ونبت الزرع فكفروا ، **جاءهم الجراد** وأكل الزرع ... فسألوا موسى رفع الجراد فرفعه الله فكفروا ... **فأرسل الله عليهم القمل** وهو حشرة صغيرة مدببة أكلت الدواب، والزروع، ولصقت بالجلود، ومنعتهم من النوم ... فسألوا موسى رفعه ، فلما رفعه الله كفروا، **فأرسل الله عليهم الضفادع** فملأت بيوتهم ، وفرشهم ، وأمتعتهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، فسألوا موسى

---

(١)سورة الأعراف الآيات (١٣٠ ــ ١٣١) .

(٢)سورة الأعراف الآيات (١٣٢ ــ ١٣٣) .

رفعه ، فلما رفعت كفروا ... **فأرسل الله عليهم الدم** ، وصار نهر النيل دماً يشربه الإسرائيلى ماء ، ويشربه القبطى دماً ... وهكذا (١) .

ومع كل هذه الآيات المفصلة البينة ، وما بينها من تباعد زمنى ، أصروا على كفرهم ، فأمر الله موسى وهارون أن يأخذا قومهما ، ويرحلا إلى برية سيناء ، فخرجوا جميعاً تجاه بحر القلزم (الأحمر) واتبعهم فرعون بجنوده يريد القبض عليهم والفتك بهم ، وعند البحر ، حيث الأمواج العالية ، ألقى موسى عصاه، فانفلق البحر ، وانشق ، وظهر فيه طريق جاف ، يربط الشاطئين ، فعبره موسى وقومه ، وتبعهم فرعون وجنوده ، فلما كانوا فى الوسط انطبق البحر ، وتلاقى الماء ، وغرق فرعون ، وعدد من جنوده ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(٢).

و لم يقبل الله توبة فرعون فى وقت الغرق ، لأن التوبة لاتقبل إذا حدثت بعد مجئ الموت

وقد طافت جثة فرعون على الماء ، فأخرجها المصريون ، وحنطوها ، لتبقى عبرة لمن يعتبر ، وذكرى لمن كان له عقل ، وحتى لايكون هناك عذر للغافلين .

---

(١) تفسير القرطبى ج٧ ص ٢٦٧ ــ ٢٧١ بتصرف .

(٢) سورة يونس الآيات (٨٨ ــ ٩٢) .

وقد أهلك الله فرعون فى يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذى نجى الله فيه موسى ، **فعن ابن عباس "رضي الله عنه" أن رسول الله لما قدم المدينة وجد اليهــود يصــومون يــوم عاشوراء ، فقال النبى "صلى الله عليه وسلم": ماهذا اليوم الذى تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله فيه بنى إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى ، قال : فأنــا أحــق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر بصيامه** (١) .

وقد رحل موسى وهارون " عليهما السلام " من مصر ، ومعهما الإسرائيليون وقد حملوا معهم جثمان يوسف "عليه السلام" تنفيذاً لوصيته .

ـــ ثانياً ـــ

حركة موسى بالدعوة للإسرائيليين

دعا موسى الإسرائيليين كما دعا فرعون ، وقومه ، ولم يستجب له من الإسرائيليين إلا عدد قليل ، لخوفهم من فرعون وقومه ، وحثهم موسى على عدم الخوف ، والتوكل على الله ، لأن الخوف يتعارض مع الإيمان ، فأعلنوا توكلهم على الله ، وسألوه أن لايجعلهم فتنة للظالمين ، يقول الله تعالى : ﴿ **فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ (٢) ، وقد استجاب الله لهم ، ومن عليهم ، بإهلاك فرعون وملإه، ونجاة الإسرائيليين ، وأورثهم الأرض الطيبة

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب الصوم ـــ باب صيام يوم عاشوراء .

(٢) سورة يونس الآيات (٨٣ ـــ ٨٦) .

يقول تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (١) .

ولما عبر الإسرائيليون البحر ، ووصلوا إلى الشاطئ الشرقي ، لم يجدوا ماء يشربون منه ، أو يسقون دوابهم ، فشكوا لموسى ، وطلبوا منه الماء ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه تفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فجعل لكل قبيلة عيناً

ولما ساروا في الصحراء ، تألموا من حرارة الشمس ، فشكوا لموسى فأظلهم الغمام ، يقيهم من الحر .

ولما قل طعامهم ، وشعروا بالجوع ، شكوا لموسى ، فأنزل الله عليهم المن والسلوى (٢) ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٣) ، وهكذا ، أحاطتهم النعمة من كل جانب ، وغمرهم فضل الله تعالى ، وصار لزاماً عليهم أن يطيعوا موسى " عليه السلام " ، ويتبعوا دينه الموحى به من الله تعالى .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٣٧) .

(٢) المن : رطوبة تلتصق بورق الشجر تشبه في طعمها العسل ، والسلوى : طائر الحبارى أو السمان .

(٣) سورة الأعراف آية (١٦٠) .

وقد تفضل الله على الإسرائيليين كثيراً ، فدخلوا مصر آمنين ، وعاشوا مع نبي الله يوسف " عليه السلام " ، ولما سقط حكم الرعاة ، وجاءت الأسرة الثامنة عشرة في مصر القديمة ، وطردت الرعاة ، أخذت في اضطهاد الإسرائيليين ، واستعبادهم ، وقتل الذكور ، وترك الإناث ، فبعث الله موسى وهارون " عليهما السلام " لإنقاذ الإسرائيليين ، فطلبا من فرعون أن يرسلهم معهما ليرحلوا بعيداً عن مصر ، فأبى .

وقد هيأ الله لهم الحياة في مصر ، فبوأهم بيوتاً فيها ، وجعل بيوقم قبله ، وبشر الله المؤمنين منهم بالخير ، يقول تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ (١) ، يذهب مجاهد أن المراد بمصر هي مدينة " الإسكندرية " ، ويرى الضحاك أنها تعم كل مصر من البحر إلى أسوان ، والإسكندرية من أرض مصر (٢) ، وقد هيأ الله السكن للإسرائيليين في كل أرض مصر ... ولما هدم فرعون بيعهم أحل الله لهم الصلاة في بيوتهم ، **قال تعالى:** ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾** ﴾ (٣) .

وأورث الله لهؤلاء الإسرائيليين أرض مصر والشام ، وبارك لهم في زروعها ، وثمراتها ، وأتم الله عليهم نعمته كلها ، وكان المأمول أن يستمر الإسرائيليون على طاعة الله ، ويداوموا على منهجه ، ليعيشوا متمتعين في ألاء الله ونعمه ، لكن هذا الأمل لم يتحقق ، وسرعان ما ظلموا ، وغيروا ، وبدلوا .

---

(١) سورة يونس آية (٨٧) .

(٢) تفسير القرطبي ج٨ ص ٣٧١ .

(٣) سورة الأعراف آية (١٢٨) .

ولحكمة أرادها الله تعالى أخذ يبين مخالفاقم لموسى " عليه السلام " ، ويعدد المعاصي التي ارتكبوها واحدة ، واحدة ، وسوف أتحدث عنها ، وبخاصة أنها توضح المخالفة ، وتبين طبائع النفس ، وتشير إلى العناصر الأساسية التي تتكون منها الشخصية الإسرائيلية ، وسأعقد لكل مخالفة مسألة ، وذلك فيما يلي : ـــ

المسألة الأولى : حنين الإسرائيليين إلى الأصنام :

شاهد الإسرائيليون معجزات موسى " عليه السلام " ، وعاشوا في النعم ـــ والآلاء التي تفضل الله عليهم بها ، وآمنوا بدين موسى " عليه السلام " ، ومع هذا كانت تعاودهم الوثنية التي ألفوها خلال حياقم في مصر ، وغلبتهم ماديتهم التجسيدية ، ولم تمنعهم عظمة النعمة من الانتكاسة السريعة ، والخضوع للشهوة ، لأن التكوين الطبيعي أقوى تأثيراً من المكتسب ، ولذلك جاءوا لموسى بعد أن نجاهم الله من الغرق ، وطلبوا منه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، كما يفعل أقوام التقوا بهم في سيناء ، وهم العماليق ، يقول الله تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١) ، طلب غريب عجيب ! ! . . يريدون صنماً يعبدونه من دون الله ، ويطلبون من موسى أن يوجد هذا الصنم لهم ؟؟

إنه طلب يؤكد صفاقم ، وأخلاقهم ، القائمة على الجحود ، والجهل ، والتوجه المادي ، والرغبة في التبعية ، والإحساس بالضعف ، **أما الجحود** فإن نجاقم من الغرق ، وفلق البحر أمامهم، معجزة لم يجف مدادها بعد ، ومع ذلك يكفرون بالله فور رؤيتهم لقوم يعكفون على أصنام لهم ، ويطلبون من موسى أصناماً يعبدونها مثلهم ، ويهملون كل شئ .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٣٨ ـــ ١٤٠) .

وأما الجهل فإنهم لم يقدروا الأمور قدرها، واتخذوا من هؤلاء الناس قدوة لهم، مع أن الله سيهلكهم ، ويبطل عملهم ، ويعذبهم على كفرهم ؟ .. ، وكيف يأملون من موسى أن يوجد لهم صنما يعبدونه ، وقد أفنى عمره في الدعوة إلى التوحيد .. وكيف يبحثون عن صنم مع أن الله أكرمهم ، وفضلهم على الأمم من حولهم !!

وأما ماديتهم : فإنهم طلبوا إلهاً من الحجر ، وانصرفوا عن الله الذي عرفهم به موسى ، وأظهر لهم قدرته ، وبين لهم اتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

وأما ميلهم إلى التبعية : فإنهم يريدون مثل ما رأوا عند الناس ،لإحساسهم أنهم أفضل منهم ، وتبعيتهم لهم تضمن لهم الحياة والاستقرار .

وأما إحساسهم بالضعف : فإنهم لجأوا لموسى ليصنع لهم إلهاً ، وكان يمكنهم أن يوجدوه بأنفسهم ، ولأنفسهم ، لكنهم لشعورهم بالضعف طلبوا من الغير أن يصنع لهم .

المسألة الثانية : طلبهم الطعام الأدنى :

تابع الإسرائيليون سيرهم مع موسى في صحراء سيناء ، واحتاجوا إلى الماء ففجر الله لهم من الحجر اثنتي عشرة عينا ، خصص موسى عيناً لكل قبيلة ، ولما اشتد حر الشمس عليهم أظلهم الغمام ، ولما جاعوا أمدهم الله بالمن والسلوى .

والمن مادة رطبة تنزل من الجو كما ينزل الطل ، وتتجمع على الحجر وورق الشجر ، وطعمها حلو يشبه العسل ... **والسلوى** طائر السمان ، وكان يأتيهم على هيئة أسراب متلاحقة ، يغطى الأرض بكثرته .

والمن ، والسلوى ، من أطيب الطعام ، للذة مذاقه ، وكثرة فوائده ، وجمال منظره ، يقول تعالى : ﴿ **وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ**

كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (١)

نعمة عظيمة ، أتتهم من الله تعالى ، بلا جهد ـــ أو تفكير ، وكان عليهم أن يسعدوا بإنزالها عليهم ، ويشكروا المنعم على ما تفضل به ، لكنهم كفروا بالنعمة ، وتبرموا بها ، وطلبوا من موسى غيرها ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢) ... إنهم لجهلهم ، وجحودهم ، آثروا تنوع الأطعمة وإن قلت قيمتها ، وساء مذاقها ، إنهم يطلبون الفول والقثاء ، والعدس ، والبصل ، والثوم ، وهى أنواع منتشرة في كل أرض الله ، وهى طعام العامة ، وجهل الإسرائيليين جعلهم يفضلونها على المن والسلوى .

وأيضاً فإن هذا الطلب يدل على جحودهم ، لأنهم لو قدروا الله حق قدره ، لعلموا أن عطاءه كريم ، عظيم ، وعطاء العظيم الكريم لابد أن يكون أفضل ، وأعظم

يقول القطبي : (وفضل المن والسلوة على ما طلبوه من وجوه :

١ ـــ المن والسلوى طعام نزل من الله عليهم ، وأمر بأكله ، و في استدامة أمر الله ، وشكر نعمته أجر ، وذخر في الآخرة ، أكثر مما في غيره .

٢ ـــ ما من الله عليهم به ألذ ، وأطيب من الذي سألوه .

٣ ـــ ما من الله به عليهم يأتيهم بلا كلفة ، ولا عمل ، ولاتعب .

٤ ـــ ما من الله عليهم حلال ، خالص من أى شائبة معصية .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٦٠) . (٢) سورة البقرة آية (٦١) .

وكان رد موسى " عليه السلام " عليهم : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (١) .

وهو أمـــر يصعب تنفيذه ، مـــن باب قـــوله تعـــالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ ﴾(٢) ، لأنهم كانوا في التيه بعيدين عن أي مصر (٢) .

ولذلك رفض موسى " عليه السلام " طلبهم ، وعرفهم أن الذي يطلبون هو الدني ، ولايصح أن تقدموه على ما هو خير منه .

إن طلبهم يدل على ما عندهم من عناد ، وما في طباعهم من خسة ، وما في فكرهم من طمع ، وتمرد على القدر ، وعلى الخير .

وقيل أن الله استجاب لطلبهم ، وأسكنهم مصر فرعون ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب منه سبحانه وتعالى .

والأولى القول بأن موسى " عليه السلام " رفض طلبهم ، وعنفهم ، وبين لهم أن هذه المزروعات توجد في الأمصار التي يسكنها عامة الناس ، وأنهم بعيدون عنها ، ويؤيد هذا أن الله أمرهم بعد ذلك بدخول القرية المقدسة ، وأنهم سكنوا الشام بعد التيه .

المسألة الثالثة : طلبهم رؤية الله جهرة :

أخبر موسى " عليه السلام " قـــومه الإسرائيليين ، وهم بمصر، أن الله سيهلك عدوهم ، وأنه سيترل عليهم كتاباً ، ينظم حياتهم ، ويضع المنهج الذي يعيشون به ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، وهو في سيناء ، فأمر الله تعالى أن يقصد سفح جبل الطور الأيمن ، ويمكث فيه صائماً ثلاثين يوماً ، وزادها الله عشراً ، صامها موسى " عليه السلام " ، وتم ميقات ربه أربعين يوماً ، وبذلك تهيأ لملاقاة الله .

---

(١) سورة البقرة آية (٦١) .　　　(٢) سورة الإسراء آية (٥٠) .

(٣) تفسير القطبي ج١ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً يحضرون معه الميقات ، وحضروا ، واستمعوا كلام الله تعالى ، وشاهدوا كل ما حل بموسى ، يقول الله تعالى مصوراً هذا اللقاء : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (١) .

والآيات توضح أن موسى "عليه السلام" استخلف أخاه هارون "عليه السلام" فى قومه ، وهو غائب عنهم ، وأمره بملازمة الإصلاح ، والبعد عن مناهج المفسدين الضالين .

كما يتضح من آيات القرآن الكريم أن موسى "عليه السلام" طلب من الله أن يريه ذاته ، فقال الله لن تتمكن من رؤيتى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ، إذا تجليت له فسوف ترانى ، فلما تجلى الله للجبل إندك ، فخر موسى صعقاً ، وعلم أن رؤية الله عياناً أمر مستحيل ، لأن الله ليس كمثله شئ ، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

شاهد السبعون كل هذا ، وسمعوا الحوار ، ورأوا الأحداث والوقائع ، ومع ذلك طلبوا من موسى طلباً غريباً وهو أن يروا الله جهرة ، وهذا أمر غير ممكن ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٢) ، فطلبوا رؤية الله عياناً ، مشخصاً ، و لم يعتبروا

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٤٢ ـــ ١٤٣) .

(٢) سورة البقرة آية (٥٥) .

بكلام الله لموسى ، ولا بما حدث لموسى ، وإنما طلبوا أن يظهر الله لهم جهرة ، فترلت بهم الصاعقة ، وأهلكتهم ، وهم ينظرون حولهم ، ثم دعا موسى " عليه السلام " ربه ليعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، فأعادهم الله رجاء أن يشكروا النعمة ، ويؤدوا حق المنعم ..

المسألة الرابعة : عبادة العجل :

لما ذهب موسى " عليه السلام " لميقات ربه ، استخلف أخاه هارون " عليه السلام " ، الذي عرف باللين ، والهدوء ، فانتهز السامر فرصة غياب موسى " عليه السلام " ، وشكك في صدقه ، وبخاصة بعدما أخلف موسى موعده معهم ، وقال لبنى إسرائيل : إنما أخلف موسى موعده معكم ، لما معكم من الحلي التي سرقتموها من المصريات ، فهي حرام عليكم ، وطالبهم بالتخلص منها ، والقائها في النار ، فاستجابوا له ، وجمعوا الذهب ، وألقوه في النار ، فصنع منه السامر هيكلاً تجسد أمامهم في صورة عجل ، يصدر صوتاً ، له خوار(١)، وقال لهم: هذا إلهكم، وإله موسى فأطاعوه ،

---

(١) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٠٣ ، هذا وقد قال العلماء : إن سبب الصوت خديعة صنعها السامر وذلك بفتح ثقب في جسد العجل ، يصدر الصوت مع هبوب الريح وقيل : بل هو من فتنة الشيطان للإسرائيليين ، وقيل : إن السامر رأى جبريل "عليه السلام" يوم انفلاق البحر يخوض الماء بفرسه " حيزوم " وكانت إذا مست شيئاً أحياه الله ، فأخذ السامري تراباً حياً من تحت أقدام الفرسة ، واحتفظ به ووضعه في فم العجل فأخرج الصوت ، وقيل : بل هي فرسة جبريل يوم أن جاء ليصعد بموسى "عليه السلام" ، وقيل : بل رآها السامري مرة ما ، ودليل القائلين بأنه تراب الفرسة قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾فالقبضة تراب من أثر جبريل ، ويستبعد الشيخ عبد الوهاب النجار ما يقال عن أن الصوت سببه تراب الحياة ، ويرى إنها من الريح في فتحة بالعجل المصنوع ويرى أن معنى الآية : أن السامر بصر بعجل مصري لم يره الإسرائيليون ، وأخذ جزءاً من تعاليم موسى ، الخاصة بالتوحيد ، وأبعدها عن الإسرائيليين ، وهي المرادة بالقبضة التي نبذها من آثار موسى الرسول ، وبعد ذلك رأى الفرصة مواتية للعب بعقول الإسرائيليين (قصص الأنبياء ج١ ص ٢٢٠) .

وعبدوه، واتخـــذوه إلهاً ، وادعوا أن موسى نسيهم عندما خرج للقاء ربه ، يصور الله عبادة الإسرائيليين للعجل ، فيقول تعالى : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) .

والسامرى هذا ، رجل مصرى كان يعبد البقر ، دخل فى دين موسى ظاهراً ، وقيل : هو إسرائيلى ، من قبيلة تعرف بالسامرة فى بلاد الشام (٢) ، والأوزار التى حملوها معهم من مصر ، هى ذهب المصريات استعارته الإسرائيليات منهن ، وهربن به .

وعبد الإسرائيليون العجل ، وأخذوا يرقصون حوله ، ويلعبون ، وتحققت أمنية لهم ، رجوها طويلاً من قبل ، ولم يفكروا فى هذا الإله البقرة ، مع أنه لا يتكلم معهم ولايرد عليهم ، ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً .

إنهم بعبادتهم للعجل أكدوا طباعهم الوثنية ، وبرهنوا على تعودهم نقض المواثيق ، فلقد عاهدهم موسى " عليه السلام " على ضرورة الإستقامة على دين الله ، وطاعته ، وان يتجنبوا أية مخالفة وهو غائب عنهم ... ولكنهم لم يخالفوا فى جزئية ، بل تركوا الدين بالكلية ، يقول الرازى فى تفسيره : (**إن القوم كانوا من الجهالة ، بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل ، المعمول فى تلك الساعة هـــو الخالق للسموات والأرض ، وكانوا فى نهاية البلادة والجلافة لتصديقهم أن صوت البقرة (الخوار) يناسب مقام الألوهية** (٣) .

---

(١) **سورة** طه الآيات (٨٧ ـــ ٨٨) .

(٢) **تفسير القرطبى** ج١١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٣) **تفسير الرازى** ج٢٢ ص ١٠٤ .

وقال " رحمه الله " : (**إن تصور رجوع عدد يقرب من ستمائة ألف عن الدين الحق ، دفعة واحدة ، إلى عبادة العجل ، ثم رجوعهم إلى الدين الحق بعد رجوع موسى إليهم تصور عجيب يؤكد بلاهتهم ، وتعودهم على الاستعباد ، والتبعية للأقوى ، واستهانتهم بالأضعف، ويشير إلى عنصريتهم التى جمعت هذا العدد الضخم فى الكفر ، وفى الإيمان**) (١) .

وفى إتخاذ الإسرائيليين للعجل إلهاً برهان على عنصريتهم الضالة ، فلقد عاشوا مع المصريين ، و لم يكونوا مثلهم فى الدين،ولم يعبدوا العجل معهم ... أما أن يأتيهم الضلال من رجل منهم ، فهو أمر سهل ، وطاعته فى الضلال أمر محبب إليهم .

وقد أخبر الله موسى " عليه السلام " أن قومه وقعوا فى فتنة الكفر ، وأضلهم السامرى فى الدين ، فرجع إلى قومه مسرعاً ، وهو حزين ، غاضب ، يتملكه الندم والحسرة على هؤلاء الناس ، الذين تركوا عبادة الله إلى عبادة البقر ، ووجد نفسه أمام ثلاثة أطراف ، أخذ يسائلهم ، عن هذا العبث وهم :

ـــ الإسرائيليون .

ـــ أخوه هارون " عليه السلام " .

ـــ السامرى .

وكان له مع كل منهم حوار نلخصه فى الاتى :

أ ـــ موسى والإسرائيليين :

رجع موسى إلى قومه ومعه الألواح ، فلما رأى الإسرائيلين يسجدون للعجل ويعبدونه ألقى الألواح فانكسرت وقال للإسرائيليين : ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟**

---

(١) تفسير الرازى ج٢٢ ص ١٠٥ بتصرف .

يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (١) ، وقال لهم ما حكاه الله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢) .

والآيات توضح أن موسى " عليه السلام " ، سأل الناس عن الدافع الذي دفعهم إلى الكفر ... فهل هو عدم ثقتهم في وعد الله الذي يؤكد لهم الثواب الجزيل إذا أقاموا على طاعته ، وأن يسمعهم كلامه سبحانه في التوراة على لسان موسى " عليه السلام " ، وأن يحقق الله لهم النصر والظفر ، إن تمسكوا بدينه ؟ ! ! إن كان ذلك هو السبب فذلك دليل نفاقهم ، وعدم صدقهم في إيمانهم بموسى أولاً ، لأن الله أكـــرمهم ، ونجاهم ، وأمدهم بالنعم في كل جوانب حياتهم ، وبعد ذلك لايثقون فيه ! ! !

أم أن السبب هو طول المدة بين وقت إيمانهم ووقت كفرهم ، لأن الزمن قد ينسى لطوله ؟ ! ! ! إن كان السبب هو هذا ، فهو دليل ضعف الإيمان ، لأن الإيمان عقيدة تؤكدها العبادات ، ويحييها الالتزام الخلقي ، ومن يعيش الإيمان حقيقة ، يراه في كل عمل ، وفى كل وقت ، وحينئذٍ لاينسيه طول الوقت أبداً ، بل يؤكده ، ويقويه .

أم أن السبب هو الرغبة في نزول غضب الرب ، لأن الكفر بالله وعبادة إله آخر يوجب غضب الرب ، ولايفعل ذلك إلا المعتوه ، الضال .

فردوا عليه بأن المخالفة التي وقعـــوا فيها ، ليست بإرادتهم ، وإنما أضلهم السامر ، ودعاهم إلى التخلص من الذهب المسروق ، وصنع العجل ، ودعاهم إلى عبادته ، فأطاعوه ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة طه الآيات (٨٧ ـــ ٨٨) .

وكان عليهم أن يتدبروا في مزاعم السامر ، فلا يتخلصون من وزر بكفر ، ولايندهشون بصوت بقرة ، ولايتركون التأثر بخلق السموات والأرض ، وكيف يسجدون لبقرة ، وقد ذاقوا طعـــم الإيمان بالله ، وعرفوا مدى استحقاقه سبحانه للعبادة ، وشاهدوا الآيات ، والبراهين الدالة على صدق الرسول ، وصدق دعوته ، إن هذا لشئ عجاب ! ، وسوف يعاقب الله الناس على ضلالهم ، وينجي من تاب منهم ، ورجع عن ذنوبه ، يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾** ﴾ (١) .

ب ــ موسى وهارون :

واتجه موسى " عليه السلام " مغاضباً إلى أخيه هارون ، ﴿ **قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾** ﴾ (٢) ، وفي الآية عتاب شديد من موسى لهارون وهـــو يســـأله لِمَ لَمْ تتبعني حين رأيتهم كفروا وعبدوا العجل ؟ ، يريد موسى أن يتبعه هارون منهجياً بمعنى أن ينكر عليهم ، أو يقاتلهم ، كما كنت أفعـــل لـــو كنت فيهم ، أو تتبعني فتهجرهم ، وتترك الإقامة بينهم ، لتلحق بي ، ففي مفارقتهم زجـــر ، وتقريع ، ... ويتابع موسى " عليه السلام " عتابه متسائلاً : وهل يا هارون عصيت أمري ، ووصيتي التي قلتها لك ، وعنها يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٥٢ ــ ١٥٣) .

(٢) سورة طه الآيات (٩٢ ــ ٩٣).

(٣) سورة الأعراف آية (١٤٢) .

أجـــاب هـــارون " عليه السلام " بهــدوء على أخيه موسى : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ (١) .. وكان موسى " عليه السلام " قد أخذ شعر رأسه بيده اليمنى ، وشعر لحيته بيده اليسرى ، لأن الغيرة لله ملكته ، والانفعال بكفر قومه أحزنه ، ولذا قال هـــارون لاتأخـــذ برأسي أو لحيتي ، حتى لايتخيل أحـــد أنك تعاقبني ، أو تستخف بي (٢) ، فتركه موسى ، وأخذ هارون يشرح له ما حدث .

يبدأ هارون حديثه بمودة ظاهرة ، وينادى أخاه موسى ويقول : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ وكان موسى أخاه لأمه وأبيه ، ولكن هارون ركز على أخوته لأمه ، لما فيها من لين ، وعطف ، ومرحمة .

وبعدها بين له أنه حذرهم من هذا الضلال ، ودعاهم إلى الله تعالى وقال لهم :
﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾(٣) .

توضح الآية أن هارون نصح الناس قبل مجئ موسى "عليه السلام" ، وبين لهم فتنة السامر ، وبطلان مزاعمه ، وأن عليهم أن يعلموا أن ربهم هو الرحمن ، الرحيم ، وليس هو العجل المزعوم ، وحثهم على إتباعه ، وطاعته .

وبين لموسى أسباب بقائه وسطهم بعد كفرهم ، وهى خشيته من تفرق الناس ،

---

(١) سورة طه آية (٩٤) .

(٢) يذهب القطبي إلى أن موسى "عليه السلام" أخذ برأس هارون "عليه السلام" وضمه إليه ليعلمه بنزول الألواح عليه ، وليسمع واقع الحال ، بصورة لايسمعها أحد ، وكان أخذ الرجل من شعر رأسه ولحيته تكريماً ، واحتراما ، إلا أن هارون نهى موسى عن ذلك حتى لا يتخيل الإسرائيلون أن موسى يعاقبه (تفسير القطبي ج٧ ص ٢٨٩) .

(٣) سورة طه الآيات (٩٠ ـــ ٩١) .

لأنه إن خرج سيتبعه فريق ، ويبقى فريق ، وربما تقاتلوا ، وحينئذ أكون سبباً في فرقتهم مع أنك أمرتنى أن أبقى بينهم ، وأدعوهم إلى الله تعالى .

ويبين هارون أن القوم استهانوا به ، وتصوروه ضعيفاً ، وكادوا أن يقتلوه حين نهاهم عن عبادة العجل .

وينهى هارون حديثه مع أخيه برجاء عدم فعل أى شئ يتصوره الكفار عقوبة أياً كانت صورها ، يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (١) .

وبعد اتضاح موقف هارون أمام موسى "عليهما السلام" ، توجه موسى إلى الله داعياً لنفسه ولأخيه بالمغفرة ، والرحمة : قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (٢) ، وفى تحقيق هذا الدعاء ، غاية المنى ، لأن المغفرة تحقق الستر والصفح عما وقع ، والرحمة تحقق العون ، والتوفيق والنصر ، والهداية الدائمة .

ج ــ موسى والسامري :

اتجه موسى " عليه السلام " إلى السامر ، وسأله عن الذي حمله على فعل ما فعل ، فأجابه بأن نفسه زينت له ذلك ، فقال له موسى : أخرج من بيننا ، وابتعد عن الناس حتى لا يلقاك أحد ، وانظر إلى العجل الذي ألهته ، ولازمت عبادته ، لأننا سنحرقه ، ونلقيه في البحر تراباً يذوب في الماء ، وأعلم أيها الضال أن الإله الحق هو الله الذي وسع علمه كل خلقه ، يتصرف كيف يشاء ، وله الأمر كله ، وإليه مرجع الخلائق أجمعين ..

---

(١) سورة الأعراف آية (١٥٠) .　　(٢) سورة الأعراف آية (١٥١) .

عن موقف موسى من السامر ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (١) ... وقد ذهب العلماء في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ (٢) مذاهب شتى (٣) ، والراجح أن معناها أخذت جزءاً من تعاليم موسى الخاصة بالتوحيد ، وأبعدتُها عن الإسرائيليين حتى لايتمسكوا بها ، فيسهل إضلالهم ، وخداعهم (٤) .

يقول الشيخ / عبد الوهاب النجار : (إن السامر خدع بنى إسرائيل ، وأخذ منهم الحلي ، وبصر بعجل من العجول التي تعبد في مصر ، ولم يبصره غيره ، فجاء به إلى الإسرائيليين ، وقال لهم هذا إلهكم جئت به بدل حليكم لتعبدوه ، فانخدعوا ، وصدقوا ، وعبدوا ، وعلى هـــذا يكون العجل حيواناً عادياً .. و يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٥) .

أن بنى إسرائيل اتخذوا بدل حليهم عجلاً مجسداً له صوت ، وعبدوه (٦) ، فمعنى (من حليهم) (بدل حليهم) والمراد بالمبصر العجل الذي رآه السامري .

---

(١) سورة طه الآيات (٩٥ ــ ٩٨) .
(٢) سورة طه آية (٩٦) .
(٣) انظر هامش ص ٣٢٨ .
(٤) تأويل أبي‌مسلم الأصفهاني ص ٢١٧ .
(٥) سورة الأعراف آية (١٤٨) .
(٦) قصص الأنبياء ص ٢٢٠ .

والذين يذهبون إلى أن العجل صنع من الذهب يرون أن معنى (من) للتبعيض ، ويكون المبصر فن الصياغة ، وصناعة الذهب ، وكان السامر فعل ذلك لخبرته في صناعة الذهب (١) .

وفى النهاية يبين الله المصير الذي ينتظر عبدة العجل ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢) .

المسألة الخامسة : التيه ودخول بيت المقدس :

سار موسى " عليه السلام " بقومه في برية سيناء ، فلما اقترب من بيت المقدس ، وجد فيها قوماً جبارين من العرب الكنعانيين ، والفزاريين ، وغيرهم ، يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون غيرهم من المجئ لبيت المقدس ، والسكن فيها ، فأمر موسى "عليه السلام" قومه بدخول بيت المقدس ، ومقاتلة الجبابرة ، وإخراجهم منها ، وقال لهم : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٣) ، فقد كتب الله لهم أن يقيموا فيها ، وعليهم أن يقاتلوا لينالوا حقهم ، ويدخلوا مدينتهم ، ولايرجعوا عنها فيخسروا بعد الربح .. لكنهم رفضوا طلب موسى "عليه السلام" خوفاً من هؤلاء الجبابرة ، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤) ، وقالوا لموسى لن ندخل هذه الأرض حتى يخرج منها الجبابرة ، فإن خرجوا دخلنا ، واعلنوا خوفهم منهم ، فظهر رجلان

---

(١) مدرسة الأنبياء ص ٢٢٩ .
(٢) سورة الأعراف آية (١٥٢) .
(٣) سورة المائدة آية (٢١) .
(٣) سورة المائدة آية (٢٢) .

من بينهم ، ونصحوهم ،وطلبوا منهم الدخول ، لأنهم بمجرد وصولهم إلى الباب سيغلبون ، ما داموا متوكلين على الله ، مؤمنين به ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

ومع هذه النصيحة أعلنوا رفضهم القاطع ، وقالوا لموسى:اذهب أنت وربك للقتال ، ولن نكون معك ، ونسوا كل ما تفضل الله به عليهم ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢) .

هناك اتجه موسى "عليه السلام" لربه شاكياً قومه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣) ، وطلب منه أن يفصل لهم عنه وعن وأخيه معه.

فقضى الله عليهم بالتيه في برية سيناء أربعين عاماً ، وحرَّم عليهم دخول بيت المقدس ، خلال هذه المدة ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤) .

يقول ابن عباس : فتاهوا في الأرض أربعين سنة ، يصبحون كل يوم ، ويسيرون ليس لهم قرار ، وتوفى هارون "عليه السلام" ، وبعده توفى موسى "عليه السلام" بسنتين، أو بثلاث سنوات ، وأقام فيهم يوشع بن نون ، خليفة عن موسى ، ومات أكثر بنى إسرائيل في التيه ، وانقضت المدة ، فخرج يوشع بمن بقى منهم ، وبأبنائهم ، وحاصر

---

(١) سورة المائدة آية (٢٣) .
(٢) سورة المائدة آية (٢٤) .
(٣) سورة المائدة آية (٢٥) .
(٤) سورة المائدة آية (٢٦) .

بيت المقدس ، وفتحها ، وسكنها الإسرائيليون ، وأمرهم يوشع بالاستقامة على الحق ، وإتباع دين الله تعالى (١) .

المسألة السادسة : تعمد المخالفة :

لما أنعم الله على الإسرائيليين بفتح بيت المقدس ، أمرهم نبي الله يوشع بن نون أن يدخلوا الباب مطأطئي الرءوس سجداً لله ، خاشعين ، خاضعين ، وأن يقولوا ألسنتهم حطة ، أي حط عنا خطايانا التي سلفت منا ، ليبدأوا حياة طيبة في البلدة المقدسة ، التي جعلها الله لهم ، وجعلهم فيها سادة ، وملوكاً .

رغم هذا الأمر الصريح تعمدوا المخالفة، فدخلوا بظهورهم زحفاً على أستاههم ، وأخذوا يقولون حنطة ، أى حبة شعير ، وبذلك بدلوا ما أمروا به ، واستهزأوا بما كلفوا بعمله ، فحق عليهم العذاب الأليم الذي نزل بهم ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾** ﴾ (٢) .

يروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة **أن رسول الله "ﷺ" قال : قيل لبني إسرائيل : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعره** (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٣٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآيات (٥٨ ــ ٥٩) .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ــ كتاب التفسير ــ باب وقولوا حطة ج٨ ص ٣٠٤ .

المسألة السابعة : خضوعهم للقوة :

جاء موسى "عليه السلام" بالألواح لبنى إسرائيل ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ، ويخلصوا لها بقوة ، وعزم ، لكنهم قالوا لموسى : نريد أن نراها أولاً ،فإن كانت سهلة قبلناها ، وإن لا تركناها ، فلم يوافقهم "عليه السلام" ، فراجعوه كثيراً ، فأصر على رأيه ، وهم يصرون على ترددهم ، رغم أن الله أخذ عليهم العهد والميثاق ، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١) .

وبالنظر في الآيتين ندرك القضايا التي يتضمنها الميثاق وهى :

١ ــ عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة ما سواه .

٢ ــ بر الوالدين .

٣ ــ بر ذوى القربى .

٤ ــ الإحسان إلى اليتامى ، والمساكين .

٥ ــ الالتزام بحسن الكلام وطيبه .

٦ ــ إقامة الصلاة

٧ ــ إيتاء الزكاة .

٨ ــ صيانة الدم ، وعدم العدوان .

٩ ــ التعاون ، وعدم إجبار البعض على ترك بلده .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٨٣ ــ ٨٤) .

ويبدوا أن الإسرائيليين شعروا بعجزهم في الالتزام بهذا الميثـاق ، فحـاولوا التخلص منه بعد إقراره ، لتعارضه مع طبيعتهم ، ونفسياتهم ، لكن موسـى "عليه السلام" لم يقبل منهم التردد ، لعلمه أنهم لايطيقون الحق ، ولابد من حملهم عليه حملاً ، فأمر الله الملائكة فرفعت الجبل فوق رءوسهم ، حتى صار غمامة فوقهم ، وقال لهم موسى: إما أن تقبلوا ما في الألواح ، وإلاسقط عليكم الجبل ، فخافوا ، وقبلوا الألواح ، وسجدوا لله تعالى .

يقول الله تعالى عن هذه الحادثة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١) ، ودلالة الآية ظاهرة في أنهم أطاعوا الله بالخوف ، ولولا ذلك لاستمروا على المعصية والتمرد .

المسألة الثامنة : عدوانهم يوم السبت :

حرم الله على اليهود صيد السمك يوم السبت ، ليختبر صدقهم في تدينهم ، ومدى إخلاصهم في الطاعة ، والانقياد ، وقدر الله أن يكون النهر في يوم السبت مليئاً بالحيتان ، تأتيهم مشرعة ، بيضاء ، سماناً ، لايُرى الماء من كثرتها ، وتغيب عنهم في الأيام الأخرى ، فاستمروا على الطاعة مدة ، إلا أنهم لم يصبروا طويلاً ، وتحايلوا في المعصية ، فمنهم من كان يصطاد يوم السبت ، ويترك صيده في الماء مربوطاً بالحبال ، ليأخذه يوم الأحد، أو في يوم آخر، ومنهم من حفر جدولاً صغيراً، يحبس فيه السمك يوم السبت ، ويأخذه في الأيام الأخرى ، فنصحهم فريق منهم ، فلم يسمعوا لنصحهم

---

(١) سورة البقرة الآيات (٦٣ ـــ ٦٤) .

واستمروا فى المعصية،فمسخهم الله قردة وخنازير،يقول تعالى:﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه:﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾(٢) .

المسألة التاسعة : معونة الله لموسى :

طوال رسالة الله لموسى "عليه السلام" كان الله معه ، يمده بالمعجزات ، ويعرفه بموضوع الدعوة ، ويطلعه على طبائع الناس ، ولم يتركه سبحانه وتعالى وحده طوال عمره كله ، من مولده ، إلى وفاته "عليه السلام" ، وقد رأيناكيف تربى ؟ وكيف نشأ ؟

وفى إطار المعونة الإلهية لموسى بعد الرسالة تبرز ثلاثة حوادث حدثت مع موسى "عليه السلام" ، وجاء القرآن الكريم بها مفصلة ، وهى :

الحادثة الأولى :رد مقالة الإسرائيليين عن جلد موسى :

عرف موسى "عليه السلام" بالحياء الشديد ، فكان يستر جسده ، حتى لايرى منه أحد شيئاً فأشاع الإسرائيليون أن بجسده برصاً أو أدره ، جعله يستتر أثناء الغسل ، لأنهم كانوا يغتسلون عرايا ، ولا يستترون ، فرد الله كلامهم ، وبرأ موسى من مقالتهم ،يروى البخارى بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال : **كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى فى إثره يقول : ثوبى ياحجر ، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى جسده ، فقالوا : والله ما بموسى بأس ، وأخذ ثوبه ، وطفق بالحجر ضرباً**(٢) .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٦٣) . (٢) سورة الأعراف آية (١٦٦) .

(٣) صحيح البخارى بفتح البارى ـــ باب من إغتسل عرياناً ج١ ص ٣٨٥ .

وآدر بمد الألف وفتح الدال وتخفيف الراء معناها انتفاخ فى الخصية ، وفى بعض طرق الحديث أنهم قالوا إنه أبرص أو آدر ، وقد برأ الله موسى من هذا العيب بطريقة حسية ، وجعل القائلين به يرجعون عنه ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (١) .

الحادثة الثانية : ذبح البقرة :

قتل أحد الإسرائيليين عمه ثم ألقاه على مجمع الطريق ، ليرث أمواله ، حيث لا ولد له ، وأخذ يبكى ، ويصيح بحثاً عن القاتل ليخفى جريمته ، وحتى لايحرم من الميراث .

ودارعلى الناس يسألهم ، وجاء لرسول الله موسى "عليه السلام" وقال له : إن عمى قتل، وأتى إلى أمر عظيم ، وإنى لا أجد أحداً يبين لى قاتله غيرك يا نبى الله .. فنادى موسى فى الناس :من كان عنده علم عن هذا فليبينه ، فلم يكن أحد منهم عنده علم .

ومجئ القاتل لموسى استخفاف بموسى ، وتكذيب لدعوته ، لأنه لو كان مؤمناً مقدراً ، ما قتل قريبه ، ولما جاء لموسى،.. وانتظر الناس ، وانضموا إلى جانب الرجل الباحث عن قاتل عمه .

فأوحى الله إلى موسى أن يأمرهم ليذبحوا بقرة ، فتعجبوا وقالوا : جئناك لنعرف القاتل ، تأمرنا بذبح بقرة ، إنك تهزأ بنا ، وتلعب بعقولنا ... فقال : أعوذ بالله أن أكون جاهلاً وأهزأ بكم ... إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، وكان يمكنهم أن يذبحوا أى بقرة ، لكنهم طلبوا من موسى أن يحددها لهم من ناحية عمرها ، ولونها ، وعملها .... فبين لهم أنها متوسطة العمر ، لاهرمة ولا صغيرة ، وسط بينهما ، وأنها صفراء فاقع لونها ، وأنها لاتعمل فى السقى أو الحرث ، فعرفوها ، ووجدوا أنها مملوكة

---

(١) سورة الأحزاب آية (٦٩) .

لإمرأة عجوز ، غالت فى ثمنها ، وباعتها لهم فذبحوها ، وأخذوا عظماً منها ، ضــربوا به القتيل ، فنطق وسمى لهم قاتله ، ثم مات مكانه ، فاقتص موسى "عليه السلام" من قاتله ، وهو ابن أخيه الذى كان يريد إرثه .

وهكذا كان عون الله لموسى "عليه السلام" ، فى مواجهة لؤم القوم ، ومكرهم ، حيث كانوا يتصورونه عاجزاً ، وما دروا ان الله معه ، يؤيده ،وينصره ، يقول الله تعالى عن هذه الحادثة : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١) .

الحادثة الثالثة : مصاحبة الخضر :

يروى البخارى بسنده عن سعيد بن جبير،قال : قلت لابن عباس إن نوفاً البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل ، إنما هو موسى آخر فقال : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب عن النبى "صلى الله عليه وسلم" **أن موسى "عليه السلام" قام خطيباً فى**

---

(١) سورة البقرة الآيات (٦٧ ـــ ٧٣) .

بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعـــلم ؟ فقال : أنا ،فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فقال له :بلى، لى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، ...قال:أى رب ، ومن لى به ؟ قال :تأخذ حوتاً فتجعله فى مكتل،وحيثما فقدت الحوت فهو ثم (١) ... إلخ

والحديث بتمامه يفصل لقاء موسى بالخضر ، وقد فصلها القـــرآن الكـــريم كذلك ، وكلاهما يبين أن حكمة الله تعالى قضت بوقوع القصـــة ، ليـــتعلم موســـى "عليه السلام" رد العلم لله ، فهو العليم بكل شئ ، وعلمه، وإرادته ، وقدرته، مـــع كـــل موجود ولذلك كان على موسى أن يقول لمن سأله : الله أعلم .

وقد وقع العتاب بمنهجية مؤثرة ، ومعجزة ، حيث حدد الله لموسى مكان لقاء الرجل الأعلم منه ، وهو مجمع البحرين ، وأتصور هذا المكان عند التقاء خليج العقبـــة بخليج السويس ، عند رأس محمد ، لأن موسى " عليه السلام " كان فى سيناء ، ولا يوجـــد بحران يلتقيان إلا هناك ، وقد حدد الله لموسى علامة يعرف بها المكان ، هذه العلامـــة هى ضياع الحوت ، ففى هذا المكان يوجد الرجل الصالح .

اصطحب موسى "عليه السلام" غلاماً ، ومعهما الحوت فى مكتل ، فلمـــا جـــاوزا المكان ، قال موسى لفتاه : أحضر لنا الطعام لنأكل ، فقد تعبنا ، وأصـــابنا الجـــوع ، فقال له الغلام : لقد نسيت الحوت عند الصخرة التى استرحنا عندها ، وقـــد اتخـــذ الحوت طريقه إلى البحر بصورة عجيبة ، فقال موسى : هذا المكان هو الذى أقصده ، فهيا بنا نرجع إليه ، فرجعا حتى وصلا إلى الصخرة ، فرأى موسى رجلاً مسجى بثوب فسلم عليه ، فقال الخضر: أنى بأرضك السلام .... قال : أنا موسى رسول الله .

فقال الرجل : أنا على علم علمنيه الله لاتعلمه ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه.

فقال له موسى : هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب أحاديث الأنبياء ـــ باب حديث الخضـــر ج٦ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

فقال الرجل: إنك لن تصبر لعدم إحاطتك بما أعلم .

قال له : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، ومطيعاً ... فقال الخضر : إن أردت أن تتعلم فاتبعنى ، ولاتسأل عن شئ أبداً ، حتى أعرفك بخبره ، واتفقا على ذلك ... يقول الله تعالى موضحاً هذا الحوار ، وهذا الاتفاق : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١) .

ويلاحظ أن الله عرف موسى أن هناك من هو أعلم منه ، وأن الرجل الأعلم يقر بأن علمه من الله ، وأنه إن عرف شيئاً فهو يجهل أشياء ، وأن الإنسان متصف بالعجز ، والقصور ، والعلم كله لله .

وتبين الآيات أن هذا الرجل متصف بالعبودية الخالصة لله ، وأن الله أكرمه وأمده بالنعم ، و أعطاه علماً لدنيا من عنده سبحانه .

ويستفيد موسى من تعليم الله ، ويقر للرجل بالتبعية ليتعلم منه ، ويشترط عليه الرجل ، ويحدد له كيفية التلقى ، وعدم الاعتراض ، وعدم السؤال عن أى جانب لايفهمه ، بعقله ، لأن العقل له منهجه ، وطاقته فى الفهم ، ويوافق موسى على شروط الرجل ، ويعلق قبوله بالمشيئة الإلهية ، لأن الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون .

---

(١) سورة الكهف الآيات (٦٢ ــ ٧٠) .

وبيدأ التعليم العملى، الرجل يمشى وموسى وراءه ، فلقيا فى البحر سفينة ، استأذن الخضر فى ركوبها ، فإذن لهم رباها بلا أجر يأخذه ، ركب الخضر، وخرق السفينة ، فاعترض موسى ، لأن الخرق يغرق السفينة ، فسأله الرجل عن صبره الذى اتفق معه عليه ، فاعتذر موسى بنسيانه ، وبعدها ساروا على الساحل ، فوجدوا مجموعة من الغلمان يلعبون ، فجاء الخضر إلى واحد منهم ، واقتلع رأسه ، وقتله ، فاعترض موسى " عليه السلام " مرة ثانية لأنه قتل غلاماً بغير جرم يرتكبه ، فوضح له أنه ارتكب مخالفة ثانية ، و لم يصبر، فاعتذر موسى " عليه السلام "وقال : إن أعترضت بعد ذلك ، فلا تصاحبنى ، ولك عذرك فى تركى ، وساروا حتى دخلوا قرية ، وطلبوا من أهلها طعاماً فرفضوا ، فوجد الخضر جداراً يميل للوقوع ، فأقامه وأصلحه بلا أجرة ، فاعترض موسى " عليه السلام " على إصلاح الجدار بلا أجرة ، مع أن أهل القرية رفضوا إطعامهم ... فقال الخضر : هذه هى الثالثة .. وعلينا أن نفترق بعد أن أوضح لك خبر الأحداث الثلاثة .

أما السفينة فهى مملوكة لمساكين ، ضعفاء يعملون فى البحر ، وكان وراءهم ملك ظالم ، يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ، بلا ثمن ، فقمت بخرقها حتى لايأخذها .

وأما الغلام ، فقد طبع يوم طبع كافراً ، وأبواه مؤمنان ، فخشينا أن يكلفهما بسبب عاطفة الحب والشفقة ، فيقعان فى الضلال ، ويتدينا بدينه .

وأما الجدار فهو مملوك لغلامين صغيرين ، يتيمين ، وتحته كنز لهما (١) ، وكان أبوهما صالحاً ، **فأقمت** الجدار ، حتى يبلغا الرشد ، ويستخرجا كنزهما .

---

(١) اختلف العلماء في الكنز ، فقال عكرمة وقتادة : كان مالاً معدوداً ، وهو الظاهر ، وقال ابن عباس ، وعمر مولى غُفْرة ، وعثمان بن عفان ، كان لوحاً من ذهب كتب فيه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن !! عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب !! عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح!! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل!!عجبت لمن يعرف الدنيا ، وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها !! لاإله إلاالله محمد رسول الله ، (تفسير القرطبي ج١١ ص٣٨) .

ثم قال الرجل الصالح : وما فعلته باجتهاد مني ، ولكنه أمر من الله تعالى لي ، يقول الله تعالى مصوراً هذا : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (١) .

وقد استفاد موسى " الطَّيِّلا " من هذه القصة ، وعرف خطأه ، عندما قال ليس هناك من هو أعلم منى على وجه الأرض ، ولم ينسب العلم لله ، كما استفاد ضرورة الرجوع إلى الله تعالى فى كل أمر غير مقطوع به ، كما تيقن من أن علم الله لايحيط به بشرٌ أبداً ، كما تعلم التواضع لمن يعلمه ، ولو كان أقل منه قدراً .

ونود أن نوضح بعض الأمور :ـــ

الأمر الأول : الخضر بين النبوة والولاية :

يرى بعض العلماء أن الخضر كان نبياً مستدلين بما يلى :

الدليل الأول : وصف الله سبحانه الخضر بالعبودية له فى قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢) ، وقد وصف الله بالعبودية أنبياءه " عليهم السلام " ، ويقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣) ويقول سبحانه : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (٤) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥) .

الدليل الثانى : أتاه الله رحمة من عنده ، قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (٦) والرحمة تأتى

---

(١) سورة الكهف الآيات (٦٥ ـــ ٨٢) .

(٢) سورة الكهف آية (٦٥) .

(٣) سورة ص آية (٤٥) .

(٤) سورة الإسراء آية (٣) .

(٥) سورة ص آية (٣٠) .

(٦) سورة الكهف آية (٦٥) .

بمعنى النبوة ، يقول تعالى على لسان صالح " عليه السلام " : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢) .

الدليل الثالث : أخبر الله تعالى بأنه أعطاه علماً من عنده ، فقال سبحانه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣) ، ومن المعلوم أن علم الأنبياء من الله تعالى ، يعلمهم ، ويمدهم بالوحى ، يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٤) .

الدليل الرابع : أن الخضر بعد أن فسر لموسى ، حقيقة الأحداث التى أعترض عليها ، قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ (٥) ، ففى هذا بيان أنه تلقى الأمر من الله ، ونفذه ، شأن الأنبياء جميعاً حيث يتبعون الوحى فى كل تصرفاتهم .

الدليل الخامس : أن الأفعال التى أقدم عليها الخضر ، لايقدم عليها إلا متمكن من حقيقتها ، ونتائجها ، وذلك لايقدر عليه إلا الله تعالى (٦) .

---

(١) سورة هود آية (٦٣) . (٢) سورة مريم آية (٥٣) .

(٣) سورة الكهف آية (٦٥) . (٤) سورة يوسف آية (٦٨) .

(٥) سورة الكهف آية (٨٢) .

(٦) تفسير القرطبى ج١١ ص ١٦ ، ورجح القرطبى نبوته ، ونسب القول به إلى الجمهور .

ويذهب القشيرى (١) وغيره إلى أن الخضر ليس نبياً ، وحجة هؤلاء أن الخضر نفسه لم يخبر موسى " عليه السلام " بأنه رسول من الله ، ولم تثبت نبوته بدليل قطعى ... وأقصى ما يقال فيه أنه ولى من أولياء الله الصالحين ، والأولياء عباد صالحون لله تعالى ، والمراد من الرحمة الولاية ، وللولي كرامات خارقة للعادةتكريماً له ، وتأكيداً على صلاحه ، والعبودية اسم لكل الآدميين .

وقد اتبع موسى " عليه السلام " وهو رسول الخضر وهو ولي ، ليتعلم منه العلم ، والتواضع ، وتقديرالعلماء ، وليس بمانع أن يهب الله للولي علماً لم يهبه لرسوله .

وأرى أنه لم يكن نبياً ، حيث لا مانع من تفضل الله على من يشاء من عباده ، بما يشاء ، وفق حكمته ، وعلمه ، والرحمة تفيد معنى النبوة ، والولاية ، والنعمة ، وليس معنا دليل يخصص واحدة دون الأخرى ... وكونه ولياً أقوى فى معاتبة موسى ، وأحسن فى توجيهه ، ليتعلم منه مع كونه أقل منه ، ويستفيد ضرورة التواضع ، وبذل الجهد فى تحقيق الأمانى الطيبة ، والغايات المشروعة ، ولا يصح أن ننسب النبوة لشخص إلا بدليل قطعى ، ولا دليل هنا .

وسمى الرجل بالخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء ، يروى الترمذى بسنده عن أبي هريرة "رضي الله عنه" أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال : **إنما سمى الخضر بهذا الاسم لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء** (٢) .

الأمر الثانى : حياة الخضر وموته :

ذهب بعض الناس إلى القول بأن الخضر حى إلى الآن ، وأنه التقى مع بعض المتصوفة ، وأنه موجود فى كل زمان ، ودائماً هو ينتقل من مكان إلى مكان (٣) .

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ج١٥ ص ١٣٦ .

(٢) سنن الترمذى ــ كتاب التفسير ــ باب من سورة الكهف ج٥ ص ٣١٣ .

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم ج١٥ ص ١٣٦ .

وهذا كلام لا أصل له ، ولا دليل عليه ، بل الأدلة ترده ، وهى : ـــ

الدليل الأول : يقول الله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾** ﴾ (١) ، والآية صريحة فى الدلالة على أن البشر جميعاً يموتون ، ولايخلدون ، والخضر من البشر ، فموته مقرر ، ثابت .

الدليل الثانى : يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾** ﴾ (٢) ، والآية تؤكد أن الله تعالى أخذ الميثاق على كل نبى،أن يؤمن بمن يجئ بعده من الأنبياء ، وينصره ... وهذا يستلزم أخذ الميثاق عليهم لمحمد "ﷺ" لأنه خاتم النبيين، فحق على كل من يدركه أن يؤمن به ، وينصره ، فلو كان الخضر حياً فى زمانه ، لما وسعه إلا إتباعه ، والاجتماع به ، والقيام بنصره ، و لم يثبت بدليل ، أنه التقى برسول الله ، أو اجتمع به (٣) ، والولي هنا كالنبي .

الدليل الثالث : عـــن جابر "ﷺ" أن رســـول الله "ﷺ" قال : قبل مـــوتـــه بشهـــر (**تسألونى عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة ، تأتى عليها مائة عام وهى يومئذ حية**) (٤) ، وهذا الحديث يقطع بوفـــاة الخضر ، إن لم يكن قبل الإسلام فقبل المائة عام المذكورة .

الأمر الثالث : المراد بالعلوم اللدنية :

إدراك حقائق الأشياء تصور ، أو تصديق ، لأن الإدراك إن تضمن حكماً ، فهو

---

(١) سورة الأنبياء آية (٣٤) .   (٢) سورة آل عمران آية (٨١) .

(٣) البداية والنهاية ج١ ص ٢٩٩ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ـــ كتاب فضائل الصحابة ج١٦ ص ٩١ .

التصديق ، كقولنا " العلم واجب " ، وإن لم يتضمن حكماً ، فهو التصور ، كإدراك العلم فى ذاته .

والتصور ، والتصديق ، إما أن يحصل بلا كسب وطلب ، وبشكل تلقائى ، كالشعور باللذة ، والحكم بأن الوالد أكبر من ابنه ، وهذا أمرعادى يقع لكل الناس ما عدا المجانين ... ، وإما أن يحصل الإدراك بكسب ، وطلب ، فإن كان طريقه مدارسة العلوم النظرية الموصلة إلى المجهول واكتساب المعارف ، كأحكام الفقه ، وقواعد النحو وإكتساب ملكة الحكم ، والتمييز بين المسائل ، فهو علمٌ عادي .... وإن كان طريقه المجاهدات الروحية ، والورع ، والتقوى ، والإقبال على الله تعالى ، وصاحب هذا الطريق يجاهد نفسه ، وشهوته ، ويستمر فى الاستقامة والعبادة ، حتى يتفضل عليه مولاه بالعطاء ، كطارق بالباب يستمر فى الملازمة والطرق حتى ينفتح له الباب ... وهذا يستمر فى تدبر أسرار الخلق ... حتى ينجلى أمامه الحق ، ، وتأتيه الأنوار الإلهية ، وتمده بالفتوحات العقلية التى هى عطاء إلهى محض ، وهى المـــرادة مـــن قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(١) وعنها يقول الله تـــعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٢) .

وعلى ذلك فنيل العلم من الله طريقه هو الورع ، والزهد ، والتقوى ، ومداومة الطاعة ، والانقياد .... أما ما يقال عن الجذب ، والمكاشفة لطائفة خاصة ، فهو قول غير مسلم ، يقول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الكهف آية (٦٥) . (٢) سورة البقرة آية (٢٨٢) .

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٧) .

وقصة الخضر فى مجملها تشير إلى بعض الفوائد ، وأهمها : ـــ

أ ـــ ضرورة الاتباع :

والمراد بالاتباع الإلتزام بمنهج الله أمراً ، ونهياً ، وترك الاجتهاد العقلى فيما ورد فيه نص دينى ، لأن الاجتهاد مع النص لايجوز .... وسبب ذلك أن منهج الله قائم على علم دقيق ، شامل ، فهو سبحانه يعلم حقائق الأشياء ، وسائر المخلوقات ، ويعلم الغايات الحسنة للإنسان ، ويعلم الطريق الموصل إلى الغاية الصحيحة ، فإذا أمر بأمر ، أو نهى عن شيءٍ وجب الإلتزام بما أمر ، ونهى ، رعايةً للمصلحة ، وتحقيقاً للخير الذى يتمناه الإنسان .... أما علم الإنسان فهو محدود ، بالمكان ، وبالزمان ، وبجزئية معينة ، ولذلك فهو عاجز عن رسم الطريق ، وعاجز عن تحديد الهدف الكلى، الخير ..

ومن هنا وجب الاتباع ، ولزم إجتناب الابتداع ...

وإذا لم يوجد نص فى مسألة ما ، وجب الاعتماد على المبادئ العامة ، وروح الدين ، والتقيد بما أحل الله تعالى ، وسؤال الله التوفيق والسداد .

ب ـــ أهمية العلم والتعلم :

لما عاتب الله موسى "عليه السلام" ، توجه موسى "عليه السلام" إلى الرجل الذى أعطاه الله علماً من لدنه ، ليتعلم منه ، رغم أنه رسول ، يوحى إليه ، وأبدى للرجل احترامه والتواضع له ، بقوله: ﴿ **قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ ، فهو يستأذنه ، ويعرفه بما يريد ، ويحدد له الرغبة فى أن يتبعه حتى يتعلم ، ويتبعه أينما سار، وكيفما عمل ، وفى أى موضوع تحدث فيه ، ... ويتبعه ليتعلم منه الأمور التى علمها الله له ، ويجهلها موسى ، وبذلك تخلق بخلق طالب العلم أمام أستاذه القدير .

ج ـــ عدم التسرع فى الحكم :

برغم أن الرجل حذر موسى من الحكم المتعجل ، وحثه على الصبر ، وعدم الاعتراض حتى يشرح له أسباب أفعاله ، رغم ذلك اعترض موسى "عليه السلام" ، ولم يصبر

ولذا فارقه الرجل ، ووضح الله الأسباب الحقيقية لأفعاله، فلما عرفها موسى تعلم من خطإه ، ووقف على ضرورة الصبر ، وعدم إستعجال الخبر ، وضرورة الوفاء بالوعد والإتفاق .

د ـ سعادة الإنسان فى معية الله :

وضح الخضر أسرار ما فعل ، وبين أنه خرق السفينة ليحفظها للمساكين من الملك الظالم ، وأنه قتل الغلام لكفره حتى لا يرهق أبويه ، ويجرهما إلى المعصية والكفر وأن تحت الجدار كنزاً ، رأى حمايته لأصحابه حتى يكبر اليتامى ... وبهذا ظهرت أهمية ما فعل الخضر ، واتضح أن الله تعالى أمر الخضر بهذه الأعمال ليحافظ على حقوق اليتامى ، والمساكين والصالحين ، وقد قام الخضر بهذه الأفعال من غير إحاطة أصحابها بها .

إن معية الله ، وإعانته لخلقه ، تحقق للإنسان الخير ، والسعادة ، وواجب على الإنسان أن يجتهد ، ويعمل ، لاستنزال رحمات الله تعالى ، والتمتع فى معية الله الدائمة وبذلك يعيش سعيداً موفقاً .

هـ ـ أثر صلاح الآباء على الأبناء :

صلاح الاباء ينفع أبناءهم ، وذرياتهم ، وقد رأينا الخضر يبرر لموسى "عليه السلام" سبب إقامته للجدار ، ويوضح أنه لحماية الكنز لليتيمين ، حتى يكبرا ، لأن أباهم كان صالحاً ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء آية (٩) .

ـــ ثالثاً ـــ

حركة موسى بالدعوة لقارون

قارون من بنى إسرائيل ، يقول الرواة إنه كان ابن عم موسى ، أو ابن خالته ، استماله فرعون إلى جانبه ، وخصه بوزارة المال ، وأصبح يمثل مع فرعـــون وهامـــان ثلاثى الكبر ، والغرور ، والإستعلاء ، على المصريين ، والإسرائيليين على حد سواء ، ففرعون إستعلى وتكبر بملكه ، وسلطانه ، وخضوع الناس له ، وهامـــان إســـتكبر ، وطغى بقوته ، وقربه من فرعون ، وقيامه بشئون الجند ، والبنـــاء ، والأمـــن .. ، ... وقارون تكبر وأغتر ، بماله ، وتحكمه فى شئون المال .

جاء موسى "عليه السلام" إلى الثلاثة ، ودعاهم إلى الله ، فأبوا الطاعة، وأصروا على ضلالهم ، وكفرهم ، وأخذوا فى تلفيق التهم الكاذبة لموسى "عليه السلام" ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢) .

وانتظر الإسرائيليون من قارون عوناً ، ومساعدة ، لكونه واحداً منهم ، إلا أنه إنحاز لفرعون ليدوم له ما هو فيه ، وبغى على قومه ، وظلمهم ، إرضاء للطاغوت الكبير ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة العنكبوت آية (٣٩) . (٢) سورة غافر آية (٢٤) .

(٣) سورة القصص آية (٧٦) .

وقد تمكن قارون من استقطاب جماعة من قومه ، اتبعوه ، وكانوا معه ، ولذلك استمروا فى مدحه ، وإبداء الإعجاب بما هو فيه ، وتمنوا أن يكونوا أغنياء مثله ، يملكون بعض ما يملكه ، لأن الله قد أعطاه من الأموال ، والكنوز ما لم يعطِ لغيره ، يصورها قول الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ .

فهى لكثرتها تعجز الجماعة من الرجال الأقوياء من حمل مفاتيح خزانتها، وكان على قارون أن يتجه بالشكر لله تعالى ، على هذا العطاء ، لكنه كفر ، وأصابه العجب ، والغرور .

وقال اتباع قارون المعجبون به،﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(١) .

لأنه عند مروره ، وظهوره ، كان يحاط بالخدم ، والعبيد ، والجنود ، والزينة ، فتمنى الأتباع هذا لأنفسهم ، وكانوا يعجبون بكثرة الأموال التى تعجز العصبة القوية عن حمل مفاتيحها .

إلا أن فريقاً من قومه ، أخلصوا له النصح ،وقالوا له ما حكاه الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢) ، وقد حدد هؤلاء نصحهم لقارون فى عدد من النصائح :

---

(١) سورة القصص آية (٧٩) .

(٢) سورة القصص الآيات (٧٦ — ٧٧) .

الأولى : ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾، ومـــرادهم بالنهى عن الفرح ، البطر والعجب المؤدى إلى الكبر ، وإلى الوقوع فى المعاصى ، وإلى نسيان حق الله تعالى ، فى الوقت الذى تحتاج فيه النعمة إلى شكر المنعم ، لتدوم ، وتزيد .

الثانية : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ ، ومعناه ضرورة استعمال المال فى طـــاعة الله ، وإنـــفاقه فى الأوجه المشروعة ، الخيرة ، ليكون المال وسيلة لكسب متع الدنيا ، وفى نفس الوقت الحصول على ثواب الآخرة ، ليعيش الغنى سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة .

الثالثة : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، ومرادهم أن المال إذا صلح صاحبه ، يتمتع به فى الدنيا ، فقد أباح الله تعالى مباهج الحياة ، ودعا الإنسان إلى الاستفادة بماله فى كافة زينة الدنيا المشروعة ، لأنه لو بخل على نفسه ، أو قصر فيما وجب عليه من نفقة ، و صدقة .. أو غيرها ، يكون آثماً ، يحاسبه الله على تقصيره فى هذا المجال .

الرابعة : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾،ومرادهم من هذه النصيحة ، أن يجعل فى ماله نصيباً للفقراء والمحتاجين ، وأن يحسن إليهم ، فإن المال مال الله ، أحسن الله به إلى الإنسان ، وواجب على الإنسان أن يستفيد من هذا الدرس وهو يتصرف فى المال ، فيحسن إلى غيره كما أحسن الله له ..

الخامسة : ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، ومرادهم بهذه النصيحة أن لايجعل المال ، الذى هو عطاء الله تعالى سبباً للظلم ، والكبر ، ونشر الفساد بين الناس لأن الله لا يحب المفسدين ، وسيترل العقوبة بهم ، ويهلكهم ، ويهلك مالهم ، وكل ما يساعدهم على الفساد .

إن هذه النصائح صادرة من عقولٍ مخلصة ، وعلماء عارفين بالحق ، وقد قصدوا بدعوتهم قارون لأنه قريب لهم .

إن قارون كان قد استمرأ الكبر ، وسيطر عليه حب المال ، وامتلأ بالغرور ، والظلم ، فرد على قومه بجفاء متجاهلاً ما يعرفه ، من قدرة الله تعالى التى تجلت بإهلاك الذين سبقوه وكانوا أكثر منه مالاً ، وعدداً ، وقوة ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١) .

وكما نصح العلماء والعقلاء قارون إتجهوا بالنصيحة لأتباعه وقالوا لهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢) .

فدعوا عليهم بالهلاك ، بعد أن أصروا على تبعيتهم ، وعرفوهم بأن ثواب الله تعالى للمؤمنين أفضل من كنوز الأرض ، وأموال الدنيا، والمستحق لهذا الثواب هو المؤمن الصابر ، ونزلت عقوبة الله بقارون ، وخسف الله به ، وبأمواله الأرض ، ولم يجد نصيراً ينصره أو معيناً يساعده ، وعجزت أمام قدرة الله كل القوى ، وندم أتباعه على موقفهم ، وأقروا فى النهاية بأن الأرزاق بيد الله تعالى ، واتبعوا موسى ، وأعترفوا بأن الله نجاهم ولم يخسف بهم الأرض مع قارون ، يقول الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة القصص آية (٧٨) . (٢) سورة القصص آية (٨٠) .

(٣) سورة القصص الآيات (٨١ ــ ٨٢) .

وبنهاية قارون يسجل القرآن الكريم نهاية أحد المفسدين ، الذين حاربوا الله فى الأرض،وسوف يلقى عقوبته الأشد فى الآخرة ، يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١) .

إن قصة قارون تعد نموذجاً للإنسان ، حينما تلعب به شهوة السلطة ، أو شهوة المال ، إن هذه الشهوة وأمثالها تدفع صاحبها إلى الإنفصال عن أصله ، وتراثه ، كما فعل قارون ، فهو إسرائيلى ، إلا أنه بغى عليهم بسبب المال والجاه ، الذى كان يعيشه مع فرعون ، وأيضاً فإنها تصيب الإنسان بالغرور ، والكبرياء ، والظلم ، وتجعله ينسى الحقيقة ، ولا يستجيب لداعيها ، ولا يبحث عنها ، وعلى العاقل أن يحذر من فتنة المال والقوة ، وأن يؤمن بالله تعالى ، ويقر له بالفضل ، ويؤمن به ، ويتوكل عليه لينال نصيبه فى الدنيا وفى الآخرة .

*****

---

(١) سورة القصص آية (٨٣) .

النقطة الرابعة

بنو إسرائيل ، واليهود

إسرائيل " عليه السلام " ، هو يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم " عليهم السلام " ومن أبنائه تناسل الإسرائيليون ، وكثر شعبهم .

وقد إنقسم أبناء يعقوب " عليه السلام " من بعده إلى شيع ، وجماعات ، وبطون ، وأفخاذ ، وتباينت مواقفهم ، وتعددت مذاهبهم ، ومن أشهر جماعاتهم اليهود ، المنتسبون إلى "يهوذا" أكبرأبناء يعقوب ، والعرب تقلب الذال دالاً ، وقيل هم الذين تابوا من عبادة العجل ورجعوا إلى الله تعالى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ (١) ، أى تبنا ورجعنا .

فاليهود جماعة من بنى إسرائيل ..

ومن هنا ندرك سر حديث القرآن الكريم ، عن بنى إسرائيل ، وعن اليهود ، حيث نلمس اختلافاً واضحاً بين هذا ، وذاك .

فحديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل يتضمن ملامح التكريم ، والتفضيل ، والتنعيم ، وفى عجالة سريعة نقرأ قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢) ، فقد ناداهم الله باسم أبيهم إسرائيل ، رسول الله إليهم ، وأمرهم بضرورة ذكر النعم ، التى جاءتهم ، ليشكروا من أنعم بها عليهم ، ..... ولتكون النعم دليلاً على المنعم سبحانه وتعالى ، وعرفهم سبحانه بأنه فضلهم على عالمى زمانهم ، أو على كل العالمين ، إذا ظلوا مطيعين له ،

---

(١) سورة الأعراف آية (١٥٦) . (٢) سورة البقرة آية (٤٧) ، ويلاحظ أن الله تعالى أمرأمة محمد بذكره مباشرة فقال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ليكون نظر أمة محمد "ﷺ" من المنعم إلى النعم ، وغيرهم من النعم إلى المنعم ، والفرق بينهما كبير .

وآمنوا بمحمد " ﷺ " حين يأتيهم ، يقول تعالى:﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١) لأن الإيمان بمحمد "ﷺ" وفاء بعهدهم مع الله تعالى (٢) .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) ، فلقد نظم الله شئوهم ، ومعاشهم ، فاختار منهم أثنى عشر نقيباً (٤) ، وعين لكل سبط نقيباً ، والنقيب هو الرجل العظيم فى قومه ، ذو الخلق الحسن ، العارف بما فى نفوسهم ، ودخائلهم ، المسئول عن توجيههم ، ونصحهم .

وعرفهم الله تعالى أنه معهم ، بالمعونة ، والنصر ، إن استقاموا على منهجه فى إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسل ، ونصرهم ، ودفع أعدائهم ، والتصدق بالمال ، لأن ذلك هو المنهج الصحيح ، وما يخالفه فهو خطأ ، وضلال .

---

(١) سورة البقرة آية (٤١) .

(٢) تفسير القرطبى ج١ ص ٣٣٣ .

(٣) سورة المائدة آية (١٢) .

(٤) تفسير القرطبى ج٦ ص ١١٣ وفيه ذكر أسماء الأسباط والنقباء .

ويقـــول تـــعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (١)، وهؤلاء المستضعفون هم بنو إسرائيل ، الذين استذلهم فرعون وقد جعل الله لهم أرض مصر والشام ، ، فمشارق الأرض يراد بها أرض الشام ، ومغاربها يراد بها أرض مصر (٢) ، وقد أورثهم الله هذه الأرض لاستقامتهم على دينه واتباعهم لموسى " عليه السلام " ... ولذلك فالإرث لأهل ذلك الزمان فقط ، لأن من جاء بعدهم لم يستمروا على الدين الإلهى الصحيح .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٣) ، وهذه الآية تحدد نوعية الإرث المذكور فى الآية السابقة ، ويراد به السكنى ، والإقامة ، ولكنهم كفروا بمحمد "ﷺ" وناصبوه العداء ، فلزم حرمانهم من عطاء الله تعالى ، إلى أن يأتيهم العذاب يوم القيامة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤) ، وفى الآيات بيان لاختيار الله لبنى إسرائيل ، وتفضيلهم على عالمى زمانهم ، بكثرة الإيتاء، وتنوع المعجزات ، وتعدد النعم ، وتلون الإبتلاء والاختبار .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٣٧) .
(٢) تفسير القرطبى ج٧ ص ٢٧٢ .
(٣) سورة يونس آية (٩٣) .
(٤) سورة الدخان الآيات (٣٢ ــ ٣٣) .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾(١) ، والآية شاهد آخر على تفضل الله على بنى إسرائيل ، فلقد آتاهم الله التوراة ، وجعل منهم الأنبياء ، والسلطان ، والحكم فى الناس ، والفهم للكتاب المنزل ، والشريعة الموحى بها ، ورزقهم من كل أنواع الحلال ، قوتاً ، وطعاماً ، وثمراً ، ... وفضلهم سبحانه وتعالى على عالمى زمانهم ...

هذا حديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل ، المنتسبين إلى رسول الله يعقوب "عليه السلام" ، وفيه تقدير لنبى الله (إسرائيل) الذى انتسبوا إليه .

أما حديث القرآن عن اليهود فيختلف إختلافاً بيناً ، ونلمح ذلك حين نعرف أن القرآن الكريم عرفنا بإنقسام الإسرائيليين إلى فريقين ، يقول الله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) ، وقد وصل الإفتراق بينهم إلى التعارض ، والتضاد ، فأيد الله المؤمنين على من عارضهم بالبرهان ، والحجة ، واليقين ..

وقد أشار الله إلى الكافرين من بنى إسرائيل فى قوله تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٣) ....

---

(١) سورة الجاثية آية (١٦) .　　(٢) سورة الصف آية (١٤) .

(٣) سورة المائدة الآيات (٧٨ ــ ٨٠) والآيات تجيز لعن من ضل وكفر ، وإن تسمى باسم الرسول .

والآيات تبين أن بعض بنى إسرائيل قد كفروا برسالة موسى "عليه السلام" ، وأنهم استحقوا اللعنة ، والطرد من رحمة الله تعالى ، ونزل لعنهم فى الزبور ، والإنجيل ، بسبب عصيانهم ، وتركهم النهى عن المنكر، وتعاونهم على المعاصى .

ودلالة عصيانهم ، وضلالهم إتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين ، وهم ليسوا بمؤمنين بنبى من الأنبياء بدءاً من إسرائيل إلى محمد "ﷺ" فى الحقيقة .

هؤلاء الذين كفروا من بنى إسرائيل هم اليهود ، كما نتبين من حديث القرآن الكريم عنهم ..

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١) ، واليهود بقولهم هذا ، يتخيلون الجنة لهم خاصة ، وهى أمنية لا برهان عليها ، من قول أو عمل فهم كاذبون .

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢) ، واليهود بهذه المقالة ، يتصورون أنهم وحدهم على الحق ، ويرون غيرهم على ضلال ، ومع أنهم يقرأون كتاب الله المترل ، وفيه بطلان مقالتهم ، إلا أنهم يقولون بذلك كراهية لغيرهم من البشر ، كما قال غيرهم ، ممن سبقوهم ، وسوف يعاقبهم الله تعالى أشد العقاب .

ويقول تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ

---

(١) سورة البقرة آية(١١١) وقد أجاز القرآن أن يكون هوداً بمعنى يهودياً .

(٢) سورة البقرة آية (١١٣) .

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) ، والآية تبين الإنحراف الخلقى عند اليهود ، فهم يحرفون التوارة ، ويؤولوها بغير ما تتأول به ، ويعبثون بالوحى ، فيقولون سمعنا وعصينا ، ويدعون لعدم الطاعة وعدم السمع ، وصرف الناس عن الحق ، ويقولون للنبى "ﷺ" : أسمع ولن تسمع ، ولن يستجاب لك ، وبدل أن يقولوا راعنا المكونة من فعل الأمر ، ونا المفعولية ، يقولون راعنا بالتنوين ، بمعنى سفيهاً ، وكانوا يطعنون فى الدين ، ولو أنهم استقاموا وأطاعوا لكان خيراً لهم ... لكنهم كفروا فلعنهم الله تعالى .

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) ، والآية نزلت فى اليهود حين خوفهم رسول الله "ﷺ" من العذاب ، وقال لهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة ، وعقبة بن وهب : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فو الله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ، ووهب بن يهوذا : ما قلنا هذا لكم ، ولا أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ونحن أبناء الله ، وإحباؤه ، فوجه الله لهم سؤالاً ، وهو **فلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟** ، لأنهم يقرون بهذا العذاب للعصاة منهم .... فإن أجابوا بأنهم لن يعذبوا ، فقد تناقضوا ، وإن أقروا بالعذاب ، فقد كذبوا أنفسهم ، والحق أنهم بشر ، كسائر الناس ، وأمرهم إلى الله تعالى (٣) .

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا

---

(١) سورة النساء آية (٤٦) .   (٢) سورة المائدة آية (١٨) .

(٣) تفسير القرطبى ج٦ ص ١٢٠ .

وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(١) وكذبوا ، وضلوا بمقالتهم هذه التى قالوها حينما قل مالهم بسبب عصيانهم ، وقد قال بعضهم هذه المقالة ، فلما لم ينكرها الآخرون صاروا كأنهم جميعاً قالوها .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) ، والآية تبين لوناً من ألوان كفر اليهود ، حيث يجعلون لله إبناً هو عزير (٣) ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ، لكنه الضلال ، والكفر ... يقول القرطبى : وأرادوا بالبنوة بنوة النسل ، وهذا أشنع الكفر (٤) .

ويقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (٥) ، وفى الآية رد على اليهود حينما تصوروا أفضليتهم ، وقالوا : نحن أبناء الله ، وأحباؤه ، رغم معاصيهم ، وقال لهم الله : إن كنتم صادقين فى مقالتكم فتمنوا الموت ، لتعودوا لأبيكم ، وحبكم ، لكنهم لن يتمنوا ذلك أبداً ، لعلمهم بمعاصيهم ، وظلمهم ، وكذبهم .

---

(١) سورة المائدة آية (٦٤) . (٢) سورة التوبة آية (٣٠) .

(٣) روى فى سبب هذه المقالة أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى "عليه السلام" فرفع الله عنهم التوارة ، ومحاها من قلوبهم فراح عزير يسيح فى الأرض ، فأتاه جبريل فقال له : أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم ، فعلمه التوراة كلـــــها ـــ كرامة له ـــ فجاء إلى بنى إسرائيل ، فعلمهم التوارة ، فقالوا : إن هذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو ابن الله (تفسير الطبرى ج ١٤ ص ٢٠٢)

(٤) تفسير القرطبى ج ٨ ص ١١٧ . (٥) سورة الجمعة آية (٦) .

وهذا الإختلاف فى تصوير القرآن الكريم لليهود ، ولبنى إسرائيل يجب أن يكون معلوماً فى إطار دراسة دعوة موسى "عليه السلام" .

يقول الأستاذ / إبكار السقاف ، لابد من معرفة من هم العبرانيون ، والإسرائيليون ، واليهود ، وذلك بمراجعة أحداث التاريخ القديم .

ويرى أن العبرانيين : يرجعون إلى عشيرة عرفت باسم " عبرو " أو " عبريوا " أو " عبران " نسبة إلى جدها الأعلى " عابر " ... ووجدت العشيرة فى بلاد بابل ، فى مدينة " أور " الواقعة بين دجلة ، والفرات ، وقد هاجر أفراد من العشيرة إلى "حران" ، واستقرت فى أرض كنعان ، وتكاثرت هذه العشيرة ، وعرفت بالعبرانيين ، وإليها ينتسب خليل الله إبراهيم "عليه السلام" ، وبعد إبراهيم إنقسمت العشيرة إلى عشائر عديدة ، ذابت جميعها فى الشعوب التى عاشوا معها ...

أما بنو إسرائيل : فهم وحدهم أبناء يعقوب بن إسحاق ، الذى عرف بإسرائيل ، وأبناء يعقوب هم الأسباط ، وعددهم إثنا عشر رجلاً ..

راءوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزوبولون ، من أمهم (ليئة) ..

و "دانى ، ونفتال " ، من أمهم (بلهة) ..

و " حاد " و " أشير " من أمهم (زلفة) ..

و " يوسف " و " بنيامين " من أمهم (راحيل) ..

هؤلاء هم أبناء إسرائيل ، ومن نسل هؤلاء الأبناء تكونت بيوت إسرائيل ، وقد أضاف كل ابن اسم أبيه إلى بيته ، فعرفت ذريتهم ببنى إسرائيل . ..

فالإسرائيليون هم أبناء يعقوب خاصة ..

أما أبناء عابر ، جد إبراهيم "عليه السلام" ، وأبناء إبراهيم "عليه السلام" من غير سارة فليسوا إسرائيليين .

فإسماعيل ابن (هاجر) ليس إسرائيلياً ..

وزمران ، ويفشان ، ومدان ، يشتاق ، وشـــوح أبـــناء إبراهيـــــم "عليه السلام" من (قصورة) فليسوا بإسرائيليين أيضاً .

وكل من تفرع من نسل هؤلاء فليس إسرائيلياً ...

وقد تسرب عامل الفناء فى الإسرائيليين عقب وفاة ســليمان "عليه السلام" ، وأدى احتلال الأشوريين لمملكتهم إلى القضاء النهائى على الشعب الإسرائيلى عام ٧٠١ قبل الميلاد .

وأما اليهود : فهم ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول : ينسب إلى " يهوذا " رابع أبناء يعقوب "عليه السلام" ، وظهـــرت نسبة أبنائه إليه ، بعد أن أصبح اسمه علماً على الإقليم الذى أخـــتص بـــه ، بعـــد أن قسمت الأرض على بيوت إسرائيل ، وقد اندثر هذا القسم بالغزو البـــابلى ، الـــذى أحرق " أورشليم " وهدم الهيكل ، وقتل وشرد من لقيه من اليهود فى هذه المنطقة ، وأسر منهم خمسين ألفاً ، ونفاهم إلى أرض بابل عند نهر الفرات ، واســتمروا هنـــاك وذابوا مع الزمن فى شعبها .

والقسم الثانى : وهو الموجود فى الزمن الحاضر ، ويتمثل فى اليهود الحاملين لجنسيات مختلفة ، فى مناطق مختلفة ، الذين توارثوا الدين اليهودى عن أسلافهم ، الذين سكنوا شرق أوربا ، وكانت لغتهم تعرف بـــ (الليدية) .

وهؤلاء لايرتبطون بالعبرانيين ، ولا بالإسرائيليين ، ولا بأبناء يهوذا ، بصـــلة نسب ، وقربى ، ... إنهم ينحدرون من قبائل الخزر المنغولية ، التى تمكنت من تأسيس مملكة وثنية فى منطقة واسعة ، تقع فى شرق أوربا ، يحدها من الشرق جبال الأورال ، ومن الغرب وسط أوربا ، ومن الشمال موطنهم الأصلى ، ومن الجنوب البحر الأسود وقد أعتنقت هذه المملكة اليهودية .

إن هذه المملكة عرفت فى التاريخ واشتهرت بالقسوة ، والميل لسفك الدم ..

ولما انحلت مملكة الخرز هذه ، توزع أبناؤها فى البلاد المجاورة، فانتشـــروا فى أوربا شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً ، ومع حركة الإستعمار الأوربى للعالم إنتشـــر أفراد من اليهود فى بلاد العالم المختلفة ، وصار لهم وجود ، وأثر (١) .

هذا ... ويؤكد العلم الحديث أن اليهود المعاصرين لا صلة لهم بأبناء يعقوب "عليه السلام" .

يقول الأستاذ / أوجين بتلر (٢) : (إن جميع اليهود بعيدون عن الإنتماء إلى الجنس اليهودى) .

ويقول الدكتور / محمد عوض (٣) : (إن شعباً يهودياً ، كبير العدد ، قد تم تكوينه قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة فى الحوض الشمالى ، لنهر الراين ، ثم تفرعت منه مجموعات أخرى فى بولندا ، وفى روسيا الغربية ، وقد ازدادت هذه المجموعات فى العدد ، حتى أربى عددها على تسعة أعشار اليهود فى العالم) .

ويقول الأستاذ رايلى (٤) : (إن تسعة أعشار اليهود فى العالم يختلفون عـــن سلالة أجدادهم اختلافاً واسعاً ، ليس له نظير ، وأن الزعم بأن اليهود جـــنس نقـــى حديث خرافة) .

ويقول الأستاذ / تبار (٥) : (إن اليهود عبارة عن طائفة ، دينية ، اجتماعية أنضم إليهم فى جميع العصور أشخاص ، من شتى الأجناس ، وهؤلاء المتهودون جاءوا

---

(١) انظر إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ص ٤٣ ـــ ٥٠ .

(٢) الأستاذ / أوجين بتلر ـــ أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة جنيف .

(٣) الدكتور / محمد عوض ـــ عالم جغرافى معاصر ـــ تولى عمادة كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة وله مؤلف تحت عنوان " المسألة الصهيونية فى نظر العلم " .

(٤) الأستاذ / رايلى ـــ من علماء الأجناس فى القرن التاسع عشر ، وله مؤلف عن " أجناس أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر " وأهمية كتابه أنه ألفه قبل حدوث المشكلة الصهيونية .

(٥) الأستاذ تبار زميل للأستاذ رايلى فى مؤلفه السابق .

من جميع الآفاق ، فمنهم الفلاشا سكان الحبشة ، ومنهم الألمان ذوو السحنة الألمانية ، ومنهم التاميل ، وهم اليهود السود من الهند ، ومنهم الخزر وهم الذين سكنوا شرق أوربا ، وأسسوا مملكة بها ، وعند إنحلالها توزعوا فى أوربا ، وهم اليهود الأوربيون .

ويقول الدكتور / محمد عوض : (إن يهود أوربا من أصل أوربى ، ويهود اليمن من أصل يمنى ، ، ويهود الحبشة من أصل حبشى ، ومن الإفتراء على الحقيقة أن يقال : إن اليهود شعب لا وطن له ، إنهم أعضاء فى شعوب كثيرة ، ولهم أوطان عديدة) (١) .

إن تسمية اليهود ببنى إسرائيل تسمية مجازية ، واليهود المعاصرون لا يرتبطون بأبناء يعقوب بقربى ، أو نسب ، وياليتهم آمنوا بدين يعقوب إيماناً حقيقياً ، وانتسبوا له انتساباً مقبولاً .

إنهم حرفوا كلام الله ، وبدلوه ، وصنعوا من عقولهم ديناً مشوهاً ، مليئاً بالعنصرية ،والمادية ، والاستعلاء ، ومحاربة الخير لسائر الناس من غير اليهود ، .. واليهود اليوم هم الذين جاءوا من منغوليا ، يعيشون بالمناهج التى وضعوها لأنفسهم ، ودونوها فى التلمود ، والبروتوكلات ، وتفسيرات الكهنة ، والأحبار ، لكتاهم المقدس

واليهود المعاصرون رغم كفرهم برسالات الله ، يتسترون باسم نبى الله يعقوب (إسرائيل) ليظهروا بمظهر المؤمنين ، المتبعين لدين الله ، ووصل بهم حد الاستخفاف بالعقول أن سموا دولتهم ، وكثيراً من معالم حياقم باسم (إسرائيل) تمادياً منهم فى الخداع ، والتضليل .

ولن يستمر خداعهم ، لأن عمر الزيف لا يدوم ...

هل كان يعقوب "عليه السلام" يرضى بالاستيلاء على حقوق الآخرين ؟ وهل فعلها

---

(١) ما جاء عن العلم الحديث ورد ملخصاً فى مقالة للدكتور / نعمات أحمد بجريدة الأهرام ص ١٣ فى ٢٠٠٢/٥/١٥م .

مع الكنعانيين ؟ أو مع المصريين حين عاش بينهم ؟ وهل قام يعقوب "عليه السلام" بالاستيلاء على الأوطان ؟ وقتل الأبرياء ؟ وباشر الاستعلاء ، والطغيان ؟

إن كل الجرائم التى يرتكبها اليهود فى العالم المعاصر يبرأ منها يعقوب "عليه السلام" وكل رسل الله ، رغم ما يدعيه اليهود ، ويزعمونه .

إن الحركة الصهيونية من نتاج العقلية اليهودية ، الظالمة ، والاعتداء على الآمنين ، وقتل النساء ، والأطفال ، صناعة يهودية محضة !!

إن محاولات إفساد الشباب ، وفق خطة منظمة هو عمل يهودى خالص !!

ونجاح اليهود المعاصر تم فى غفلة المسلمين ، ولو تنبه المسلمون فى وقت مبكر لما تمكن اليهود أبداً ..

أما وقد حدث ما حدث ، فواجب على الأمة الإسلامية أن تعود لربها ، وتلتزم بدينها ، وتتيقن من جزئية نزول الوحى إليها ، وحينئذ فقط ، وليس قبل ذلك تملك أمرها ، وتعود لحيويتها ، وتقوم بوظيفتها التى حددها الله لها ، يوم ان أخرجها للوجود ، خيراً للناس أجمعين .

لا يليق بأمة جاءت لتقود العالم بالخير ، ونحو الخير ، أن تصير ذيلاً للعالم المادى المليئ بالشهوات ، البعيد عن الله رب العالمين .

" النقطة الخامسة "

ركائزة الدعوة فى قصة موسى "عليه السلام"

موسى "عليه السلام" من أولى العزم من الرسل ، أوذى فصبر ، ودعا إلى الله ، فقوبل بالجحود ، والنكران ، أثنى عليه الله تعالى بما هو أهله ، فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ (١) ، وقال تعالى :

---

(١) سورة مريم آية (٥١) .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١) ، وقـــال تعـــالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٢)، وقــال تعـــــالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) .

وقد خصه الله بالتكلم ، وأنزل عليه المعجزات الكثيرة ، وأرسل معــه أخــاه هارون ، ليعينه ، ويشاروه ، ويخلفه .

وقد دعا موسى "عليه السلام" طوائف عديدة ، وواجه الملوك ، والأمراء ،والعلماء والسحرة والمستضعفين المستعبدين .

حيث كانت دعوته للمصريين وللإسرائيليين ...

وتعد رسالة موسى "عليه السلام" ، وحركته بالدعوة معلماً بارزاً للدعاة ، يأخذون منه الفوائد والعبر ، ولذ استنبط من قصته الركائز التالية :

الركيزة الأولى : التوحيد أساس الدعوة :

جاء الرسل جميعاً بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله تعالى ، توحيـــداً خالصـــاً ، يشتمل على الالتزام بما يقتضيه هذا التوحيد بصورة كاملة .

إن التوحيد بشموله ، وكماله يقتضى من المؤمن ، أن يتعامل مع الله بما يليق به فلا بد من اليقين بأنه سبحانه وتعالى له الحكم ، والأمر كله بيده ، وقدرته شاملة لكل مـــا كان ، وما هـــو كائن ، وما سيكون إلى يوم القيامة ، ومن هذا اليقين يتوجه المؤمن

---

(١) سورة طه آية (٣٩) . (٢) سورة الأعراف آية (١٤٤) .

(٣) سورة طه آية (١٣) .

إلى الله بعمله ، وقوله ، وسلوكه ، ويحول حياته كلها إلى عبادة خالصة لرب العـــالمين ... إن العبد الرقيق المملوك لرجل يعيش حياته لسيده ، فنشاطه ، ومالـــه ، وولـــده لسيده ، ومن إخلاصه لسيده يعيش مطيعاً له ظاهراً ، وباطناً ، ويستمر فى الامتثال ، راضياً ، سعيداً .

والإنسان عبد لله فى الحقيقة ، فإذا ما تيقن حقيقته ، وقدر الله حق قدره ، عاش لله بصورة كلية ، يقول الله تعالى وهو يعلم محمـــداً هـــذه العبودية : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١) .

إن العبودية الصادقة تتضمن بعض الأساسيات الهامة المستفادة من الآيات :

(أ) الاعتراف الصادق بأن الدين هو الصراط المستقيم ، الذى أنزله الله على عباده ، بواسطة الرسول المكلف من قبل الله تعالى .

(ب) الإقرار بأن كل ما يقع فى ملك الله تعالى هـــى بعلمـــه ، وبإرادتـــه ، وقدرته ، وأن الهداية إلى الحق ، والخير ، قدر من الله تعالى ، يحققه لمن يشاء من عباده وفق عدل الله ، ورحمته .

(ج) إن الدين الصحيح ، المستقيم ، هو دين إبراهيم "عليه السلام" الذى دعـــا إلى التوحيد ، والملة المستقيمة ، مع البراءة المطلقة من كل ألوان الشرك ، سواء كان شركاً قولياً ، أو عملياً ، أو ظاهراً ، أو باطناً .

(د) إن كل نشاط يقوم به العبد المؤمن يجب أن يكون عبادة لله الواحـــــــد

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٦١ ــ ١٦٣) .

وذلك بنية التوجه لله ، وإرادة الطاعة ، والاستقامة على منهج الله تعالى ، فالعبادات المشروعة المحددة ، وغير المحددة ، وأعمال الحياة ، ووصايا ما بعد الموت تكون لله بالقصد ، والنية ، ومن المعلوم أن الأعمال العادية تتحول بالنية إلى عبادة ، وعلى المسلم أن يوحد ربه ، ليكون مسلماً صادقاً .

إن التوحيد بشموله هومنهج حياة ، متكامل ، وهو كفيل بصناعة الإنسان ، والجماعة، صناعة ربانية ، خالصة .

ولهذا كان إبليس وذريته ، يلعب بالناس ، ويبعدهم عن التوحيد ، بصورة كلية ، أو جزئية ، بلا يأس ، أو قنوط .

ولهذا أيضاً بعث الرسل " عليهم السلام " لكل الأمم ، لإنقاذهم من كل مظاهر الشرك ، والفساد .

وقد استمر الموكب الكريم من رسل الله ، فى دعوقم الناس إلى الدينونة المطلقة لله رب العالمين .

ومع الرسل كان موسى "عليه السلام" ، الذى واجه ، إدعاء فرعون الألوهية ، وإستعلاء هامان ، وقارون ، بالقوة ، والمال ، وخضوعهم لفرعون ، وقوته ، كما واجه طاعة العامة لفرعون فى ضلاله ، وكفره ، وأيضاً واجه الإسرائيليين ، بمكرهم ، وخداعهم ، وضعفهم ، وماديتهم ... وكان "عليه السلام" واضحاً فى دعوته إلى التوحيد الخالص ، بحقيقته ، وشموله ، وبين لهم أن هذا التوحيد يتضمن أركان العقيدة ، وجوانب الشريعة وكافة القيم الأخلاقية النبيلة ..

وعلى هذا يتأكد لنا أن الدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى الجهد المبذول ، وتحتاج إلى إستمرارية الدعوة إلى يوم القيامة .

الركيزة الثانية : ضرورة الاستعداد للدعوة : الدعوة تغيير شامل للحياة ، وصناعة ربانية للأفراد ، والجماعات ، إنها لاتترك شخصاً لهواه ، ولاتدع جماعة تفسد فى

الأرض ، وتعمل على هزيمة إبليس وبنيه ، وتزيل وساوسهم ، وغواياهم من القلوب ، والعقول .

إن الدعوة تجعل الحاكم مسئولاً عن رعيته ، وتحدد عمله فى حماية الـدين ، وصيانة الدنيا ... ولا مجال فى الدين الحق لتألية حاكم ، أو لتركه يطغى ، أو يتجبر ، أو يفسد ، أو يستذل الناس ، ويهينهم ، لإنها تحدد له المنهج ، وترسم لـه الطريـق ، وتقيده بالوحى الإلهى الذى أنزله الله على رسله " عليهم السلام " .

والدعوة تحدد للناس حقوقهم ، وواجباهم ، مع إختلافهم فى الثقافة ، أو فى المال ، أو فى العمل ، أو فى الجنس ، أو فى اللون ، أو فى الدين ... وهكذا .

وهذه الغايات الكبرى التى يعمل لها الدين تجعل المهمة شاقة ، والنجاح أمـراً صعباً ، ولذلك وجب الاستعداد للدعوة ، وقد رأينا موسى "عليه السلام" يطلـب مـن الله أموراً تساعده فى تبليغ الدعوة .

وأهم ما يحتاجه القائمون بالدعوة مايلى : ــ

١ ــ **قوة العقيدة** : يحتاج مبلغو الدعوة من الرسل والدعاة إلى عقيدة قوية لأهم يعملون على تقويتها فى حياة الناس ، ولايمكن للدعاة أن يصلوا إلى ذلك إلا إذا إتصفوا هم بها أولاً ، لأن فاقد الشئ لا يعطيه ، ومن المعلوم أن الدعوة العملية أبلـغ تأثيراً من الدعوة النظرية ، وما خرج من القلب الصادق يصل إلى قلوب الأخرين .

٢ ــ **إمتلاك صفات القيادة** : تحتاج القيادة إلى صفات يتمتع بها القائـد الحسن ، والأنبياء ، والدعاة قواد فى مجتمعهم ، ورواد يأخذون بيـد النـاس إلى مـا يعملون له ، وأهم صفات القيادة تتمثل فى الشجاعة ، ليتمكن القائد من توجيه الدعوة الدينية إلى الناس ، بلا خوف ، أو فزع ،ويتمتع برباطة الجأش ، وقوة العزيمة ، وبهـذا يتمكن من التعامل مع الواقع بهدوء ، وروية ، وقد تسـلح موسـى "عليه السلام" بخلـق الشجاعة ، والجرأة فى مواجهة فرعون بسلطانه ، وهيبته .

ومن صفات القيادة مشاركة الناس فى قضاياهم ، وتحمل إزالة الأضرار ، والآلام عنهم وقد رأينا موسى " عليه السلام " يشارك الإسرائيليين ، ويطلب من فرعون أن يحررهم ، ويتركهم يذهبون معه "عليه السلام" إلى بلاد الشام .

ومن صفات القيادة الكرم المادى ، والمعنوى ، لأن ذلك يقرب القلوب ، ويجمع العقول ، والعواطف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾(١) .

ومن صفات القيادة الصبر ، والتحمل ، وهذا يمكن الداعية من استيعاب مواقف معارضيه ، ويجعله قادراً على توجيه الحوار نحو قضيته ، والانتقال من مسألة إلى أخرى ، ومن دليل إلى غيره بلباقة ، وحكمة .

الركيزة الثالثة : خصائص البلاغ المبين :

إستعد موسى "عليه السلام" للبلاغ ، وأحل الله له عقدة من لسانه ، وأرسل معه أخاه ، وذلك حتى تصل دعوته إلى الناس بينة ، واضحة ، مفهومة ، كما قال "عليه السلام" وهو يطلب من ربه المعونة قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى ﴾ ، ذلك أن غاية الرسالة البلاغ ، والبلاغ يعنى الوصول إلى المراد ، وبذل ما يكفى لتحقق المطلوب فى صورة عادية ، يقال بلغ الغلام إذا وصل إلى زمن التكليف ، والمسئولية ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (٢) .

ويتضمن البلاغ كذلك بذل أقصى الجهد ، والبلاغة والفصاحة ، والحسن ، والبيان (٣) .

---

(١) سورة فصلت آية (٣٤) . (٢) سورة الأحقاف آية (١٥) .

(٣) لسان العرب ، مادة " بلغ " ج١٠ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

وهذه الدلالات اللغوية لكلمة البلاغ تشير إلى أهم خصائصه فى مجال الدعوة إلى الله تعالى : ــ

ــ جلاء القضية التى يدعو إليها الرسول ، أو الداعية فى ذهن المستمع ، ليعرف حقيقتها ، وغايتها ، وأهميتها عن أشباهها ، وأمثالها ، كالدعوة إلى التوحيد حيث ندرك من عرض الرسول لها هذا التميز ، لقد كان فرعون يرى أنه الإله الواحد ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (١) ، لكن دعوة موسى وضحت وحدانية الله ، المتصف بكل كمال يليق بالإله المعبود .

ــ تحريك عمليات الإدراك العقلى حول القضية موضوع الدعوة ، أنظر إلى موسى "عليه السلام" ، وهو يخاطب عبدة الأصنام ، لقد أوصلهم بأسئلته إلى أن يقروا له بالصدق ، قال تعالى :﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢)

وها هو "عليه السلام" يخاطب فرعون حتى أصابه بالبهتان ، والعجز ... وسبب ذلك أن موسى "عليه السلام" حرك بدعوته عوامل التعقل ، والتفكير ، فعجزوا عن الرد حتى كادوا أن يؤمنوا بموسى ، ودعوته .

ــ بذل أقصى الطاقة ، وكل الممكن فى عملية البلاغ ، فليست الدعوة شعاراً يرفع ، أو عملاً للمباهاة ، والراحة ، وإنما هى تكليف يحتاج إلى السعى المتواصل ، والعمل الدءوب ، والانتقال بالمستمعين من دليل إلى دليل ، ومن حجة إلى حجة ، عسى أن يصل أحدها إلى شغاف القلب ، فينفتح ، ويدخل فى دين الله تعالى .

ــ الاستفادة بفنون البلاغة المتعددة فى عرض موضوع الدعوة بتصوير المعنى ، وعرضه فى أساليب مختلفة ، وتحسينها بالجمال ، والابداع ، لتتمكن المعانى من نفسية المستمع ، وتجذبه عاطفياً ، وفى البلاغة سحر يشد العقول إليه ، وتألفه العاطفة ، والوجدان .

---

(١) سورة القصص آية (٣٨) .   (٢) سورة الأنبياء آية (٦٤) .

أنظرإلى الجمال فى الوجود ، تلقاه يأخذ بالألباب ، ويصل سحره إلى الذوق والوجدان ، فيحرك عند الأديب قصائد الشعر ، ومقالات الأدب، فى إبداع عجيب ، يزين المعنى ويكسوه بلباس الحسن والبهاء .

ولقد كان العرب بسليقهم الصافية ، يعجبون بجمال القرآن الكريم ، فيـــأتون لسماعه ، وإن لم يؤمنوا به .

وليس من البلاغ إبراز الحق فى صورة ميتة ، خالية من الحركة والجمال ، لأن هذا ليس بلاغاً فى الحقيقة ، وضرره أكثر من نفعه .

وليس من البلاغ أن تنطق بالحق ألسنة تعيش بالباطل ، وتعمل به ، وتلهو وتلعب ، ويكفى فى هذه الحالة أن يقول الناس ، لو كان الداعى صادقاً لأفاد نفسه قبل أن يفيدنا .

وليس من البلاغ قول لايبرز المعنى ، وخير لهذا القول أن يسكت وينتهى .

الركيزة الرابعة : أساسيات النجاح فى الدعوة :

المؤمنون المخلصون يأملون فى نجاح الدعوة إلى الله تعالى ، والرسل " عليهم السلام " فى مقدمة المؤملين ، ولذا رأينا موسى "عليه السلام" ، يسأل الله تعالى أن يمده بعوامل النجاح ، التى تعينه فى الدعوة .

ومن أساسيات النجاح ، أن يعرف القائم بالدعوة كل شئ عن المدعوين ، من ناحية ، تدينهم ، وثقافتهم ، ودورهم فى المجتمع ... ليتمكن بهذه المعرفة من تخير الوسيلة المناسبة ، والأسلوب النافع .

ومن أساسيات النجاح تعاون المخلصين من المؤمنين فى العمل لدعوة الله ، فيشد بعضهم أزر بعض ، ويشاركه فى الأمر ، ويدافع عنه ، ويكون له ردءاً يقويه .. ولامجال للتنافس بين الدعاة ، لأنهم أصحاب قضية واحدة ، ولا بد لهم من التعاون فى إبرازها ، وتدعيمها .

ومن أساسيات النجاح ، الإعداد المسبق للحركة بالدعوة ، ليتمكن القائم بأمر الدعوة من إعداد العدة لكل موقف ، وحتى لايفاجأ خلال الدعوة بما لم يتوقعه ، وليملك زمام الأمر بيده ، ويحركه بعمله ، وقوله ... والعالم المعاصر ، عالم تنظيم ، وتخطيط ، ومتابعة .

ومن أساسيات النجاح مشاركة الأخرين ، وبخاصة المخلصين ، لأنهم قد يدركون مالا يعرفه ، وبذلك يستفيد بفكر غيره ، ويأخذ دروساً من الأخرين ، وهذا موسى "عليه السلام" ذهب إلى الخضر ، وتعلم منه الكثير .

ومن أساسيات النجاح البعد عن الخطأ بقدر الإمكان ، ومقاطعة المخطئين إن علم بهم ، لأن الظهور مع أهل الباطل يقويهم، ويوحى للناس أن الداعى واحد منهم ، وحينئذ يكون الضرر .

الركيزة الخامسة : شخصية المرأة فى الدعوة :

لم تغب المرأة عن قصص الأنبياء ، إلا أن ظهورها كان سلبياً غالباً ، فمع نوح ولوط " عليهما السلام " كفرن بدعوتهما ، ومع يوسف كانت إمرأة العزيز والنسوة .

إلا أن شخصية المرأة فى قصة موسى "عليه السلام" أخذت منحى إيجابياً ، خلد ذكرهن بسببه فى القرآن الكريم .

فها هى أم موسى "عليه السلام" يوحى الله إليها ، ويلهمها كيفية المحافظة على وليدها ، وإرضاعه ، وعدم قتله ، وإلقائه فى النهر حين تخاف عليه .

ونلمح روح المؤمنة الحانية فى أم موسى "عليه السلام" ، فلقد امتلأ قلبها حباً لوليدها ومخافة عليه ، وشفقة لفراقه ، وكادت من شدة خوفها أن تحكى لجنود فرعون ما حدث منها ، إلا أن الله ربط على قلبها لتبقى مؤمنة ، قانتة .

وها هى أخت موسى "عليه السلام" تتعاون مع أمها فى حفظ موسى ، وتتابع مسيرة التابوت ، وتدل زوجة العزيز على إمرأة ترضعه بحنان ، وإخلاص ، وتستمر فى المتابعة حتى يعود موسى "عليه السلام" إلى أمه .

وها هن بنات شعيب يقمن بسقى الغنم ، ورعيها ، فى أدب ، ووقار .

وأخيراً تظهر إمرأة فرعون مؤمنة ،صادقة ، تعلن إيمانها بالله تعالى ، وتتبرأ من فرعون ، وملإه ، وأمواله ، وجاهه ، وتعيش لله رب العالمين .

إن بروز المرأة بهذه الصورة الطيبة ، يعرف بدور المرأة فى المجتمع ، ويؤكد أنها مسئولة ، ومكلفة ،وقادرة على خدمة الدعوة إلى الله تعالى ، وقد يتوارى الرجل أمام جهودها ، وعملها .

والدين يكرم المرأة كما يكرم الرجل، فبعضهم من بعض ، وكلاهما له دوره ووظيفته فى الحياة .

وعلى الدعاة أن يدركوا أهمية دور المرأة فى المجتمع ، ويخصوها بالدعوة ، فلها تأثيرها على أولادها ، وفى بيتها ، وبيئتها ، وفى أحيان كثيرة يتأثر البيت كله بـإمرأة واحده فيه ، بسبب إخلاصها ، وصدقها .

الركيزة السادسة : بين الدنيا والآخرة :

يحتاج المؤمن عموماً ، والدعاة خاصة إلى معرفة الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى معرفة يقينية ، ليتصرفوا وهم فى الحياة الدنيا على ضوء هذا اليقين ، بما يفيدهم ، ويحقق مصالحهم فى الدنيا ، والآخرة .

لقد نصح العقلاء قارون ، بأن يستخدم النعم التى أنعم الله بها عليه ، وأن يقصد بها تحقيق الخير فى الآخرة ، ولا ينس حظه فى الدنيا ، قال له قومه : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) سورة القصص آية (٧٧) .

ومجمل هذه النصيحة أن يبذل عطاء الله فى طاعة الله ، وبذلك يتمتع بالحياة الدنيا ، وفى نفس الوقت يكون عمله كله للآخرة ، وبهذا فسر ابن عباس ، والجمهور قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقالوا إن معناها لاتضيع عمرك فى الدنيا فى غير عمل صالح ، فنصيب الإنسان فى الدنيا هو عمره ، والتعمير الحقيقى يكون بالعمل الصالح ، والعمل الصالح هو قنطرة الخير فى الآخرة (١) .. ولذلك نصحوه بالإحسان فى الدنيا ، والمراد به التوجه الصادق بالعمل الصالح لله رب العالمين مع الصدق ، وخلوص القصد ، **لقوله "ﷺ" عندما سئل عن الإحسان ، قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** (٢) .

إن المؤمن الحقيقى يرى الآخرة كما يرى الدنيا ، ويعرف القيمة الحقيقية لكل منهما .

فالدنيا دار ممر تنتهى بالموت ، ومتاعها قليل ، وخيرها لا يدوم ، ومنغصاتها كثيرة ، وقد يختلط خيرها بشرها ، كمال يضيع فى المرض ، وسلطان يضعفه الخوف وجمال يغيره النشوز ، والنكد ، وجمع تهزمه الكوارث ، والنكبات ... وصدق الله العظيم وهو يصور متع الحياة الدنيا ، يقول تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣) .

أما الآخرة فهى دار مقر ، وخلود ، متاعها كثير ، وخيرها عميم ، خالية من الكدر ، والمنغصات ، وليس فيها ضرر البته ، ويكفى أن الإنسان يتمتع فيها بحرية مطلقة ، ما يريده يكون ، وما يأمله يتحقق ، أزواج حسان ، وصحب كرام

---

(١) تفسير القرطبى ج١٣ ص ٣١٤ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب الإيمان ـــ باب سؤال جبريل ج١ ص ١١٤ .

(٣) سورة الكهف آية (٤٥) .

وغلمان مخلدون ، وحياة متجددة ، ومقام جميل ، تحيطه الخضرة ، وتمر تحته الأنهار ...
إن المؤمن فى الآخرة يعيش سعادة أبدية ، تحيط النعم به من كل جانب ، يلمس فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، يقول الله تعالى مشيراً إلى نعيم الآخرة : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

هذا التصوير الصحيح للدنيا والآخرة ، لو صدق به إنسان ما ، تصديقاً يقينياً لاعتدل عمله ، وسلوكه ، وخلقه على منهج الله ، مالك الدنيا والآخرة .

والعاقل يتساءل : ولم لايؤمن الإنسان بهذه الحقائق ؟ والدنيا أمامه تجربة ماثلة ، يشاهد من خلالها الصورة التى ذكرها القرآن الكريم ؟

ويعد صدق القرآن الكريم فى تصوير الحياة الدنيا ، دليلاً على صدق تصويره للآخرة ، وبخاصة أن الموت حق ، والكل يموت حين مجئ أجله .

ومعجزات الرسول "ﷺ" شاهدة على صدقه فى كل ما أخبر عنه ، ومنها حقيقة الآخرة ، فهى الخير ، وهى السعادة ، وهى أمل المؤمنين ، يقــول الله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢) ، ويقــول سبــحانه : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (٣) .

هذه الحقائق لم يصدق بها قارون ، فاستغرقته الحياة الدنيا ، وأغتر بنفسه ، وماله ، وظل على كفره حتى أغرقه الله تعالى .

---

(١) سورة البقر ة آية (٢٥) . (٢) سورة العنكبوت آية (٦٤) .
(٣) سورة الضحى آية (٤) .

أما سحرة فرعون فقد اكتشفوا هذه الحقائق ، وقارنوا بين الدنيا والآخرة ، وفتح الله بصائرهم ، فلم يرتدعوا بتهديد فرعون ، بل رحبوا بالموت ، والقتل ، والصلب ، لأنه فى غايته الكبرى يضيع الحياة الدنيا ، إلا أهم سيفوزون بالحياة الأخرى

لقد فات أوان تهديد السحرة ، وربطت اللمسة الإيمانية مضغة القلب الضئيلة بالقدرة الإلهية اللا نهائية ، فإذا الإنسان قوة سامية ، تلتصق برب الوجود كله ، وتعلو فوق قوى الأرض كلها ، وإن تماوجت ، وتطاولت ، وادعت السلطان ، والنفوذ ... بهذه اللمسة الإيمانية واجه السحرة فرعون ، وقوته ، ودولته قائلين : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١) .

واكتشفت إمرأة فرعون هذه الحقائق ، ولامستها بقلبها ، وعقلها ، ولذلك آثرت بيتاً فى الآخرة ، وأعتبرت دنيا فرعون بقصوره ، وأملاكه ، وسلطانه ، سجناً ظالماً ، وطغياناً فاسداً ، ونادت الله قائلة : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢) .

وهذا المؤمن من آل فرعون يستثيره تآمر فرعون وملإه على رسول الله موسى "عليه السلام" ، فيظهر نفسه ، ويحدثهم حديث المطمئن ، العارف بالله ، المتيقن من حقيقة الآخرة ، وقيمتها إزاء الدنيا .

---

(١) سورة طه الآيات (٧٢ ـــ ٧٣) .

(٢) سورة التحريم آية (١١) .

ولذلك كان يخوفهم من زوال سلطان الدنيا ، وملكها إذا جاءهم بأس الله تعالى ، ويخوفهم من سوء المنقلب فى الآخرة فهو الخسران المبين ، وينصحهم بالحق ، وهو يقول لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ (١) ، ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠ ﴾ (٢) .

إن الإيمان اليقينى بالآخرة يصلح الحياة الدنيا ، ولايسمح للفساد ، أيا كان لونه ، أو مصدره أن يسود فيها ، لأنه سيصطدم حتماً بالمؤمنين ، ولن يعيش أبداً معهم .

إن مشهد السحرة، وإمرأة فرعون ، وهم يظهرون استعلاءهم على الكفر والضلال ، هو إعلان واضح لحرية العقل ، والضمير ، حين ينفك عن قيود الأرض ، وظلمات المادة .

إن هذه المشاهد تؤكد أن انتصار الحق والإيمان ، يكون بعد إنتصارهما فى عالم الفكرة ، والعقيدة ، وقبل السلوك بالضرورة ، كما تؤكد الصلة ، والترتيب بين هذين الإنتصارين ، فلابد من الانتصار فى عالم الضمير قبل الانتصار فى عالم الواقع ، ولا يعلو أصحاب الحق فى الحياة ، إلا بعد أن يعلو الحق فى قلوبهم على ما عداه ، من طمع وشهوة ، وحب للمادة ، وخلود إلى الأرض ، .... لابد أن يتجسد الحق والإيمان فى المشاعر ، والفكر ، قبل أن يتحرك فى الجوارح ، والسلوك .

ليس من الإيمان فى شئ أن يتحول الإيمان إلى كلمات يتشدق بها اللسان ، والقلب فارغ منها .

---

(١) سورة غافر آية (٢٩) . (٢) سورة غافر الآيات (٣٩ ــ ٤٠) . (٣٨٥)

وليس من الإيمان فى شئ أن يصير الإيمان شعراً ، لا صلة له بالضمير والشعور

وليس من الإيمان فى شئ أن يدعيه من يدعيه ، وأعماله ، وأقواله وأخلاقه متناقضة مع لوازم الإيمان .

إن الأمة الإسلامية مطالبة بأن تعيد النظر فى حقيقة إيماها ، لتكون صادقة ، مع نفسها ، ومع رها ، ومع الحياة التى تعيشها .

إن أعداء الإسلام يتعاملون مع المسلمين على أساس تسلحهم بالإيمان الصحيح ، ويعدون عدهم المادية على هذا الأساس ، وتكون المواجهة ، ويتحقق النصر لأهل الباطل ، لأهم واجهوا بأسلحتهم قوماً لا سلاح لهم ، بعدما فقدوه برضى ، واختيار منهم .... وعلى المسلمين أن يلوموا انفسهم ، ويصلحوا أمرهم إن أرادوا النصر ، والفوز .

الركيزة السابعة : تجنب الظلم والظالمين :

من حقائق الحياة أن الإقتراب من الفساد يفسد ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومن أعان ظالماً فهو مثله ، ومن والى ظالماً فهو معين له على الظلم ، ولذلك عد جنود فرعون من الظالمين ، لأهم ساعدوه ، وأطاعوه ، وكانوا معه ، ولولاهم لما استطاع أن يفعل شيئاً ما .

ولما رجع موسى "عليه السلام" إلى قومه ، ووجدهم يعبدون عجلاً ، عاتب أخاه هارون لبقائه فيهم ، وسأله : لم لم تتركهم ؟ ، وتتبعنى ؟ ، وتأتى إلى ؟ وسبب ذلك أن بقاءه وسط الظالمين عون لهم ، وشبهة يدعون ها أن الرسول معهم ، ويلبسون بذلك على الناس .

وتلك حقيقة ! لأن الظالم إذا شعر ببعد الناس عنه رجع ، أما إذا وجد الناس من حوله ، تمدحه ، وتنافقه ، فإنه يتمادى فى ضلاله ، لقدأدى النفاق بفرعون إلى أن ادعى الألوهية ، وعبده المنافقون ، وأشاعوا فى الناس ، وفى كل أرجاءمصر ألوهية فرعون ، لقاء غنم رخيص ، ومال زهيد ، وقرب من السلطان لايدوم .

هل كان فرعون يستطيع الوصول إلى عقول كل المصريين لإقناعهم بألوهيته ؟ أم هو النفاق ، والمنافقون ؟

ومن هنا شرع الله لرسله الابتعاد عن الظالمين ، وترك معاشرتهم، وذلك أضعف الإيمان .

وهذا درس يحتاج إلى فهم ، وخلق ، ليتم هجر الظلم ، والظالمين ، في أمن وسلام ، بعيداً عن الخطأ والعدوان ، لأن من يتجنب الظالم لايصح أن يكون ظالماً مثله

الركيزة الثامنة : أهمية العلم :

العلم في حد ذاته مفيد ، ويكفي أن يدعيه ما ليس فيه ، وقد علمنا من موقف موسى "عليه السلام" مع الخضر ، ضرورة التعلم ، وأهمية تحصيله ، وبذل الجهد والمشاق في الحصول عليه ، والتأدب في التعليم ، والإقرار بمنزلة المعلم ، وتقديره .

يقول الإمام ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري : (والمراد بالعلم في قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (١) ، العلم الشرعي ، الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف ، من أمر دينه في عباداته ومعاملاته ، والعلم بالله وصفاته ، وما يجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النقائص) (٢) .... ويلحق بهذا العلم جميع العلوم التي يحتاجها المسلمون ، ويحتاجها الدعاة إلى الله تعالى .

وتحصيل العلم يحتاج إلى مشقة لابد منها ، ويحتاج إلى التواضع ، والإخلاص وقد رأينا الصحابة والتابعين " رضوان الله عليهم " يرحلون في طلب حديث واحد ، ويسافرون الأيام الطويلة ، ليسمعوا شيخاً بسط الله له في علمه .

وعلى المسئولين أن يهيئوا مسالك العلم للناس ، وأن يمكنوا العلماء العقلاء الذين يصلحون في الأرض ، ولايفسدون .

---

(١) سورة طه آية (١١٤) .

(٢) فتح الباري ج١ ص ٤٤١ ــ كتاب العلم ــ باب فضل العلم .

١٧

هارون عليه السلام

هو الشقيق الأكبر لموسى "عليه السلام" ، ولد فى السنة التى كان فرعون يدع القتل فيها ، وهو أكبر من موسى بثلاث سنوات .

وهو اسم معرب من العبرية ، وينطق فيها بالهمزة بدل الهاء ، فيقولون : آرون بمعنى النشاط (١) ، وهو اسم ينطبق على مسماه ، لتميز هارون بالنشاط فى الطاعة ، والحرص على تحقيق مقصده بهدوء ، ولين .

وقد عاش فى مصر ، ولم يخرج منها إلا مع الإسرائيليين ، يوم أن خرجوا جميعاً ، ورحلوا إلى سيناء .

وحين كلف الله موسى "عليه السلام" بالرسالة ، طلب من الله أن يعينه بإرسال هارون عيه السلام معه لما تميز به من صفات ، يقول الله تعالى حكاية على لسان موسى "عليه السلام" : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣) ، ويقول

---

(١) بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٦٧ .

(٢) سورة القصص آية (٣٤) .

(٣) سورة طه الآيات (٢٩ ـــ ٣٢) .

تعالى : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

ومن مجمل الآيات نفهم أن هارون " عليه السلام" إتصف ببعض الصفات ، التى من أجلها طلب موسى "عليه السلام" من الله أن يشركه أخوه هارون فى الرسالة ، والدعوة ، وأهمها :

الأولى : تميز هارون "عليه السلام" بالهدوء ، واللين ، فتمكن بذلك من مواجهة المواقف الشديدة ، رابط الجأش ، بلا ضيق ، أو إنفعال .

الثانية : تميز هارون "عليه السلام" بالشدة ، وقوة البأس ، وهذا يساعد فى تبليغ الدعوة ، ويدخل الرعب فى قلوب العدو ، ويشد أزر موسى "عليه السلام" ، ويبعد عنه خوف الأعداء ، لأنه كان يتوقع إنتقامهم منه لقتله المصرى يوم أن فر إلى مدين ، يقول الثعلبى : (**كان هارون أطول من موسى**) (٢) .

الثالثة : تميز هارون " عليه السلام" بالرشد ، وسداد الرأى ، ولذلك رغب موسى "عليه السلام" أن يشركه فى الأمر ، ويشاوره فى مواجهة المعارضين ، وقد ساعده على ذلك هدوء طبعه ، وثباته وقت الشدائد ، أنظر له "عليه السلام" يوم أن عبد قومه العجل ، وجاءه موسى "عليه السلام" ، وأخذ برأسه ولحيته ، فإنه "عليه السلام" اقنع موسى "عليه السلام" بوجهة نظره ، وأعاده بلينه إلى الهدوء ، فدعا له موسى "عليه السلام" .

الرابعة : تميز هارون " عليه السلام" بالفصاحة ، والبيان ، ولذلك طلب موسى "عليه السلام" معاونته ، ليشترك معه فى الدعوة ، ويدفع عن موسى ما سوف يقابله ، ويقنع الناس بصدق موسى "عليه السلام" .

وقـــد استخلف موسى "عليه السلام" هارون يوم أن ذهب لملاقاة ربه ، ليصلح حال الناس ،

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٣ ـــ ١٤) .

(٢) بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٦٨ .

ويدعوهم إلى الحق ، ويبعدهم عن الضلال والهوى ، يقول الله تعالى:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١) .

لكن الإسرائيليين إنتهزوا فرصة غياب موسى "عليه السلام" ، واستجابوا للسامرى حين دعاهم لإلقاء الذهب ، الذى جاءوا به من مصر فى النار ، ليتخلصوا من وزره ، لأنه لا حق لهم فيه ، وصنع لهم عجلاً من البقر ، ودعاهم إلى عبادته ، فعبدوه ، واستهانوا بهارون لطيب خلقه ، ولين طبعه ، فلما رجع موسى إليهم اعتذروا له وعادوا إلى دين الله مرة أخرى .

وقد توفى هارون قبل موسى بسنتين أو بثلاث ، يروى السدى عن أبى مالك وأبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة بن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم أن الله أوحى إلى موسى أنى متوف أخاك " هارون " فائت به إلى جبل كذا ، وكذا ، فانطلق موسى وهارون نحو هذا الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة قبلها ، وإذا هم ببيت مبنى ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، فإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك البيت ، والجبل ، وما فيه أعجبه ، فقال : يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير فلما نام قبض الله روحه ، ... فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء .

لما رجع موسى "عليه السلام" إلى قومه ، وليس معه هارون ، قالوا : إن موسى قتل هارون .. ، ... فلما سمع موسى "عليه السلام" ذلك ، قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله ، فنزل السرير ، وعليه هارون ، حتى نظروا إليه بين السماء والأرض ، فعلموا أن هارون قبضه الله إليه ، وبرئ موسى "عليه السلام" من إتهامهم (٢) .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٤٢) .

(٢) قصص القرآن ص ٢٩٠ .

وقصة هارون "عليه السلام" تفيد أهمية إستعانة الدعاة ، بمن يساعدهم فى القيام بواجبهم ، ويستفيدون بأى شئ يسهل التبليغ ، جرياً على عادة البشر ، كما إستعان موسى "عليه السلام" بأخيه هارون ، والقصة كذلك توضح لنا أهمية الدعاء ، والطلب من الله سبحانه وتعالى ، فهو القادرعلى كل شئ .

******

١٨

إلياس عليه السلام

إلياس "عليه السلام" هو أحد أنبياء بنى إسرائيل ، والعرب تنطق إسمه بألفاظ متعددة فيقولون هو " الياسين ، أو ياسين ، و آل ياسين " أسماء متعددة له "عليه السلام" .

لقد كان إرسال إلياس " عليه السلام" بعد موسى بوقت قصير ، ونظراً لغلو الإسرائيليين فى المادية ، وإفراطهم فى التجسيد ، جاءهم المعجزات الحسية ، العديدة ، لتحقيق شئ من التوازن النفسى بين متطلبات الطبع اليهودى المادى ، وبين متطلبات الإيمان ، والرسالة ، يقول النووى : (**كان إلياس على صورة موسى "عليه السلام" ، وقوته وقد نشأ فى بيئة حسنة ، وكان الإسرائيليون يحبونه ، ويقولون إنه بشرى إليعازر لهم ، وسيهلك الله به الملوك ، والجبابرة**) (١) .

حفظ إلياس ما عندهم من التوراة ، وأظهر لهم المعجزات ، صاح فيهم مرة صيحة أرعبتهم ، وكادت تقتلهم ... فقالوا : هو ساحر ، ونسوا كل ما قالوه فيه ، وهموا بقتله ، فهرب منهم ، وساروا وراءه ، فانفلق الجبل ودخله إلياس ، وانصرف الناس ، وعاش إلياس فى الجبل حتى بلغ أربعين سنة ، فبعثه الله نبياً ، وكلفه بالرسالة إلى قومه ، وأمره أن يتوجه إلى الملوك ، والجبابرة لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى .

وقد امتد نطاق دعوة إلياس إلى سبعين مدينة ، تتوسطها مدينة " بعلبك " ، التي تقع في شمال لبنان حالياً ، وفى كل مدينة جبار يسوسها ، وكانوا يعبدون الأصنام ، ويصنعونها على صورة بشرية ويسمونه " بعلا " .

---

(١) تفسير الجمل ج٣ ص ٥٥٠ .

وقد أجرى الله على يد " إلياس " "عليه السلام" عديداً من المعجزات ، مثل :

ـــ خمود النار بأمره (١) .

ـــ عدم إحراق النار لإمرأة الملك (٢) .

ـــ حبس الماء عن القوم (٣) .

ـــ إحياء الموتى (٤) .

ـــ نزول الغيث (٥) .

وحديث المؤرخين عن معجزات إلياس الحسية طويلة(٦) ، ونحن لانقطع بها ، لورودها عن طريق أدلة ظنية ، ولانردها لأن المطلع على تاريخ أنبياء بنى إسرائيل يرى كثرة المعجزات الحسية ، التى أظهرها الأنبياء جميعاً ، بدءاً بيوسف "عليه السلام" ، وإنتهاء بعيسى "عليه السلام" .

ويجب أن يكون واضحاً أن أنبياء بنى إسرائيل جميعاً بعثوا بتجديد رسالة موسى "عليه السلام" ، لكثرة ما صنعوا ، وحرفوا .

أرسل الله إلياس "عليه السلام" إلى قومه من بنى إسرائيل ، وقومه هم أحد أسباطهم الذين رحلوا إلى مدينة " بعلبك " فى أقصى الشمال ، فنسوا عهد الله ، وعبدوا الأوثان دونه فبعث الله إليهم إلياس "عليه السلام" ، يدعوهم إلى التوحيد ، ويذكرهم بعهد الله ويبين لهم أن الإنحراف عن دين الله ضلال مبين ، لأن الله هو خالقهم ، ورازقهم ، وربهم ، ورب آبائهم ، ورب العالمين .

---

(١) قالوا إن الملك طلب منه معجزة وهى إطفاء النار ، فنادى : أيتها النار أخمدى .. فخمدت .

(٢) قالوا إن إمرأة الملك آمنت مع إلياس،فألقاها زوجها فى النار،فدعا إلياس ربه،فلم تعمل النار فيها شيئاً

(٣) أنذر إلياس "عليه السلام" قومه بحبس الماء إن لم يؤمنوا ، فأصروا على الكفر ، فحبس المطر ، وجفت الأنهار وغارت العيون ، ومات الشجر .

(٤) قالوا إن إلياس أحيا عدداً من الموتى بإذن الله منهم إليسع .

(٥) لما أمن البعض به دعا الله بالماء فنزل الغيث ، وجرت الأنهار ، وتفجرت العيون .

(٦) أنظر الفتوحات الإلهية الشهير بالجمل (ج٣ ص ٥٥٠ بتصرف) .

لكن القوم إستمروا على ضلالهم ، واتخذوا صنماً من الحجر ، وعبدوه مـــن دون الله ، وتصوروه رباً ، يعينهم ، ويحفظهم ، ويمدهم بالخير .

وكان "الطَيْـلا" ناصحاً أميناً لقومه ، لطيفاً فى دعوته لهم ، حيث أخذ يناقشهم ويطلب منهم الحجة والبرهان ، ويدلل على ضلالهم ، ويدعوهم إلى الله رب العالمين يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١) .

ومن هذه الايات ندرك الحقائق التالية :

أولاً : إلياس هو رسول الله "الطَيْـلا" ، إختاره الله للرسالة ، وأنزل عليه وحيه وكلفه بدعوة قومه إلى العقيدة الصحيحة .

ثانيا : أن قوم إلياس اتخذوا إلهاً ، وسموه " بعلا" ذهب المفسرون إلى أنه صنم ، أو ملك ، اتخذوه إلهاً ، أو رباً ، ويمكن جمع هذه الآراء فى أنهم صنعوا صنماً على صورة ملكهم ، وعبدوه إلهاً ، وقصدوه رباً ، وبهذا تلتقى الآراء فى مفهوم واحد ، لاتعارض فيه .

ثالثا : أن دعوة إلياس "الطَيْـلا" كانت لقومه ، وهم أحد أسباط بنى إسرائيل ، الذين رحلوا من بيت المقدس ، وسكنوا شمال الشام ، فى مدينة " بعلبك " .

رابعاً : دعا إلياس "الطَيْـلا" قومه ، بحكمة ، ولين ، وحسن فى الدعوة والإرشاد .

ـــ فلقد ناداهم بما بينهم من قربى ، ونسب ، وقال لهم : يا قوم ليعلموا أنه حريص عليهم ، ساع لمصلحتهم .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١٣ـــ ١٢٦) .

ـــ وعرض عليهم دعوته بصورة المستفهم ، ليعودوا إلى أنفسهم ، ويكرروا السؤال على عقولهم ، عساهم يفيئون ، ويعودون إلى صواهم .

ـــ قارن إلياس "عليه السلام" لقومه بين صنمهم ، وبين الله ، وبين أن الصنم حجر لايسمع ولايبصر ، ولايضر ، ولاينفع ، ولايغنى عن أحد شيئاً ، بينما الله تعالى خلقهم ، ورزقهم ونظم لهم حياهم ، فهو رهم ، ورب الناس أجمعين .

يسمع القوم دعوة إلياس "عليه السلام" ، فيؤمن بدعوته المخلصون الأصفياء ، وتظل الأكثرية على ضلالها ، وكفرها ، وينزل الله عذابه هم ، وينجو إلياس والمؤمنؤن معه ، بسبب إيماهم ، وإخلاصهم ، وفى الآخرة سيحل عليهم عذاب جهنم وويلاها ، وسيفوز المؤمنون برضوان الله فى جنات النعيم ، وأما إلياس "عليه السلام" ، فقد أبقى الله له الثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فى الأمم بعده ، فما من أمة مؤمنة إلا وتذكره بالخير ، وتسلم عليه كسائر أنبياء الله ، وها هى آمة محمد "صلى الله عليه وسلم" تذكره بالنبوة ، وتقرأ عنه فى القرآن الكريم ، كتاب الله رب العالمين ، وفى سنة المصطفى "صلى الله عليه وسلم" ، وله "عليه السلام" السلامة من كل سوء ، والبعد عن كل شر وأذى ، لأنه عبد لله ورسوله إلى قومه ، وقد وفى بما كلف به "عليه السلام" ، يقول الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (١) .

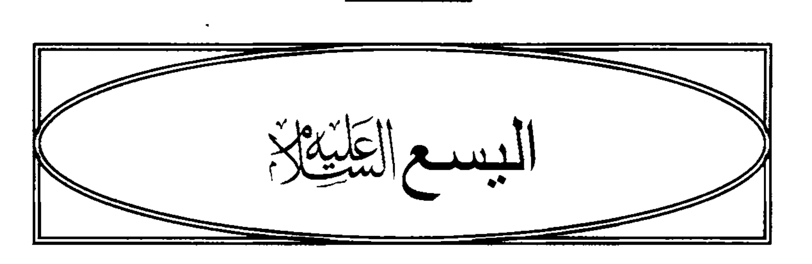
ويوجد حالياً على جبل " الكرمل " المقامة على سفحه مدينة " حيفا " قبر ، يقال إنه قبر " إلياس "(٢) عليه السلام" .

---

(١) سورة الصافات الايات (١٢٧ ـــ ١٣٢) .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن الكريم ص ٢٤٠ .

١٩



اليسع "عليه السلام" أحد أنبياء بنى إسرائيل ، وقد ذكر الله نبوته مع ذكر الأنبياء الآخرين ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ **وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾** ﴾ (٢) .

ووهم البعض ، فذكر أنه إلياس ، وليس كذلك ، لأن الله أفرد كل واحد منهما بالذكر ، وكانا معاصرين فى بنى إسرائيل ، ويقال إن اليسع ابن عم إلياس ، أو ابن أخيه .

وهناك من يزعم أن اليسع هو إدريس ، وليس كذلك ، لأن إدريس "عليه السلام" هو جد نوح "عليه السلام" ، بينما اليسع من أبناء يعقوب ، وقد أرسله الله إلى بنى إسرائيل .

يروى قتادة عن الحسن "رضي الله عنه" أن اليسع بعث بعد إلياس ، فمكث ما شاء الله أن يمكث ، يدعو قومه إلى التوحيد الخالص ، وإلى الطاعة ، والانقياد لله تعالى (٣) ، وظل مستمسكاً بالحق ، سالكاً منهج الرسل ، إلى أن قبضه الله إليه .

وقد تميز اليسع منذ صغره بالرشد ، والحفظ ، وكان ينصح قومه ، ويبين لهم خطأهم ، وضلالهم ، فكرهوه ،وطارده اليهود ليقتلوه فآوته أم إلياس "عليه السلام" ، وكان اليسع مريضاً ، فدعا له إلياس بالشفاء ، فشفاه الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام آية (٨٦) . (٢)سورة ص آية (٤٨) .

(٣) تاريخ الطبرى ج١ ص ٤٦٤ .

ثم إن إلياس دعاه إلى دينه ، فآمن به ، ولازمه أينما ذهب .

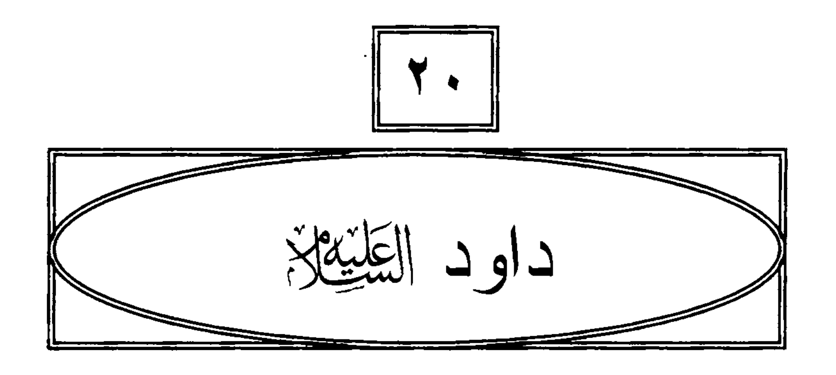
ويبدو أن الإسرائيليين ألفوا المعصية ، فكثر فيهم الأنبياء ، يدعوهم على دين موسى "عليه السلام" ، وبمنهج الله الذى كان الوحى يترل به على كل نبى ، تجديداً لما ضيعوه وتصحيحاً لما حرفوه ، وظلوا على ذلك ، لم يخلصوا لله صادقين ، ولذلك تتابع الأنبياء والرسل فيهم ، وكلما جاءهم رسول وجدهم على غير الحق ، بعيدين عن الصواب ، فإذا آمنوا بأحدهم إنتكسوا بعده ، وهكذا كان حالهم بعد اليسع ، فإنهم ظلوا يؤمنون بدعوته ، ويعظمونه حتى قبضه الله تعالى ، فعادوا إلى الكفر والضلال .

يقول ابن كثير : (**لما قبض الله اليسع خلف فيهم الخلوف ، وعظمت الأحداث ، والخطايا ، وكثر الجبابرة ، واعتدوا على الحرمات**) (١) .

*****

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ٤ .



٢٠ داود عليه السلام

داود "عليه السلام" من أنبياء بنى إسرائيل ، وبه بدأ عصر الإسرائيليين الذهبى فأسسوا مملكتهم، وصار لهم سلطان وحكم ، وقد بدأت شهرة داود "عليه السلام" قبل مبعثه ، لأنه عرف بالشجاعة ، والإقدام ، وشارك قومه فى حروبهم ... والحديث عن داود "عليه السلام" يحتاج إلى دراسة النقاط التالية : ـــ

النقطة الأولى

حالة الإسرائيليين قبل بعث داود

كما تمرد اليهود على وحى الله مع موسى "عليه السلام" ، تمردوا عليه بعده ، وكثر فيهم الأنبياء ، وتتابع نزول الوحى ..

واستمر بحثهم عن الملك، والسيادة ، طوال عهدهم مع الأنبياء ، وكانوا يربطون كل دعوة بهذه القضية ، فإذا جاءهم من يدعوهم إلى إله ، وشريعة خاصة بهم ، يعلون على غيرهم بواسطتها ، أطاعوه ، وإن دعاهم إلى دين صحيح ، متجرد من العنصرية ، والخصوصية ، طغوا ، وبغوا .

إنهم يريدون ديناً ، يعلون به ، من غير تعب أو عمل ، ولذلك قالوا لموسى "عليه السلام" حين طلب منهم دخول الأرض المقدسة ، التى كتبها الله لهم ، ومقاتلة الجبابرة الموجودين فيها ، ليحلوا محلهم ، قالوا : ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

---

(١) سورة المائدة آية (٢٤) .

قضى الله عليهم أن يتيهوا فى البرية أربعين عاماً ، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) ، وفى مدة التيه توفى موسى وهارون " عليهما السلام " ، وتولى الحكم فيهم رجل قوى سار بهم إلى الأرض المقدسة ، وتمكن من فتحها ، وطرد الجبابرة ، وكان عليهم أن يشكروا الله على هذا الفتح الذى انتظروه طويلاً ، ويبرزوا شكرهم بطاعة الله ، لكنهم عصوا ما أمرهم الله به ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢) ، قيل لهم ، ادخلوها ساجدين ، فدخلوها بظهورهم ، وقيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة .

واستمرأوا المعصية ، وغالوا فيها ، فعاقبهم الله ، وأنزل عليهم عذاباً من السماء ، وسلط عليهم ملكاً ظالماً، هو جالوت ، فأذلهم ، وقتل كثيراً من رجالهم ، وطردهم من الأرض المباركة ، التى جاءوها مع يوشع بن نون ، واستولى على أموالهم وممتلكاهم ... وتعاقب عليهم عدد من الأنبياء ، يجددون لهم دعوة موسى "عليه السلام" ، وذات يوم شعروا بذنوبهم، وتبين لهم أنهم لن يخرجوا من الذل، والهوان ، إلا بشئ من الشجاعة ، والإباء ، فجاءوا إلى نبى زمانهم ، وطلبوا منه أن يبعث الله لهم ملكاً ، يقودهم لقتال جالوت ، ويجمع كلمتهم ، ويرفع من شأنهم ، ويعيد لهم شيئاً من كرامتهم الضائعة .

وقد جاءوا يطلبون ذلك من النبى ، لأن النظام فى بنى إسرائيل أن يكون النبى من بيت ، والملك من بيت آخر ، والنبى يوجه ، والملك يسوس ويحكم بتوجيه النبى .

---

(١) سورة المائدة آية (٢٦) . (٢) سورة البقرة الآيات (٥٨ ــ ٥٩) .

رد عليهم النبى وهو يعرف طبائعهم ، ألا تتوقعون أن تقعدوا عن الجهـــاد إذا فرض عليكم ؟ وأنتم الذين طلبتموه ؟ وتحمستم له ؟ !

فأجابوه بأن مصلحتهم فى الجهاد ، وأن القعود عنه هوان وذل ، ولا بد لهم منه بعدما أخرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، وأكدوا عزمهم ، وإصرارهم ، فلما فرض علـــيهم نكصوا ، ورجعوا إلا قليلاً منهم .

يقول الله تعالى مصورا طلبهم القتال ، وموقفهم منه بعد فرضه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ (١) .

اختار الله لهم رجلاً يتمتع بالعلم الواسع ، والقوة البدنية ، هو طالوت ، فلما علموا به اعترضوا لسببين : ـــ

الأول : فقر طالوت ، لأنه معروف بينهم بقلة المال ، ورأوا أن هذا يصرف الأغنياء عن الاشتراك فى القتال تحت قيادة طالوت .

الثانى : أنه رجل من العامة ، فليس هو من سلالة الملوك ، أو من سلالة الأنبياء ، وتصوروا أنه بذلك لايصح أن يكون ملكاً مطاعاً ، فأخبرهم نبيهم أن ذلك اختيار الله العليم بكل شئ ، الحكيم ، القادر ، والخير كله فى اختيار الله تعالى ، وقـــد رزق الله طالوت بسطة فى العلم والجسم ، ومشيئة الله نافذة ، لايصح معارضتها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ

---

(١) سورة البقرة آية (٢٤٦) .

ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ (١) .

إن طالوت رجل اختاره الله ، فهذه واحدة ، وزاده بسطة فى العلم ، والجسم ... وهذه أخرى ، وهو سبحانه يؤتى ملكه من يشاء ... ، والله واسع عليم ، ليس لفضله مانع ، وهو العليم بالخير ، يضع كل أمر فى موضعه الصحيح .

وكعادة الإسرائيليين فى الجدل ، والمراء ، عادوا مرة أخرى إلى نبيهم ،وطلبوا منه أن يظهر طالوت آية من الله ، تبين اختياره ملكاً عليهم ، وكأنهم بذلك يكذبون نبيهم فى خبره لهم ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ (٢) .

وهذا التابوت هو الذى وضع فيه موسى الألواح يوم أن جاء بها من عند الله ، وعرفهم نبيهم أن التابوت ستحمله الملائكة لهم ، ليصدقوا ، ويؤمنوا ، ويجاهدوا عدو الله ، وعدوهم تحت إمرة طالوت .

وأتاهم التابوت ، وصار اليهود يأتون إليه ، ويأخذون ألواحاً منه ، ويضعون غيرها مـــــكانها ، تحريفاً لها ، حتى لم يبق من الألواح إلا القليل ، ولذلك أنذرهم الله تعالى بقـــــــوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آية (٢٤٧) . (٢)سورة البقرة آية (٢٤٨) .

(٣) سورة البقرة آية (٧٩) .

جاء طالوت ، وأحضر لهم التابوت ، بما بقى من ألواح موسى ، فبايعوه ملكاً عليهم ، فدعاهم إلى الجهاد ، وقتال أعدائهم ، الذين أذلوهم ، وجهز جيشاً كبيراً ، سار به إلى عدوه ، وعدوهم ، وأراد طالوت أن يفجأ العدو ، وكان بينه ، وبين عدوه نهر ، فأمر جنوده باجتياز النهر بلا شراب ، أو إستحمام ، أو راحة ، وعرفهم بضرورة تنفيذ أوامره ، لأنها من الله ، فمن أطاعه و لم يشرب فهو معه ، ومن عصاه وشرب فلن يكون معه ، وقد قال لهم طالوت ذلك لأنه قادم على معركة ، ومعه جيش من المهزومين ، الأذلاء ، أمام جيش قوى ، يعتز بانتصاراته ، وهيمنته ، رأى طالوت ضرورة تمتع جنوده بقوة كامنة فى الإرادة ، والعزيمة ، بها تضبط الشهوات ، والنزوات ، وتصمد للحرمان ، والمشاق ، وتستعلى على الضرورات ، والحاجات ... ورأى طالوت أهمية اختبار صمودهم أمام رغباتهم ، وصبرهم أمام متاعهم ، وحدد لهم جوانب الابتلاء والاختبار وهم على النهر ، وكانوا عطاشا ، ليتميز الصالح من غيره .

قال لهم طالوت ذلك ، لكنهم خالفوه ، فشربوا ، وارتووا ، واغتسلوا ، فطردهم لعدم صلاحيتهم للمهمة القادمين عليها ... ودلت التجربة على أهمية الاختبار العملى ، وعدم الاكتفاء بالنية اللفظية .

طرد طالوت المخالفين ، وأبقى الذين أطاعوه و لم يشربوا رغم قلتهم ، فلما اقترب اللقاء نظر فريق ممن كانوا معه ، إلى الأعداء ، ورأوهم كثرة فهابوهم ، وخافوا من لقائهم ، فرد عليهم المؤمنون الصادقون قائلين ، إن الله تعالى ينصر الفئة القليلة ، المؤمنة الصابرة على الفئة الكثيرة الظالمة ، ونصر الله غالب ، وهو على كل شئ قدير .

والتحم الفريقان ، وسأل المؤمنون النصر من الله ، ورجوه أن يلهمهم الصبر ، ويثبت أقدامهم أمام الفئة الباغية ، واشتد القتال ، وكان داود "عليه السلام" شاباً يافعاً ، اشترك فى المعركة ، وحمل مقلاعاً ، ووضع به حجراً ، وصوبه نحو جالوت قائد الأعداء ، وقذفه فقتله ، وبقتل جالوت انهار العدو ، وتفرق جنده ، وانتصر طالوت ، ومن معه ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم

بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (١) .

تؤكد الآيات أن النصر كان من عند الله ، وبإذن منه .. ، ... وتبرز الآيات دور داود ، مع أنه كان فتى من بنى إسرائيل ، وجالوت كان ملكاً قوياً ، وقائداً مخوفاً وجباراً مرعباً ، ... لكن الله شاء أن يرى القوم بأعينهم ، ويشاهدوا بحواسهم ، أن الأمور لاتجرى بظواهرها ، إنما تتم بحقائقها ، ومقاديرها ، وحقائقها ، ومقاديرها فى يد الله وحده ، وقد أراد الله سبحانه أن يرى الناس مصرع الجبار " جالوت " ، على يد فتى صغير ليعلموا أن الجبابرة ، وإن تعاظموا ، ضعاف ، ضعاف ، أمام قدرة الله النافذة ، وهناك حكمة أخرى مغيبة ، فقد أراد الله لداود "عليه السلام" أن يستلم الملك بعد طالوت ، ويجمع الملك مع النبوة ، ويبدأ مع الإسرائيليين عهداً جديداً ، جزاء وفاقاً لما أبدوه من عودة صحيحة لله ، فى نفوسهم ، وعملهم ، ساعة أن أقدموا على محاربة عدوهم مع طالوت .

جاء فى تفسير القرطبى : (**أن طالوت كان أعلم رجل فى بنى إسرائيل ،**

---

(١) سورة البقرة الآيات (٢٤٩ ــ ٢٥١) .

وأجمله ، وأتمه ، فما كاد نظر النبى يقع عليه ، حتى وقع فى قلبه أنه هو الذى أوحى الله إليه بتمليكه ، وأنه أرسله إليه ليحمله الزعامة ، ولواء الجهاد ، فلما كلفه ، قال طالوت : وما أنا والملك ؟ فإنى من سبط بنيامين ، وإنى فقير ، فقال له : هذه إرادة الله ، وذاك أمره ، فاشكره ، واطع بما كلفك به) (١) .

وفى الآيات درس له أهميته ، وهى فى شخصية طالوت القيادية ، فقد اختاره الله بسعة فى العلم ، وقوة فى البدن ، وهما صفتان أساسيتان فى القائد ، فهو بعلمه يخطط ، ويأمر ، ويراقب وينفذ ، وبقوته البدنية يتحمل ، ويصبر ، ويقدم ، ويضرب ، ولقد أبدى طالوت صلابة ظاهرة فى قيادته ، حيث اختبر جنوده وهم عطاش بأن أمرهم بعدم الشرب من الماء ، وهو اختبار صحيح ، وتدريب على الطاعة والإقدام ، ولم يتردد طالوت فى طرد الذين شربوا الماء ، وخالفوا أوامره .

وانتصر طالوت بالمؤمنين ، الذين يتيقنون أن النصر من عند الله تعالى ..

وإن فى قصة طالوت درساً بليغاً للأمة الإسلامية ، لتعلم ، وتتيقن أن القوة كلها تكمن فى قوة الإيمان ، وصدق الاعتقاد ، وخلوص النية ، والقصد ، لله رب العالمين ، يقول تعالى:﴿ **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾** ﴾(٢) . ومن الآيات ندرك شيئاً عن طبائع القوم الذين بعث فيهم داود "عليه السلام"، فهم قوم جبناء، يخافون لقاء عدوهم، وينتظرون النصر بواسطة غيرهم . وهم جماعة محبة للسلطة ، والمال ، والملك ، وكان هذا الحب محركاً لهم للجهاد ، إلا أن الجبن كان يمنعهم .

وهم أناس تعودوا مخالفة دين الله ، ولذلك عملوا على تحريف التوراة وتبديل الألواح .

---

(١) تفسير القرطبى ج٣ ص ٢٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية (٢٥٢)

وهم شعب لا عهد لهم ، ولا ميثاق ، طلبوا ملكاً يقاتلون به أعداءهم ، فلما جاءهم ، نكصوا ، وخالفوا .

وهم أمة حاسدة ، لاتتصور أمة أخرى أعلى منها ، ولذلك قالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ (١) .

****

النقطة الثانية

التعريف بداود "عليه السلام"

داود "عليه السلام" من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " عليهم الصلاة والسلام " .

تميز بالشجاعة منذ صغره ، واشترك مع المؤمنين فى جيش طالوت ، ووفقه الله تعالى ، وقتل جالوت ، وكان عاملاً رئيسياً فى هزيمة جيش العماليق ، والقضاء على سلطانهم فى بيت المقدس ، وأعاد للإسرائيليين وطنهم المفقود .

أحب الإسرائيليون داود ، واتخذه طالوت مستشاراً له ، فكان لا يقضى أمراً دونه ، وزوجه ابنته ، مع أنه ليس إسرائيلياً ، وصار عونه فى كل ما قام به .

فلما مات طالوت ، انتقل الملك إلى داود ، وقدر الله له أن يجمع بين الملك والنبوة .

وليس بصحيح ما رواه المؤرخون (٢) من أن الملك انتقل إلى داود بعد صراع طويل ، مع طالوت ، لأن طالوت اختيار الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾، .. وداود "عليه السلام"

---

(١) سورة البقرة آية (٢٤٧) .   (٢) انظر تاريخ الطبري ج١ ص٤٧٣-٤٧٥ بتصرف .

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، وليس بمتصور أن يتصارعا إذاً ، فهما اختيار الله واصطفاؤه ، ومحال أن يصطفى الله أناساً تعمل ما ليسوا له بأهل ؟؟؟

وداود "عليه السلام" هو أول من جمع بين الملك والنبوة ، يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢) .

وكان الأمر قبله أن تكون النبوة في بيت ، والملك في بيت آخر ، لكن الله أكرم داود "عليه السلام" فجمع له بين الاثنين ، وضم لهما القضاء ، والفصل بين الناس .

وقد اختار الله داود "عليه السلام" رسولاً إلى بنى إسرائيل ، وأنزل عليه الزبور ، يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣) ، وداود من الرسل الذين فضلهم الله تعالى ، ولو قارناه بأنبياء بنى إسرائيل لبان فضله ، وظهرت مترلته العالية .

وأيده الله تعالى بالمعجزات العديدة لتكون دليل صدقه أمام قومه ، ومن أهم هذه المعجزات :

١ ـــ تليين الحديد له :

فكان يفتله بيده كحبل القطن ، يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٤) ، ويقول تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥١) .
(٢) سورة ص آية (٢٠) .
(٣) سورة الإسراء آية (٥٥) .
(٤) الأنبياء آية (٨٠) .

سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١) ، وذلك أن داود "عليه السلام" قد أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ، وأرشده الله إلى صناعتها وصنعة اللبوس هى صناعة الدروع ، وكانت قبله تصنع من الصفيح ، قطعة واحدة ، فلما لان الحديد له ، صنعها "عليه السلام" حلقاً من الصلب الشديد ، فى هيئة رقائق ، متموجة ، لينة ، والسابغات هى الدروع ، وقد أمره الله تعالى بأن يقدر في السرد ، بمعنى فتح الحلقة على قدر المسمار ، فلا تتسع عنه ، ولاتضيق عليه .

٢ ـــ تأويب الجبال والطير معه :

يقول الله تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) ، وذلك أن الله تعالى وهبه حلاوة الصوت ، وجمال النطق ، فكان "عليه السلام" إذا قرأ شيئاً من كتابه (الزبور) يقف الطير فى الهواء ، يرجع بترجيعه ، ويسبح بتسبيحه ، وكانت الجبال تجيبه ، وتسبح معه ، **وفى الصحيح أن رسول الله "ﷺ" سمع أبا موسى الأشعرى "رضي الله عنه" يقرأ القرآن فقال له : لقد أوتيت أبا موسى مزماراً من مزامير داود** (٤) .

والآية تصور فضل داود "عليه السلام" ، وأنه قد بلغ من الشفافية والتجرد لله حداً انزاحت الحجب أمامه ، فالتقت معه الكائنات ، وإنمحت الفواصل بين المخلوقات ، وسبح الطير والجبل معه ، وأخذ كل منهم يتصل بالآخر فى التسبيح ، والحمد ، والدعاء ، يسمع ، ويفهم ، ويرجع ، ويعيد ، وتلك درجة لا ينالها إلا المقربون .

---

(١) سورة سبأ الآيات (١٠ ـــ ١١) . (٢) سورة ص الآيات ١٧ ـــ ١٩) .

(٣) سورة سبأ آية (١٠) . (٤) صحيح البخارى ـــ كتاب فضائل القرآن ـــ باب تحسين الصوت ج٩ ص ٩٢ .

وقد تميز داود "عليه السلام" بعدد من الخصائص :

الأولى : العبادة الدائمة :

يقول تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (١) ، يقول ابن عباس : ذا الأيد ، أى صاحب القوة فى الطاعة ، وقال قتادة : أعطى قوة فى العبادة ، فكان يقوم الليل ، ويصوم نصف الدهر ، وعن وهيب ابن الورد : أن داود "عليه السلام" جعل ليله كله نوباً عليه ، وعلى أهل بيته ، لا تمر ساعة من الليل ، إلا وفى بيته مصل لله (٢) .

يقول النبى "ﷺ" : (**كان داود أعبد البشر**) (٣) ، ويقول "ﷺ" : (**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ، ويفطر يوماً**) (٤) .

الثانية : الشجاعة والقوة :

تميز داود "عليه السلام" منذ صغره بالشجاعة ، فلقد اشترك فى شبابه مع طالوت والقوم يفرون ، وتمكن من قتل جالوت ، وساهم مع المنتصرين فى إعادة الكرامة لشعب إسرائيل المطرود .

ومكن الله له من صناعة الدروع ، وألان له الحديد ، ليستفيد به فى صناعات عديدة ، عسكرية ، وعمرانية ، وزراعية ، وغيرها .

ولما بعثه الله نبياً ، وجعله ملكاً ، مكن له من البأس ، والقوة ، يقول تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص آية (١٧) . (٢) تفسير القرطبى ج١١ ص ٣١٩ .

(٣) رواه الترمذى وحسنه ، أنظر بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٨٤ .

(٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الأنبياء ، باب صلاة داود ج٦ ص ٤٥٥ .

(٥) سورة ص آية (٢٠) .

الثالثة : الحكم والقضاء :

تميز داود بالحكمة والقضاء بين المتخاصمين ، و يقصده المتخاصمون لشدة عدله ، ودقته فى فهم الموضوع ، وتناول أطرافه جميعاً ، حتى أنه "عليه السلام" اعتبر نفسه ظالماً ، يوم أن حكم على صاحب الغنم قبل أن يناقش حجته الحقيقية :

﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥)** ﴾ (١) .

ويمكننا من خلال الآيات التى تحدثت عن معجزات داود "عليه السلام" ، ومزاياه ، أن نحدد ملامح دعوته فيما يلى :

١ ــ دعا قومه إلى التوحيد ، وجدد لهم دعوة موسى "عليه السلام" ، وكان الوحى يتزل عليه بتعاليم الله ، وقد أبقاه لقومه فى كتابه المقدس (الزبور) .

٢ ــ دعاهم إلى الشريعة ، والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ **وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)** ﴾ (٢) ، وطلب منهم ضرورة الطاعة لشكر الله ، يقول تعالى : ﴿ **وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)** ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ **ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣)** ﴾ (٤) .

٣ ــ كان شديد الإنكار على كل مخالف لحكم الله ، معتد على حدوده

---

(١) سورة ص الآيات (٢٤ ــ ٢٥) .

(٢) سورة سبأ آية (١١) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٨٠) .

(٤) سورة سبأ آية (١٣) .

ظـــالم لنفـــسه ، بالشـــرك ، أو بالـــبغى ، أو بالمعاصى ، يقول تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ (١) .

وقد وهب الله لداود "عليه السلام" ، ولده سليمان ، لتستمر النبوة ، والملك ، فى ولده ، وقربه إليه ، يقـــــول تعالى : ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴾ (٣) .

وفاة داود "عليه السلام" :

عن أبى هريرة "رضي الله عنه" ، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال : (**كان داود "عليه السلام" فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امراته تتطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ، والله لـــتفضحن بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت ،مرحباً بأمر الله ، ثم مكث حتى قبض روحه ، فلما غسل وكفن ، وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير أظلى داود ، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : أقبضى جناحاً**) .

---

(١) سورة المائدة آية (٧٨) .

(٢) سورة ص آية (٣٠) .

(٣) سورة ص آية (٢٥) .

قال أبو هريرة : فطفق رسول الله "ﷺ" يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله "ﷺ" بيده (١) ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية (٢) .

وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعنى أنزل أو أصعد ، فقال : يا نبى الله ، نفدت السنون ، والشهور ، والآثار ، والأرزاق ، قال : فخر ساجداً على مرقاة له من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ويقال إنه "عليه السلام" دفن فى بيت لحم (٣) .

****

النقطة الثالثة

داود "عليه السلام" والقضاء

كان داود "عليه السلام" يباشر القضاء بنفسه ، وكان يقسم أيامه أربعة أقسام ، يوماً للعبادة فى المحراب ، ويوماً يجلس فى الديوان للحكم والقضاء ، ويوماً للدعوة والإرشاد ، ويوماً يخدم فيه نفسه .

وكان "عليه السلام" فى قضائه متميزاً بالعدل ، والإنصاف ، يعطى لكل ذى حق حقه ، لايميل لطرف ، ولاينحاز لفريق لحساب فريق ، وكان الله يمده بالعون والتوفيق ، فى مهامه جميعاً ، ويهديه للهدى والرشاد .

---

(١) رواه أحمد ، وقال ابن كثير : إسناده جيد قوى ورجاله ثقات ، ومعنى قوله " وغلبت عليه يومئذ المضرحية " أى : وغلبت على التظليل عليه المضرحية ، وهى الصقور الطوال الأجنحة ، واحدها مضرحى ، قال الجوهرى : هو الصقر الطويل الجناح .

(٢) قصص القرآن ص ٣١٦ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج١ ص ١٤٣ .

وكان الله يبين له الصواب إذا أخطأ ، وكان "عليه السلام" رجاعاً ، يعود للحق إذا عرفه ، ولايعتز بحكم أصدره ، ما لم يكن وحياً .

وفى مجال معونة الله لداود "عليه السلام" ، وإرشاده إلى الصواب نورد ثلاثاً من القضايا التى أصدر فيها حكماً ، ثم عدل عنه ، بعد أن أظهر الله له الحق ، والصواب .

الحادثة الأولى : حادثة الغنم :

فى يوم عبادة داود "عليه السلام" ، فوجئ وهو فى المحراب ، برجلين يدخلان عليه من فوق سور المحراب ، ليلاً ، ففزع منهم ، لأنه تصورهم جاءا لقتله ، وهم بالدفاع والقتال ، فهدءا من روعه ، وعرفاه بأنهما خصمان ، اختصما فى غنم بينهما ، وطلبا منه الحكم بينهما ، بما عرف عنه من دقة ، وعدل ، ورجواه أن لايظلم أحدهما ، وأن يدلهما على الحكم العادل المستقيم ، يقول تعالى : ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١) .

هدأت نفس داود "عليه السلام" ، وذهب عنه الروع ، وجلس يسمع لهما ، فقال المدعى : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢) وضح المدعى الصلة بينه وبين المدعى عليه، وهى أنهما أصدقاء ، وعلى دين واحد ، وقال :إن المدعى عليه أراد أخذ نعجتى ، وغلبنى ببلاغته ، وسلطانه .. ويبدو أن المدعى عليه أقره على ما أدعى فأصدر داود حكمه بعد أن عرف الدعوى ، وسمع إقرار المدعى عليه .. وكان عليه "عليه السلام" أن يستقصى فى البحث ، ويسأل المدعى : من أين له هذه النعجة الواحدة ، فلربما سرقها من المدعى عليه (وهو الذى كان) .

حكم داود "عليه السلام" بعد إقرار المدعى عليه ، وشعر بأنه تعجل ، وأدرك أن هذا ابتلاء من الله ، فاستغفر الله ، وخر ساجداً ، واستمر علىسجوده حتى غفر الله له

---

(١) سورة ص الآيات (٢١ ــ ٢٢) . (٢) سورة ص آية (٢٣) .

وقربه إليه ، وعرفه بحسن المنزلة فى الجنة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

إن القضية حقيقة كظاهرها ، فالرجلان من الإسرائيليين ، ولأحدهما تسع وتسعون نعجة ، وللثانى نعجة واحدة ، إلا أن الثانى سرق هذه النعجة من أخيه الأول فأراد الأول أن يأخذ نعجته بحيلة ، ولذا أقر بالدعوى التى عرضها صاحب النعجة الواحدة ، و لم يشر إلى سرقة أخيه للنعجة ، حياءً وخلقاً .

تعلم داود "عليه السلام" من هذه الحادثة ضرورة الاستقصاء فى موضوع الدعوى ، وهو ما يعرف بالتحرى ، والشهود ، وأخذ رأى الخبراء ، ولذلك استغفر ربه على تعجله ، ورجع عنها ، وقبل الله توبته ، وغفر له .

ولا يصح أن يقال إن داود أخطأ فى عدم سماع رأى المدعى عليه ، لأنه أمراً لا يتصور من داود " عليه السلام " ، فسماعه رأى الطرفين من بدهيات التقاضى ، ولايخطئ فيها داود "عليه السلام" لكثرة خبرته ، وإنما الخطأ كان فى تسرعه، لأنه رأى الظلم بيناً أمامه .

وفى القصة روايات لا تقبل فى حق نبى الله داود "عليه السلام" ، ولا يمكن تصورها

---

(١) سورة ص الآيات (٢٣ ــ ٢٥) .

لأنها تتعارض مع عصمة رسل الله تعالى ، ولذا نوردها فى الهامش موجزة (١) .

الحادثة الثانية : أكل الزراعة :

أقبلت غنم ليلاً على مزرعة ، ليس معها راعيها ، فأفسدت الزرع ، وأتت عليه ، فاحتكم أصحاب الزراعة إلى داود "عليه السلام" قائلين له ، يا نبى الله إنا حرثنا أرضنا ، وزرعناها ، وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها ، جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً ، فانتشرت فى زرعنا ، وأكلته حتى لم يبق منه شئ ، فقال داود لأصحاب الغنم : أحقاً ما يقول هؤلاء ؟ ... قالوا : نعم .

---

(١)يقال كان كان لداود "عليه السلام" تسع وتسعون زوجة ، وذات يوم رأى زوجة قائد جيشه (أوريا) فأحبها ، وخطط للتخلص من زوجها ، فأرسله فى غزوة عاد منها ، فأرسله فى ثانية ، وثالثة ، حتى قتل ، وبعدها تزوجها داود "عليه السلام" .. وهذا من إفتراء اليهود على داود ، فهل يليق برسول أن ينظر إلى إمرأة غيره ؟ .. ويتآمر لقتل زوجها ؟ ويكلفه بغزوات لغاية قتله ؟ ! .

جاء فى سفر صموئيل الثانى ، الإصحاح الحادى عشر ماهو أفدح ، جاء (أن داود أقام فى أورشليم ، وكان فى وقت المساء ، قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح إمرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة جداً ، فأرسل داود رسلاً ، وأخذها ، فدخلت إليه ، فاضطجع معها ، وحبلت المرأة ، من داود ، فاستدعى زوجها ، وأعطاه أجازة ليبيت معها ويستر الفضيحة ، لكن الزوج رفض ترك الميدان ، والحرب ، فأمر داود بقتل الزوج فى الحرب وبعدها تزوج المرأة .... هل هذا حديث يليق برسول ؟ ! ... وهل الكتاب المتضمن لهذه الأقوال مقدس ، مترل . !

ويقول آخرون إن المرأة كانت مخطوبة و لم تتزوج ..

ويرى أصحاب هذه الأقوال أن الملكين جاءا لداود ليعلم خطأه ، ويرجع عنه ، ويذهب الفاهمون إلى أن اليهود قصدوا تشويه صورة داود "عليه السلام" ، لأن عيسى "عليه السلام" من نسله ، وبذلك يجدون لأنفسهم عذراً فى عدم الإيمان بعيسى "عليه السلام" .

فقال لأصحاب المزرعة : كم تقدرون ثمناً لزرعكم ؟ فذكروا له الثمن ... فقال لأصحاب الغنم : كم تقدرون ثمنا لغنمكم ؟ فذكروا له الثمن .

رأى داود "الْكَلِيْلاً" أن الثمنين متقاربان ، فقال لأصحاب الغنم : إدفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم .

وهذا الحكم يؤدى إلى فقدان أصحاب الغنم كل شئ ، وإلى حصول أصحاب الزرع على الأرض ، وعلى الغنم معاً .

وهنا يلهم الله سليمان بن داود الحكم الصحيح ، فيستأذن أباه فى إظهار حكمه ، فيأذن له ، فيقضى بأن يقوم أصحاب الأرض برعى الغنم ، ويقوم أصحاب الغنم بزراعة الأرض ، فإذا ما جاء وقت الحصاد ، تسلم أصحاب الأرض أرضهم بزرعها ، وتسلم أصحاب الغنم غنمهم بتمامها ... وبهذا يأخذ كل طرف حقه كاملاً فإن قيل : فما بال أصحاب الأرض يرعون الغنم لأصحابها ؟ نقول : يرعونها ويأخذون صوفها ، ولبنها ، ونتاجها ، جزاء عملهم .

رضى الجميع بهذا الحكم ، وسعد به داود "الْكَلِيْلاً" ، وحكم به ، وعاد عن حكمه الأول .

وهذا الحكم من تفهيم الله لسليمان ، فهو سبحانه مطلع على كل شئ ، يقول تعالى عن هذه الحادثة : ﴿ **وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (١) .

يقول الحسن : لولا هذه الآية لهلك القضاه ؛ لأن الله تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، واثنى على داود باجتهاده ، وأمد كلاً منهما بالعلم والحكمة .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات (٧٨ ـــ ٧٩) .

الحادثة الثالثة : التنازع حول الولد :

كان لإمرأتين ولدان ، جاء الذئب وأخذ أحدهما ، فتنازعا حول الثانى ، كلاً منهما تريده لنفسها ، فاحتكما إلى داود "عليه السلام" فحكم به للكبرى ... فاستأذن سليمان أباه ، وأتى بالمرأتين ، وقال لهما : هاتوا سكيناً أشقه بينكما نصفين ، فوافقت الكبرى ، ورفضت الصغرى ، وانزعجت وقالت : يرحمك الله ، هو أبنها ، إعطه لها ، لاتشقه ، فحكم به للصغرى ،لأنه عرف أنها أمه ، فرجع داود عن حكمه ، وحكم بما رآه ولده سليمان .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة "رضي الله عنه" أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال : **كانت إمرأتان معهما أبناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود ، فأخبرتاه ، فقال : أئتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا تفعل ، يرحمك الله ، هو أبنها ، فقضى به للصغرى** (١) .

وإنما حكم داود للكبرى ، لأن الولد كان فى يدها ، وليس مع الصغرى بينة وهذا جار على القواعد الشرعية ، وأما سليمان فقد احتال بإذن من أبيه بحيلة لطيفة ، أظهرت ما فى نفس كل منهما ، ووصل للحق بظهور جزع الصغرى الدال على شفقتها ، و لم يلتفت إلى إقرارها بأنه ابن الكبرى ، لأن إقرارها خوف عليه ، وإيثار لحياته بدافع أمومتها .

ومن هذه القصص الثلاث تظهر فوائد ، لابد منها لكل حاكم ، يقصد العدل ويعمل له ، وأهمها : ـــ

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب الأنبياء ـــ باب ووهبنا لداود سليمان ج٦ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(١) عدم التسرع فى الحكم ، واستقصاء البحث ، والتحرى ، ومحاولة معرفة كافة جوانب القضية ، حتى لايترك جانب له أهميته ، فى الحكم .

(٢) ضرورة المحافظة على الحقوق الأساسية ، والعامة ، لكل منهم ، لأن لكل تهمة عقوبة لا تتعداها ، ومن الظلم للإنسان أن يعاقب بغير ما يستحقه ، أو يعاقب بذنب غيره ، أو ينظر إليه إذا إرتكب جرماً واحداً كأنه إرتكب جرائم الدنيا كلها .

(٣) ضرورة فطنة القاضى ، ليكتشف الحقيقة بالأسئلة المتعددة ، ليتمكن من محاصرة المتهم حتى يقر بالواقع الحقيقى.

وليعلم الجميع أن العدل أساس الملك ، وبه تدوم السعادة للجميع ..

****

النقطة الرابعة

ركائز الدعوة فى قصة داود "عليه السلام"

فى قصة داود "عليه السلام" دروس وعبر عديدة ، يمكن للدعاة أن يستفيدوا بها ، وهم يتحركون بالدعوة ، ويبلغونها للناس ، وهذه الدروس ركائز نسوقها للدعاة ، ومن أهمها : ــ

الركيزة الأولى : شجاعة الداعية :

الداعية الفاهم لرسالته ، المتمسك بالحق ، الذى يدرك أنه يعمل لله تعالى ، عليه أن يكون شجاعاً فى عرض الحق ، وفى الدفاع عنه ، لأن الشجاعة قوة دافعة ، تظهر قوة الإيمان ، وتؤكد قناعة الداعية بما يعمل له .

والشجاعة تجعل لصاحبها ذكراً حسناً بين الناس ، لأنها تكون فى خدمة مصالحهم ، وسعادتهم .

والشجاعة تتحول بصاحبها إلى عادة ترزقه القدرة على عرض الدعوة ، على جميع الناس ، لايهاب فريقاً ، ولا يهرب من ملاقاة آخر ، وبـــذلك يقـــوم بواجـــب الدعوة إلى الله .

والشجاعة جرأة ، وإقدام عند الحاجة إليها ... ولذلك لزم أن يلتزم الدعاة ، بآدابها ، وأخلاقها .

إن التهور ، والاندفاع ، والعدوان ، وإظهار الإقدام فيما لا يفيد ليس مـــن الشجاعة فى الشيء .

وعلى الشجاع أن يعد للأمر عدته كما فعل داود "عليه السلام" ، فقد صـــنع آلـــة الحرب ، وعمر، وزرع ، ونشر العدل ، وكون جيشاً قوياً ، ولذلك عد عصر داود بداية العصر الذهبى للإسرائيليين .

الركيزة الثانية : حسن عرض الدعوة .

على الدعاة أن يعرضوا دعوتهم ، بوسيلة مؤثرة ، وبأسلوب مفهوم . .

أنظر إلى القرآن الكريم وهو يعرض قصة طالوت بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ﴾ .. وحين يعرض قصة الخصمين فيقول : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ ﴾ فهو بالإستفهام يقدم الموضوع كأنه مشاهد ، مرئى ، وكأنه يقول للمستمع ، أنظر ، إسمع .

يشير الزمخشرى إلى أن الإستفهام يجعل المعنى فى صورة المحسوس المفهوم ، لأنه يبحث عن إجابة عند المستمع (١) ، وهذا فى حد ذاته يجعل المستمع يشارك الداعية ، فيما يريد ، ويثير اهتمامه نحو موضوع السؤال .

والإستفهامات كثيرة فى القرآن الكريم ، وعلى ألسنة رســـل الله " علـــيهم صلوات الله وسلامه " .

---

(١) تفسير الزمخشرى ج٤ ص ٨٢ بتصرف .

الركيزة الثالثة : التأنى فى الدعوة :

يتعجل الدعاة نتائج سعيهم ، وليس لهم ذلك ، بل عليهم أن يخلصوا فى الدعوة ، ويتركوا النتائج لله تعالى ، ، وليتجنبوا أن يكتفوا بالرد على إتهامات الآخرين وعليهم أن يعرضوا دعوتهم بينة واضحة ، مع أدلتها ، وبراهينها ، ويتركوا الجدال حولها ، فإن جادلهم فريق فلهم دعوتهم ، الخاصة بهم .

الركيزة الرابعة : تعاون الدعاة :

على الدعاة أن يتعاونوا على تبليغ الدعوة ، ليكمل بعضهم بعضاً ، ويأخذوا درساً من سليمان وداود " عليهما السلام " ، فقد تعاونا فى الحكم ، ووصلا بأمر الله تعالى إلى الحكم الصحيح .

وليتجنبوا التنافس ، والتنازع لما له من ضرر عليهم ، وعلى دعوتهم ، وليبتعدوا عن الإختلاف فى الفتوى ، حتى لا يختلف الناس ، ويمكن لهم أن يتدارسوا سوياً الفتاوى محل الخلاف ، ليصلوا إلى حكم يرضونه جميعاً ، وحينئذ ينتهى الإختلاف وهو الأمر المطلوب .



٢١

سليمان عليه السلام

سليمان "عليه السلام" أحد أنبياء بنى إسرائيل ، أرسله الله تعالى بعد أبيه داود "عليه السلام" .

ويعد عصر سليمان "عليه السلام" أزهى عصور الإسرائيليين ، فقد أسس لهم ، المملكة الصالحة بحضارتها الراقية ، وكان له "عليه السلام" فى الحكم ، والملك أحداث ، وأحاديث ، وسوف أتحدث عنه بمشيئة الله تعالى فى النقاط التالية :

النقطة الأولى

التعريف بسليمان " عليه السلام "

سليمان "عليه السلام" هو ابن نبى الله داود "عليه السلام" ، نشأ فى بيت النبوة ، وتربى فى كفالة الملك ، وورث الشجاعة والحكمة عن أبيه .

كان سليمان يشارك أباه فى أمور الحكم ، والقضاء ، ويساعده فى تدبير أمور الدولة ، وكان يحكم فى بعض القضايا بأدق مما يحكم أبوه ، كما حكم فى قضية الزرع والغنم (١) ، وقضية التنازع حول الولد (٢) ، ولقد كان داوود يرجع لحكمه ، لظهور صوابه ، ودقته .

وتوفى داوود وعمر سليمان اثنان وعشرون عاماً ، فورث الحكم ، والقضاء

---

(١) انظر ص ٤١٣ .

(٢) انظر ص ٤١٥ .

عن أبيه ، يقول تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

وقد ورث سليمان الملك ، والنبوة معاً ، لأنه لو حرم النبوة فقد حرم الخير كله ، ولما أمده الله بالمعجزات العظيمة ، ذات التأثير الواضح فى بناء ملك سليمان "عليه السلام" ، ولا صحة لمن يثبت له الملك ، وينفى عنه النبوة ، يقول الكلبى : كان لداود تسعة عشر ولداً ، فورث سليمان من بينهم الملك والنبوة ، أما المال فقد انقسم على العدد كله .

ووراثه النبوة تعبير مجازى ، لأن النبوة اختيار إلهى محض ، والمراد منها هنا أن الله جعل النبوة له بعد أبيه .

وقد علم الله سليمان منطق من لايتكلم من طير ، ونبات ، وحيوان ، وجماد ، وأتاه كل ما طلب ، وأمده بكل شئ تصوره ، فضلاً من الله ونعمة .

وكان سليمان جديراً بتولى الملك بعد أبيه ، لحكمته ، وحسن تدبيره ، وقدرته الفائقة على الفهم ، والحكم ، والتنفيذ ... وقد أكمل سليمان ما بدأه داود ، وشرع فى عمارة المسجد كما أوصاه والده ، وبنى مدينة (تدمر) ، وأقام على بناء الهيكل سبع سنوات ، وبنى بيتاً للجنود ، وأنشأ مصنعاً للسلاح ، وأسس أسطولاً تجارياً كبيراً ، يجوب الشرق والغرب ... وازدهرت على يديه حضارة ، ربانية كبيرة ، وعاش الإسرائيليون مجداً ، لم يروه فى أى مرحلة من مراحل تاريخهم ، ولما بلغ سليمان مبلغ النبوة جاءه وحى الله ، فجمع بين الملك ، والقضاء ، والنبوة كأبيه داود " عليهم السلام " .

---

(١) سورة النمل آية (١٦) .

لقد وفى سليمان "عليه السلام" بما كلف به ، ودعا قومه إلى الله تعالى ، وكان دائم الشكر لله يدعو ربه أن يعينه على الطاعة ، والذكر ، والحمد ، والثناء على النعم الوافرة التى أعطاها الله له ، ولوالديه ، ، وأن يتفضل عليه بإدخاله فى عباده الصالحين ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) .

وقد مدحه الله تعالى لصلاحه ، وتقواه ، فقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) ، وقربه إليه ، وجعله من أنبيائه ، وخلصائه ، فى الدنيا ، والآخرة .

وقد استفاد سليمان بمواعظ داود " عليهم السلام " فى أقواله ، وأعماله ، وسلوكه ، يقول وهب : (لما استخلف داود ابنه سليمان وعظه ، فقال : يا بنى إياك والهزل ، فإن نفعه قليل ، يهيج العداوة بين الإخوان ، وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه ، وعليك بتقوى الله ، وطاعته ، فإنهما يغلبان كل شئ ، واقطع طمعك عن الناس ، فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وإياك وما يعتذر عنه من القول ، والفعل ، وعود لسانك ، ونفسك الصدق ، وإلزم الإحسان فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل ، ولا تجالس السفهاء ، ولاترد على عالم ، ولا تماره فى الدين ، وإذا غضبت فالصق جسمك بالأرض ، وتحول من مكانك ، وأرج رحمة الله فإنها وسعت كل شئ) (٣) .

---

(١) سورة النمل آية (١٩) .

(٢) سورة ص آية (٣٠) .

(٣) قصص القرآن ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

النقطة الثانية

معجزات سليمان " عليه السلام "

سأل سليمان "عليه السلام" ر ه أن يهب له ملكاً ، لايناله أحد بعده ، وبالضرورة لم يشاهده أحد قبله ، فاستجاب الله له ، وأقام له ملكاً عريضاً ، وحضارة راقية ، تعتمدعلى خوارق العادات التى وهبها الله لسليمان "عليه السلام" .

وكان على الإسرائيليين أن يتذكروا فضل الله عليهم ، وأن يعلموا أن هذه المعجزات لم تظهر لأمة سابقة ، ولن تظهر لأمة لاحقة ، وأنهم بها تمكنوا من الحياة فى إطار أرقى حضارة عرفتها البشرية .

لقد كانت المعجزات الحسية فى مجملها تأتى مؤقتة ، تبهر العقول ، وتؤدى وظيفة معينة ، وتنتهى ، كطوفان نوح "عليه السلام" ، ونار إبراهيم "عليه السلام" وعصا موسى "عليه السلام" وغيرها ... أما معجزات سليمان "عليه السلام" فكانت تصنع حضارة ، وتستمر مع سليمان لاتنقطع عنه ما دام حياً ، وفى نفس الوقت ينتفع بها كل إسرائيلى يعيش فى مملكة سليمان "عليه السلام" .

إن هذا البروز الواضح لمعجزات سليمان "عليه السلام" ، ذات النفع المادى الشامل تتناسب مع العقلية الإسرائيلية فى ماديتها ، ونفعيتها ، واتكالها ، وحاجتها الدائمة إلى قوة ليست منهم ، تساعدهم ، وتعينهم ، وترفع شأنهم فى أعين الآخرين .

١ ــ تسخير الريح :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ

(١) سورة الأنبياء آية (٨١) .

ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) ويقول تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢) .

ومن الآيات ، وأقوال المفسرين نعلم أن الله سبحانه سخر الريح لسليمان "عليه السلام" خاصة ، وأنها كانت ريحاً عاصفة ، شديدة ، قوية ، لكنها شدة تفيد ، ولاتضر ، ولذا وصفها الله بأنها رخاء ، ولينة ، ، وقد بلغ من سرعة الريح أن المسافة التى يسيرها الناس فى شهرين مسرعين ، تقطعها الريح فى يوم واحد ، مهماكانت حمولتها ، التى بلغت أحياناً مئات الآلوف، بأحمالهم ، وعتادهم ، فى بعض الأوقات

وكانت الريح تتحرك بأمر سليمان ، وتتجه حيث يريد ، واستمرت فى طاعتها ، وخضوعها لسليمان طيلة حياته كلها "عليه السلام" .

وكانت الريح تجرى فى كل الأرض التى باركها الله وهى مملكة سليمان "عليه السلام" الممتدة من خليج العقبة إلى شط الفرات ، وكانت الريح تسوق الماء إلى الجهة التى يشاؤها سليمان ، كما كانت تحرك السحاب إلى ما يأمر به سليمان لتمطر فيه ، وأيضاً كان لهبوب الريح دور فى توجيه السفن إلى الموانئ التى يريدها سليمان ، ولذلك كان إتجاه الريح خاضعاً لتوجيهاته " عليه السلام" .

ولكن ... ما هى الفائدة التى قدمتها الريح المسخرة فى مملكة سليمان "عليه السلام" وهل استفاد بها الإسرائيليون ؟ وما دورها فى الحضارة ؟

---

(١) سورة سبأ آية (١٢) . (٢) سورة ص الآيات (٣٥ ـــ ٣٦) .

يقول القرطبى : كان سليمان "عليه السلام" لايقعد عن الغزو ، فإذا علـــم قومـــاً يعادون الله فى الأرض أرسل إليهم ، واستعد لهم ، وسار إليهم غازياً ، تحمله الريح إلى حيث يريد ، وكان إذا أراد وجهة ما ، أحضر فراشاً ، وجعل عليه الناس ، والدواب ، وآله الحرب ، ثم يأمر الريح فتحمل الجميع إلى حيث يريد (١) .

يروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلـــس نصـــبت حواليه أربعمائة ألف كرسى ، فيجمع الإنس ، والجن ، جميعاً عليها ، وتقلهم الـــريح حيث يشاء (٢) .

فهل وصلت الإنسانية إلى شئ من هذا ؟ ! ..

وسيلة نقل جبارة ، تنقل المجتمع كـــله فى لحظـــة واحـــــدة ، فى يســـر ، وأمان .. ، .. لقد استفاد الإسرائيليون بهذه المعجزة ، وصارت الأرض كلها تحـــت أيديهم ، يذهبون ، ويرجعون حيث يريدون ..

يروى المؤرخون أن سليمان "عليه السلام" كان يركب الريح ، ويمر على الـــبلاد ، والقرى ، ويترل حيث يريد ، بلا مطار يعـــد ، أو استقبالات تجهـــز ، أو نفقـــات تبذل ... وبذلك استراح الناس ، ونهض المجتمع .

إن الحضارة الحديثة تفتخر بعملياتها الإتصالية ، وبإختراعاتها المتنوعة من طيران وسفن ، وأقمار صناعية ، وأشكال الإتصالات السلكية ، واللاسلكية .... ومع ذلك لايمكـــن لأى عقل أن يتصور حضارة اقتربت من حضارة سليمان "عليه السلام" ... إن جيش سليمان المكون من مئات الآلوف كان ينقل بعتاده إلى ميدان المعركة فى ساعات قليلة ، بدون أدنى جهد ، أو حدوث أى خطأ ، لم تسقط له طائرة ، أو تصطدم بغيرها ... وكان الريح تحمل لـــه أحاديـــث النـــاس وكلامهم .

---

(١) تفسير القرطبى ج١١ ص ٣٢٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج١٤ ص ٢٦٩ .

لقد كان سليمان يركب الريح ، ويتجول فى أرجاء مملكته ، يطمئن على رعيته ، ركب الريح مرة ، فمر بحراث ، وحملت الريح إليه كلامه وهو يقول : لقد أوتى آل داود ملكاً عظيماً .. فنزل وأتى الحراث ، وقال له : إنى سمعت قولك ، وإنى جئت إليك ، لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، لتسبيحة واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتى آل داود ، فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همى (١) .

٢ ـ تسخير الجن :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤) .

من الآيات ، ومن أقوال المفسرين نفهم أن الله تعالى سخر الجن كله لسليمان "عليه السلام" ، يوجههم لما يشاء من الأعمال ، وقد أقدره الله عليهم ، وحكمهم ، وأدار شئوهم ، وكلفهم بأعمال نافعة للمملكة ، حيث جعل منهم طائفة تبنى وتعمر ، وتشيد الصروح العالية ، الرائعة ، ومن أعمالهم فى فن العمارة ، ما أقاموه له من أماكن طيبة للعبادة ، وهى المحاريب ، كما نقشوا له الصور الجميلة على الجدر ، وهى التماثيل ، وكان عملهامباحاً فى شريعة سليمان "عليه السلام" ، وبنوا له الحياض لحفظ الماء ،

---

(١) تفسير القرطبى ج١٥ ص ٢٠٥ .
(٢) سورة الأنبياء آية (٨٢) .
(٣) سورة سبأ آية (١٢) .
(٤) سورة ص الآيات (٣٧ ـ ٣٨) .

وهى الجفان ، وأنشأوا الأوانى ، والصوامع الثابتة ، وهى القدور الراسيات ، يقول الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) .

كما كلف سليمان طائفة أخرى من الجن بالغوص فى الماء لإستخراج اللؤلؤ والمرجان ، ومختلف الجواهر ، واللآلئ ، وهو "عليه السلام" أول من وصل إلى استخراج اللؤلؤ من البحر ، يقول تعالى : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣)

وكان "عليه السلام" يوجه الجن إلى الأعمال المختلفة ، فيقومون بها ، مستفيداً بما يتمتعون به من سرعة فى الحركة ، وقدرة على إختراق الحواجز المادية ... وكان "عليه السلام" يسجن كل من يخالفه من الجن ، ويقيده بالسلاسل ، ويضع المخالفين ، اثنين اثنين ، فى سجن واحد .

وبتسخير الجن لسليمان "عليه السلام" قامت نهضة المملكة على أعمال الجن ، وتمتع الإسرائيليون بنتائج هذه الأعمال من غير أن يعملوا ، أو يتضرروا .

٣ ــ إسالة النحاس : احتاج سليمان "عليه السلام" إلى مادة يصنع بها السلاح ، وبعض الصناعات الأخرى ، فأمده الله بها ، وخلق له عيناً ، يسيل منها النحاس الأصفر ، كما يسيل الماء واستمر سيلان العين ثلاثة أيام ، يقول تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤) ، وكان الجن

---

(١) سورة سبأ آية (١٣) . (٢) سورة ص الآيات (٣٧ ــ ٣٨) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٨٢) . (٤) سورة سبأ آية (١٢) ، القطر : هو النحاس السائل .

يأخـــــذ النحاس السائل ويشكله كما يريد سليمان ، فيجمد ، ويصـــير مصـــنوعاً جديداً ، مفيداً

٤ ــ محادثة ما لم ينطق :

علم الله سليمان "عليه السلام" منطق الطير ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾ (١) ، والآية تتضمن مقالة سليمان "عليه السلام" لبنى إسرائيل ، يعرفهم بفضل الله عليهم ، ليشكروا هذه النعم .

وقد فهم سليمان "عليه السلام" كلام من لايتكلم عموماً ، من طير ، وحشرات ، ونبات وجماد ... وإنما خص الطير بالذكر ، لأنه كان من جنوده ، وكان يحتاجه كثيراً يظله من الشمس بجسمه ، ويلطف الهواء بجناحيه ، ويحمل البريد ، ويأتيه بأخبار المناطق البعيدة .

وكان سليمان يبين لقومه أقوال الطيور لما فيها من حكمة ، ومواعظ ... قال جماعة من العلماء :إن سليمان "عليه السلام" كان يفهم ما فى نفس الطائر من غير صوت .. والأظهر أنه كان يسمع صوت الطائر ، ويدرك به ما فى نفسه كدلالة ظاهر الآية .

وبهذه المعجزات تمكن سليمان "عليه السلام" من إقامة حضارة واسعة شملت البر ، والبحر ، والجو ... وصدق فى قوله الذى حكاه الله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النمل آية (١٦) .

(٢) سورة النمل آية (١٦) .

النقطة الثالثة

مملكة سليمان "عليه السلام"

بعطاء الله ، وفضله على آل داود "عليه السلام" ، تمكن سليمان "عليه السلام" من إقامة مملكة راقية ، ذات حضارة إنسانية ، عظيمة ، شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ، وتقوم هذه المملكة الصالحة ، على الأسس التالية :

١ ــ العقيدة الصحيحة .

قام سليمان "عليه السلام" بواجبه ، الذى كلفه الله به ، ودعا الناس إلى عبادة الله تعالى ، وضرورة الإخلاص فى التوجه إليه ، ونبذ كل ألوان الشرك ، والشركاء ، يدل على ذلك توجه سليمان "عليه السلام" إلى الله بالطلب والدعاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) ، فهو فى طلبه يؤكد أن الله هو الغفور ، الرحيم ، وأنه القادر على كل شئ ، وأنه سبحانه يهب ما يشاء لمن يشاء ، ويمنع عمن يشاء ما يشاء .

وكان "عليه السلام" يعيش نعم الله تعالى ، ويشكره دائماً ، أنظر إليه يوم استمع إلى النملة ، وهى تحذر سائر النمل ، من بطش جنود سليمان بهم ، نجده "عليه السلام" يتوجه إلى الله بالشكر ، على نعمه الوافرة ، له ، ولوالديه ، ويسأله التوفيق للعمل الصالح ، الذى يرضى به ، وأن يجعله فى زمرة الصالحين فى الدنيا ، وفى الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة ص آية (٣٥) . (٢) سورة النمل آية (١٩) .

وطالب الهداية والتوفيق من الله قد وصل إلى درجة اليقين ، والصدق ، والعمل لايكون صالحاً ، إلا بإستجماع كل أركان الشريعة ، وإلتزام الأخلاق الكريمة

وما أمن به سليمان "عليه السلام" هو دعوة لقومه ، ولذلك لما علم بضلال بلقيس ملكة سبأ ، أرسل إليها بكتاب ، بدأه بقوله ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وطلب منها أن تأتى إليه ، ومعها قومها ، مؤمنين بالله ، تاركين عبادة غير الله تعالى ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١) .

ولما أرسلت إليه مالاً ، رده إليها ، وعرفها بالله الذى آتاه كل خير ، وخير الله أفضل من أموالهم ، وهداياهم ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢) .

وقد مدح الله سليمان "عليه السلام" ، وبين منزلته فى الدنيا ، وفى الآخرة ، وهى القرب من الله تعالى ، والرجوع الحسن فى رضوان الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣) .

٢ ـ العدل فى الحكم :

أشتهر سليمان بالحكم العادل ، وكانت له بعض الأحكام العادلة فى عهد أبيه ، حتى أشتهر بها ، يقول تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٤) .

وقد سبق بيان حكمه فى حادثة الغنم والزرع ، وفى حادثة الولد الذى أكله الذئب .

---

(١) سورة النمل الآيات (٢٩ ـ ٣١) .
(٢) سورة النمل آية (٣٦) .
(٣) سورة ص آية (٤٠) .
(٤) سورة الأنبياء آية (٧٩) .

٣ ــ صيانة حقوق الرعية :

كان "الطَيْكِلاَ" يراقب رعيته ، ويرعى مصالحهم ، ويقدم لهم ما يحتاجون إليه فى معاشهم .

وقد رأينا عمل الجن ، والريح ، والنحاس المذاب ، فى حياة بنى إســـرائيل ، فلقد صنع لهم حضارة ، وحقق لهم كل ما يريحهم ، وييسر معاشهم .

كان "الطَيْكِلاَ" يتفقد أحوال الرعية ، ويبحث عن حاجاتهم ليقضيها لهم ، فهو "الطَيْكِلاَ" سمع صوت النملة وهى تحذر إخوانها من بطش جنوده ، وتطلب منهم اللجوء إلى المساكن ، فسر بذلك .

ومع الهدهد ، نجد أنه "الطَيْكِلاَ" تفقد الطير ، فلم يجده ، فأنذره بالعقوبـــة ، ثم قبل عذره لما وجده محقاً فى غيابه .

وكان يتفقد الخيل ، ويستعرضها أمامه ، ويأمر جنوده برعايتها ، وقد أمرهم بإرجاعها إليه ، بعد أن أخذوها بعيدة عنه ، ليمسح أعناقها ، وقوائمها بيده الشريفة ، يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝ ﴾ (١) ، ومعنى الآيات أنه استعرض الخيل عشاء ، وهى من أجود أصناف الخيل ، لأنها من الصافنات الجياد ، أى التى ترفع أحد اليدين ، وتقوم على ثلاثة أطراف فقط ، وهى خيل سريعة المشى ، واسعة الخطى ، وبعد الإستعراض دعا الخيل مرة أخرى ، وأخذ يلاطفها ، ويروضها ، ويمسح أعناقها ، وسيقانها ، تشريفاً ، وتعظيماً لشأنها ، وقوتها ، وحتى يعرف ما بها من تعب أو مرض .

ومعنى قوله تعالى ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ﴾ أرجعوها إلى مرة أخرى قائلاً : إنى أحببت هذا الخيل لأنها تذكرنى بربى ، وتعيننى على الجهاد فى سبيله ، وأريد أن أطمئن عليـــــها

---

(١) سورة ص الآيات (٣١ ــ ٣٣) .

وليس كما يقول الوضاعون أن سليمان استغرق فى إستعراض الخيل حتى فاتته صلاة العصر ، ولذلك أعادها، وأخذ يقطع سيقانها ، ويضرب صدورها بالسيف ، إنتقاماً منها ، وتقرباً إلى الله تعالى .. ولكن .. متى عد قتل الحيوان تقرباً إلى الله ؟ وما ذنب الخيل فى فوات صلاة العصر ؟ .. إنه دخيل ، موضوع ، ويمكن إجمال الغرض من مسح سليمان "عليه السلام" للخيل فيما يلى :

أ ـــ تشريفها ، وتكريمها ، وإظهار فضلها ، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو .

ب ـــ أبراز قاعدة المسئولية السياسية، التى يتحملها الراعى تجاه رعيته ، وعلى الملك أن يباشر الأمور بنفسه ، مهما كان أتباعه ، وجنده .

ج ـــ أنه كان خبيراً بطب الخيل ، فأراد أن يطمئن عليها قبل أن تبيت .

وهكذا نراه "عليه السلام" يهتم بأحوال رعيته على اختلاف أجناسهم وأنواعهم ، وأعمالهم .

واهتمامه بالطير ، والحيوان ، والنمل دليل على اهتمامه بالناس ، لأنه وجه كل ما سخر له لصنع حضارة تخدم الناس .

٤ ـــ موقفه من صاحب الرأى الآخر :

لم يكن سليمان "عليه السلام" مستبداً ، ولا غليظاً ، وإنما كان نبياً ، وملكاً ، ينظر إلى مخلوقات الله ، ويقدر لها رأيها ، ويسمع قولها ، ويناقشها ليصل إلى الحق .

إنه "عليه السلام" جمع جنوده فى حشد ضخم ، وسار بهم ، فلما اقترب من وادى النمل ، قالت نملة لإخوانها : أدخلوا مساكنكم ، حتى لا يقتلكم سليمان وجنوده ، وهم لايشعرون بجريمتهم ، فسمع سليمان حديث النملة ، و لم يغضب ، و لم يعاتب ، و لم يغير أمرها لإخوانها ، وإنما استحسن صنيعها ، وتوجه بالشكر لله الذى علمه منطق النمل .

ولما تفقد الطير لم يجد الهدهد ، وعلم أنه غائب فأنذره بعقوبة الذبح ، أو بالتعذيب الشديد بنتف ريشه ، إن كان غيابه بلا عذر ، فلما جاء الهدهد ، أبدى عذره ، وبين لسليمان أنه ذهب إلى مكان بعيد ، رأى فيه عجباً ، هذا المكان هو سبأ ، وهى مملكة نائية ، غنية ، فيها كل ما يحتاجه الناس ، وعلى رأس المملكة ملكة ، لها عرش عظيم ، ودين هذه المملكة كفر وضلال ، لأنهم يسجدون للشمس من دون الله وقد لعب الشيطان برءوسهم ، وزين لهم الضلال والكفر ، وتركوا السجود لله تعالى الذى يعلم أسرار السموات ، والأرض ، ويخرجها لعبادة وفق مشيئته سبحانه وتعالى .

استمع سليمان إلى ما أعتذر به الهدهد ، وقال له : سنتبين الحقيقة لنعلم إن كنت صادقاً أو كاذباً .

وقد ظهر صدق الهدهد ، فبانت براءته ، وعفا عنه سليمان "عليه السلام" ، يقول الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة النمل الآيات (٢٠ ــ ٢٧) .

النقطة الرابعة

سليمان وملكة سبأ

ذكر الهدهد لسليمان سبب غيابه ، وبين له أنه عائد من سبإ ، بأخبار هامة ، وصحيحة ، ووضح أنها تتصل بفساد فى العقيدة ، لأن أصحاب هذه المملكة ، يعبدون الشمس من دون الله تعالى .

أرجأ سليمان عقوبة الهدهد ، حتى ينظر فى الأخبار التى أتى بها ، فإن كان صادقاً عفا عنه ، وإن كان كاذباً عاقبه .

فكتب سليمان رسالة إلى ملكة سبأ ، صدرها﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وبين فيها أنها مرسلة من سليمان ، وكلف الهدهد بحملها ، وإلقائها فى مكان بحيث يصل إلى الملكة .

وصل الخطاب إلى الملكة ، وقرأته ، وأحاطت بما فيه ، فجمعت كبار رجال مملكتها ، وشاورتهم فى الرسالة ، وقالت لهم : إنها جاءت من عند سليمان ، وإنها مصدرة باسم الله ، وإن الرسالة دعوة للجميع أن يأتوا لسليمان خاشعين ، متواضعين مؤمنين بالله تعالى ، تاركين الشرك ، وعبادة الشمس ، وطلبت من المجتمعين أن يبدوا رأيهم ، ويشتركوا معها فى وضع القرار المناسب ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١) .

قال الحاضرون بعد أن تداولوا الرأى فى موضوع الرسالة ، القرار قرارك ، والأمر إليك ، ونحن أصحاب قوة ، وبأس ، ننفذ ما تأمرين به ، يقول تعالى

---

(١) سورة النمل الآيات (٢٩ ــ ٣٢) .

﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (١) .

نظرت الملكة، ورأت أنه لاقبل لها بحرب سليمان ، حتى لاتجر على شعبها ، ومملكتها الخراب ، والدمار ، وقالت لرجالها : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وهدفهم الإستيلاء على الديار ، والأموال ، ولذلك سأرسل لسليمان هدية مالية ، ضخمة ، لنرى ما سيحدث ، فإن كان ملكاً قبلها ، وإن كان نبياً ردها ، ووقتها لكل حدث حديث ، يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (٢)

وصل وفد الملكة إلى سليمان "عليه السلام" ، ورأى سليمان أنه يحمل مالاً كثيراً ، فقال لهم : إرجعوا بمالكم ، لا حاجة بى إليه ، فلقد أعطانى الله تعالى رسالة ، وملكاً ، وسخر لى الكون كله ، وأتانى ما لم يؤت أحداً من العالمين .

وحمل الوفد تهديداً للملكة لأنها إن لم تصدق برسالته ، وتؤمن بالله ، واستمرت على كفرها ، وضلالها ،وعرفهم بأنه سيرسل لها جيشاً ضخماً ، لاقبل لها به ، وسوف يخرجها من مملكتها ، ورجالها صاغرين ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٣) .

عاد الوفد إلى بلقيس الملكة ، فعلمت أن سليمان ليس واحداً من الملوك ، تهمه الأموال والسلطان ، وإنما هو رسول ، يدعو لدين الله ، الذى أيده بالقوة ، وسخر له

---

(١) سورة النمل آية (٣٣) . (٢) سورة النمل الآيات (٣٤ — ٣٥) .

(٣) سورة النمل الآيات (٣٦ — ٣٧) .

الكـــون ، فهيأت نفسها لتذهب إليه ، وتبحث الأمر معه ، وعلم سليمان بتحركها ، فجمع جنوده من الجن والإنس ، وطلب منهم إحضار عرشها ، قبل وصولها،وسألهم : ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١) .

فأجابه عفريت من الجن ،أنا أحضر لك عرشها قبل أن تقوم من مقامك الذى أنت فيه .... استكثر سليمان "عليه السلام" هذه المدة ، فقال رجل من علماء بنى إسرائيل دعا الله باسمه الأعظم : أنا آتيك به قبل أن تغمض عينك ، وقال : يا نبى الله أمدد بصرك فمد بصره نحو اليمن ، فإذا بالعرش ، فما رد بصره إلا وهو عنده ... ونظر سليمان فرأى العرش ثابتاً عنده ، فأقر بفضل الله الذى مكن له ونصره ، وطلب من الله أن يعينه على الشكر ، وطلب من أتباعه أن يتوجهوا بالشكر لله ، يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢) .

قال سليمان لجنوده : نكروا لها عرشها ، وغيروه ، بالزيادة والنقص ، فجعلوا تحت العرش ماء ، وفـــوق الماء زجاجاً ، فلما وصلت بلقيس سألوها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وقد علمت أن سليمان على حق منذ أن راسلنى ، وأسلمت قبل ذلك ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة النمل آية (٣٨) . (٢) سورة النمل الآيات (٣٩ ـــ ٤٠) .

(٣) سورة النمل الآيات (٤١ ـــ ٤٣) .

قيل لها أدخلى الصرح الذى بناه الجن ، فلما رأته حسبته ماء ، فكشفت عن ساقيها ، فنوديت أنه قصر من زجاج لا ماء به ، فأقرت بواقعها ، وأعلنت إسلامها ، ورجعت عن ذنوبها ، وآمنت مع سليـــمان لله رب العالمين ، يقـــول تعالى : ﴿ **قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾** ﴾ (١) .

*****

النقطة الخامسة

فتنة سليمان "عليه السلام"

يتحدث المؤرخون عن فتنة سليمان "عليه السلام" ، التى أشار الله تعالى إليها ، فى قوله : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾** ﴾ (٢) ، وذهبوا فى تفسيرها مذاهب عديدة (٣) ، وأحسن ما قيل فيها أن هذه الفتنة فسرها الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ، بسنده عن أبى هريرة "رضي الله عنه" يقول : قال النبى "صلى الله عليه وسلم" : (**قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة ، على سبعين إمرأة ، تحمل كل إمرأة فارساً ، يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل ولم تحمل النسوة شيئاً إلا واحداً ، ساقطاً أحد شقيه ، فقال النبى "صلى الله عليه وسلم" : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله**) (٤) ، وألقى السقط على الكرسى درساً لسليمان "عليه السلام" .

---

(١) سورة النمل آية (٤٤) . (٢) سورة ص الآيات (٣٤ ـــ ٣٥) .

(٣) تفسير القرطبى ج١٥ ص ١٩٨ ، ١٩٩ . (٤) صحيح البخارى بفتح البارى ، كتاب الأنبياء ـــ باب ووهبنا لداود سليمان ج٦ ص ٤٦٠ .

وللحديث روايات أخرى فى صحيحى البخارى ومسلم ، وفى سنن النسائى ، وصحيح ابن حبان ، ومسند أحمد وغيرهم بنفس اللفظ إلا أنهم يختلفون فى العـــدد ، فالمقل منهم يذكر ستين إمرأة ، والمكثر يذكر مائة ، ويتأول إخـــتلاف العـــدد بـــأن بعضهن سرايا ، والباقى مهيرات ، وكان لسليمان "عليه السلام" ألف إمرأة ، بين مهـــيرة ، وسرية (١) .

وصاحب سليمان رجل من الإنس ، كان يستشيره ، وقيل هو من الجن ، وقيل هو من الملائكة ، وفى عدم إستجابة سليمان لنصيحته تلك ، يقول العلماء إنها كانت فى أثناء كلامه ، فنسيها ، أو أنه لم يسمعها ، أو قالها صاحبه فى نفسه بلا صوت .

ومعنى ألقينا على كرسيه جسداً ، أن المولود الذى خرج ساقطاً أحد شقيه ، ألقى على كرسى سليمان ليراه ويعلم خطأه فى عدم استثنائه بقوله : إن شاء الله .

وتفسير الفتنة بما جاء فى الحديث أولى ، لأن السنة نزلت لبيان القرآن الكريم ، وأيضاً فإن هذا التفسير يحافظ على عصمة النبوة ، ويبعدنا عن الآراء التى لايصح القول بها مطلقاً .

ومن الآراء الباطلة ما يقال من أن الشيطان تمكن من سرقة خـــاتم ســـليمان "عليه السلام" أثناء قضائه لحاجته ، لأنه كان لايدخل بـــه الخـــلاء ، فأخـــــــذه مـــــن زوجـــته(**الجرادة**) ، وصار للشيطان قوة سليمان ، وعاشر نساءه ، وكان لايغتسل واستولى على الكرسى ، والمملكة، أربعين يوماً حتى اكتشف أمره ، فطار من الكرسى وألقى الخاتم فى البحر ، فابتلعته سمكة اصطادها سليمان "عليه السلام" ، فلما وجد خاتمـــه ، استرد ملكه ، وعاد لعرشه ، ونسائه ، ودينه ، وقومه (٢) .

---

(١) فتح البارى ج ٦ ص ٤٦٠ .

(٢) جاء ذكـــر الروايـــة مفـــصلة فى كتب التفسير المختلفة ـــ انظر تفسير ابن كـــثير ج٤ ص ٣٥ ـــ ٣٧ .

وهذا كلام باطل من وجوه : ـــ

(١) يعطى هذا الكلام القدرة للخاتم ، وهذا لا يجوز لأن القدرة لله رب العالمين ، وما قيمة ملك ونبوة يتحكم فيها خاتم ؟ !

(٢) تشير الرواية أن الشيطان استمتع بنساء سليمان "عليه السلام" وهذا يتنافى تماماً مع عصمة النبوة ، ولايصح القول بها .

(٣) توضح هذه الرواية أن الشيطان تمثل بصورة سليمان ، ولا يصح أن يتمثل بصورة النبى أبداً ، يقول "ﷺ" : (**من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بى**) (١) .

(٤) حدد الله لإبليس سلطانه ، وعرفه بأنه لا سلطان له على المخلصين ، يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ (٢) .. وسليمان "عليه السلام" من هؤلاء المخلصين الصادقين ، يقول تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾** ﴾ (٣) ، فكيف يتسلط عليه الشيطان إذاً ؟ !

(٥) القول بهذه الأكذوبة ينفى الحقيقة الدينية من أساسها ، إذ كيف يتمكن الشيطان من القيام بدور النبى ، ويستمر فى الإفساد والإضلال مدة ، فمتى يثق المؤمن إذاً فى صدق الوحى المنزل ؟ !

إن صدق هذه الرواية يعطى الشيطان قدرة على إفساد جميع العلماء ، والزهاد وعلىقدرته على تمزيق تصانيفهم ، وتخريب ديارهم ، وهذا لا يقول به أحد .

إن هذه الرواية باطلة ، ولا يصح القول بها أبداً ، يقول ابن كثير : فى سياق هذه الرواية منكرات ، من أشدها ذكر النساء ، لأن الله يعصم نساء أنبيائه تشريفاً

---

(١) شرح السنة للبغوى ج١٢ ص ٢٢٦ ، باب تأويل رؤية النبى .

(٢) سورة الحجر آية (٤٢) .   (٣) سورة ص آية (٤٠) .

وتكريماً لهم ... ويقول : والرواية كلها منقولة عن أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب (١) .

يبين الرازى صحة ما ذهبنا إليه ، ويقول : ويمكن أن تفسر الفتنة بمرض شديد أصاب سليمان ، فأقعده على الكرسى ، واستمر حتى رجع لصحته ، ويمكن أن يقال : إن الله ابتلى سليمان بخوف ، أو بتوقع بلاء شديد ، فضعف وجلس على الكرسى حتى زال الخوف فرجع إلى ما كان عليه من القوة ، وطيب القلب ، يختم الرازى كلامه بقوله : وحمل الفتنة على أحد هذه الوجوه لا يحوجنا إلى تلك الآراء الركيكة (٢) .

****

النقطة السادسة

وفاة سليمان "عليه السلام"

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (٣) ، والآية تشير إلى وفاة سليمان "عليه السلام" ، وكانت وفاته غريبة كحياته "عليه السلام" ، فلقد توفى ، ولم تعلم الجن بوفاته ، إلا بعد سنة كانت تعمل خلالها ، فى إتمام بناء بيت المقدس ، يقول المفسرون : إن سليمان "عليه السلام" كان فى محرابه ، فأدركه الموت ، وهو متكئ على عصاه ، واستمر على ذلك ، حتى جاءت الأرضة ، وأكلت طرف العصا (المنسأة) ، فاختل توازنه ، فسقط على الأرض ، وهنا علمت الجن ، وعلم أهله بموته ، فأقبلوا عليه ، وغسلوه ، ودفنوه ، .. وظهر

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٦ .

(٢) تفسير الرازى ج٢٦ ص ٢٠٩ .

(٣) سورة سبأ آية (١٤) .

للناس أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يدعون ، وقالت الجن : لو علمنا موته ما لبثنا فى العمل الشاق المهين (١) .

وهذا القول شائع عند المفسرين والمؤرخين ، يذكرونه خلال تفسيرهم للآية .... إلا أنه رأى تأباه وقائع الحياة ..

ـــ فهل يعقل أن يموت شخص ما ، ويستمر سنة لايسأل عنه أحد ؟

ـــ وهل سكت نساء سليمان عن غيابه عنهن هذه المدة الطويلة ؟

ـــ سليمان "عليه السلام" نبى وملك فمن كان يدير شئون المملكة خلال هذه المدة ؟

ـــ ألم يبحث عنه وزراؤه ومستشاروه لأخذ رأيه فى مهام الحكم ، والدولة ؟

ـــ هل توقف الوحى خلال هذه المدة ، أم ماذا ؟

والرأى المعقول هو أن سليمان "عليه السلام" ، توفى ، ودفن كسائر الناس ، وبقى موته مخفياً عن الجن دون غيرهم ، كوصيته ، وقام بالأمر بعده ابنه ، والجن تعمل فى أماكن نائية ، شاقة ، خوفاً من سليمان "عليه السلام" .

وكان لسليمان عصا لا يتركها أبداً ، وذات يوم رآها جن على الأرض ، تأكل فيها الأرضة ، فتقصى الأمر ، فعلم أن سليمان مات ، فأسرع إلى زملائه ، وأخبرهم ، فعلموا موت سليمان، وتركوا العمل ، وقالوا لو علمنا الغيب ، ما عملنا ، وتعبنا هذه المدة .

ويؤيد هذا الرأى أن خر تأتى بمعنى مات ، وأن تعبير القرآن بالفعل المضارع فى قوله (تأكل) بدل الماضى يؤكد لهذا الرأى .... والله أعلم .

---

(١) انظر ابن كثير ، والخازن ، والزمخشرى ، وغيرهم عند تفسير الآية .

النقطة السابعة

ركائز الدعوة فى قصة سليمان "الطِّيْلاً"

أقام سليمان "الطِّيْلاً" حضارة ، ربانية عظيمة ، على أسس خارقة للعـادة ، لكنها متلائمة مع حياة البشر ، وقدمت نموذجاً فريداً لبنى إسرائيل ، حيث كان النبى هو الملك ، وظهر فيها بجلاء عظمة الحضارة القائمة على الدين ، الملتزمة بشرع الله ، واتضح فيها أيضاً أهمية السلطة الدينية فى تطبيق شرع الله فى حياة الواقع ، لأن النـاس ـــ الملأ والعامة ـــ دائماً على مذهب ملوكهم ، ولهذا كانت ركائز الدعوة المستفادة من قصة سليمان "الطِّيْلاً" ، لها أهميتها للدعوة إلى الله تعالى وسأبرز أهمها فيما يلى :

الركيزة الأولى : الدين والحضارة :

تبنى الأمم حضاراتها ، بصور مدنية متعددة ، تقيم العمران ، وتشيد السدود ، وتمهد الطرق ، وتبنى السفن ، وتنشئ المصانع ، وتنتج السيارات ، وتـزرع الأرض ، وتبرز للحياة كل ما يحتاجه الناس فى معاشهم ، وراحتهم ، وسعادتهم .

وتختلف الحضارات فيما بينها بسبب اختلاف الأسس الفكريـة ، والـنظم الاجتماعية التى تسود أصحاب كل حضارة .

فهناك الحضارات المادية ، التى يسيطر على أصحابها الفكر المادى فى العقيدة ، والنشاط العام ، ولذلك ينتشر فيهم الارتباط بكل ما هو مادى ، ممـثلاً فى شـهوات الهوى ، وأطماع النفس الأمارة بالسوء ، ودائماً يلجأ الماديون إلى وضع الأنظمـة ، والتشريعات ويجعلونها متناسقة مع فكرهم ، ونظرتهم .

إن أصحاب الفكر المادى يبيحون التعامل بالربا ، ولا يرون جرماً فى إشـباع الشهوة باسم الحرية ، ولهم فى مفهوم الستر ، والحياء ، وحسن الخلـق ، تصـورات خاصة تختلف عن تصورات الآخرين .

وكثيراً ما تنعكس أفكار الماديين ، وفلسفاتهم على أشكال مدنيتهم ، وصـور النشاط الاجتماعى ، والتعليمى ، الذى يرتضونه لمجتمعهم .

إن صرحاً عمرانياً شامخاً قد يقام ، لكن قيمته تختلف من جماعة لأخرى ، فهناك جماعة تجعله نادياً للعراة ، أو للرقص ، أو للقمار .. وأخرى تجعله مسجداً ، أو مكتبة علمية ... وهكذا يأخذ التقدم المدنى حضارة تقوم على فكر أصحابها .

ولقد أقام سليمان "عليه السلام" حضارة دينية ، تحافظ على حق الله تعالى ، وحقوق الآخرين ، وتبتعد عن الظلم ، والكبر ، والاستعلاء ..

لقد استعرض سليمان جنوده من الجن ، والإنس ، والطير ، بعددهم وعدقم ، فلما رأى فيهم القوة الهائلة الكافية ، وسمع مقالة النملة لإخوانها تذكر فضل الله عليه ، وأقر به ، وطلب من الله أن يلهمه ويوفقه لشكر نعمه التى تفضل بها عليه ، وعلى والديه ، وأن يجعله عبداً صالحاً ، خاشعاً ، خاضعاً لله رب العالمين ، قال ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) ، فلا غرور ، ولا إستعلاء ، ولا إهمال لأى حق لله تعالى .

ولما تفقد الطير "عليه السلام" ووجد الهدهد غائباً غضب ، وأنذره بالحساب ، والعقاب ، بعد تحقيق معه يبين إن كان بريئاً ، أو مذنباً ، لإنزال العقوبة التى يستحقها فقط ، فلما جاء الهدهد ، وقدم سبب غيابه ، وأدلته على ما يقول ، تركه "عليه السلام" ولم يعاقبه ، إلتزاماً بتطبيق عدل الله تعالى .

ولما أرسلت إليه ملكة سبأ هدية مالية ، صخمة ، على وجه الرشوة ، غضب كثيراً ، ورد الهدية وقال لمن حملوها إليه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النمل آية (١٩) .　　(٢) سورة النمل الآيات (٣٦ ـــ ٣٧) .

إن حضارة سليمان "عليه السلام" ، قامت على توحيد الله تعالى ، وكان كل كائن فيها يقوم بواجبه فى إطار عبوديته لله رب العالمين .

وهناك فرق واضح بين حضارة تقوم على أساس دينى ، وأخرى تغايرها ، ويكفى أن نعلم أن الحضارة الدينية تتقدم فى إطار التعاليم الربانية ، وتنسجم مع الشريعة الإلهية ، وتصير عاملاً فى تقوية ، وإحياء الأخلاق الإنسانية ، النبيلة ، ولذلك فإنها حضارة تعيشها أمة مؤمنة صالحة .

أما الحضارات المادية ، فإنها تعمل فى خدمة الشيطان ، تسوء فيها الأخلاق ، وينتشر الإنحلال والشذوذ ، وتعم المظالم ، ويصير الشر ، والعدوان سمة لأفراد هذه الحضارة ، قد يتقدمون علمياً ، لكنه علم ينتج أسلحة الدمار ، ووسائل الفتك ، وقد ينالون مالاً ، لكنه لإستعباد الآخرين .

فعلى مدار التاريخ وجدت حضارات عديدة ظالمة كحضارة عاد ، وثمود ، ولكنها بادت ، واندثرت ، وسوف تتبعها حضارات أخرى لعدوانيتها ، وظلمها .

الركيزة الثانية : أثر القادة فى توجيه الرعية :

عندما يصلح القائد ، تصلح رعيته ، ولذلك كان إهتمام النبى "صلى الله عليه وسلم" بعلية القوم ، ليؤمن بإيمانهم من وراءهم .

وللقادة فى أممهم تأثير كبير ، ويرجع كفر من كفر فى الأمم السابقة إلى الملإ منهم ، إذ كان الملأ دائماً يتصدون للدعوة الدينية ، ويحاربون الرسل ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، وقد كان لقيادة داود وسليمان " عليهما السلام " لمملكتهم أثر فى إيمان الناس ، وكافة منسوبى المملكة ، وكان كل من فيها يؤمن بالله ، ويعمل له ، وقد رأينا الهدهد يغيب ، ليعرف خبر بلقيس ، ويقف على حقيقة الإله الذى تعبده، وقومها ، ويجئ بخبر الملكة ، ويشرحه لسليمان ، إنهم يعبدون غير الله ، ويسجدون للشمس ، ولايؤمنون بالله الخالق ، الذى يعلم العلن ، والسر ، والظاهر ، والمخبوء ، وقد ر أينا

كيف أن كل رعايا مملكة سليمان كانت تعمل للحق ، وتذكر به ، وقد وقفنا على مقالة سليمان "عليه السلام" وهو يقول : ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١) مشيراً إلى حبه للخيل ، لأنها تذكره بالله ، وتحببه فى الغزو والجهاد .

إن دور القائد فى أمته خطير ، ولذلك يتحمل الرئيس مسئولية رعيتة ، وإذا قصر فى دعوهم فعليه إثمهم .

الركيزة الثالثة : الدعوة قبل القتال :

حينما علم سليمان "عليه السلام" بأن مملكة سبأ ، تعبد الشمس من دون الله تعالى ، رد حامل الهدية إليه ، وعرفه بأنه سيذهب إليهم بقوة لا قبل لهم بها ، إذا لم يدخلوا فى دين الله تعالى ، ويعلنوا إسلامهم لله رب العالمين ، وقد أرسل إليهم "عليه السلام" خطاباً يدعوهم فيه إلى الله ، حمله إليهم الهدهد ، فألقاه عليهم ، وقرأته الملكة ، وعرضته على وزرائها ، ومستشاريها ، وعن هذا الخطاب يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾(٢) .

وهذه الآيات تؤكد الحقائق التالية :

(١) حسن خلق الملكة ، وحكمتها السياسية ، لأنها لم تبت فى الأمر وحدها وإنما جمعت الملأ ، وهم الكبراء ، والوزراء ، وعرفتهم بالخطاب ، ووصفت الخطاب بالكرم ، والحسن لما فيه من دعوة ، ولأنه من سليمان "عليه السلام" ..

---

(١) سورة ص آية (٣٢) .

(٢) سورة النمل الآيات (٢٩ ــ ٣١) .

(٢) بدأ الخطاب ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ليبين لهم من الوهلة الأولى أن إله سليمان هو الله الواحد الأحد ، الرحمن الرحيم .

(٣) وفى ذكر الله وأسمائه دعوة صريحة للإيمان به ، وترك ما عداه من آلهة أخرى كالشمس وغيرها .

(٤) ترك الإستعلاء فى الأرض ، وضرورة التواضع لله تعالى ، وأهمية السمع والطاعة لما يدعوهم إليه .

(٥) طلب سليمان منهم أن يعلنوا إسلامهم ، ويأتوا إليه بعد إسلامهم ، ليأخذوا منه تعاليم الله تعالى

وقد تصرفت الملكة " بلقيس " بعقل وروية ، وفى النهاية أعلنت إسلامها لله رب العالمين .

****

الركيزة الرابعة : حقائق عالم الجن والسحر :

نظراً لقيام مملكة سليمان "عليه السلام" ، على أعمال قام بها الجن ، أود أن أقدم تعريفاً موجزاً بالجن ، وما يتصل بهم ، على ضوء الحقائق الإسلامية .

الجن أرواح عاقلة ، مكلفة ، مجردة عن المادة ، مستورة عن الحواس ، ولهم قدرة على التشكل ، يأكلون ، ويشربون ، ويتناكحون ، وله ذرية (١) ، وقد خلقهم الله من النار ، يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (٢) .

ويتشكل الجن فى صورة الشجر ، والحجر ، والطير ، والحيوان ، والإنسان ، ويسكن فى الأماكن العالية والمنخفضة ، وفى البيوت ، وأماكن النجاسات ، ويكثر وجودهم فى الأسواق .

---

(١) الفصل لابن حزم ج٥ ص ١٢ .

(٢) سورة الرحمن آية (١٥) .

والجن يتصف بأوصاف عديدة ، ويسمى بأسماء مختلفة تبعاً لأوصافه ، فمنهم العفريت ، والشيطان ، والمارد ، والغول ، والخبل (١) ، ولهم قبائل ، وينقسمون إلى جماعات ، وطوائف تبعاً لدينهم ، وقرابتهم ، وأعمالهم .

والطريق إلى تجنب شرورهم هو الإيمان الصادق ، وطاعة الله تعالى ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢) .

وأعمارهم طويلة ، ولذلك يخبرون بأمور ، يظنها الناس غيباً ، ولا غيب فيها وإنما هى خبرتهم التى عاصروها من مدة طويلة ، وقد علمنا أن سليمان "عليه السلام" مات وبقيت الجن لا تعلم موته ، فدل ذلك على أنها لا تعلم الغيب .

ولو تمكن الجن من الإنسان فإنه يستطيع إلحاق ضرر به بأحد الصور الآتية :

(١) صرع الإنسان :

يمكن للشيطان أن يصرع الإنسان ، يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (٣) ، يقول الإمام الطبرى : (**يتخبله الشيطان فى الدنيا ، فيصرعه من المس ، يعنى من الجنون**) (٤) ، وفى الحديث **أن إمرأة جاءت إلى النبى "ﷺ" ومعها صبى به لمم ، فقال النبى "ﷺ" أخرج عدو الله ، أنا رسول الله فبرأ الصبى (٥)** ، **واللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان** (٦) .

---

(١)العفريت : القوى الداهية ، والشيطان : الهائج الضار ، والمارد : الخارج من مسكنه متمرداً على الطاعة ، والغول : الذى يتشكل بأشكال مخيفة ، والخبل : الذى يضر الناس ، ويشوش على عقولهم .

(٢) سورة النحل آية (٩٩) . (٣) سورة البقرة آية (٢٧٥) .

(٤) تفسير الطبرى ج٣ ص ١٠١.

(٥) مجمع الزوائد ج٩ ص ٦ وقال عنه رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

(٦) النهاية في غريب الحديث ج٤ ص ٢٧٢ .

وصرع الجن للإنسان ، يكون عن شهوة وعشق ، أو لرد عدوان وجزاء ، أو لمجرد العبث والهوى (١) .

(٢) الحاق الضرر بالبدن :

يمكن للجن أن ينخس المولود فى بدنه ، يروى البخارى بسنده عن أبى هريرة "ﷺ" : (**ما مــن مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه**) (٢) ، ويلــحق بالإنسان المرض ، يقول النبى "ﷺ" : (**الطاعون وخز من أعدائكم من الجن وهو شهادة المسلم**) (٣) .

وقد مرض أيوب من مس الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤) .

(٣) قتل الإنسان :

قد يتمكن الشيطان من قتل الإنسان ، **يروى مسلم فى حديث طويل حــديث الفتى الذى خرج مع رسول الله "ﷺ" إلى الخندق ، وكان يستأذن رسول الله ليعــود إلى أهله بأنصاف النهار ، فاستأذنه يوماً ، فقال له الرسول "ﷺ" خد سلاحك ، فإنى أخشى عليك قريظة ، فأخذ سلاحه ، ثم رجع فإذا إمرأته بين البابين قائمة ، فأصــابته الغــيرة ، فقالت له : أكفف عليك رمحك ، وأدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فــدخل فإذا حــية عظيمة على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فطعنها به ، ثم خرج فركزه فــى**

---

(١) إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة لابن تيمية ص ٢٧ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الأنبياء ج٦ ص ٤٦٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج٤ ص ٤١٣ ــ ط١ الميمنية .

(٤) سورة ص الآيات (٤١ ــ ٤٢) .

الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيها كان أسرع موتاً ؟ الفتى أم الحية (١) ؟ !

ففى الحديث دلالة على أن الجن يمكن أن يقتل الإنسان ، بإرادة الله تعالى .

وعلى الجملة فالجن خلق من خلق الله تعالى ، عرف الله الإنسان الطريقة الحسنة للنجاة منه ، وهى منحصرة فى الإيمان ، والذكر ، وإلتزام شرع الله تعالى ، وتطبيق آداب الدين فى الحياة والمعاش .

وقد ذم الله فريقاً من اليهود ، نبذوا التوراة ، واتبعوا أوامر الشيطان ، وضلالات السحرة ، يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢) .

والآيات تبين أن فريقاً من اليهود نبذوا التوراة ، واتبعوا السحرة الذين أضلهم الله تعالى ، يقول السدى : عارضت اليهود محمداً "ﷺ" بالتوارة ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة ، وأخذوا بكتاب آصف ، وبسحر هارون ، وماروت ، يقول محمد بن إسحاق : لما ذكر رسول الله "ﷺ" أن سليمان من المرسلين ، قال

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب قتل الحيات ج١٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) سورة البقرة الآيات (١٠١ ــ ١٠٢) .

بعض أحبارهم عنه : والله ما كان إلا ساحراً ، والسحر هو الكفر هنا ، فنفى الله عن سليمان السحر ، وبين أن الشياطين هى التى كفرت لأنها ألقت إلى الأحبار أن ما فعله سليمان كان سحراً ، ولم يكن رسالة إلهية .

فنفى الله كفر سليمان ، أو خطأ ما أنزل على الملكين ، ... ولكن الذين كفروا هم هاروت وماروت الموجودان ببابل بأرض العراق ، وقد كفروا بتعليم السحر ..... ففى الآيات تقديم وتأخير ، وهى كالتالى : **(وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا يعلمون الناس السحر ببابل)** فهاروت وماروت بدل الشياطين (١) .

ويذهب جمهور العلماء إلى أن السحر حقيقة لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ ، ولقوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾** ﴾ (٢) ، ورأوا أن الساحر قد يتمكن من السيطرة على المسحور ، وإلحاق الأذى به بإرادة الله تعالى .

****

الركيزة الخامسة : طرق الوقاية من الجن والسحر :

الشيطان متربص بالإنسان ، يريد أن ينقض عليه ، ويبعده عن طاعة الله تعالى وقد وضح ذلك من قصة آدم "عليه السلام" ، وعلى الإنسان أن يكون حذراً فى حياته لينجو من شر إبليس وجنوده ، وطرق الوقاية من الجن ما يلى :

---

(١) تفسير القرطبى ج٢ ص ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف آية (١١٦) .

أولاً : قطع طرق الشيطان الموصلة : يحاول الشيطان أن يسلك سبلاً للوصول إلى الإنسان ، والسيطرة عليه ، وهى نفس الطرق التى يستغلها الساحر ، ليصل بها إلى غايته ، يقول ابن الجوزى : (إعلم أن القلب كالحصن ، وعلى الحصن سور ، به أبواب وفتحات ، يسكن العقل هذا الحصن ، وتأتيه الملائكة ، وبجانب الحصن خلاء مفتوح تسكنه الشياطين ، تحاول أن تقتنص فرصة لدخول الحصن ، ولاتزال الشياطين فى محاولتها تدور حول الحصن .. إلا أنها لا تدخل ما دام الحصن مستنيراً بالذكر ، مشرقاً بالإيمان ، فإن وجد الجن غفلة ، أو ظلاماً دخل الحصن ليسكنه ، فإذا إستيقظ القلب طرده مرة أخرى) (١) ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (٢) ، وتستمر الأنوار بدوام الذكر ، والطاعة ، يقول تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣) ، وعلى الإنسان أن يقطع كافة الطرق التى تمكن الشيطان من الوصول إليه .

ثانياً : الإستعاذة بالله من الشيطان :

ومعنى الإستعاذة ، الإستجارة بالله تعالى ، يقول تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٤) ، وتحسن الإستعاذة **عند قراءة القرآن الكريم** حتى لايصرف الشيطان الإنسان عن القراءة يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٥) .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) سورة الأعراف آية (٢٠١) .
(٣) سورة يس الآيات (٦٠ ــ ٦٥) .
(٤) سورة المؤمنون الآيات (٩٧ ــ ٩٨) .
(٥) سورة النحل آية (٩٨) .

وعند الصلاة حتى لايشوش الشيطان على المصلى ، يروى مسلم بسنده أن عمرو بن العاص "رضي الله عنه" جاء إلى النبى "ﷺ" فقال : **يا رسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى ، وقراءتى ، يلبسها على ، فقال رسول الله "ﷺ" : ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، وأتفل على يسارك ثلاثاً ، قال : ففعلت ذلك فأذهب الله عنى** (١) .

وعند الغضب : حتى لا يتمكن الشيطان من إيقاع الإنسان فى المهالك ، يقول سليمان بن صرد "رضي الله عنه" : كنت جالساً عند النبى "ﷺ" ورجلان يستبان ، فأحمر وجه أحدهما ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى "ﷺ" : (**إنى لاعلم كلمة لو قالها ، لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ذهب عنه ما يجد**) (٢) .

وعند الخلاء : حتى لا يلعب الشيطان بمقعد الإنسان ، يقول النبى "ﷺ" : (**أعوذ بالله من الخبث والخبائث**) (٣) .

وعند رؤية رؤيا مكروهة :حتى لا ييتئس ، ويتألم ، يقول النبى "ﷺ" : (**إذا رأى أحدكم رؤيا يخافها ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ، فإنها لا تضره**) (٤) .

وعلى المسلم أن يحصن نفسه من السحر ، والشياطين دائماً ، بالإستقامة والطاعة ودوام معية الله له ، والإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ــ كتاب السلام ــ باب التعوذ ج٤ ص

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب بدء الخلق ــ باب صفة إبليس ج٦ ص ٣٢٧ .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الوضوء ج١ ص ٢٨٣ .

(٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس ج٦ ص ٣٣٨ .

ثالثاً : الإكثار من ذكر الله تعالى :

إن الذكر هو النور الذى يطرد الشيطان ، ولا يسمح له بالدخول ، ويمنعه من سكن الحصن ، وقد أمر الله به ، يقول تعالى : ﴿ **وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦** ﴾ (١) .

يقول النبى "ﷺ" : (**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس**) (٢) ، وأرشدنا الله ورسوله "ﷺ" إلى فضيلة الذكر : **فذكر الله عند الاستيقاظ من النوم** يحدث عند المسلم العزيمة والقوة ، ويدفع عنه الكسل ، حيث يبدأ المسلم يومه بذكر الله ، داعياً ربه أن يعـــيذه من الشيطان الرجيم ، فعن أبى هريرة "رضي الله عنه" أن رسول الله "ﷺ" قال : (**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**) (٣) .

وذكر الله عند الخروج من البيت يعصم المسلم من شر الشيطان ، فعن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله "ﷺ" : (**من قال ــ يعنى إذا خرج من بيته ــ بسم الله ، توكـــلت عـــــلى الله ، لاحول ولا قوة إلا بالله قال : يقال حينئذ : هديت وكفيت ووقيت ، فتتنحى له الشياطين ، فيقول له شيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى**) (٤) .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٢٠٥ ــ ٢٠٦) . (٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٩٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ــ كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ج٦ ص ٣٣٥

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ج٥ ص٣٢٨.

وذكر الله فى **المسجد** مبعد للشيطان ، فعن أبى هريرة "رضي الله عنه" قال : قال النبى "ﷺ" : (**إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب (١) أدبر ، فإذا قضى أقبل ، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : أذكر كذا وكذا حتى لايدرى أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر ثلاثاً صلى أو أربعاً سجد سجدتى السهو**) (٢) .

وكلمة التوحيد ولزوم الاستغفار أحد الوسائل المهمة فى دحر الشيطان ، فعن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله "ﷺ" : (**استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكونى بقول لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء ، حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون**) (٣) .

وإذا وضع المسلم جنبه على فراشه فذكر الله ، ظل فى حماية ربه حتى يصبح ، فعن أنس عن النبى "ﷺ" قال : (**إذا وضع العبد جنبه على فراشه فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب أمن من شر الجن والإنس ومن كل شئ**) (٤) .

---

(١) ثوب : التثويب : الإقامة ، وأصله من ثاب إذا رجع ، ومقيم الصلاة راجع إلى الدعاء إليها ، فإن الأذان دعاء إلى الصلاة ، والإقامة دعاء إليها ، انظر صحيح مسلم ج١ ص ٢٩١ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ج٦ ص ٣٣٧ .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ونسبه لأبى يعلى ، وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف ، وذكر الدارمى نحوه ، انظر سنن الدارمى ، باب فى اجتناب الهواء ج١ ص ٧٨ .

(٤) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير ونسبه للبزار والديلمى ، قال الهيثمى فى المجمع : وفيه غسان بن عبيد وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

وهكذا يكون المسلم ذاكراً لربه عند يقظته ونومه ، فيكـون فى كنـف الله ورعايته فى يومه كله رحمة من الله له .

والذكر على كل حال دواء ناجح للشيطان ، وسلاح قاتل ، يصـيب منـه المقاتل ، التى بها يقوى على إفساد الناس وإضلالهم ، قال ابن القيم : (**ولو لم يكن فى الذكر إلا أن يحترز المسلم من الشيطان ويدفعه عنه ، لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى ، وأن يزال لهجاً بذكره ، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ، فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسـه ، وإذا ذكـر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع** (١) **وكالذباب ، ولهذا سمى الوسواس الخناس**) (٢) .

ويـقول : (**والشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ، فما ظنك برجل قـد احتوشه أعـداؤه المـحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بـذكر الله عـز وجل**) (٣) .

رابعاً : قراءة القرآن :

فالقرآن خير سلاح يحارب به المسلم عدوه ، لأنه كلام الله ، وله تأثير عجيب فى طرد الشيطان وإبعاده .

ففى حديث أبى هريرة عندما وكله رسول الله "ﷺ" بحفظ زكاة رمضان ، فكان الشيطان ياتيه فى صورة شيخ فقير ، فيحثو من مال الصدقة ، حتى هم أبو هريرة برفعه إلى الـرسول "ﷺ" ، فقال له الشيطان : (**دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بهـا**

---

(١) الوصع : طائر أصغر من العصفور .

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٣٣ بتصرف .

(٣) نفس المصدر ص ٧٥ .

قلت : وماهى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى : ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** ﴾ **حتى تختم الآية ، فإنك لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، ثم أخبر أبو هريرة رسول الله "ﷺ" بذلك ــ فقال له النبى "ﷺ" : (أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا ، قال : ذاك شيطان**) (١) .

فآية الكرسى لها تاثير عجيب فى دفع الشياطين من الجن ، ولهذا شرع الله لنا قراءها قبل النوم ، لما فيها من النفع العظيم والخير الكثير ، حتى إن قراءها فى البيت تطرد الشيطان ، فعن أبى هريرة أن رسول الله "ﷺ" قال : (**سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن ، لاتقرأ فى بيت وفيه شيطان إلا خرج منه : آية الكرسى**) (٢) .

ومن قرأ أواخر سورة البقرة عصمته من الشياطين كذلك ، فعن النعمان بن بشير عن النبى "ﷺ" قال :(**إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**) (٣) .

وقراءة سورة البقرة بشكل عام مطردة للشيطان ، فعن أبى هريرة : أن رسول الله "ﷺ" قال : (**لاتجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة**) (٤) .

---

(١) من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الوكالة ، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه ج ٤ ص ٤٨٧ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ، كتاب التفسير ، من سورة البقرة ج٢ ص ٢٥٩ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب ثواب القرآن ، باب ما جاء فى آخر سورة البقرة ج٨ ص ٩٨ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد ج١ ص ٥٣٩ .

قراءة المعوذتين ، فعن أبي سعيد الخدرى "ﷺ" قال : **كان النبى "ﷺ" يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما** (١) .

وهكذا يعتبر القرآن أهم الوسائل التى تطرد الشيطان ، حيث يعصم المسلم من كيده ووسوسته ، وينقذه من السحرة ، وسحرهم .

****

النقطة الثامنة

ضياع مملكة إسرائيل بعد سليمان "عليه السلام"

استمرت مملكة بنى إسرائيل الصالحة طوال عصر داود وسليمان "عليهما السلام " وهى فترة امتدت أكثر من قرن من الزمان ، وبعد موت سليمان تولى الأمر من بعده ابنه " رحبعام " فانقسم عليه الإسرائيليون ، وطلبوا منه أن يتخلى عن مواريث أبيه فرفض ، وعرفهم بأنه على نفس ما كان عليه أبوه ، فانقلبوا عليه ، واتبعوا واحداً منهم هو " يربعام " وأعلنوا أنهم يتبرأون من بيت داود إلى الأبد ، .. وانقسم الإسرائيليون إلى مملكتين ، مملكة يهوذا فى الجنوب تحت إمرة أبناء سليمان ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ويحكمها معارضوهم .

وقد نشبت حروب عديدة بين المملكتين استمرت قرابة قرنين ، وأخذ كل فريق يستعين بالقوى المجاورة ، من غير الإسرائيليين ، .. واستمر الصراع حتى تمكن ملك آشور من التسلط على مملكة إسرائيل ، وقبض على ملكها ، وقاد أهلها جميعاً إلى بلاده أسرى ، وأحل محلهم قبائل عربية كانوا أصحابها قبل الإسرائيليين ...وظلت

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقية بالمعوذتين ج٦ ص ٢٥٢ .

مملكة يهوذا تصارع ، وتناضل الأشوريين ، وتحاول إبعادهم عن دولتـــهم (١) .....
وكـــان يأتيها بين الحين ، والحين نبى من قبل الله تعالى ، يجدد لهم دعـــوة موســـى "عليه السلام" ، ويذكرهم بنعم الله ، ويخوفهم من عذابه ، ... لكن الإسرائيليين كعهـــدهم دائماً ، كانوا يكذبون الأنبياء ، ويتهمونهم بالجنون ، والسفه ، حتى فعلوا ذلك مـــع أحد أنبيائهم " أرميا " "عليه السلام" ، وقيدوه وسجنوه .

واستمروا على ضلالهم ، وإفكهم حتى نزل بهم وعد الله الذى أخبرهم الله به على لسان موسى "عليه السلام" ، يقول تعالى : ﴿ **وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝** ﴾ (٢) .

وفى عام ٥٩٦ قبل الميلاد ، أغار بختنصر ، ملك بابل عليهم بجنوده فدمر بلادهم ، وخرب بيت المقدس ، وساقهم إلى سجون بابل ، ونفاهم بمملكته ، واستعبدهم ، فعاشوا مرحلة السبى البابلى ، أذلاء ، صاغرين .

وكان إنتصار بختنصر عليهم هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝** ﴾ (٣) .

وبعد خمسين عاماً من النفى ، والتشريد ، تغلب " كورش " ملك الفرس على البابليين ، فأطلق سراح الإسرائيليين ، وأعاد من بقـــى منـــهم إلى بيـــت المقـــدس ، وساعدهم ، فعادوا لبغيهم ، وكفرهم بعد قرنين من الزمان عاشوها تحت السيطـــرة الفارسية، وكان أن جاء وعد الآخرة ،فسلط الله عليهم ملكاً من ملوك بابل هــــــو

---

(١) كانت عاصمة الشمال نابلس ، وعاصمة الجنوب القدس ، ويلاحظ أن مملكة يهوذا كانت صغيرة ومنحصرة فى بيت المقدس وما حولها فقط .

(٢) سورة الإسراء آية (٤) .

(٣) سورة الإسراء آية (٥) .

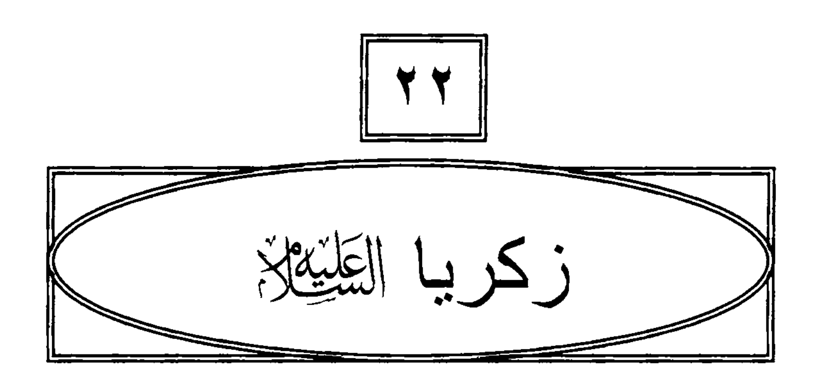
"خردوس " فأزال سلطانهم ، ودمر بلادهم مرة أخرى ، وأبعدهم عن البلاد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـࣳٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ ﴾ (١) .

وهكذا إنتهى شأن بنى إسرائيل قبل ميلاد المسيح "عليه السلام" وتوزعوا فى البلاد المجاورة كمصر ، والحجاز ، والعراق ، واليمن ، وبلاد آسيا الوسطى ، ولهم فى هذه البلاد جاليات يهودية حتى اليوم (٢) .

****

(١) سورة الإسراء الآيات (٦ ـــ ٧) .

(٢) يمكن مراجعة كل ما ذكر عن ضياع ملك بنى إسرائيل فى أسفار العهد القديم ـــ أسفار الملوك (الأول والثانى) ، وانظر ما نقله الطبرى فى التاريخ ج١ ص ٥٩٣ ، وفى التفسير ج١٥ ص ٤١ ، ٤٢ ، والكامل ج١ ص ١٧٣ .



٢٢

زكريا عليه السلام

تشرذم الإسرائيليون ، وتفككت دولتهم ، وأستعبدهم البابليون ، والآشوريون والمقدونيون ، وظهرت فيهم المذاهب العديدة المتعارضة .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يعيد مجد أبناء داود "عليه السلام" ، وأن يبطل مزاعم اليهود بشأنهم ، فاختار من ذريتهم آخر أنبيائهم وهم ، زكريا ، ويحيى ، وعيسى " عليهم السلام " ، وثلاثتهم من آل عمران التى اصطفاها الله تعالى ، يقول سبحانه :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١) ... ذلك أن إمرأة عمران " رضى الله عنها " انجبت بنتين ، الأولى : تزوجها زكريا "عليه السلام" ، وولدت منه يحيى "عليه السلام" ، والثانية : هى مريم وهبتها لخدمة الهيكل ، فحملت وولدت عيسى "عليه السلام" .

فيحيى وعيسى " عليهم السلام " ابنا خالة ، وزكريا صهر مريم " عليهم السلام " ، وكان زكريا "عليه السلام" يعمل نجاراً ، لقوله "ﷺ" : (**كان زكرياً نجاراً**) (٢)

وزكريا "عليه السلام" ينتسب إلى داود "عليه السلام" ، ويكتفى القرآن فى حديثه عن زكريا "عليه السلام" بذكر حادثتين هما : ـــ

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٣٣ ـــ ٣٤) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، باب فضل زكريا ج١٥ ص ١٣٥ .

الحادثة الأولى : كفالة مريم :

نذرت إمرأة عمران ما فى بطنها لله ، خدمة للهيكل ، وكانت تتمناه ولداً ، وأراد الله أن يكون أنثى ، فلما وضعتها أمها سمتها " **مريم** " واستعاذت بالله أن يضرها الشيطان ، فتقبلها الله تعالى ، ووهبتها أمها لخدمة دار العبادة ، وتهافت الناس للإنفاق عليها ، ولخدمتها ، وللتشرف بالقربى عن طريقها لله رب العالمين ، يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١) ، واقترع القوم فيمن يكفلها ، فوقعت القرعة على زكريا زوج أختها الكبرى ، وأخذت مريم فى العبادة ، والجلوس فى المحراب فنشأت نشأة صالحة ، وأحاطتها رعاية الله ، وأتت الملائكة تخدمها ، وجاءها الطعام ، وفيراً متنوعاً ، وعلم زكريا أن ذلك فضل الله ، وعطاؤه ، عندئذ طلب من الله أن يرزقه ولدا ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية (٤٤) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (٣٦ ــ ٣٧) .

الحادثة الثانية : ولادة يحى :

كانت زوجة زكريا "عليه السلام" عقيماً لا تلد ، وكبر زكريا ، ولم يرزق بولد ، ونظر حوله فرأى أن الموالى ليسوا بأمناء على دين الله تعالى ، فتمنى فى نفسه ولداً من صلبه يرث النبوة ، ويكون إمتداداً لآل يعقوب "عليه السلام" ، ويكون محل توفيق الله ، ورضاه .

ولم يجد إلا الله يحقق له هذه الأمنية ، وبخاصة أنه رأى مريم تتمتع بالرزق الوفير من غير عمل ، أو جهد ، يأتيها من الله تعالى ، القادر العظيم ، حينما رأى فضل الله على مريم إتجه إلى الله بالدعـــــاء ، وطلب منه الولد ، يقول الله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ (١) .

والآيات واضحة فى أن الله أنزل رحمته بزكريا "عليه السلام" ، حين دعاه وحيداً ، لايسمعه إلا الله ، وطلب منه أن يرزقه ولياً ، يرثه مع كبر سنه ، وعقم زوجته ، فليس هناك مستحيل على قدرة الله تعالى ، وتمنى زكريا أن يكون ولده محل رضى الله ، وقبوله ، يقول تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة مريم الآيات (١ ـــ ٦) . (٢) سورة آل عمران آية (٣٨) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٨٩) .

يقول قتادة : إن الله يعلم القلب النقى ، ويسمع الصوت الخفى ، وقد قام زكريا من الليل ينادى ، نداء لايسمعه أحد ، ومعنى وهن العظم منى : ضعف العظم بسبب الكبر وظهر الكبر على الشعر فابيض واشتعل شيباً .

والمراد بالإرث : النبوة ، لأن الأنبياء لا يورث لهم مال ، والدنيا كلها لا تستحق أن يهتم بها نبى ، ولذلك تمنى زكريا "عليه السلام" إرث النبوة ، ودعا بذلك .

استمع الله لزكريا ، وأجاب دعاءه ، قال تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة مريم الآيات (٧ — ١٠) .　　(٢) سورة آل عمران الآيات (٣٨ — ٤١) .

(٣) سورة الأنبياء آية (٩٠) .

ومن مجمل الآيات ندرك أن الله استجاب دعاء زكريا ، وبشره بغلام ، يسمى باسم لم يسبق به هو (**يحيى**) وأصلح الله زوجته للحمل ، وذهب عقمها ، وحاضت

طلب زكريا من الله آية وعلامة يعرف بها وقت حمل زوجته بهذا الولد ، قال الله له آيتك أن يعتريك صمت وسكوت لمدة ثلاثة أيام ، لاتستطيع أن تتحدث خلالها إلا بالرمز ، ولما جاء وقت الحمل كان زكريا يقرأ ، ويسبح ، ولايستطيع التكلم مع أحد ، ويولد له يحيى ، سيداً وحصوراً (١) ، ونبياً من الصالحين ، وعاش زكريا حتى لقى ربه "عليه السلام" ، وقيل أنه مات مقتولاً ، قتله اليهود .

****

---

(١) الحصور الذى يكف عن النساء ، ولا يقربهن ، مع القدرة ، ويمكن أن يكون المعنى الحابس نفسه عن المعاصى (تفسير القرطبى ج٤ ص ٧٨ ، ٧٩) .

٢٣

يحي عليه السلام

استجاب الله دعاء زكريا "عليه السلام" ، ورزقه يحيى "عليه السلام" ، وقد سماه بهذا الاسم بشرى لوالديه ، فى أنه يعمر ، ويحيى طويلاً، وللدلالة على أن قلبه حي بالمحبة ، وجسمه حي بالطاعة ، ولسانه حي بالذكر ، وأن باطنه حي بالعلم ، والعصمة (١) . ولد يحيى "عليه السلام" قبل ميلاد المسيح بستة أشهر (٢) ، يقول كعب الأحبار : كان يحيى حسن الصورة والوجه ، لين الجناح ، قليل الشعر ، قصير الأصابع ، طويل الأنف ، مقرون الحاجبين ، رقيق الصوت ، كثير العبادة ، قوياً فى طاعة الله تعالى ، قيل : إن أتراب يحيى قالوا له وهو صغير : إذهب معنا نلعب ، قال لهم : ما للعب خلقت ، وكان يعظ الناس ، ويقف لهم فى أعيادهم ، ومجامعهم ، ويدعوهم إلى الله تعالى (٣) ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ (٤) ... وأول من آمن بعيسى "عليه السلام" هو يحيى "عليه السلام" .

يصف الله يحيى بقوله : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٥) والآية تدل على أن الله خلق يحيى سيداً كريماً ، ونبياً مرسلاً ، وحصوراً يمنع نفسه من الشهوات ويملك زمام نزغاته من الإنفلات.

---

(١) بصائر ذوى التمييز ج٦ ص ٩٤ .

(٢) قصص الأنبياء للثعالبى ص ٣٦١ .

(٣) نهاية الإرب ج١٤ ص ٢٠ .

(٤) سورة مريم آية (١٢) .

(٥) سورة آل عمران آية (٣٩) .

وقد عاش يحيى فقيراً ، عطوفاً ، طاهراً ، وقتل شهيداً على يد " هـــيرودس " الطاغية ، حاكم بلده ... ذلك أن "هيرودس " أراد أن يتزوج من ابنة أخ له ، فـــبين يحيى "عليه السلام" أن ذلك لا يحل ، لأنها من محارمه ، إلا أن (هيرودس) تزوجها ، وحقد على يحيى ، وأمر بإحضار رأسه ، فدخل جنده على يحيى وهو قائم يصلى فى المحراب ، وذبحوه ، وقطعوا رأسه ، وأحضروها إلى الطاغية " هيرودس " فأمر بدفنها فى دمشـــق الحالية ، والقبر الآن يقع فى قلب المسجد الأموى بدمشق .

يقول ابن عساكر : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بنـــاء المســـجد ، حيث أخرجوه من تحت ركن من أركان القبلة مما يلى المحراب جهة الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله ، لم يتغير ، كأنما قتل الساعة .

تقول بعض الروايات : إن يحيى قتل فى حياة أبيه زكريا (١) .

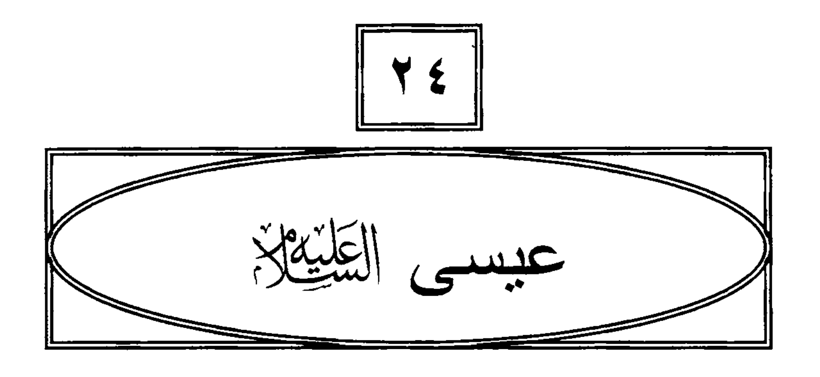
وقد ثبت فى الصحيح أن رســـول الله "صلى الله عليه وسلم" التقى بيحيى ليلة الإسراء حيـــث قال : (**ثم عرج بى إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ففتح له ، وإذا أنـــا بـــابنى الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير**) (٢) " عليهم جميعاً الصلاة والسلام " . .



---

(١) قصص الأنبياء ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب أحاديث الأنبياء ج٦ ص ٤٦٧ .



عيسى "عليه السلام" ، آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وليس بينه وبين النبى محمد "ﷺ" نبى آخر .

وهو من آل عمران ، ومن نسل داود ، ولذلك اضطهده اليهـــود ، وآذوه ، وحاولوا قتله .

دعا الإسرائيليين إلى دين موسى "عليه السلام" ، وبشر برسالة محمد "ﷺ" للعـــالمين من بعده .

وهو أحد أولى العزم من الرسل ، الذين أبلوا بلاء حسناً ، وصبروا على ما كـــذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصر الله المبين ، وسوف أتحدث عن عيسى "عليه السلام" فى النقاط التالية

النقطة الأولى

ولادة عيسى "عليه السلام"

ترعرعت مريم (١) أم المسيح عيسى فى بيت الله ، ونشأت عابدة متبتلة ، واصطفاها الله على نساء العالمين ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) يعنى اسم مريم فى العبرانية بأمة الله ، أو خادمة الله .

(٢) سورة آل عمران الآيات (٤٢ ــ ٤٣) .

وعاشت " رضى الله عنها " ، حصيفة ، حصينة ، فاعتزلت الرجال ، وعاشت لله رب العالمين ، فجعلها الله مثلاً للمؤمنات ، القانتات ، يقول تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) .

وحملت الملائكة بشرى الله لها ، بأنها ستلد غلاماً مميزاً ، اسمه المسيح عيسى (٢) لا أب له ، وينسب لأمه ، عظيماً فى الدنيا ، وجيها فى الآخرة ، ومن المقربين لله تعالى ويتكلم وهو فى المهد بعد مولده ، ويكون من الصالحين ، الصادقين ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣) .

تعجبت مريم من هذه البشرى ، وتساءلت كيف يكون لى غلام من غير أن يمسني أحد من البشر فى نكاح ، ولا سفاح ، يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤) .

وضاق الأمر بها ، وتألمت وهى تتصور ذلك فى عالم الواقع ، لأنها لا تحب لوم الناس ، وإتهامهم لها ، فاعتزلت الناس ، وجلست وحدها فى جهة الشرق التى يعظمها قومها ، وجعلت بينها وبينهم حجاباً ، فأرسل الله إليها روح عيسى "عليه السلام" فتمثل لها إنساناً كاملاً ، وأتاها فى محرابها ، ففزعت منه ، واستعاذت بالله إن كان ممن يتقى

---

(١) سورة التحريم آية (١٢) .   (٢) سمى عيسى من العيس وهو الجمال ، لبياض لونه .

(٢) سورة آل عمران الآيات (٤٥ ــ ٤٦) .

(٤)سورة آل عمران آية (٤٧) .

شره ، فطمأنها ، وقال لها : أنا رسول ربك جئت لأهب لك غلاماً ، طاهراً ، نقياً ، وتساءلت : كيف يكون ذلك بلا زواج ، أو سفاح ، فأجابها الرسول بأن ذلك قضاء الله وقدره وقد أراد الله من ذلك أن يكون آية للناس ، ورحمة من عنده ، يقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ (١) .. وحملت مريم ، وجاءها المخاض ، وهى جالسة عند جذع نخلة ، فحزنت من لوم الناس ، وعتابهم وتمنت أن تكون قد ماتت قبل هذا اليوم ، حتى لايذكرها أحد بسوء .

وولدت مريم المسيح ، **وناداها جبريل من أسفلها** ، لا تحزنى ، فقد وهب الله لك رجلاً عظيماً ، وسيداً فى الناس ، وأمرها بأن تهز النخلة لتسقط عليها الرطب تأكل منها ، وتعيش ، وأمرها كذلك أن لا تكلم أحداً من الناس ، وأن تنذر يومها صوماً عن الكلام لله رب العالمين ، **وقيل الذى ناداها هو عيسى عقب مولده** .

وجاءت إلى قومها تحمل وليدها ، فأخذوا فى لومها ، وهى لا تتكلم ، قالوا لها : لقد جئت شيئاً لايصدقه عقل ، جئت بولد تدعين أنه بغير أب ، فكيف ذلك ، يا أخت هارون ، وسليلة الأنبياء ... فأشارت إليه و لم تتكلم لصومها عن الكلام .. قالوا : كيف نتكلم مع وليد صبى مازال فى المهد ؟ وسكتوا جميعاً ،وتكلم الوليد فقال : إنى عبد الله ، أتانى الله الإنجيل ، وجعلنى نبياً ، وبارك الله لى فى كل مكان ، وأوصانى

---

(١) سورة مريم الآيات (١٦ ــ ٢١) .

بالصلاة ، والزكاة ، مادمت حيا ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

والآيات توضح الحقائق التالية : ـــ

١ ـــ خلق الله عيسى "عليه السلام" من غير أب .

٢ ـــ أكرم الله مريم ، وفضلها على نساء العالمين ، وخاطبها جبريل ، وجعلها أماً لعيسى "عليه السلام" .

٣ ـــ أن عيسى "عليه السلام" تكلم فى المهد ، وأثبت براءة أمه من أى إتهام .

٤ ـــ عاش عيسى وأمه " عليهما السلام " فى معجزات خارقة منذ اللحظة الأولى ، ليردوا على الإسرائيليين أكاذيبهم ، وإتهاماتهم .

---

(١) سورة مريم الآيات (٢٢ ـــ ٣٣) .

٥ ـــ أعلن عيسى "عليه السلام" وهو فى المهد أصول دعوته لبنى إسرائيل وهى : ـــ

ـــ نزول الكتاب عليه ليكون دستور الناس وشريعتهم .

ـــ عيسى رسول الله "عليه السلام" يستقبل الوحى ، وعلى الناس أن يسمعوا لدعوته .

ـــ ملازمة عيسى لبركات الله ، أينما حل ، ووقتما يكون .

ـــ على عيسى وقومه أن يقيموا الصلاة لله رب العالمين .

ـــ إيتاء الزكاة شرع طبقه عيسى ودعا إليه .

ـــ البر بالوالدين شريعة عيسى "عليه السلام" .

ـــ ترك القسوة ، والجبروت ، وإلتزام الرحمة والسكينة ضرورة خلقية

ـــ الأمن والسلام هما دعوة عيسى "عليه السلام" وهما يعيش فى الدنيا والآخرة ..

****

النقطة الثانية

معجزات عيسى "عليه السلام"

المعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدعى النبوة ، تصديقاً لـه ، وهى ممكنة عقلاً فى حق الله تعالى ، ودائماً يتخير الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه الناس ، ومن معجزات عيسى "عليه السلام" ما يلى : ـــ

(١) ولادته "عليه السلام" من غير أب ، وهذا أمر خارق لعادة الناس ، فى التناسل ، والتكاثر ، وهو أمر سهل ، هين على الله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (١) .

---

(١) سورة مريم آية (٢١) .

(٢) نطقه فى المهد حيث تكلم بكلام مفهوم ، معقول كحديث الرجل الكامل فى خلقته .

(٣) نفخ عيسى "عليه السلام" فى تمثال مصنوع من الطين على هيئة الطير ، فصار طيراً بإذن الله .

(٤) إبراء الأعمى والأبرص بإذن الله تعالى .

(٥) إحياء عيسى "عليه السلام" لعدد من الموتى بإذن الله .

(٦) كان عيسى "عليه السلام" ينبئ أصحابه بالطعام والشراب الذى يأكلونه ، أو يدخرونه فى بيوتهم بإذن الله .

(٧) أنزل الله المائدة من السماء كطلب القوم لتكون لهم آية بإذن الله .

يقول الله تعالى عن معجزات عيسى "عليه السلام" : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه

---

(١) سورة المائدة آية (١١٠) . (٢) سورة آل عمران آية (٤٩) .

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ (١) .

******

النقطة الثالثة

رسالة عيسى "عليه السلام"

جاء عيسى "عليه السلام" مجدداً لدعوة موسى "عليه السلام" ، وأنزل الله عليه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وأساسيات رسالة عيسى "عليه السلام" ما يلى : ـــ

أولاً : كانت دعوة عيسى "عليه السلام" خاصة ببنى إسرائيل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ (٢) ... ولم تتحول دعوته إلى دعوة عالمية ، إلا فى عصور متأخرة على يد الإمبراطور " قسطنطين " و " بولس " ، وبهما تغيرت ملامح دعوة عيسى "عليه السلام" .

ثانيا : الدعوة إلى التوحيد الخالص ، ونبذ الشرك ، والشركاء ، فالله واحد لا شريك له ، وليس لعيسى مع الله إلا ما لأى رسول مع الله تعالى ، يقول تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾ (٣) وأى كلام عن بنوة عيسى ، ومشاركته لله فى الألوهية بأى وجه من الوجوه ليس

---

(١) سورة المائدة الآيات (١١٤ ـــ ١١٥) .   (٢) سورة الصف آية (٦) .

(٢) سورة المائدة آية (١١٧) .

صحيحاً ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢) .

ثالثاً : المسيح "عليه السلام" رسول الله تعالى ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ولا يصح مطلقاً أن نخرجه من إطار البشرية تحت أي مسمى ، يقول تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة المائدة الآيات (٧٢ ــ ٧٣) . (٢) سورة التوبة الآيات (٣٠ ــ ٣١) .

(٣) سورة المائدة آية (٧٥) . (٤) سورة النساء آية (١٧٢) .

والأناجيل الموجودة مع أتباع عيسى "عليه السلام" اليوم تشهد ببشرية المسيح ...

جاء فى إنجيل يوحنا ، الإصحاح الخامس ، فى فقرة (٢٤) :(**الحق الحق أقول لكم ، إن من يسمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية**) .

وفى فقرة (٣٠) : (**إنى لا أجلب مشيئتى ، بل مشيئة الرب الذى أرسلنى**).

وفى فقرة (٣٦) (**وأما أنا فلى شهادة أعظم من يوحنا ، لأن الأعمال التى أعطانى الأب لأكملها .. تشهد لى أن الآب قد أرسلنى ، والآب نفسه الذى أرسلنى يشهد لى**) .

وجاء فى إنجيل يوحنا ، الإصحاح السابع ، فقرة (٢٨) : (**فنادى يسوع ، وهو يعلم فى الهيكل قائلاً : تعرفوننى ، وتعرفون من أين أنا ، ومن نفسى لم آت ، بل الذى أرسلنى هو حق ، الذى أنتم لستم تعرفونه ، أنا أعرفه ، وهو أرسلنى**) .

وجاء فى إنجيل متى الإصحاح العاشر ، فقرة (٤٠) : (**من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى**) .

فهذه النصوص من الأناجيل تشهد ببشرية المسيح ، وأنه رسول الله تعالى إلى بنى إسرائيل .

رابعاً : أتى المسيح " عليه السلام" لقومه بشرائع جديدة ، تناسب ما يحتاجون إليه ، يقول تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية (٥٠) .

(٢) سورة النساء الآيات (١٦٠ ــ ١٦١) .

خامساً : دعا المسيح "عليه السلام" إلى التصديق بالكتب السماوية التى سبقته ، يقول تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) .

سادسا : بشر المسيح "عليه السلام" برسالة محمد "صلى الله عليه وسلم" التى يأتى بعده ، يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢) .

*****

النقطة الرابعة

رد ما يقال فى ولادة عيسى "عليه السلام"

أثارت ولادة عيسى "عليه السلام" من غير أب أفكاراً ، جعلت أتباعه يقولون : إن عيسى ابن الله ، صار جزءاً من ذاته سبحانه وتعالى ، ويرون أن المسيح ، والله، اجتمعا فى ذات واحدة ، وصارا طبيعة واحدة ، ويزعمون اتحاد الناس واللاهوت فى ذات خاصة ، هى الله تعالى .

وإنى هنا أورد ما قاله النصارى ، وأناقشهم فى قولهم ، بالدليل والبرهان

---

(١) سورة المائدة آية (٤٦) .

(٢) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

أولاً : المسيح ابن الله :

يقول النصارى إن المسيح ابن الله تعالى، لأنه خلق من غير أب ، فالله أبوه ، وهو ابنه .

وهذا كلام لايصح ، لأن ولادة عيسى "عليه السلام" من غير أب ، معجزة إلهية داخلة فى إطار قدرة الله تعالى ، فهو سبحانه وتعالى خلق حواء بلا أم ، وخلق آدم بلا أب ، ولا أم ، ولم يثبت أحد لهما بنوة لله تعالى ، فقدرة الله عامة ، وإذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون .

وقد أثار وفد نصارى نجران هذه المقالة مع رسول الله "ﷺ" **إذ قالوا لرسول الله "ﷺ" : ما لك تشتم صاحبنا ؟**

فقال لهم "ﷺ" : وما أقول ؟

قالوا : تقول إنه عبد الله .

قال لهم "ﷺ" : أجل ، إنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء ، البتول

فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنساناً قط بلا أب ؟ ! فإن كنت صادقاً فأرنا مثله ، فأنزل الله قوله(١) : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢) .

وواضح من الآية أن الآية قد ردت عليهم ، لأننا لو قلنا ببنوة عيسى لله لعدم وجود الأب ، فالواجب الأولى أن يكون آدم ابن الله ، ولم يقل به أحد ؟ ! ثم ماهو المانع أن يخلق الله إنساناً من دم إمرأة فقط ، وقد خلق إنساناً من تراب جامد ؟ ! .

ثانياً : كلمة الله :

يقول النصارى إن المسيح كلمة الله تعالى كما جاء فى القرآن الكريم ، يقول

---

(١) مدرسة الأنبياء ص ٣٣٠ .

(٢)سورة آل عمران آية (٥٩) .

تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١) .... إلا أهم يقولون أن الكلمة جزء من الذات الإلهية ، ولهم تصوراهم فى التقاء كلمة الله بجسد الإنسان ، حيث إتحدا فى ذات واحدة .

وهذا كلام لا يصح ، لأن الله قديم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وليس مركباً من أجزاء ، ولا ينقسم إلى أجزاء ، وكلامهم فى إتحاد اللاهوت بالناسوت ، قائم على التركيب ، والأجزاء ، وهذا لا يليق بالله تعالى .

وأيضاً فإن الكلمة التى حملها جبريل هى " كن " فكان "عليه السلام" ...

ثالثا : عيسى روح الله :

يقول النصارى أن المسيح روح الله ، لقوله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (٢) ويريدون بالروح جزءاً من الله تعالى .

وهذا كلام لا يصح ، لأن الروح تعنى النفخة التى نفخها جبريل بأمر الله تعالى فى درع مريم ... وتأتى بمعنى رحمة الله ، وأضيفت الروح إلى الله للتشريف والتكريم .

وعلى الجملة فإن الله إله واحد ، والمسيح رسول الله ، وأمه صديقة عذراء ، يقول تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية (٤٥) . (٢) سورة النساء آية (١٧١) .

(٣) سورة المائدة آية (٧٥) .

النقطة الخامسة

حياة المسيح ونهايته فى الأرض

أكرم الله عيسى "عليه السلام" فجعل لأسرته سورة باسمها ، هى سورة " آل عمران " ، وجعل لأمه سورة بإسمها ، هى سورة " مريم " ، وجعل لإحدى معجزاته سورة بإسمها هى سورة " المائدة " .

وقد ولد المسيح ببيت لحم ، وهاجر مع أمه ، وجماعته إلى مصر ، ثم عاد إلى بيت المقدس لما بلغ ثلاث عشرة سنة ، ونزل عليه الإنجيل وهو ابن ثلاثين عاماً .

أخذ عيسى يدعو قومه إلى دين الله تعالى ، ليستقيموا على الحق ، وأظهر لهم المعجزات فلم يتأثروا بها ، وآمن به عدد منهم ، فانقسموا إلى فريقين ، فريق آمن به وفريق آخر كفر به، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

إلا أن الذين كفروا به حاولوا قتله ، وصلبه ، فأنقذه الله منهم بأن قتلوا رجلاً آخر يشبهه ، وصلبوه ، أما عيسى "عليه السلام" فقد رفعه الله إليه ، يقول تعالى : ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الصف آية (١٤) .

إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١) ، ويقال إن الذى قتل هو يهوذا الإسخريوطى الذى خان المسيح ، وجاء بجنود الرومان لقتل المسيح ، فرفع الله عيسى إليه ، وألقى شبهه على يهوذا ... فكان أن قتله الرومان ظناً منهم أنه المسيح ، مع أنه هو الذى جاء بهم .

واختلف العلماء فى رفع المسيح حياً أو ميتاً ، فقال بعضهم رفع حياً أثناء النوم وقال آخرون رفع بعد قبض روحه ، وتوقف آخرون ، وأولاها الرأى الأول .

وسوف يترل عيسى "عليه السلام" إلى الأرض مرة أخرى ، ونزوله "عليه السلام" علامة من علامات الساعة الكبرى ، فعن ابن عباس عن النبى "ﷺ" فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ (٢) قال : نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة (٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ (٤) قال ابن كثير : " أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه يترل ويقتل الخترير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام " ، وقد جاء التفصيل فى السنة النبوية ، فقد أخبرنا الرسول "ﷺ" أنه عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين فى ذلك الزمان ، يترل الله عبده ورسوله عيسى "عليه السلام" ، ويترل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ، قال "ﷺ" : (**يترل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقى دمشق**) (٥) .

---

(١) سورة النساء الآيات (١٥٦ – ١٥٩) . (٢) سورة الزخرف آية (٦١) .

(٣) إسناده حسن : رواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان) ج٨ ص ٢٢٢ .

(٤) سورة النساء آية (١٥٩) .

(٥) رواه الطبرانى وصححه الشيخ الألبانى : " صحيح الجامع " (٨٠٢٥) .

وقد وصف لنا الرسول "ﷺ" حاله عند نزوله فقال : (**ليس بينى وبين عيسى نبى ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فأعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل**) (١) ، ويكون نزوله فى وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر ، وتقدم إمامهم للصلاة ، فيرجع ذلك الإمام طالباً من عيسى أن يتقدم ليؤمهم ، فيأبى ، ففى الحديث : (**وإمامهم ــ أى إمام الجيش الإسلامى ــ رجل صالح ، فبينما إمامهم يتقدم يصلى بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشى القهقرى ليتقدم عيسى ،فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصل ، فإنها لك أقيمت ، فيصل بهم إمامهم**) (٢) .

وروى مسلم فى " صحيحه " أن النبى "ﷺ" قال : (**لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة**) (٣) .

ومهمته بعد نزوله هى حكم الناس بالعدل ، والحق ، يروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة "ﷺ" قال : قال رسول الله "ﷺ" : (**والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ــ أى ليس نبياً ولا رسولاً ــ فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها**) (٤) .

---

(١) رواه أبو داود ، وقال الألبانى : صحيح ، صحيح الجامع (٥٢٦٥) .

(٢) رواه ابن ماجة وانظر " صحيح الجامع " ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٣) صحيح مسلم

(٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب الأنبياء ج٦ ص ٤٩١ .

روى أبو داود عن أبي هريرة قال : قال "ﷺ" : (**فيمكث فى الأرض أربعين سـنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون**) (١) .

****

وبهذا تنتهى رسالات الله لبنى إسرائيل ، ويبقى عليهم أن يؤمنوا بما جاءهم من عند الله تعالى إن كانوا صادقين .

ولو صدقوا الله حقاً لأمنوا بما بشرهم به المسيح "عليه السلام" .

ومع هذه الكثرة من الأنبياء ، فقد لعبت السياسة بالناس ، وشوهت الأديان لصالحها ، ولم يعد لله فى دنيا البشر إلا بعض الطقوس تؤدى في أماكن العبادة ، وغيرها .

ونحن نتساءل : ألمثل هذا جاء الرسل ؟ ونزلت الكتب ؟ وظهرت التضحيات ؟ وكانت الدعوة ؟ وكان الجهاد ؟

نحن لا نسلم بهذه النهاية ، ونرى أن الرسل جاءوا لصناعة عالم محكوم بشرع الله ، يعيش العبودية الشاملة ، لله المعبود ، الواحد ، الأحد .

هذا ....

وقد حاولت إبراز بعض ركائز الدعوة عقب إيراد تاريخ كثير من الرسل بصورة موجزة ، وسأعقب على هذه الدراسة ، بنظرة تحليلية ، استنبط بها الركائز الرئيسية فى دعوات الرسل لتكون منطلقاً عملياً للدعاة ، الذى أعتبره الهدف الرئيسى لهذه الدراسة ، وسيكون جزءاً متمماً للكتاب بإذن الله تعالى .

****

---

(١) صحيح الجامع (٥٢٦٥) .

القسم الثاني

الركائز الرئيسية

في

الدعوات الإلهية

تـــمـــهـــيد:-

بعد هذه الجولة مع رسل الله " عليهم السلام " بطولها ، وعرضها يحسن بنا أن نقف متأملين فى كل ماجرى ، محاولين بقدر الإمكان التركيز على النقاط التى اشترك فيها الرسل " عليهم السلام " ، لأن إشتراك الرسل فى قضية ما ، يشير إلى أهمية هـــذه القضية ، ويؤكد تجذرها فى الحياة الإجتماعية ، ويوضح حقيقة وحدة الدين واشتراك الرسل جميعاً فى تبليغه ، والتحرك به للناس .

ولعل أهم القضايا التى تبرز أمامنا فى تاريخ الرسل ، وصلتها بالدعوة وثيقة ، مايلى : ـــ

١ ـــ تكريم الإنسان . ٢ ـــ الغاية من خلق الإنسان .

٣ ـــ الدعوة إلى التوحيد . ٤ ـــ الدعوة إلى العبادة .

٥ ـــ الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

٦- اثبات رسالة الرسل .

٧ـــ اثبات البعث .

٨ـــ شخصية مبلغ الدعوة .

٩ـــ خصائص الإنسان ، وطبائعه .

١٠- الحركة بالدعوة (منهجا.ووسيلة.وأساليب) .

إن هذه الركائز المستفادة من الدعوات الإلهية ، تحدد للأمة الإسلامية طريقها وترسم المنهج الذى يجب أن يكون .

وأرى أهمية هذه الدراسة الآن ، نظراً لما يتعرض له الإسلام من أعدائه ، بغية تحريفه ، وتغيير معالمه ، ولما يتعرض له المسلمون من إتهامات ظالمة ، وعدوان ســـافر ، وهمجية مستتره تحت مسميات كاذبة .

وقد أدى ضعف الأمة إلى علو صوت الباطل ، وطغيانه ، وتماديه فى مخططـــه العدوانى الخبيث .

ومن هنا كان اللجوء إلى سير الأنبياء ، والاستفادة من تجربتهم مع الناس، أمر له أهميته ، لأنه عبارة عن مبدإ مدعم بالدليل ، ومنهج مبنى على تجارب عديدة ثابتة ، وصادقة ، ومسلم بها .

يقول سيد قطب : (قصص الأنبياء يمثل موكب الإيمان ، فى طريقه الممتد الواصل الطويل ، ويعرض قصة الدعوة إلى الله ، واستجابة البشر لها ، جيلاً بعد جيل ، كما يعرض طبيعة الإيمان فى نفوس هذه النخبة الممتازة ، المختاره من البشر ، التى اصطفاها الله لتبليغ دينه ، ويوضح طبيعة العلاقة بين الرسل وبين ربهم الذى خصهم بهذا الفضل العظيم .... إن إتباع هذا الموكب الكريم يفيض على القلب رضى ، ونوراً وشفافية ، ويبشر بنفاسة عنصر الإيمان ، وأصالته فى الوجود ، ويكشف كذلك عن حقيقة التصور الإيمانى ، ويميزه عن تصورات دخيلة للإيمان ، صنعها الهوى ، وزينها الشيطان ، وباركها أعداء الله فى الأرض) (١) .

إن الدروس فى قصص الأنبياء عديدة ، ومعها شهادة صدق على فاعليتها ، وتكاملها ، وحين يأخذها الدعاة طريقاً لهم ، يشعرون بتكامل الغاية ، والوسيلة ، ويتأكدون أنهم موصولون بالقوة التى نصرت الأنبياء من قبل ، عساهم ينتصرون
وقد كان للمواجهة بين الرسل وأقوامهم دور بارز فى إظهار خصائص الناس النفسية ، والفكرية ، والاجتماعية ، لأنهم عبروا عن حقيقتهم من بدء الدعوة ، ساعة أن كان الرسول وحيداً ، فريداً ، ... ويعد تكرار هذه الخصائص من رسول إلى رسول تأكيداً عملياً على صدق هذه الحقيقة ، وتجذرها فى حياة الناس .

إن الدعاة إلى الله تعالى فى أمس الحاجة إلى تتبع هدى رسل الله فى الدعوة ، لأنهم بذلك يدعون لله بمنهج الله ، مستفيدين بما أنزله الله تعالى من وحى على رسله " عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) فى ظلال القرآن ج١ ص ٥٥ ـــ دار الشروق .

إن الإنسان هو الإنسان ، منذ أن خلقه الله تعالى ، وبما تميز به من طاقـــات ، وقوى ، وبما فضل به عن سائر المخلوقات ، وأى حقيقة عن الإنسان تبنتها دعـــوات الرسل تعد ركزية أصيلة تعرف بالإنسان ، وتوضح ظاهره ، وباطنه .

وأسأل الله تعالى أن يوفقنى فيما هدفت إليه من هذه الدراسة ، التى أتنـــاول فيها القضايا التى أشرت إليها بإذن الله تعالى .

وسوف أعقد لكل قضية مبحثاً ، وذلك فيما يلى .....

*****

المبحث الأول : تكريم الإنسان

ينظر الدين إلى الإنسان نظرة متميزة ، ويقر له بالحقيقة التى خلقه الله عليها .

فقد أوجده الله إنساناً منذ اللحظة الأولى ، مركباً من عنصرى المادة ، والروح واختاره خليفته فى الأرض ، وأنزل عليه وحيه ، وكلفه بإتباع الهدى الربانى ، والتمسك بتعاليم الله تعالى المبلغة إليه .

والتصور الدينى الصحيحح يقدم عدداً من الحقائق عن الإنسان ، من أهمها :

١ ـ الإنسان هو الإنسان من البداية :

الإنسان الأول هو آدم "عليه السلام" خلقه الله إنساناً منذ اللحظة الأولى ، بخصائصه وقواه ، وطاقاته الظاهرة ، والباطنة .

فهو **ـ أولاً ـ** : كائن عاقل ، يدرك ، ويتصور ، ويفهم ، ويستنتج، ويحكم ، ولذلك جعله الله رسولاً ، وحمله أمانة الدين، ليعيش به فى الدنيا ، ويسعد بسببه فى الآخرة ، وولاه رئاسة الدنيا ، يعمرها بالخير ، والصلاح .

ومن دلالة العقل فى الإنسان ، التوجه إليه بالخطاب ، وتفهم تساؤلاته ، ومعارضاته فى كافة ما يعرض له من أمور الحياة .

ولولا عقل الإنسان لعجز عن تدوين أعماله ، وكتابتها بصورة ما ، لتبقى تاريخاً ناطقاً ، و أثراً شاهداً على حياة الإنسان فى الزمان الماضى .

لقد دون الإنسان تاريخه على الشجر ، والحجر ، والعظم ، والورق ، وعلى كل ما أمكنه الكتابة عليه ... ولو لم يكن عاقلاً لعجز عن تصوير واقعه ، وتسجيله لمن بعده من الناس .

إن تاريخ الكائنات الأخرى غير معروف ، وما عرف منـــها فهـــو بســـبب الإنسان الذى أهتم بها ، وسجلها ، وكتبها كما يكتب لنفسه .

ومن دلالة العقل فى الإنسان قيامه بتأسيس حضارات عديدة علـــى مـــدار الزمن الطويل سواء كانت زراعية ، أو صناعية ، أو عمرانية .... لقد تمكن الإنســـان بواسطة توجهه الفكرى ، من إنشاء العمران ، وبناء السدود ، وتشـــييد المصـــانع ، ونحت الصخر والحجر ، وشق الطرق ، وركوب البحر والهواء ، وعـــاش بـــذلك فى مدنيات مزدهرة رأينا أمثلة لها مع عاد ، وثمود، وقوم إبـــراهيم، وإسماعيـــل، وبـــنى إسرائيل، وغيرهم .

ومن دلالة العقل فى الإنسان قدرته على التعلم ، والتعليم ، حيـــث تمكـــن بإرادة الله من علم أسماء كل شئ ، ووضع رمز دال على كل شئ، وكل شـــخص ، ومن ذلك كان طريقه إلى البحث، والدراسة، لكل ما فى الكون من حوله ، معتمـــداً على هذه البداية الضرورية ، لتحديد كل شـــئ باسمـــه ، وأن لا لتاهـــت الســـبل ، وتداخلت الحقائق، ولعجزالناس عن تحديد ما يراد بحثه ، والنظر فيه .

ولولا عقل الإنسان لعجز عن هذه المعرفة ، ولما تمكن من بحث مـــا يريـــد ، واكتشاف ما يلوح له .

ومن دلالة العقل فى الإنسان ، محافظته على القـــيم الإنســـانية ، النبيلـــة ، كالعدل ، والمحبة ، والصدق ، والبر ، والتعاون .... والقيم الإنسانية فى جملتها خيرة ، راقية ، تنمى الخلق ، وتسمو بصاحبها إلى درجة الكمال ...... وهذه القيم ليســـت غامضة فى الفكر الإنسانى ، وليست متقلبة ، إنها قيم واضحة وثابتة .

والإنسان بفطرته يدرك هذه القيم ، ويحبها ، ويعيش بها ولو أهمل الإنســـان عقله ، وترك أمره لبطنه ، أو لشهوته ، لتحولت القيم معه إلى صور ماديـــة ضـــارة ، كما فعلها أعداء الرسل على الزمن كله ، الذين أفسدوا الحياة ، ونشـــروا الظلـــم ، واعتدوا على الحرمات ، وارتكبوا الحرام ، فصب عليهم ربك صوت عذاب .

ومن دلالة العقل فى الإنسان ، إتساع دائرة تفكيره عن المحيط الذى يعيشه ، زماناً ، ومكاناً ، فالإنسان يعيش فى بيئة محددة المعالم ، ومع ذلك فإنه يفكر فى الماضى السحيق ، وفى المكان البعيد ، وفى المستقبل الذى لم يقع بعد .

إنه يعيش الماضى عبرة للحاضر، ويعيش الحاضر مستفيداً بتجارب وحضارات الآخرين ، ويعيش المستقبل طموحاً ، وأملاً ، وتخطيطاً ، ولولا عقل الإنسان لما تمكن من هذا الإنطلاق الواسع عبر الزمان ، والمكان ومع سائر الجماعات ، ومختلف الأجناس .

إن العقل بقوة التخيل فيه يساعد الإنسان على استحضار صورة الماضى مجسدة ، مصورة ، ولو بعد زوالها .... ويقدم له المستقبل فى صورة أمنيات ، وآمال يسعى لها بالتخطيط ، والعمل .

وهو – **ثانياً** –: كائن له مع العقل جسد ووجدان ، والجسد هو الوعاء الحامل للعقل والوجدان ، وحياته لهما حياة ، وفناؤه لهما إنتهاء ، والوجدان يختلف عن العقل فى أنه قوة غير منضبطة بقاعدة ، ونظام .

قوة تسبح فى عالم خاص بها ، وتعيش مع العواطف وعالم اللاشعور ، بينما العقل محكوم بالممكن من المدركات ، وله نظام ثابت فى التفكير ، والفهم ، والاستنتاج .

إن الوجدان يهيم بالجمال ، ويسبح فى عالم من الرضى .... وإن الإنسان يحب بوجدانه غالباً ، ويسعد بعواطفه .

ولولا الوجدان لنفر الناس من أصحاب العاهات ، ولما حدث إرتباط روحى متين ، بين عديد من الناس .

إن من يجن بسبب موت حبيبته، إنسان يعيش بوجدانه لا بعقله ، والإنسان الذى يقدم على الموت فى سبيل الله يحيا الدين بعقله ، ووجدانه .

إن الإنسان مكون من جسد ، وعقل ، ووجدان ، منذ اللحظة الأولى التى خلقه الله فيها ، وقد عشنا الصورة كاملة فى خلق آدم وحواء عليهما السلام .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه (دارون) من أن الإنسان لم يخلق إنســاناً أول مرة،وإنما تطور إلى الصورة التى هو فيها الآن ، وأسباب عدم صحته عديدة ، وأهمها :

١ــ الثابت دينياً فى كل الدعوات الإلهية أن أول البشر آدم "عليه السلام" ، وأنــه بعث بالرسالة ، وكلف بدعوة بنيه ، ومن بعده جاء الرسل جميعاً إلى هذا الإنسان .

٢ ــ لم يشاهد أحد من الناس ، الانتقال من جنس إلى جنس ، ولم يرو أحد ولو من أصحاب نظرية التطور، أنه شاهد حشرة ، أو ذبابة ، أو حماراً ، أو كلباً ، أو قرداً ، صار إنساناً ، وانعدام المشاهدة الواقعية يجعل فكرة التطور الدروينية فكرة خيالية بحته لا صلة لها بعالم الحقيقة .

٣ ــ يستدل الدروينيون بالتطور فى الجنس الواحد على التطور بين الأجناس ، وزعموا أن الوجود كله نشأ على أساس مذهب التطور ... ومع كل ما قالوه اعترفوا بعجزهم عن معرفة خالق الحياة فى الخلية الأولى التى هى سبب الحياة ، وهذا الاعتراف ينفى مذهبهم كله ، ويؤكد أن الإنسان خلق متفرداً فى تكوينه وخصائصه ، وملكاته ، يقول تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١) .

٢ ــ الإنسان مخلوق له دين :

من الحقائق الثابتة أن الإنسان بدأ متديناً منذ اللحظة الأولى ،فلقد نزل الوحى على آدم "عليه السلام" قبل أن يوجد بنوه ، وحين أهبط الله آدم إلى الأرض قال له : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الإسراء آية (٧٠) .

(٢) سورة البقرة الآيات (٣٨ ــ ٣٩) .

والآيات واضحة فى دلالتها على تدين الإنسان لله رب العالمين ، فلقد أهبط الله تعالى آدم وحواء " عليهما السلام " من الجنة إلى الأرض ، وأسكن معهما إبليس وذريته ، وأنزل على آدم الهدى الإلهى ، الذى يصلح به الناس ، فمن اتبعه فاز ونجا ، ومن خالفه خسر الدنيا والآخرة ، وعرف الإنسان منذ بداية البشرية كيف ينتصر إذا أراد الإنتصار ، وكيف ينهزم إذا اختار لنفسه الهزيمة .

وانطوت الفطرة البشرية على ضرورة الخضوع لله رب العالمين ، وعند غياب الدين الصحيح ، رأينا الإنسان يتخذ لنفسه ديناً ، يعبد فيه إلهاً مصنوعاً من الحجر، أو الشجر ، على صورة إنسان ، أو حيوان ، ورأيناه كذلك يتقرب لهذه الآلهة المزعومة بالعطايا ، والقربات، ويطلب منها ، ويلجأ إليها ، ويستغيث بها عند الحاجة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد ، المسئول عن دين الله فى الأرض، ولذا جعله الله خليفته، وبعث إليه رسله " عليهم السلام " ، لتبليغ الدين الحق كلما اختفت تعاليمه ، أو حرفها المحرفون من أعداء الله .

وقد استمرت البشرية بعد آدم "عليه السلام" على الدين الحق ، مدة عشرة قرون ، وبعدها ظهرت الأصنام ، وصار لها كهنة يدعون لها ، ويروجون لعبادتها ، ورأى جبابرة الأرض أن وضع دين للناس يهيئ لهم السيطرة ، والتحكم ، هو الطريق الأكثر فائدة لما يريدون ، ولذلك اتخذوها آلهة من دون الله ، وألهوا أنفسهم ، واستعبدوا الناس ، واستكبروا فى الأرض ، وعملوا على القضاء على أى دعوة إلهية ينادى بها رسول من قبل الله فى الناس .

ولأن الإنسان مخلوق لله ، والدين متزل من عند الله ، وجدنا التوافق التام بين الإنسان السوى، والدين الحق ، فكلاهما خلق الله ، وكل منهما يلتقى مع الآخر ، فى توافق ، وتناغم ، وإنسجام .

إن الله خلق الإنسان مكوناً من جسد وعقل ، ووجـــدان ، وأنـــزل الـــدين مشتملاً على عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق ، ليشبع الإنسان كافة جوانبه ، ويتمكن من القيام بواجبه الذى خلق له ، فى توافق وتوازن ، وإنسجام ، فلا يطغى جانب علــى غيره ، ولايشبع عنصراً دون سواه .

فليس من الدين مادية مفرطة تشبع الجسد ، وتهمل الروح ،وتعلــى شـــأن اللذة الدنيوية ، وتتفنن فى الإستجابة للشهوات والغرائز ، مع نسيان العقل والوجدان .

وليس من الدين رهبانية جانحة ، تعــزل الإنسان عن الحيـــاة ، وتضــعف الجسد ، وتهمل العقل ، وتغرق الإنسان فى همهمات ، وشــطحات ، مهمـــا تعـــدد مسماها .

وليس من الدين اعتماد مطلق على العقل ، يرضى بالفلسفة ، ويغتر بالتقدم الفكرى ، وينسى ما عداه .

إنما الدين وحى من الله تعالى ، جاء به الرسل للناس بمنهج كامل ، يتعامل مع الجسد ، والعقل ، والوجدان ، بصورة متوازنة .

إن الدين الحق ينظم للإنسان كافة جوانب حياته ، وجميع ألـــوان نشـــاطه ، وبذلك يعيش الإنسان لله إنساناً سوياً ، لا تتمزق شخصيته ، ولا تتبعثر أنشطته ، ولا يدركه القلق ، أو الاضطراب ، أو التضارب .

والإنسان حين يعيش بالدين الحق يجد نفسه أمام نظام ربانى ، ينسق له ألوان نشاطه ، ويشرع له فى كل أمور الدنيا ، ويهيئه ليسعد فى الآخرة .

إن وحدة المنهج يحقق وحدة الشخصية ، دون أن يجور جانب على جانب ، أو يضيق مجال الحركة ، أو يمزق الإنسان بين عـــدد مـــن المناهج البشرية بما فيها من عجز ، وتضارب ، وقصور .

إن رسالات الله ، ودعوات رسله إلى الناس ، حاولت أن توضـــح الحقيقـــة الدينية أمام الإنسان ، حماية لفطرته ، وإزالة للغبش الذى وضعه أهل البغى ، والضلال فى الأرض .

وقد بدأت المعركة الدينية منذ آدم " عليه السلام " ، وتحددت كافة القوى ، فهناك قوى الخير التى تبلغ هدى الله للناس ، وتعمل على إنتشاره فى العالمين ، ورسل الله " عليهم السلام " هم طلائع قوى الخير ، وقد رأيناهم دعاة ، عاملين ، مجاهدين ، يبلغون دين الله تعالى كما جاءهم من عند خالقهم ، متحملين فى سبيل ذلك ، العنت والأذى ، والتهم ، والعدوان ..... وأدوا ما كلفهم الله به بصورة تامة كاملة ، ومع الأنبياء نجد المؤمنين الصالحين ، الذين اكتشفوا حقيقة أنفسهم ، فعبدوها لله ، وأخذوا فى الطاعة ، والإلتزام ، ونشر الهداية فى الآخرين .

وهناك قوى الشر ، وعلى رأسها إبليس الذى طرده الله من الجنة ، وأنظره إلى يوم الدين ، وكثرت ذرية إبليس ، وتمكنوا من ضم قوى عديدة للعمل معهم .

ومن هذه القوى النفس الأمارة بالسوء ، والشهوات، والترعات ،والهوى ،بما لها من تأثير فى الإنسان ظاهراً ، وباطناً ....

ومن هذه القوى جبابرة الناس ، وفساقهم، الذين يرون فى الحق والعدل تعارضاً مع توجهاهم ، وآمالهم .

ومن هذه القوى كل من يحب لنفسه أن يتصف بشئ من صفات العظمة والتأليه .

ومن رحمة الله بالناس أن وضح لهم مختلف القوى ، ليختار الإنسان لنفسه ما يريد ، وليعلم نهاية الطريق الذى اختاره لنفسه ، يقول تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة طه الآيات (١٢٣ ــ ١٢٤) .

المبحث الثاني : الغاية من خلق الإنسان

حينما ننظر فى دعوات الرسل " عليهم السلام " جميعاً ، نرى قضية رئيسية بدأوا بها جميعاً ، وهى ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وتتضمن هذه الدعوة على أمرين واضحين :

أولاهما : الله واحد لاشريك له .

ثانيهما : ضرورة عبادة الله الواحد الأحد .

ويقوم الدين كله على هذين الجانبين ، وكل ما بعدهما من أمور الدين فروع وثمار ، تأتى تبعاً لتحقيق هذين الجانبين فى حياة الناس .

وبالنظر فى هذين الأمرين تظهر الغاية من خلق الإنسان ، فهو لم يخلق ليعمر الكون فقط ، أو ليعيش فقط، وإنما خلق ليكون عبداً لله تعالى ، يحقق العبودية فى نفسه ، وفى أعماله ، وفى الكون من حوله ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١) .

فالإنسان مخلوق للعبادة ، وقد أختصه الله بخلافته فى الأرض ، ليحقق هذه العبودية على نفسه ، ومع الناس ، وفى الكون كله .

وقد هيأ الله تعالى الإنسان ، وأمده بالعقل ، والقدرة ، وأراد الله له أن يعبده راضياً ، مختاراً ، وكلفه ، ليكون قادراً على القيام بالعبادة عن وعى ، ورضا ، وإختيار ،ليسعد بهذه العبودية التى يؤدى بها ما وجب عليه ، وأعطاه حرية فى التطبيق والعمل ، يريد ، ويميل ، والله يعينه ، وبذلك يكون العابد كريماً لا ذليلاً ، مريداً لامقهوراً ، وتلك رحمة من الله تعالى ، حيث كلف الناس بالعبادة ، وتكفل لهم بالرزق ، والمعاش

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) .

لكى يملأوا حياتهم بما كلفوا به ، ولا يضيعوا أوقاتهم فيما تكفل به الخالق العظيم ، يقول تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ ﴾ (١) .

والآيات تبين رحمة الله ، وعظمته ، فهو السيد المطاع ، وشأنه سبحانه وتعالى مع عبيده ، لا يقاس عليه شأن الخلق مع عبيدهم ، فإن عبيد الخلق مطلوبون للخدمة ، والتكسب للسادة ، بواسطة أعمال يقومون بها إبتغاء عطاء ، وأجر ، والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ، ولا إطعاماً ، وإنما يطلب منهم عبادته فقط ، وزائد على أنه لا يطلب منهم رزقاً ، فهو الذى يرزقهم ، وعليهم أن يقوموا بما خلقوا له .

وبتحقيق العبودية يتحقق توحيد الله تعالى فى الحقيقة ،لما بين التوحيد والعبادة من تلازم ، وإر تباط .

فالتوحيد تصديق يقينى بألوهية الله الواحد ، هذه الألوهية المشتملة على تقدير الله الخالق ، وعدم إشراك غيره معه فيما يستحق من صفات ، وأفعال ، فهو سبحانه متفرد فى الألوهية ، والربوبية ، والقوامة ، والسلطان ، والحكم .

والواجب على الإنسان العابد أن يحقق هذا التوحيد ، اعتقاداً فى الضمير ، وعبادة فى الشعائر ، ونظاماً وسلوكاً فى الحياة العملية .

إن التوحيد فى حقيقته يعنى أن تعود حياة الناس بجملتها إلى الله . ..

وليس من التوحيد التوجه بالتعظيم إلى مخلوق آخر غير الله .

وليس من التوحيد إعطاء ما لله لغير الله ، لأن ذلك شرك ، وجحود لا يجوز فى دين الله تعالى .

وبهذا الفهم الدقيق والحقيقى للتوحيد ، تكون العبادة الخالصة لله ، عملاً ضرورياً ملازما للتوحيد .

---

(١) سورة الذاريات الآيات (٥٧ ــ ٥٨) .

وليس من العقل أن يتخذ الله رباً واحداً ، ويعبد سواه ، ويقصد بالطلب ، والدعاء والرجاء .

وليس من الدين أن تؤمن بالله وحده بالضمير ، وتهمله فى العبادة والسلوك والنظام .

إن الحياة بقانون يغاير شرع الله ، ونظام يخالف نظام الله ،يشير إلى نفـــاق فى العقيدة ، ويؤكد عدم الاقتناع بشريعة الله .. وإن لا فلم ترك نظـــام الله ؟ وإهمـــال شريعته ؟

إن العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال والأعمـــال الباطنة ، والظاهرة (١) ، وهى بذلك تعلق بعظمة الإله الواحد .

ولذلك كانت دعوات الرسل جميعاً قائمة على توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ (٣) ، ويقول سبحانه : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (٤) .

فالدين كله داخل فى العبادة ، والإنسان بالعبادة يكون عبداً ربانياً .

يقول ابن تيمية : والعبادة والدين كلاهما يتضمن الذل والخضوع ، يقال : دنته ، فدان ، أى ذللته ، فذل ، كما يقال طريق معبد أى مذلل وطأته الأقدام .

---

(١) العبودية ص ٨ .
(٢) سورة الأنبياء آية (٢٥) .
(٣) سورة النحل آية (٣٦) .
(٤) سورة مريم الآيات (٩٣ ـــ ٩٥) .

لكن العبادة المأمور بها ، تتضمن معنى الذل ، ومعنى الحب ، فهى تشتمل على غاية الذل لله ، وغاية الحب له ... وأول مراتب الحب العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لإنصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق وآخرها التتيم ، يقال : تيم الله ، أى عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه (١) ..... والواجب أن يكون الله أحب للعبد من كل شئ ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ .

إن حب الله ، وتعظيمه يجعل العبد سعيداً بعبادة الله ، فيطيع راضياً ، ويتوكل مطمئناً .

إن الله سبحانه هو رب العالمين ، وخالقهم ، ورازقهم ، ومحييهم ، ومميتهم ، ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم ، لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ولا خالق لكل شئ ، ومدبره ، ومسخره ، إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك ، أو أنكروه وسواء علموا ذلك ، أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك ، وآمنوا به ، وشكروه بعبودية الإلهية ، رغباً ورهباً ، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له ، مستكبراً على ربه ، لايقر ولا يخضع له ، مع علمه بأن الله ربه وخالقه ، فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له ، كانت عذاباً على صاحبها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) العبودية ص ١٣ . (٢) سورة النمل آية (١٤) .

(٣) سورة البقرة آية (١٤٦) . (٤) سورة الأنعام آية (٣٣) .

فإذا اعترف العبد أن الله ربه وخالقه،وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، وعرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، هذا العبد يسأل ربه ، ويتضرع إليه ، ويتوكل عليه .

وهناك من العبيد أقوام يعرفون الله ، ويقرون بحقيقة ربوبيته ، ولكنهم لا يعبدون ، وإن عبدوا فبصورة لا تثمر عبودية صحيحة ، إنهم يعيشون بنظام غريب ، وسلوك يخالف دين الله وشرعه .

وهذه المعرفة عاشها إبليس ، وأهل النار ، يقول الله عن إبليس : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣) ، فهو قد أقر بربوبية الله وأعترف له بالعزة ، ولكنه كفر بمعصيته ، وعدم خضوعه لأمر الله تعالى فأبى ، وأستكبر ، وكان من الكافرين .

وأهل النار كذلك يقرون بربوبية الله ، ولكنهم لا يعبدون ولا يطيعون ، ولا يحققون العبودية لله فى حياتهم ، وفى الكون المحيط بهم ، فاستحقوا اللعن والعذاب ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٤) ، ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥) .

فمن أقر بالله رباً ولم يخضع له ، ولم يطعه ، ولم يعش العبودية فى كل جوانب حياته ، كان مثل إبليس ، وأهل النار .

---

(١) سورة ص آية (٧٩) .
(٢) سورة ص آية (٨٢) .
(٣) سورة المؤمنون آية (١٠٦) .
(٤) سورة الأنعام آية (٣٠) .
(٥) سورة الكهف آية (١١٠) .

إن العبادة متعلقة بالألوهية ، فالإله هو الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم ، والإجلال ، والإكرام ، والخوف ، والرجاء ، ونحو ذلك .

وعلى العابد أن يعلم أن عبادة الله تكون بما أمر به ، وشرعه ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١) .

إن العبودية الحقه تجعل صاحبها يؤمن بخيرية شرع الله ، لأنه من الله ، وذلك كاف في الإيمان ، أما أن يجعل الخيرية خاضعة للمقارنة ، والتنظير، فذلك أمر يضر الإيمان ، ولا يفيد .

ليس من العبودية الصحيحة أن يعيش الإنسان التوحيد في عالم الثقافة النظرية ، والفكر المجرد بعيداً عن التطبيق في عالم الواقع .

وليس من العبودية الصحيحة أن يحاول العابد إقناع نفسه بخيرية دينه بالمقارنة بالنظم الأخرى .... لأن مصدر الخيرية في الحقيقة هو الله تعالى ، والمؤمن به لا يحتاج لمقارنة.

لقد أكرم الله رسله بهذه العبودية ، فوصفهم بها ، وكانوا أحق بها ، وأهلها يقول تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى :﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ

---

(١) سورة الكهف آية (١١٠) (٢) سورة ص آية (١٧) .

(٣) سورة ص الآيات (٤٥ ــ ٤٧) .

نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (٣) .

ولقد دعا رسل الله " عليهم السلام " أقوامهم إلى عبادة الله الواحد ، الأحد ، واستمروا عليها مع امتداد الزمن ، وتباعد المكان .

وحينما ننظر إلى هذا الموكب المتتابع لرسل الله ، واجتماعهم حول هذه القضية ، ندرك على الفور أهمية هذه القضية ، التي التقوا حولها ، وعاشوا جميعاً لها .

وندرك كذلك أن ذكر القرآن الكريم لهذه الدعوات أمر مقصود ، أراد الله به أن يوقظ همم الأمة الإسلامية ، ليؤمنوا بالله إلهاً واحداً ، ويخصوه وحده بالعبادة ، ويعبدوه بما أمر وشرع ... وكأن هذه التجارب أدلة مثبتة لصدق ما دعا إليه الرسل " عليهم السلام " ...

على المسلمين أن يستفيدوا بها ، ويأخذوا منها ما ينفعهم فى حركة الدعوة إلى الله تعالى .

وقد يتصور البعض أن دعوة الرسل " عليهم السلام " لأقوامهم ، كانت سهله ميسرة لقلة الناس ، ولصلتهم برسولهم ... قد يتصور البعض ذلك إلا أن الواقع يؤكد غير ذلك ، فلقد واجه الرسل ، الملأ ، والجبابرة ، وأعداء الحق ، وأخلصوا فى دعوتهم وأدوا ما عليهم من واجب ، وتركوا الأمر لله بعدما بذلوا كل ما أمكنهم من بيان ، وتوضيح .

---

(١) سورة ص آية (٣٠) .   (٢) سورة ص آية (٤١) .

(٣) سورة الإسراء آية (٣) .

المبحث الثالث : الدعوة إلى التوحيد

إن الدعوات الإلهية جميعاً ، جاءت لتبليغ دين الله تعالى ، بكماله ، وتمامه ، ليعيش الناس به عبيداً مخلصين ، يقول الأستاذ / محمد قطب : (إن " لا إله إلا الله " لم تكن عقيدة فقط ، إنما كانت دائماً ـــ إلى جانب العقيدة ـــ توجيهات ربانية تتناول جوانب الحياة المختلفة ، فهى تارة توجيهات خلقية ، وأخرى توجيهات نفسية ، وثالثة إقتصادية) (١) .

إن هدف " لا إله إلا الله " إقامة أمة على نهج ربانى ، يقوم على العقيدة ، ويتأسس بالعبادة والشريعة ، ويجمل بمكارم الأخلاق ومحاسن السلوك .

والعقيدة الدينية أساسها توحيد الله تعالى ، ولذلك فصل الأنبياء فى التعريف بها ، وركزوا عليها .

ويتضح من تتبع دعوات الرسل أن التوحيد أنواع ثلاثة ، متمايزة ، يجب الإيمان بها ، لتنتج إيماناً صادقاً كاملاً ، وهذه الأنواع هى : ـــ

القسم الأول : توحيد الأسماء والصفات : ـــ

لله الأسماء الحسنى ، وصفاته العلى ، وهو سبحانه فى أسمائه ، وصفاته ، واحد لا شريك ، ودلالة الأسماء والصفات على ذات الله تعالى دلالة خاصة ، تليق بذاته سبحانه وتعالى ، ولا يصح فهمها على ضوء مفهوم الحوادث المخلوقة ، ولا يصح تصور أن الحوادث وإن سميت ، أو اتصفت بأسماء الله ، أو صفاته ، تشبه الله فى جانب من جوانب الصفة .

فالكبير اسم من أسماء الله تعالى مثلاً، يجب أن يفهم بمعنى خاص به ، فالخالق لا يشبهه مخلوق أبداً ، والمخلوق كائن حادث ، والخالق إله قديم قادر ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

---

(١) لاإله إلا الله ـــ عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ٢٤ .

وصفاته تعالى هى ذاته ، وهو سبحانه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

القسم الثانى : توحيد الربوبية :ـــ

ومعناه أن الله هو الرب الواحد ، الفاعل لكل ما فى الوجود ، الخالق لكل موجود بلا شريك ، أو معين ، اختص بالربوبية دون سواه ، فوجب توحيده بها .

والربوبية اسم مشتق من الرب،ومعناه السيد ، والمالك ، والمربى ، ولذلك يقال:فلان رب الأسرة،من قبيل الاستعمالات المجازية ، لأن الواقع المشاهد يؤكد أن الإنسان لا يملك أمر نفسه،ولا يؤثر تأثيراً حقيقياً فى أى جانب ، إذ الأمور تجرى بالمقادير،وصدق رسول الله "ﷺ" وهو يقول لابن عباس "رضي الله عنه" :(**يا غلام إنى أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك ، أحفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف**) (٢) .

وتوحيد الربوبية من المسلمات العقلية ، التى آمن بها البشر دائماً ، لأن الإنسان دائماً يدرك عجزه أمام قوى الكون المختلفة ، ولا يعلم لها تفسيراً ، ولذلك سلم بوجود الله الخالق ، القادر .

---

(١) سورة الحشر الآيات (٢٢ ـــ ٢٤) .

(٢) سنن الترمذى ـــ باب وصية النبىﷺ لابن عباس ج٤ ص٦٧٧ والحديث حسن صحيح .

يؤكد القرآن الكريم إيمان الإنسان بالرب الواحد ، فى آيات كثيرة ، فيقول تعالى :﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢) ويقول تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٤) .

فهذه آيات تؤكد تسليم الناس بتوحيد الربوبية ، فهو سبحانه الرزاق ، ومالك الكون كله ، والمحيى ، والمميت ، والمعطى ، والمانع ، والمدبر ...

وعاشت البشرية بهذا اللون من التوحيد ، وظنت نفسها تعرف الله ، والحق ليس كذلك ، فإبليس لم يجادل فى وحدانية الرب ، والكفار كانوا مثله ، وما استفادوا بإيمانهم القاصر .

وفى العصر الحديث ، بدأت عقول تغتر بفكرها ، فأنكرت ما وراء المادة ، وآمنت بالمحسوس وحده ، وهذا أدى بهم إلى إنكار توحيد الربوبية ، والكفر المطلق بالله تعالى .

القسم الثالث : توحيد الألوهية : ــ

يعتبر توحيد الألوهية ، ثمرة مباشرة لتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الربوبية .

---

(١) سورة يونس آية (٣١) .

(٢) سورة المؤمنون الآيات (٨٤ ــ ٨٥) .

(٣) سورة الزخرف آية (٩) .

(٤) سورة الزخرف آية (٨٧) .

لأن توحيد الأسماء والصفات ينفى الشريك فى الاسم ، والصفة ، وتوحيد الربوبية يدور على إثبات الفعل ، والتأثير لله وحده .

فإذا ما آمن الإنسان بربوبية الله ، وأسمائه وصفاته ، يجد نفسه تلقائياً مؤمناً بألوهية الله تعالى ، فيتعلق القلب به سبحانه ، خوفاً ورجاء ، ويتعلق اللسان به صدقاً وإيماناً ، وتتعلق الجوارح به عملاً وطاعة .

وحين يحقق المؤمن فى نفسه توحيد الألوهية تتحقق العبودية الصادقة التى من أجلها خلق الله الإنسان .

إن تكامل الإيمان فى الشخصية المؤمنة يبرز التوحيد ، والعبادة ، فى قالب واحد ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهو الذى عناه الأنبياء وهم ينادون فى الناس ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ .

ولقد بدأت البشرية بنبى الله آدم "عليه السلام" ، مؤمنة ، موحدة ، تشهد بوحدانية الله تعالى فى أسمائه وصفاته ، وربوبيته، وألوهيته ، لكنها لم تستمر على الإيمان طويلاً ، إذ لعب بها الهوى ، وأضلها إبليس ، فأتخذت آلهة عددا ، وعبدتها من دون الله تعالى .

وكانت كلما جاءهم رسول يدعوهم إلى الحق ، لايؤمنون ، وإن آمن بعضهم فسرعان ما يرتدون .

إن تاريخ الناس بالنسبة لدين الله مؤسف ، ففترات الكفر ، والإلحاد تربو على فترات الإيمان ، ولم يأت رسول إلى قومه إلا وهم على ضلال مبين ، بدءاً بنوح "عليه السلام" إلى خاتمهم محمد "صلى الله عليه وسلم" ، وكان الناس خلال ضلالهم يعبدون الأصنام ، والأوثان ، والأشخاص ، والكواكب ، والأشجار ، والبيوت ، وغيرها .

جاء نوح "عليه السلام" فوجد قومه ، يعبدون الأصنام من دون الله تعالى ، فدعاهم إلى التوحيد الخالص ، والعبودية الحقة ، لكن القوم أصروا على كفرهم وقالوا ما حكاه

الله عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) ، فتمسكوا بأصنامهم ، وعلى رأسها هذه الأصنام الخمسة المذكورة لأنها أكبرها ، وأكثرها إتباعاً ، وواجهوا حركة نوح "عليه السلام" بالدعوة باتهامه بالكذب والسفاهة ، والجنون ، و لم يرتضوا أن يكون الرسول بشراً ، فى الوقت الذى إرتضوا فيه أن يكون الله حجرا أو حيواناً .

و " عاد " هى الأخرى عبدت الأصنام ، ونسيت الله ، وحقوقه ، فكان ردهم كقوم نوح تماماً ، فاتهموا هوداً بخفة العقل ، والكذب ، ومخالفة أبائه السابقين .

و " ثمود " كذلك كانت على نمط من سبقوهم فى الكفر ، والضلال ، ولما دعاهم صالح "عليه السلام" أبوا واستمروا على ضلالهم .

وهكذا كان كل الأقوام مع رسلهم ، فى رفضهم الدعوة ، وإتهام الرسول ، والتشبث بمواريثهم ، وضلالهم .... ولقد كان للقوم منطق واحد فى ضلالهم ، وكفرهم .

لقد عبدوا الأصنام ، والأوثان ، ورفضوا عبادة الله وحده ، متعللين بأسباب واهية .

قالوا : إن مواريث الآباء فى عبادة الأصنام أولى بالاتباع ، لأن الآباء ما عبدوها إلا عن إقتناع بها ، فكيف لهم ترك ما كان عليه الآباء والأجداد .

وقالوا : إن عبادة عدد من الآلهة أفضل من عبادة إله واحد ، لأن الكثرة والتعدد أحق من التوحد ، وكأنهم فى سوق يبيعون ويشترون .

وقالوا : إن تعدد الألهة يساعدهم فى العبادة ، لأنهم يصطحبون الإله معهم أينما ذهبوا ، وأينما حلوا .

وقالوا : إن الأصنام آلهة صغرى ، نراها ، ونلمسها ، وبها نتقرب إلى الله الأعظم ، يشير الله تعالى إلى هذه العلل الواهية ، فيقول تعالى :

---

(١) سورة نوح آية (٢٣) .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (٢) ويقول تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ ﴾ (٣) .

وكل هذه الإفتراءات ، والمزاعم الباطلة تعود إلى الجهل ، والكبرياء والاستغراق فى الهوى ، وحب الشهوة ، وحب السيطرة والاستعلاء .

فهم بكبريائهم يعتزون بأبائهم ، ويتمسكون بما ورثوه منهم ، وكأنه الحق الذى لاتجوز مخالفته رغم وضوح فساده ، وضلاله .

وبسبب هذا الكبر نجدهم لايهتمون بدعوة الرسول إليهم لكونه رجلاً عادياً ، من عامتهم .

وهم بجهلهم يعبدون أصناماً لاتضر ، ولاتنفع ، ولاتسمع ، ولا تتكلم ، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، ولا تدفع عن نفسها ضراً ، وأهملوا عبادة الله الذى خلقهم ورزقهم ، وهو الذى أحياهم ، وسوف يميتهم .

وبجهلهم تصوروا أن كثرة الحجارة تعطى معنى آخر ، مع أن الحجر هو حجر واحداً كان أو عدداً .

وبجهلهم اعتبروا الألوهية سلعة كسائر السلع ، ولذلك فضلوها عدداً وكثرة

ومن حبهم للهوى أنهم فضلوا صناعة آلهة متعددة بأيديهم ، واصطحابها فى سفرهم ، ورحلاتهم ، ليسعدوا بها ، ويعيشوا معها .

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٠) .
(٢) سورة الشعراء الآيات (١٣٦ ـــ ١٣٧) .
(٣) سورة ص آية (٥) .

ومن حبهم للإستعلاء والتسلط عملهم على انتشار عبادة الأصنام فى الناس ، لأنها وسيلتهم إلى السيطرة على عقول العامة ، والاستيلاء على مالهم من حقوق .

لقد وصل بهم الضلال إلى أن نصبوا أنفسهم آلهة ، ووجهوا العامة ، وغيرهم إلى تعظيمهم ، والخضوع لهم ، مع أنهم يعلمون علم اليقين ، ضعفهم ، وحاجتهم إلى الله دائماً ، وبخاصة فى وقت مرضهم ، وأزماتهم ، ومشاكلهم ... لكنه الضلال والكبر

ولقد استمر الرسل " عليهم السلام " فى جلاء الحقيقة ، ودعوة الناس إلى الدين الحق ، و لم يأبهوا بمعارضة أهل الباطل والضلال .

*****

المبحث الرابع : الدعوة إلى العبادة

اتجه الرسل " عليهم السلام " جميعاً إلى دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى ، وترك تأليه ما سواه ، ورأينا أن الدعوة إلى عبادة الله جاءت ملازمة للدعوة إلى التوحيد لأن التوحيد بلا عبادة عبث لا يجوز فى دين الله تعالى .

إن العبادة تشعر الإنسان المخلوق ، باحتياجه إلى الله الخالق ، وتعتمد العبادة على فطرة الإنسان ، لأنها ترتبط بغريزة التدين ، التى تبدو فى إحساس الإنسان بوجود سلطان غيبي ، قوي فوق قوى الكون ، يوجد بلا سبب ، خالق السموات والأرض ، وهو على كل شئ قدير .

قد يبدو هذا الإحساس الفطرى باهتاً ، ولذلك جاء الرسل ، لتأكيد هذه الفطرة ، وإبرازها فى الجانب العملى للحياة ، وترسم طريق استقامة الفطرة فى تدينها لله ، وعبادتها للخالق العظيم .

إن العبادة طاعة منهجية ، وإلتزام عملى ، وسلوك يشمل كل نشاط الإنسان

ولعل اهتمام الرسالات بالعبادات على أساس هذا المفهوم ، هو الذى سهل للعابدين من اتباع سائر الدعوات أن يتسموا بـ " المسلمين " .

فنوح "عليه السلام" يقول يقول : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (١)

وإبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " يقولان : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (٢) ، وإبراهيم ويعقوب يوصيان أولادهما ويقولان : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يونس آية (٧٢) .　　(٢) سورة البقرة آية (١٢٨) .

(٣) سورة البقرة آية (١٣٢) .

ويوسف " عليه السلام " يقول لربه : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ (١) .

وسليمان يرسل إلى بلقيس قائلاً : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، فلما أسلمت قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٣) .

وإبراهيم " عليه السلام " : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ (٤) ، وحواريو عيسى قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) .

ولا غرابة فى هذه التسمية لأنها تتفق مع مفهوم العبادة فى كثير من الجوانب إذ الأصل اللغوى لمادة الإسلام تحتمل معان ثلاثة :

أحدها : الانقياد والمتابعة ، وفى الحديث : (**أن الله أعاننى عليه حتى أسلم**) (٦) ، أى إنقياد لى وكف عن وسوستى ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ ، أى لاتقولوا ذلك ، لأنه صار منقاداً لكم ومتابعاً .

والثانى : السلامة والأمانة ، قال الأزهري : المسلم من دخل فى باب السلامة.

والثالث : قال ابن الأنبارى : المسلم معناه المخلص لله فى عبادته (٧) ، فالإسلام هو الإخلاص لله فى عبادته .

هذه المعانى المحتملة من لفظة الإسلام ، هى نفسها المعانى المستفادة من العبادة لأن العبادة فيها إنقياد كامل لله،وإخلاص للمعبود ، عن رغبة مسلتزمة للأمن والسلامة

---

(١) سورة يوسف آية (١٠١) . (٢) سورة النمل آية.(٣١) .

(٣) سورة النمل آية (٤٤) . (٤) سورة آل عمران آية (٦٧) .

(٥) سورة آل عمران آية (٥٢) . (٦) صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٥٧ بشرح النووى .

(٧) مفاتيح الغيب ج٢ ص ٦٣٨ .

يقول الرازى عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ (١) أى إنى أسلمت وجهى لله ، لا أعبد غيره ، ولا أتوقع الخير إلا منه ، ولا أخاف إلا من قهره ، وسطوته ، ولا أشرك به غيره (٢) وبذلك يتضمن إسلام الوجه الإخلاص، وكمال العبودية،وقصرهاعلى الله وحده،فدعوة الرسل إلى العبادة دعوة إلى الإسلام فى الحقيقة.

والعبادات التى دعا إليها الرسل نوعان :

الأول : نوع محدد مقدر مكيف بنص مقدس لا يقبل التغيير والتبديل .

الثانى : نوع غير محدد ، ويدخل فى إطار قواعد كلية تحتوى على جزئيات عديدة ، حدثت أو لم تحدث .

أما عن النوع الأول فيقول الغزالى عنه : (إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة) (٣) ، ويقول العقاد عنها : (أنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها) (٤) .. والعبادات المحددة هى التى يلتمس أثرها عادة ، ويطلب سرها ، كالصوم ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، وقد إتفقت الدعوات السابقة فى وضع أصولها للناس ، حتى يتحقق الإنقياد العملى ويظهر الإخلاص لله تعالى بها .

هذا هو سيدنا إبراهيم "عليه السلام" دعا ربه أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة فيقول : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥) .

ومن الأوصاف التى إستحق بها سيدنا إسماعيل المدح إقامته للصلاة : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة آل عمران آية (٢٠) .

(٢) مفاتيح الغيب ج٢ ص٦٣٠ .

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٨٥ .

(٤) حقائق الإسلام ص ١٠٨ .

(٥) سورة إبراهيم آية (٤٠) .

(٦) سورة مريم آية (٥٥) .

وحينما كلف موسى بالرسالة ، كان أول ما أمر به هو الصلاة حيث قال الله له : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (١) وأمره الله وأخاه هارون فقال تعالى : ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

ومن وصايا لقمان لإبنه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٣) .

والصلاة والزكاة ، أول ما نطق به عيسى "عليه السلام" فى المهد إذ قال : ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٤) .

فنرى الرسل قد كلفوا بإقامة الصلاة وبلغوا هذا التكليف .

إن الصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكررة ، فى مواعيد ثابتة ، وتحتاج إلى تدبر ، وتذكر ، وخشوع ، كما يدل على ذلك لفظ إقامة الذى أسندت إليه الصلاة ، وكيفية هذه الصلاة من ناحية الإحاطة بها تحتمل رأيين :

الأول : أن يطلع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة ، وتفاصيلها وهيآتها لتبقى معلومة لديه .

الثانى : أن لا يطلع الله الرسل على التفاصيل ، وإنما يعرفهم بها فى إجمال .

وهذان الرأيان ذكرهما الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (٥) ، وقد ذكر فى سورة لقمان أن هذه الكيفية للصلاة إختلفت هيئاتها من رسالة إلى رسالة ، وإن اتحدت فى حقيقتها وغرضها (٦) .

---

(١) سورة طه آية (١٤) .
(٢) سورة يونس آية (٨٧) .
(٣) سورة لقمان آية (١٧) .
(٤) سورة مريم آية (٣١) .
(٥) مفاتيح الغيب ج٦ ص١٨ .
(٦) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٨٦٣ .

وسواء كانت كيفية الصلاة معلومة للرسل ، أو غير معلومة ، فإنه لايمنع أن يكون هناك إشتراك فى بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبله ، وإن اختلفت ، فلقد عرف أن اليهود كانت تتوجه إلى بيت المقدس ، كما ثبت من مشاركة النبى "ﷺ" لهم فى هذا التوجه ، بعد الهجرة واستمر فى هذه المشاركة سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحويل إلى الكعبة (١) ، وكالركوع والسجود فإن إبراهيم "عليه السلام" قال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ ﴾ (٢) ، ومريم نوديت : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (٣) ، وداود "عليه السلام" : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ ﴾ (٤) ، وكتأدية الصلاة فى مكان طاهر كالمسجد والبيع والكنائس ، والزكاة أيضاً بمعناها البسيط الذى هو إعطاء المحتاج جزء من المال معونة له جاءت أصولها فى الرسالات السابقة .

فعن إبراهيم ، وابنه إسحاق ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝ ﴾ (٥) .

ومن صفات إسماعيل "عليه السلام" وصـــلاحه : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ (٦) ، ومن أقوال المسيح فى مهده : ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾(٧) .

وجـــاء فى العـــهد القـــديم : (**أنصفوا المسكين والبائس نجوا المسكين والفقير**) (٨) ، وجاء أيضاً : (**من يرحم الفقير يقرض الرب**) (٩) .

---

(١) لباب الـــنقول ج١ ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة الحج آية (٢٦) .
(٣) سورة آل عمران آية (٤٣) .
(٤) سورة ص آية (٢٤) .
(٥) سورة الأنبياء آية (٧٣) .
(٦) سورة مرية آية (٥٥) .
(٧) سورة مريم آية (٣١) .
(٨) مزامير ـــ إصحاح ٧٢ فقرة ٤ .
(٩) المثال ـــ إصحاح ١٠ .

وجاء فى العهد الجديد : (**بع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء**) (١) ، وجاء فيه أيضاً : (**تعالوا يا مباركى أبى ، ورثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريباً فآويتمونى ، عرياناً فكسوتمونى ، مريضاً فزرتمونى ، محبوساً فأتيتم إلى . فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، أو عطشاناً فسقيناك ، ومتى رأيناك غريباً فأويناك ، أو عرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك ، فيجيب الملك ويقول : الحق أقول لكم بما إنكم فعلتموه بأحد إخوانى هؤلاء الأصاغر فى فعلتم**) (٢) .

والصيام معروف فى الرسالات السابقة ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (٣) .

والحج منذ سيدنا إبراهيم "عليه السلام" ، معروف للناس بعد أمر الله له : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤) .

وعلى هذا فأصول العبادات موجودة فى جميع الرسالات السابقة ، وذكر وجود هذه الأصول منذ القديم يفيد تقبلها ، لأن العبادة تكليف ومشقة ، والشئ الشاق إذا عم سهل تحمله ، يقول أبو السعود فى ذكر العبادات تأكيد للحكم، وترغيب فيه، وتطييب لأنفس المخاطبين به فإن الشاق إذا عم سهل عمله (٥) .

---

(١) انجيل متى ــ الإصحاح ١٩ ــ فقرة ٢١ . (٢) انجيل متى ــ إصحاح ٢٦ ــ فقرات ٣٤ . ٤٠.

(٣) سورة البقرة آية (١٨٣) . (٤) سورة الحج آية (٢٧) .

(٥) تفسير أبى السعود .ج ١ ص١٩٨

وكما سبق من إختلاف كيفية الصلاة فبقية العبادات تختلف أيضاً فى الكيفية إن جميع الرسالات جعلت الصوم إمتناعاً عن المفطرات ، فى وقت معلوم ، والتشبيه الوارد فى قوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ ﴾ يفيد المماثلة فى أصل الوجوب ، أو فى الوقت ، أو فى المقدار ، وقد رجح الفخر الرازى أن المماثلة فى أصل الوجوب فقط ، لأن الكيفية تختلف على حساب إستعدادات المكلفين ، وقدراهم (١) .

ويكفى أن تعلم أن الكيفيات التى وضعت فيها العبادات سابقاً ، كانت تتضمن الإنقياد لله ، والإمتثال المطلق فى النفس ، والمال ، وكافة ما يستطيعه البشر .

أما العبادات الغير محددة فقد وضعت مبادئها فى دعوات الرسل ، وهم ينادون أقوامهم بترك الفساد فى الأرض ، وإصلاحها بالخير والإصلاح ، والتعاون ، والبر ، والتقوى ، والمحافظة على حقوق الله ، وحقوق الناس .

*****

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢ ص ١٧١ .

(٢)سورة البقرة آية(١٨٣)

المبحث الخامس : الدعوة إلى مكارم الأخلاق

تعتبر الأخلاق جانباً حيوياً وهاما فى كل رسالة سماوية ، ولم تكتف واحدة منها بتصحيح العقائد ،والشرائع بل وصل إهتمامها بالأخلاق إلى أن المناداة بها ظهر مقترناً بظهور الدعوة ،لأن الأخلاق جزء من التوحيد وعبادة الله تعالى .

ومن المعروف أن صدق التوحيد، وإخلاص العبادة، يستتبعان بالضرورة أخلاقاً نقية عالية ، والرسل صلوات الله عليهم خير الناس ، إصطفاهم الله تعالى لنشر المكارم الأخلاقية ، وركز فى طباعهم السمو النفسى ، والأخلاقى ، الذى جعلهم مستعدين للقيام برسالتهم ، يحدد الرسول الخاتم "ﷺ" مترلة الخلق فى الرسالات فيقول "ﷺ" : (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) (١) ، فهو متمم لمن سبقه من الرسل ، وكأن الهدف من كل رسالة هو نشر جانب أخلاقى ما ، إلا أن الرسالة الخاتمة جاءت متممة لهدف هذه الرسالات بتكميل مكارم الأخلاق كلها .

ولقد كان منهج الرسالات المقدس فى تعليم الأخلاق واضحاً فى إتجاهات معينة نجملها فى إتجاهات ثلاثة هى :

الاتجاه الأول

الدعوة إلى الأخلاق مع بدء الدعوة إلى التوحيد

بدأ الرسل فى دعوقم إلى الأخلاق مع بداية الدعوة إلى التوحيد ، حتى يصنعوا بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهوقا والقلب وهواه ، ويرسموا للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل والصلاح .

وإنما بدأوا هكذا لأن الإيمان بالله قرين الأخلاق ، كلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً ، وطاعة مطلقة لله تعالى ، وتجنب المظالم ، وترك النفس كل ما يشينها ويرديها ، وكلاهما يستوجب على صاحبه أن يتحلى بالآخر ، ولا يكمل الآخر

---

(١) موطأ مالك بشرح الزرقانى ج٤ ص ٩٢ ما جاء فى حسن الخلق .

إلا مع الأول ، ولذلك لم يبعث رسول إلا إلى قـــوم فســـدت أخلاقهـــم، وضـــلت عقائدهم، وعاثوا فى الأرض فساداً واستكباراً ، فى هذا الوقت تعمل الرســـالة علـــى إصلاح هذا الحال مع الدعوة إلى الإيمان .

هذا هو سيدنا نوح "عليه السلام" بعث فى قوم ضلت عقائدهم، وفسدت أخلاقهم وأخذوا فى تلقين ناشئتهم هذه المبادئ الضالة، فى العقيدة والأخلاق ، يقول أبو السعود إهم أصروا على المعاصى، والكفر، واستكبروا استكباراً شديداً ، عن الاتبـــاع والطاعة (١) ، ولوضعهم هذا طلب الرسول منهم أن يعبدوا الله، ويتركوا المعاصى، وقـــال لهـــم : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ (٢) .

وهود "عليه السلام" دعا قومه إلى توحيد الله، وعبادته ، فقال لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ ﴾ (٣) ، وفى نفس الوقت أمرهم بأن يتوبوا عن المعاصى، ويستغفروا الله عن الذنوب، ولا يصروا على الإجرام والظلم ، فقال لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝ ﴾ (٤) ، ولقد دعا هود قومه إلى التوبة، والإستغفار، مع دعوهم إلى التوحيد ، لأهم عتوا عتواً كبيراً واستكبروا فى الأرض بغير الحق، وقالوا غروراً وتعالياً من أشد منا قوة ؟ ...

وصالح "عليه السلام" بعثه الله لقومه، فطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد، وينبذوا فاسد الأخلاق،ويتوبوا عنها ، فقال لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ

---

(١) تفسير أبى السعود ج٥ ص ١٩٧ . (٢) سورة نوح الآيات (٣ ــ ٤) .
(٣) سورة هود آية (٥٠) . (٤) سورة هود آية (٥٢) .

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١) ، فطلب إليهم أن يوحدوا الله ، ويعبدوه ، ويرجعوا عما كانوا يباشرونه من القبائح الأخلاقية . ،قد جاء النظم فى الآية مهتماً بالتوبة، حيث ذكر العلة الباعثة عليها ، وهى﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ وجعل عقبها مباشرة الغاية المرجوة وهى﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢).

وواضح أن هذه الغاية ، وتلك العلة ، داعيتان إلى توحيد الله ، وعبادته ، والبعد عن الضلال ، وترك السفه بصورة تلقائية ، فقد وضعتهما الآية حول الأمر بالتوبة للإشارة إلى أهمية هذا الأمر ، وضرورته للتوحيد ، ولبيان مدى ما يترتب عليها من فائدة .

وهكذا دعا صالح "عليه السلام" قومه إلى التوحيد وفى نفس الوقت دعاهم إلى ترك الفساد والاستكبار .

وشعيب "عليه السلام" دعا قومه إلى التوحيد، واستقامة الأخلاق ، حيث قال لقومه : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣) فنراه "عليه السلام" قد بدأ بإصلاح العقيدة ،وقفى عليها بالأمر بإيفاء الكيل، والميزان، إذا باعوا، والنهى عن بخس الناس أشيائهم إذا إشتروا ، وأن يبتعدوا عن كل إفسادهم، وضلالهم، بعد ذلك ، وقد نهاهم شعيب عن كل هذا وختم قوله لهم بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ

---

(١) سورة هود آية (٦١) .   (٢) تفسير أبى السعود ج٣ ص ٣١ .

(٣) سورة الأعراف آية (٨٥) .

لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وكأن مقتضى الإيمان يستلزم التمسك بالطيب الحلال والبعد عن الخبيث المحرم .

وهكذا جمع شعيب "عليه السلام" فى أول دعوته بين المناداة بالتوحيد والمناداة بالأخلاق كسائر الرسل عليهم السلام .

و " لوط "عليه السلام" يبدأ دعوته بأن يستنكر على قومه مفاسدهم، فطالبهم بتنقية أخلاقهم، مع مطالبتهم بالتوحيد ، ذلك لأهم كما ذكر صاحب قصص الأنبياء كانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله ، حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين، شهوة من دون النساء، ولايرون فى ذلك سوءاً، أو قبحاً، فيعلنونه، ولا يستترون (١) ، فهم فى هذا الباب فريدون لا سابق لهم ، وقد بين الله لهم هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢) ، فهم يعلنون الفاحشة الظاهر قبحها من دون سائر الناس ولا يرتدعون أبداً ، ولقد وصفهم لوط بسبب هذا بصفات عدة ، إنكارا منه لعملهم ، وتوجيهاً لهم إلى الخير .

فسألهم ــ **أولاً** ــ علىوجــه الإنكاروقال لهم:﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (٣) .

ووجههم ــ **ثانياً** ــ إلى وجوب التسامى بغريزهم، وببذلها فى حلال وطهر . ذلك أن الشهوة إن بذلت فى موضعها المشروع فهى صفة حسن ، وإن بذلت فى غير المشروع فهى فحشاء وصفة قبيحة ، وقد أراد "عليه السلام" أن يعودهم التسامى بالشهوة، وينتقلوا بها من الفحشاء، إلى الحسن، فقال لهم عند حضور أضيافه وقد أرادوا الاعتداء عليهم ، قال لهم : ﴿ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (٤) ، يقصد "عليه السلام" أن يتزوجوهن

---

(١) قصص الأنبياء ص ١١٣ .　　(٢) سورة العنكبوت آية (٢٨) .

(٣) سورة الشعراء آية (١٦٥) .　　(٤) سورة هود آية (٧٨) .

بالطريق المشروع ، ومما يؤكد هذا المقصد " لفظ الطهر " لأن لقاء البنات والنسوة لايكون طاهراً إلا بالمشروع .

وهكذا اتجه لوط إلى تعليم قومه الأخلاق مع دعوتهم إلى التوحيد ، ولا عجب فإن الرسل جميعاً اهتموا بالأخلاق .

ومن بعد سيدنا لوط رأينا موسى "عليه السلام" ، يدعو إلى الأخلاق ، ويقول لفرعون : ﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝** ﴾ (١) فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر ، والطغيان ، عن طريق خشية الله وقد خاطبه بأسلوب الإستفهام ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝** ﴾ (٢) .

وعيسى "عليه السلام" لما سأله أحد الفريسيين قائلاً : (**يا معلم أية وصية هى العظمى فى الناموس ؟ فقال له يسوع : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هى الوصية الأولى العظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ، فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء**) (٣) .

وهكذا دعاهم إلى الله ومكارم الأخلاق وقد وضح ذلك فى القرآن الكريم وهو يحكى إجابة عيسى لله تعالى فيقول : ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝** ﴾ (٤) .

---

(١) النازعات الآيات (١٨ ـــ ١٩) . (٢) سورة طه آية (٤٤) .

(٣) انجيل متى ـــ الإصحاح الثانى والعشرين ـــ فقرات ٣٧ ـــ ٤١ .

(٤) سورة المائدة آية (١١٧) .

الاتجاه الثانى

التركيز على الرذائل المتفشية

قامت الدعوات السماوية لإصلاح الفساد فى جميع الجوانب ، وبكافة الصور إلا أنها كانت تركز على الفساد المتفشى فى البيئة التى بعث فيها الرسول ، ولعل أخطر فساد تفشى فى البيئات كلها، وأخذ صبغة مشابهة ، هو ضعة الإنسان، وتذلله أمام إله لا ينفع ، ولا يضر ، ورغم أن نظرة الأقوام إلى الأصنام مرتبطة بعقائدهم ، إلا أن اتصالها بالأخلاق هام وخطير ، ذلك لأنها لم تقدم قيماً و لم تأمر بتصحيح خطأ ، فبرزت سيئاتها فى أخلاقهم بوضوح ، ولذلك جاهد الرسل لنبذ هذه النظرة العقائدية أولاً، والمتجهة إلى إفساد الأخلاق ثانياً .

ومن الأخطاء التى ركز عليها الرسل ، وأبرزها القرآن الكريم على سبيل المثال ما كان من قوم شعيب حيث كانوا يطففون الكيل والميزان ، فإذا اكتالوا على الناس ، يستوفون وإن أعطوهم يخسرون ، فأتاهم شعيب لإصلاح هذا الخطأ وقال لهم : ﴿ **وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ (١) ، ومثل هذا النداء تكرر فى قصص القرآن الكريم مع شعيب "عليه السلام" .

ومنها كذلك ما كان من قوم لوط"عليه السلام" ، حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين ، ويتركون النساء ، وقد تفشى فيهم هذا الداء ، لدرجة أنهم كانوا يؤتونه على أعين الناس ، من غير استحياء ، مع أنهم لم يسبقوا بمثله ، فقال لوط : ﴿ **أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾** ﴾ (٢) ، وقد تكررت تفاصيل فاحشة

---

(١) سورة هود آية (٨٥) .

(٢) سورة الأعراف الآيات (٨٠ ـــ ٨١) .

قوم لوط فى كل المواضع التى ذكرها القرآن الكريم عن قصتهم .

ومنها ما كان من فرعون من ظلم وطغيان ، حيث إدعى أنه رب الناس ، وقد استولى على جميع البلاد ، وقال للناس : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ (١) ، ووصل به طغيانه إلى أن استعبد بنى إسرائيل فى مصر ، وأصدر أمره بقتل جميع ذكورهم ، وترك نسائهم ، ولذلك جاءه موسى "عليه السلام" ومعه هارون لتصحيح هذه المفاسد ، ولتوضيح نهاية لمظالمه ، وكان ما كان إلى أن هاجربنو إسرائيل إلى الشام ، ومعهم موسى ، وهارون ، وغرق فرعون ، وجنوده ، وماتوا جميعاً فى اليم .

ومع التركيز على المفاسد الرئيسية الموجودة ، لم يهمل الرسل أى جانب فى بيئتهم ، فكانوا يشجعون الصالح ، ويحاولون منع سائر المفاسد الضارة بالمجتمع ، والناس .

الاتجاه الثالث

بيان عاقبة الأخلاق

دعا الرسل الناس بدعوة الحق ، فآمن قوم ، وكفر آخرون ، وكان من أهم ما نادوا به هو الأخلاق ، وقد حكى القرآن مصائر المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ليتضح الطريق لمن لايزال فيه ، وينجو من يرجو لنفسه النجاة ، وكان من حكمة الله تعالى أن حل الجزاء بالأمم السابقة فى الدنيا ، ولم يمهلهم للآخرة ، فقوم نوح كذبوا فكانت عاقبتهم : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢) ، وأما قوم هود فكذبوه

---

(١) سورة الزخرف آية (٥١) .

(٢) سورة الأعراف آية (٦٤) .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (١) وأما قوم صالح فقد هلكوا بتكذيبهم : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) وقوم لوط فقد حل بهم ما يستحقون : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣) وأما فرعون وجنوده فإنهم لما طـــغوا : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٤) .

وهكذا أهلك الله الأمم الفاسدة فى الدنيا، وأراهم جزاء ضلالهم، وذكر مصيرهم هذا فى القرآن الكريم ليستفيد به من نزل القرآن لهم ، ولكى تكمل الفائدة أمهل الله الأمة الخاتمة، وأرجأ عقوبتها الكلية إلى يوم الدين .

*****

---

(١) سورة الشعراء آية (١٢١) .

(٢) سورة الحاقة آية (٥) .

(٣) سورة العنكبوت آية (٣٤) .

(٤) سورة طه آية (٧٨) .

المبحث السادس : إثبات رسالة الرسل

بعث الله رسله إلى الناس ، وجاء كل رسول إلى قومه ، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، وقصر العبادة له ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة .. وقد سلك كل رسول فى دعوته منهجاً دقيقاً ، واستفاد بكل ما مكنه الله من وسيلة ، وأسلوب .

واستقبل الأقوام رسلهم استقبالاً سيئاً ، فلم يسمعوا لهم ، ولم يصدقوا دعوتهم ، وأخذوا فى الجدل ، والمعارضة .

ومع أن الرسل " عليهم السلام " كانوا موضوعيين فى التبليغ ، يركزون الدعوة على قضايا الدين بتوضيح حقائقه ، والتدليل على ما يطلبون ، بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، بكل صدق فى النصح ، وبكل خلق فى الدعوة والطلب .... مع ذلك أخذ الناس فى مواجهة الرسل بطرق غوغائية قائمة على السب ، والشتم ، واتهام الرسول فى شخصه وعمله .

وكان أكبر ما وجهوه للرسل ، الاعتراض على رسالتهم ، ورأوا أن ذلك هو أيسر الطرق لإلغاء الدعوة بالكلية ، لأنهم لو تمكنوا من إلغاء الرسالة لا يبقى شئ بعدها .

وحاولوا أن يضعوا الإلغاء فى صورة علمية منظمة ، مؤيده بالدليل ..

قالوا ــ **أولاً** ــ لا يصح أن يكون الرسول بشراً ، لما يتصف به البشر من عجز ، وطبع ، فهو مكون من مادة ، وروح ، ولذلك تتملكه غريزتا الشهوة ، ، والغضب ، ويأتى منه الفساد والاختلاف ، ويشغله إشباع نفسه فهو يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وتشغله الحياة بمشاكلها ، وحاجاتها .

وقد بين الله تعالى مقالة الأقوام هذه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤) ، ويقول تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٥) ، **ويقول تعالى** : ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٦) .

ومن جملة هذه الآيات ندرك إنكار الناس لنبوة البشر ، لتصورهم أن البشر لا يقدر على الاتصال بالله ، ولا يمكنه حمل الوحى إليهم .

والرد عليهم : يتضح بإظهار خطإهم فى فهم حقيقة الإنسان ، فهو فعلاً مركب من جسد وروح ، لكنهم يتصورون غلبة الجسد المادى للروح فقالوا ما قالوا عن الإنسان .

---

(١) سورة الأنعام آية (٩١) .
(٢) سورة الأعراف آية (٦٩) .
(٣) سورة هود آية (٢٧) .
(٤) سورة الإسراء آية (٩٤) .
(٥) سورة المؤمنون آية (٢٤) .
(٦) سورة القمر الآيات (٢٤ ، ٢٥) .

لكن الحق أن الجسد مخلوق لخدمة الروح ، وطاعتها فيما توجه إليه .

إن الإنسان بتكونه المادى ، والروحى ، يسمو على سائر الخلائق ، ويفضل الملائكة إذا سادت روحه ، وقادت الجسد ، يقول الشهرستانى : (إن للبشر نفسين ، نفس حيوانية لها قوتان : قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، ونفس إنسانية لها قوتان : قوة علمية ، وقوة عملية، وبقواها الحيوانية لها أن تجمع وتمنع ، وبقواها الإنسانية لها أن تقسم الأمور، وتفصل الأحوال ، ثم تعرض الأقسام والأحوال على العقل ، فيختار العقل ـــ الذى هو كالبصر النافذ من العقائد : الحق دون الباطل ، ومن الأقوال : الصدق دون الكذب ، ومن الأفعال : الخير دون الشر ، ويختار بقوته العملية من لوازم القوة الغضبية الشدة ، والشجاعة ، والحمية ، دون الذلة ، والجبن ، والنذالة ، ويختار بها ـــ أيضاً ـــ من لوازم " القوة الشهوية " التآلف ، والتودد ، والرفعة، دون الشرة ، والمهانة ، والخساسة .... فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه ، ومن أرحم الناس تذللاً وتواضعاً لوليه وصديقه ، وإذا بلغ هذا الكمال ، فقد استخدم القوتين واستعملهما فى جانب الخير ، ثم يترقى منه إلى إرشاد الخلائق فى تزكية النفوس عن العلائق ، وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب ، وإبلاغها إلى حد الكمال .

ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها ، لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها ، وحكم " العنين " العاجز فى امتناعه عن تنفيذ الشهوة ، لا يكون كحكم المتصون ، الزاهد ، المتورع ، فى إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه ، فإن الأول مضطر عاجز ، والثانى مختار ، قادر ، حسن الاختيار ، جميل التصرف ، وليس الكمال والشرف فى فقدان القوتين ، وإنما الكمال كله فى استخدام القوتين) (١) .

وقالوا ـــ **ثانياً** ـــ إن الملائكة أولى بالرسالة من البشر ، لأن الملائكة ، أبدعت إبداعاً ، لا من شئ ، وهى نورانية محضة ، ديدنهم الطاعة ، وطبيعتهم العبودية لله

---

(١) الملل والنحل ج٢ ص ١٣ .

ولا مادة فى تكونها يكدر صفاءها ، فناسب ذلك أن تتلقى من الله ، وتتصـــل بـــالملإ الأعلى . .

في الرد عليهم:نقول إن تفضيل الملائكة على البشر أتى من خطأين :

أولاهما : قولهم إن المبدع من لا شئ أشرف من المخترع من شئ ، قول باطـــل ، لأن الإنسان من حيث الروح مبدع بأمر الله تعالى ، ويستوى فى ذلك مع الملائكة ، ومن حيث الجسد مخترع بخلق الله وقدرته ، فزاد بذلك عن الملائكة وبخاصة إذا أدى الجسد إلى كمال الروح ، وطهارتها ، وكان خادماً لها ، مطيعاً لتوجيهاتها .

ثانيهما : عقد المقارنة بين الروحانى ، والمادى، فيها قصور ، وإنما المقارنة الصـــحيحة تكون بين الروحانى المجرد ،والجسمانى الروحانى المجتمع ، وحينئذ يفضـــل الإنســـان الملائكة لأن الجسد حينئذ تجميل ، وتحسين للروح .

والشخص الجميل يحسنه الثوب الحسن ، والمعنى الراقى يزينه اللفظ البليغ .

وقالوا ــ **ثالثاً** ــ إن الملائكة كمال مطلق ، فهى مخلوقات علوية ، لها قوة فى تصريف الأجسام ، وتقليب الأفلاك .

والرد عليهم : بأن الله قادر على كل شئ ، يعطى لبعض خلقه ما يريد مـــن تأثير ، فهو سبحانه يعطى الملائكة ، ويعطى الإنسان كما يريد .

وليس الكمال فى المخلوقات العلوية فقط ، بل هو فى السفلية أيضاً ، والكمال فى النهاية يتوقف على التوكل ، والتسليم ، والطاعة .

إن الإنسان ببدنه وعقله ، يحس ، ويتخيل ، ويتوهم ، ويفكـــر ، ويحفـــظ ، ويتذكر ، وهذا كاف ليقوم الإنسان بما كلف به ، وكاف أيضاً ليكون رسولاً ، مختاراً من الله تعالى .

إن وجود الجانب المادى فى الإنسان يعطى لطاعته قدراً وقيمة ، فإن الملائكة كمـــال مطلق فى الطاعة ، لكن الناس محتاجون إلى كمال يكملهم ، ويأخذ بيدهم ، ويدعوهم

ولا يقدر على ذلك إلا إنسان ، كملت روحه ، وتحولت جوارحه إلى طاعة مطلقة لهذه الروح لتترقى .

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة أمده الله بالوحى ، وسهل له الاتصال بالملإ الأعلى عن طريق روحه السامية .

وفى نفس الوقت يتصل بالناس ، عن طريق جانبه المادى ، البشرى ..

وليس للملائكة شئ من هذا .

إن الإنسان يتعامل مع أخيه الإنسان ، ويلتقى معه بحواسه وعقله ، عملاً ، وفكراً ومودة .... وفى نفس الوقت يخاف من المخلوقات الغائبة ، والمتخيلة ، والهائمة

وبذلك كان الخير للإنسان أن يتلقى من أخيه الإنسان ..

وقد أجرى الله مشيئته فى إرسال الرسل على طبيعة البشر ، حيث إختارهم من أرقى الناس عنصراً ، وأفضلهم خلقاً ، وأحسنهم طاعة ، وتوكلاً ، وأمدهم بالوحى مشتملاً على منهج الله لإصلاح الناس ، فيحفظون ، ويبلغون ، ويناقشون ، ويتابعون .

يقول الشهرستانى : (ثبت أن البارى سبحانه وتعالى ، خالق الخلائق ، ورازق العباد ، وأنه المالك الذى له الملك ، والمالك يكون له على عباده أمر ، وتصريف ... وذلك أن حركات العباد قد انقسمت إلى اختيارية ، وغير اختيارية ، فما كان منها بإختيار من جهتهم ، فيجب أن يكون للمالك فيها : حكم ، وامر ، وما كان منها بلا اختيار ، فيجب أن يكون له فيها : تصريف ، وتقدير ، ومن المعلوم : أن ليس كل أحد يعرف حكم البارى تعالى ، وأمره ، فلابد إذن من واحد يستأثره بتعريف حكمه وأمره فى عباده ، وذلك الواحد يجب أن يكون من جنس البشر ، حتى يعرفهم أحكامه وأوامره ويجب أن يكون مخصوصاً من عند الله عز وجل بآيات خلقية هى حركات " تصريفية" و " تقديرية " ، يجريها الله على يده عند التحدى بما يدعيه ، تدل تلك الآيات على صدقه ، نازلة منزلة التصديق بالقول المؤكد ، و إذا ثبت صدقه ،وجب إتباعه فى جميع

ما يقول ويفعل ، وليس يجب الوقوف على كل ما يأمر به وينهى عنه، إذ ليس كـــل علم تبلغ إليه " قوة البشر " .

ثم " الوحى " من عند الله العزيز يمد حركاته الفكرية ، والقولية ، والعملية ، بالحق فى الأفكار ، والصدق فى الأقوال ، والخير فى الأفعال ، فبطرف يماثل البشر ، وهو طرف الصورة ، وبطرف يوحى إليه ، وهو طرف المعنى والحقيقة : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ ؟ فبطرف يشابه نوع الإنسان ، وبطرف يماثل نوع الملائكة ، وبمجموعهما يفضل النوعين ، حتى تكون بشريته فوق بشرية النوع : مزاجاً واستعداداً ، وملكيته فوق ملكية النوع الآخر : قبولاً ، وأداء ، فلا يضل ولا يغوى بطرف البشرية ، ولا يزيغ ولا يطغى بطرف الروحانية ، فيقرر أن " أمر البارى " تعالى واحد ، لا كثرة فيه ، ولا انقسام له : قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ غير أنه يلبس تارة عبارة العربية ، وتارة عبارة العبرية ، والمصدر يكون واحداً والمظهر متعدداً

و " الوحى " : إلقاء الشئ إلى الشئ بسرعة فيلقى " الروح " " الأمر " إليه دفعة واحدة ، بلا زمان " قال تعالى: ﴿ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ ، فيتصور فى نفسه الصافية صورة الملقى ، كما يتمثل فى المرآة المجلوة صورة المقابل ، فيعبر عنه إما بعبارة قد اقترنت بنفس التصور ، وذلك هو قال تعالى: ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، أو بـــعبارة نفسه وذلك هو (أخبار النبوة) وهذا كله " بطرفه الروحانى " .

وقد يتمثل " الملك الروحانى " له بمثال صورة البشر تمثـــل المعـــنى الواحـــد بالعبارات المختلفة ، أو تمثل الصورة الواحدة فى المرايا المتعددة ، أو الظلال المتكثـــرة للشخص الواحد ، فيكالمه مكالمة حسية ، ويشاهده مشاهدة عينية ... ويكون ذلـــك بطرفه الجسمانى ، وإن انقطع " الوحى " عنه لم ينقطع عنه التأييد والعصـــمة : حـــتى يقومه فى أفكاره ، ويسدده فى أقواله ، ويوفقه فى أفعاله(١) .

---

(١) الملل والنحل ج٢ ص ٣٨ .

وتثبت النبوة للبشر ، إنطلاقاً من حاجة الناس إلى اجتماع ، فى إطار منــــهج ونظام ، فلو أخذ الإنسان نظامه من إنسان آخر فقد ضيع نفسه ، وإن أخذه مـــن الله فكيف السبيل إليه ؟ ! إذا لم تكن عن طريق نبوة البشر !!

ومن هنا وجب أن يكون فى الناس شارع يبين شــــرع الله ، وأحكامـــه فى العقائد والمعاملات ... وهذا الاحتياج ضرورى للناس ، ويجب أن يكون القائم بتبليغ منهج الله من الناس ، ومعهم ، بحيث تكون نسبته للناس كنسبة المعطـــى للســـائل ، والطبيب للمريض ، وذلك القائم بالتبليغ هم الأنبياء ،بما اتصفوا به مـــن كمـــالات ، تمكنهم من الاحاطة بعلوم ، لا يقدر عليها الملائكة ، وتجعلهم قادرين على تعليم الناس تعليماً لا يقدر عليه الملائكة أيضاً .

وقالوا ــ **رابعاً** ــ وإذا كانت الرسالة لبشر ، فلم لايكون غنياً ، وله عصـــبة من الناس ، ومعينون من الملائكة .

والرد عليهم : إن النبوة اختيار إلهى محض ، وهو سبحانه ، خالق الخلـــق ، ومقسم الأرزاق ، وله فى اختيار النبى من البشر حكمة ، وهو معه بالمعونة ، والتأييد ، والنصر، فليس للنبى حاجة فى مال ، أو عصبة بشرية ، أو قوى ملائكية ، ويكفـــى أن الله معه .

ومن حكمة الله أن اختار رسله من عامة الناس ، حتى لايتهمهم أحد ، بأنهم يسعون للمحافظة على مواريث أبائهم ، وأجدادهم ، وحتى لايقول أحد إنهم يعتمدون على قوة غير قدرة الله تعالى .

******

هذا .... وقد سلك الأنبياء فى إثبات رسالتهم لأقوامهم عدة طـــرق ، مـــن أهمها : ـــ

الطريق الأول : بينوا للناس صلاحيتهم للرسالة ، بطريقة عملية ، فها هـــم يبـــادئونهم بوحى الله تعالى الذى جاءهم ، ويناقشونهم ، ويوضحون لهم جوانب الدين

المختلفة ويعرفوهم بـأن الملك لا يناسبـهم ، يقـول تـعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (١) .

ويوضحون عدم المناسبة بين الإنسان والملك لأن الملك لا يتصل بالإنسان بروحانيته ، ولا بد له من التشكل بصورة البشر ليتعامل مع البشر ... وحينئذ يكون للناس حق الاعتراض مرة أخرى على اعتبار أنه بشر لا ملك ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (٢) .

الطريق الثاني إظهار المعجزة تصدقهم ، لأن لسان حال المعجزة يقول :صدق عندى فيما يبلغ عنى ، وقد سبق أن علمنا الكثير من معجزات الرسل ، مثل معجزة إعادة الطير حيا بعد تمزيقه ، وتوزيعه على الأجبل ، مع إبراهيم "عليه السلام" وناقة صالح "عليه السلام" ، ومعجزات موسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، وزكريا ، ويحيى " عليهم السلام " ، وكل هذه المعجزات طرق لإثبات صدق الرسول فى دعوته للناس .

الطريق الثالث : بيان بشرية الرسل السابقين ، لأن الأمر إذا تقرر وقوعه مرة جاز له أن يقع مرة أخرى ، وما دام رسل الأقوام السابقين كانوا منهم ، فذلك أمر يؤيد بعثة البشر من بعدهم ، وكان الرسول يذكر ذلك لقومه ، ليصدقوا به ، فعن هود "عليه السلام" يقول تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (٣) ، وعن صالح يقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الإسراء آية (٩٥) .
(٢) سورة الأنعام آية (٩) .
(٣) سورة الأعراف آية (٩٦) .
(٤) سورة الأعراف آية (٧٤) .

وهذا الطريق قوى فى دلالته ، لأن الإنسان إن سلم لغيره بقضية ، فمن السهل أن يقتنع بها لنفسه .

الطريق الرابع : بيان أن النبوة عطاء إلهى ...

أثبت الرسل لأقوامهم أن اختيار الله لهم ، فضل ،ورحمة ، ونعمة ، يعتزون بها وليس لغيرهم الاعتراض عليها ، ومن هذا ما قاله نوح لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾ (١) ، وما قاله صالح لـــــقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ ﴾ (٢) وما قاله شعيب لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ﴾ (٣) ، والمراد بالرزق الحسن ، والرحمة المؤتاه هى النبوة التى بعثوا بها وعارضهم الناس فيها .

وهكذا أثبت الرسل رسالتهم بطريقة واقعية ،لأهم أعادوا القوم إلى التاريخ المنظور، والمعروف، ليتدبروا فيه، ويعتبروا به، ويصدقوا بالرسالة بعد ذلك ، فإن كذبوا بعد ذلك فهو تكذيب بكل الرسالات ، وإن صدقوا فهو إيمان بجميعها .

وهكذا :

أثبت الأنبياء رسالتهم لأقوامهم ، وردوا شبههم ، واعتراضاهم ، لكى يؤمنوا بالرسالة التى تعد ركناً رئيسياً فى الإيمان .

*****

---

(١) سورة هود آية (٢٨) .
(٢) سورة هود آية (٦٣) .
(٣) سورة هود آية (٨٨) .

ونحب أن نشير هنا إلى مسألة هامة ، وهى أن الرسل " عليهم السلام " وهم يثبتون الألوهية ، والرسالة ، أثبتوا مع ذلك ركنين آخرين هما :

ـــ إثبات الوحى والكتب المترلة ، لأن الله سبحانه وتعالى يترل دينـــه علـــى رسوله وحياً ، يحفظه الرسول ليكون كتاباً مقدساً أنزله الله عليه مثل الزبور ، والتوراة والإنجيل .

ـــ إثبات الملائكة ، لأن الوحى يتم فى أغلبه بواسطة ملك يحمل وحى الله إلى الرسول المختار "عليه السلام" .

وبثبوت التوحيد ، والرسالة ، والوحى ، والملائكة ، يتبين الطريـــق الإيمـــانى المترل من عند الله تعالى ، وليس بعد ذلك لمكلف من الناس أن يدعى المنهج العلمانى ، أو اتباع الفطرة ، أو غير ذلك من دعاوى المعصية ، والضلال ..

فلقد أرسل الله الرسل لإرشاد الناس إلى المنهج الإلهى الصحيح ، فى العقيدة ، والعبادة ، والخلق وأوجب على الناس طاعتهم ، والخضوع لله رب العالمين .... يـــقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء آية (٦٤) .

المبحث السابع : **إثبات البعث**

يوم القيامة وما فيه ، من فوز للمطيعين ، وعقاب للعصاة ، بعد بعث الخلائق وحسابهم ، أمر أجمعت الدعوات على تأكيد إثباته ، حتى يشعر الإنسان بالمسئولية الدائمة فى كل شئ ، ويعلم أن كل ما يفعله فى حياته الدنيا سوف يلقاه فى الآخرة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ولما كان الإنسان بفطرته يحس أن حياته ليست جسداً فقط ، ينتهى بالموت ، بل إن له من الجسد روحاً لاتفنى، ولكنها تنتقل إلى مكان آخر ، تسعد فيه أو تشقى وتنعم بأعمالها أو تعذب .

إن الإنسان بفطرته ، أدرك ضرورة البعث والحساب ، تمييزاً للخبيث من الطيب ، ووضع للحساب تصورات عديدة ، وأفكارا كثيرة .

هذا الإحساس الفطرى عند الناس كان أساساً أكدته جميع الرسالات السماوية ، ووضحته بنصوصها المقدسة ، وبينت أن البعث الأخروى ، أمر مؤكد ، وأنه فى يوم القيامة سوف يحاسب الجميع بأعمالهم ، ويجزون على الطاعة ، ثواباً خالداً ونعيماً مقيماً ، وعلى العصيان العذاب والألم .

وكان صوت الرسالات دائماً يهتم بالبعث ويثبته ، هذا هو سيدنا نوح "عليه السلام" منذ اللحظات الأولى فى دعوته ، يبين لقومه أنه يخاف عليهم من يوم القيامة حيث يبعث الناس ،ويعذب العصاة الكافرين ، فقال لهم : ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) ، وبهذا خوفهم من عذاب عظيم، مؤلم ، نازل على الطغاة والظالمين ، الذين لا يوحدون الله

---

(١) سورة الأعراف آية (٥٩) .   (٢) سورة هود آية (٢٦) .

ولا يعبدونه ، ولسوف يرونه فى يوم الطوفان ، أو فى يوم القيامة ، كما أشار إلى ذلك المفسرون ، إلا أن أبا السعود يرجح أن المقصود بهذا العذاب ، عذاب يوم القيامة ، ذلك أن عذاب الطوفان وإن كان مؤلماً، وعظيماً، إلا أن عذاب يوم القيامة أشد وأعظم ، بسبب دوامه وتنوعه ، والصيغة تناسب هذه المبالغة فى الشدة والعظم حيث أسندت الأليم والعظيم ، إلى اليوم كما فى نهاره صائم ، وليله قائم ، وأيضاً فإن الغرق ليس نهاية عذابهم ، وأقصاه فقد ذكر الله تعالى أنهم بعد إغراقهم فى يوم الطوفان يحرقون ، فقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ (١) ، مما يجعلنا نتساءل عن هذه النار ، أهى نار فى الدنيا ، أم نار فى يوم القيامة ، وقصة إهلاكهم المفصلة فى السور القرآنية خلت من الإشارة إلى هذا الإحراق، مما يدفعنا إلى الإيمان بأنها نار الآخرة ونتابع فى ذلك إحدى روايات أبى السعود عن هذه النار ، فقد ذكر أنها نار جهنم ، تنزل بهم لا محالة ، وتحققها ضرورى ، ولعل عطف إدخالهم النار على الإغراق بالفاء لبيان هذه الضرورة المحققة وكأنها تعقب الإغراق (٢) .

وكون المراد هو عذاب يوم القيامة، لا يمنع حدوث العذاب فى يوم الطوفان ، وإندراجه فى العذاب الذى أنذرهم به سيدنا نوح"عليه السلام"، وخاف عليهم من وقوعه ، وقد جاء فى الجلالين : أن العذاب المراد هو عذاب الدنيا والآخرة معاً (٣) .

وهكذا نجد سيدنا نوحاً "عليه السلام" يخوف الناس من المعاد، وما فيه فآمن به الضعفاء وصدقوا بملاقاة الله فى يوم القيامة، وأيقنوا بالبعث والحساب، فلما جاء المستكبرون إلى نوح يطعنون فى هؤلاء الضعفاء، ويطالبونه بطردهم من حوله قال لهم : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ (٤) ، أى مصدقون بلقـــــاء الله

---

(١) سورة نوح آية (٢٥) . (٢) تفسير أبى السعود ج٥ ص ١٩٩ .

(٣) تفسير الجلالين ج١ ص ١٠٦ . (٤) سورة هود آية (٢٩) .

موقنون بذلك، عالمون أنهم ملاقوه لا محالة (١) ، ولذلك فلن يطردهم من الاتبـــاع ، بعد هدايتهم وإيمانهم .

ولما أكثر المعارضون من العناد والتكبر، عرفهم نوح بأن الله يملك أمرهم فى الدنيا والآخرة ، فكما أنه المتصرف فى الدنيا، فهو المتصرف فى يوم القيامة، ولسوف يرجعون إليه ليحاسبهم فقال لهم : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢) ، فأسلم بذلك أمرهم إلى الله وعرفهم أنهم سيرجعون إليه يوم القيامة للحساب والمؤاخذة .

ولعل الهدف من بيان حقيقة البعث وإثباته أولاً عند الناس هو تخويفهم من الإهمال وتحذيرهم من العصيان ، ذلك أن الرسل " صلوات الله عليهم " قدموا التخويف والتحذير فى دعوتهم، وذكروا بهما قبل أى شئ آخر، وأعظم التخويف هو بالبعث ويوم القيامة ، وإنما قدم الرسل ذلك لأن غالبية القوم مقلدون، والمقلد لا ينظر فى الدليل ،ولا يعتبر بالآيات إلا إذا أخاف ، يقول الرازى : إن المقلد إذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال ، ولهذا السبب قدم الرسل التخويف دائماً كما أشارت لذلك سورة الشعراء حيث كان الرسل يقدمون " ألا تتقون " على أنى لكم رسول أمين (٣) .

وقد تتابع الرسل بعد نوح "عليه السلام" وكلهم يثبت المعاد ويؤكده ويخوف قومه منه ، فلقد خوف " هود " قومه من عذاب يوم عظيم وقدم لهم قوله " ألا تتقون " ليشعرهم بالخوف من عذاب الله الذى سيترل بهم وخاصة فى الآخرة ، فلما أصروا على الكفر والضلال بين لهم إنهم استحقوا التأنيب فى الدنيا والآخرة فقال لهـــــم :

---

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٢٦٦ .　　(٢) سورة هود آية (٣٤) .

(٣) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٥٣٣ .

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)، ولقد كان من أوضح أسباب اللعنة أهم كفروا بالبعث الذى ذكره لهم، وعرضوا رأيه فى هذا المجال، فى دهشة واستغراب ، وقال السفهاء منهم لنظرائهم : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢) ولم يكتفوا بهذا الاستفهام الإنكارى، بل أنكروا البعث صراحة، واستبعدوا كل ما وعدهم به من أمور الآخرة، فقالوا : ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣) ، فلا عجب إذاً بعد الإنكار والإستهزاء أن تتابعهم اللعنات فى الدنيا والآخرة .

وسيدنا شعيب "عليه السلام" خوف قومه من يوم القيامة، ودعاهم إلى العمل الصالح من أجل الفوز فيه فقال لهم : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٤) وإنما قال لهم هذا رجاء أن يستجيبوا لدعوته ،ويؤملوا فى ثواب يوم الآخرة .

وأيضاً فلقد بين سيدنا إبراهيم "عليه السلام" أن الإيمان بالله جزء من العقيدة لا تتم إلا به، ولا يترل الخير والأمن فى الدنيا إلا على أساس الإيمان كله ، بين ذلك وهو يدعو ربه قائلاً : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٥) ، فنراه "عليه السلام" يقصر دعوته بالخير والأمن

---

(١) سورة هود آية (٦٠) . (٢) سورة المؤمنون آية (٣٥) .

(٣) سورة المؤمنون الآيات (٣٦ ــ ٣٧) . (٤) سورة العنكبوت آية (٣٦) .

(٥) سورة البقرة آية (١٢٦) .

على من يستحقها من الناس، والمستحق هو من آمن بالله واليوم الآخر ، أما الكـافر بهما فهو وإن تمتع فإنما يتمتع قليلاً فى الدنيا ، لكنه فى الآخرة سوف يعذب بعـذاب النار وبئس المصير .

وفى هذه الآية يوضح سيدنا إبراهيم "عليه السلام" حقيقة الإيمان، والكفر، ومـآل كل واحد منهما عند الله .

إن سيدنا إبراهيم "عليه السلام" دعا إلى البعث فى لين، ولم يصطدم بعتو القوم وجبروقم ، وحينما كان يلجأ إلى التمثيل كان يمثل بنفسه ، يقول لهم مشيراً إلى القدرة الإلهية : ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ (١) ليكون إيمانهم بالله مشتملاً على التسليم بقدرته الشاملة للإحياء والإماتة ، والمراد بالموت هو الإماتة فى الدنيا ، والمراد بالإحياء المجازاة على الأعمال (٢) ، وقد نظمت الآية الإماتة مع الإحياء فى سمت واحد كما ذكر أبو السـعود لأنها قـد نيطت بجميـع أمور الآخرة بما يأتى بعدها من البعث (٣) ، ومـن تمثيلـه بنفسـه قولـه : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤) ، حيث قال أطمـع بينما هو "عليه السلام" قاطع بالمغفرة ، وأسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء مترهون عن الخطايا وما فعل ذلك إلا تعليماً للأمة ليعرفوا أن أثـر المغفرة على الخطيئة يظهر حتما يوم القيامة ـــ، ولم يخطئ إبراهيم "عليه السلام" قط (٥) .

إن المؤمنين يسلمون باليوم الآخر، ويصدقون بالبعث ،ويعملون الصالحات من أجـل النجاة فى الآخرة ، وهم لايؤثرون أى عمل على طاعة الله ، أنظر إلى سحرة

---

(١) سورة الشعراء آية (٨١) .
(٢) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٥٢٦ .
(٣) تفسير أبى السعود ج٤ ص ١١٠ .
(٤) سورة الشعراء آية (٨٢) .

فرعون لما آمنوا قالوا لفرعون : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ (١) ، وقالوا أيضاً : ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) ، فإنهم بذلك أعلنوا إيمانهم الذى لا يعبأ بالدنيا وعذابها وإنما ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وفق ما أرشدهم سيدنا موسى "عليه السلام"، فلقد نقل إليهم قول الله له : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣) ، ونقل كذلك قوله تعالى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٤) فالإخراج من الأرض بالبعث ،وعودة الروح إلى الجسد من أجل الحساب، والجزاء على الأعمال ، وقد ذكر لهم موسى ذلك ليثبت لهم البعث الذى هو من أصول دعوته وأحد الأركان التى يقوم عليها الإيمان .

إن المؤمنين من أتباع موسى "عليه السلام" كانوا لشدة يقينهم بالقيامة، كانوا يخوفون أهاليهم من أهوالها، كالرجل الذى آمن منهم ،ونادى فيهم قائلاً : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥) ، ويوم التناد هو يوم القيامة حيث ينادى بعضهم بعضا للإستعانة،أويتصايحون بالويل والثبور،أو يتنادى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أو يند بعضهم من بعض على قراءة التشديد ، وعن الضحاك إذا سمعوا ـــ أى الكفار ـــ زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب (٦) .

---

(١) سورة طه آية (٧٢) . (٢) سورة الزخرف آية (١٤) .
(٣) سورة طه آية (١٥) . (٤) سورة طه آية (٥٥) .
(٥) سورة غافر آية (٣٢) . (٦) تفسير أبو السعود ج٥ ص ٩ .

والبعث هو أول ما نطق به عيسى "عليه السلام" وهو فى المهد إذ قال : ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) ، **وكان يقول لليهود الصدوقيين الذين ينكرون البعث " وأما من جهة قيامة الموات ، فما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات ، بل إله أحياء ، فلما سمعوه بهتوا من تعليمه " (٢) .**

****

(١) سورة مريم آية (٣٣) .

(٢) انجيل متى ــ إصحاح ٢٢ ــ فقرات " ٣١ ــ ٣٣ .

المبحث الثامن : شخصية مبلغ الدعوة

يتضمن تاريخ الدعوة التعريف برسل الله تعالى ، وقد فصلنا التعريف بالرسل ، ومنهج حركتهم بالدعوة فى القسم الأول .

وهنا أقدم الملامح الرئيسية لشخصية مبلغ الدعوة ، وهو الرسول ابتداء ليتأسى به كل الدعاة إلى الله بعد ذلك ، فرسل الله عموماً هم الرواد ، والقادة فى طريق الله ، وهم أسوة الدعاة والمؤمنين من بعدهم ، يقول الله تعالى عنهم : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (١) .

وتحقيقاً لمناط الأسوة ، فإنى أتحدث عنهم فى الأمور التالية : ـــ

١ ـــ نشأة الرسل :

تحدث القرآن الكريم بالتفصيل عن نشأة رسولين هما يوسف وموسى " عليهما السلام " على نحو ما وضحت فيما سبق ، وهنا استنبط الدروس التالية :

أ ـــ ضرورة التكوين الخلقى : فلقد نشأ موسى " عليه السلام " تحت رعاية المؤمنة الفاضلة ، إمرأة فرعون ، وتربى يوسف " عليه السلام " فى رعاية أسرة العزيز ، بعيداً عن الدنس ، وقد تربى كل منهما فى بيئة غنية ، فلم تشغلهما الحاجة من صغرهما ، ولم يختلطا بالسوقة ، وأراذل الناس .... وبذلك أكرمهما الله تعالى بالنشوة القوية ، والثقة وعدم الخوف ، ولم يتدنسا بشئ مما عليه الناس .

ب ـــ التربية العلمية : عاش موسى ويوسف " عليهما السلام " فى بيت السلطان وأكرمهما الله بعنايته ، ووفقهما للمعرفة ينهلان منها ، وقال الله عن كل منهما : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢) ، والمراد بالعلم الإحاطة بما يحتاجون إليه فى أمورهم ،

---

(١) سورة الأنعام آية (٩٠) . (٢) سورة يوسف آية (٢٢) .

والمراد بالحكمة ، العقل والفهم ، وبواسطة تمكنهما من العلم و الحكمة صار لهما شأن بين الناس ، يقول تعالى :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (١) .

ج ــ **التربية العملية** : ويراد بها تعليم النشء كيفية التعامل مع الناس ، واكتشاف البيئات ، والوقوف على طبائع البشر مع اختلافهم ، ثقافة ، وفكراً ، وعملاً .

ولقد أحاط الله رسله بهذا النوع من التوجيه ، فها هو يوسف "عليه السلام" يعاشر التجار ، والأمراء ، وأصحاب السجن ، ويتحدث فى أمور المعاش ، وقضايا الدين ، وطرق التخطيط للمستقبل .

ومثله كان موسى "عليه السلام" من قبل ، يعيش فى بيت فرعون ، ويختلط بالمصريين ، والإسرائيليين ، ويتجول بين الرعية ، ويذهب إلى مدين ، ويعمل برعى الغنم ، ويرى حياة المدنية ، والبداوة ، ويرى العمران ، والصحراء .

إن هذه التربية التى عاشها موسى ويوسف " عليهما السلام " ، ضرورة لكل مبلغ لدين الله تعالى ، لأنها تمكنه من فهم الناس ، والتعامل معهم ، وتجعله قادراً على تبليغ دين الله تعالى على الوجه الصحيح .

لقد ربى الله رسله ، وكونهم بقدرته ، ولذلك كانوا محل ثقة الناس وتقديرهم قبل الرسالة ، وكانوا يأملون فيهم أن يكونوا كهنة الأصنام ، ودعاة الأوثان .

فلما بدأوهم بدعوة التوحيد ، تعجبوا ، وأصابتهم الدهشة ، وعبروا عن ذلك بما حكاه الله عنهم ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة النمل آية (١٥) . (٢) سورة هود آية (٦٢) .

ويقول تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١) ، ويقـــول تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢) .

فالرسل قبل الرسالة تميزوا بأخلاقهم ، وعلمهم ، وحسن تعاملهم مع الناس .

ومن أهم ما تميزوا به : الأمانة ، وهى من أمهات الأخلاق ، اتصف بها جميع الرسل ، قبل بعثتهم وبعدها ، وظهرت معهم كلازمة من لوازم حياتهم ، واشتهروا بها بين أقوامهم ، ولذلك رأينا الرسول حينما يقابله الناس بالتكذيب ، والإيذاء ، يذكر لهم ما عرف به عندهم من أمانة واضحة قبل الرسالة ،وهى معـــه بعد الرسالة بالضرورة ، لقد قال كل رسول لقومه : ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٣) يقول أبو حيان : هذه الآية علة معلولها ما تقدمها ، من عرض الرسول تقوى الله عليهم ، وعلة هذا معلولها تقتضى أن تكون معروفة ، ومعهودة ، لدرجة تدفع إلى الإيمان بالمعلوم ، فالرسول مشهور بين قومه بالأمانة (٤) ، وكأنه يقول لهم بهذه الآية : كنت أميناً من قبل ، فكيف تتهمونى اليوم (٥)، لأن الكفار لايستطيعون إنكار ما أشتهر به رسولهم ، ولذلك حاولوا إزالة الصفات المعروفة عن الرسول ، بدعوى حدوث أمور عارضة ، منعت استمرار هذه الصفات المسلم بها، من قبل ، كدعوى الإصابة بالجنون، أو بالمس بالشياطين من أمثال قول قوم نـــوح عنه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ

---

(١) سورة هود آية (٨٧) .   (٢) سورة يوسف آية (٥١) .

(٣) سورة الشعراء آية (١٠٧) .   (٤) البحر المحيط ج٨ ص ٣١ .

(٥) تفسير أبى السعود ج٤ ص ١١٣ .

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١) ، فذكروا أنه أصيب بجنون .

وأيضاً قال قوم هود : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ (٢) ، واكتفى قوم صالح بتذكيره بأنه كان قبل البعثة محل رجائهم وأملهم وقالوا : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ (٣) ،وهكذا كانت الأمانة أولى الصفات التي ظهرت في أعمال الرسل، وحياقم لشمولها وأهميتها ، ولذلك حاول المعارضون ردها ، وعقدوا من أجل إبطالها المؤتمرات والاجتماعات .

ومن صفات الرسل العفو والصفح والحلم ، فبرغم الدعاوى المفتراه ، والسفاهة الواضحة من المعارضين ، لم نجد لهم إلا لينا وتسامياً ، فلم يردوا بقول غليظ ، أو عمل شديد ، وكل ما ردوا به هو نفى التهمة ، وبيان أنهم رسل الله ، وذلك كرد نوح "عليه السلام" : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٤) ، وكرد هود حيث قال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٥) ، وأما صالح "عليه السلام" قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٦) ، وكذلك كان لين شعيب حيث استمع إلى معارضة قومه وتهديداتهم ، ثم كانت النهاية : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة المؤمنون آية (٢٥) .
(٢) هود آية (٥٤) .
(٣) سورة هود آية (٦٢) .
(٤) سورة الأعراف آية (٦١) .
(٥) سورة الأعراف آية (٦٧) .
(٦) سورة الأعراف آية (٧٩) .
(٧) سورة الأعراف آية (٩٣) .

وسيدنا إبراهيم "عليه السلام" يقول لأبيه : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ (١) ، وعلى نمط هذا اللين والتسامح كان سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم" .

واشتهر الرسل " عليهم السلام " كذلك بالعفة فلم يمدوا أيديهم على شئ عند الناس ، ولم يحسدوا أحداً على ما آتاه الله من فضله ، ولم يأخذوا أجراً على دعوتهم ، ولم يكونوا عالة على أحد قط ، فلقد رعى جميعهم الغنم يتكسبون لمعاشهم ويستغنون بها عن عطاء الناس ، يبين النبى ذلك حين سأله جابر "رضي الله عنه" : وهل كنت ترعى الغنم ؟ قاله له : وهل من نبى إلا وقد رعاها (٢) ، يقول السهيلى وإنما جعل الله هذا — رعى الغنم — فى الأنبياء ليكونوا رعاة الخلق بعد ذلك ، وليكون الخلق رعاياهم (٣) ، هذا وقد أكد الرسل جميعاً لأقوامهمم إنهم لا يأخذون أجراً على دعوتهم ولا يطلبونه البتة ، وذكروا ذلك فى وضوح حيث قالوا جميعاً لأقوامهم : (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) (٤) .

واشتهر الرسل " عليهم السلام " أيضاً بالصدق ، ومن أجل تأكيد صدقهم أتتهم المعجزات الخارقة للعادة ، لتكون دليل صدق على البلاغ ، يقول صاحب المواقف : (أجمع أهل الملل والشرائع على عصمة الأنبياء من تعمد الكذب فيما دل على صدقهم فيه ، كدعوى الرسالة ، فيما يبلغونه عن الله) (٥) ولابد من صدقهم فى هذا ، لئلا تبطل فائدة الرسالة ، إذ لو جاز كذب النبى فى الأحكام التبليغية لبطلت دلالة المعجزة على صدقه ، فيما أتى به من الله ، مع أن دلالة المعجزة على صدقه دلالة عادية قطعية (٦) .

---

(١) سورة مريم آية (٤٧) .

(٢) صحيح البخارى ج٤ ص ١٩١ — كتاب بدء الخلق — باب يعكفون على أصنام لهم .

(٣) هامش سيرة النبى ج١ ص ١٧٨ .

(٤) سورة الشعراء آية(١٠٩)

(٥) شرح المواقف ج٣ ص ٢٠٤ .

(٦) شرح العلامة عبد الحكيم ص ٤٦٧ .

ولقد مدح القرآن سائر الرسل وأظهر صدقهم فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣) .... وهكذا وصفهم القرآن بالصدق بصيغة المبالغة مع تقديم هذه الصفة فى الذكر على النبوة ، لأن النبوة متوقفة عليها ، ولن تكون بدونها ، ولم يحدث عملياً أن كذب نبى قط ، وما جاء من أن إبراهيم "ﷺ" كذب ثلاث كذبات مثل ما روى مسلم والبخارى عن أبى هريرة من عدة طرق أن رسول الله "ﷺ" ـــ واللفظ للبخارى ـــ قال : لم يكذب إبراهيم "عليه السلام" إلا ثلاث كذبات اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له إن هاهنا رجلاً معه إمرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه ؟ قال أختى ، فأتى سارة : قال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك وأن هذا سأل فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى (٤) .

هذا الذى جاء منافياً للصدق الدائم لرسل الله يجعلنا نحمله على معاريض القول ، والمعاريض نوع من البديع ، معناه أن يدل اللفظ على معنيين أحدهما صدق ينويه المتكلم فى نفسه ، والثانى كذب يسكت المتكلم عن نفيه إسكاتا للمجادل ، وحمل الحديث على المعاريض يجعلنا لانكذب الحديث ، ولا نكذب إبراهيم "عليه السلام" ، وتأويل الكلمات على مفهوم المعاريض ممكن لأن معنى إنى سقيم مريض القلب بسبب

---

(١) سورة مريم آية (٤١) . (٢) سورة مريم آية (٥٤) .

(٣) سورة مريم آية (٥٦) .

(٤) صحيح البخارى ج٤ ص ١٤١ ـــ كتاب بدء الخلق ، باب واتخذ الله إبراهيم خليلا ، صحيح مسلم ج٧ ص ٦٨ ـــ كتاب الفضائل ـــ باب فضائل إبراهيم .

أطباق ذلك الجمع على الكفر ، ومعنى قوله : بل فعله كبيرهم هذا ، إثبات الفعل إلى نفسه لا إلى الصنم ، يقول الزمخشرى : إن قصة إبراهيم "عليه السلام" لم يكن أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه واثباته على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه (١) ، وقوله : هى أختى أى أختى فى الإسلام ، وقد ورد فى لفظ رواية مسلم ، تلك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرى وغيرك (٢) .

هـذا وقد قال الرازى فى تفسيره : أن الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض (٣) ، ومن المعلوم أن ما فى المعاريض من صور الكذب ليس كذباً فى الحقيقة وقد جمع البخارى صوراً منها وترجم لها بعنوان " باب المعاريض مندوحة من الكذب " (٤) .

وهكذا كان الأنبياء صادقين وأمناء وأصحاب عفة وقد جمعوا سائر الأخلاق الفاضلة ، فلما جاء خاتمهم محمد "ﷺ" سار على هديهم ، وتمم بما احتاجه الناس وقال : " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " (٥) .

---

(١) الكشاف ج٢ ص ٥٧٧ ، وقد بين الزمخشرى تأويل هذا التعريض فقال لو كتبت كتاباً رشيقاً وسألك صاحبك : أ أنت كتبت ؟ فقلت له أنت الذى كتبت فهو إقرار لجوابه مع الإستهزاء ، وأيضاً فإن الصنم الكبير كان غيظة لإبراهيم أكثر من غيظ غيره فهو الذى تسبب فى دفع إبراهيم إلى تكسيرهم ، بإختصار ، وقيل المراد بالكبير أصبعه .

(٢) صحيح مسلم ج٧ ص ٩٨ .

(٣) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٩٨ .

(٤) صحيح البخارى ج٨ ص ٥٩ ـــ كتاب الأدب ـــ باب المعاريض مندوحة من الكذب .

(٥) موطأ مالك ج٤ ص ٩٢ ما جاء فى حسن الخلق .

إن ما تميز به الرسل من صفات أعدوا لها إعداداً ، بحيث حملوا الدعوة ، وتحملوا فى سبيل تبليغها التعب ، والمشاق ، والعذاب ، والألم .

وواجب أن يكون الدعاة إلى دين الله تعالى على نفس النمط ، يجب أن تتكون قلوبهم على الدعوة ، والإخلاص لها ، وتمتلئ حياتهم بالعمل للدعوة ، والسعى فى تبليغها ، لقد أنشأ القرآن الكريم قلوبا لحمل أمانة الدعوة ، تتصف بالصلابة ، والقوة ، والتجرد ، بحيث لا تتطلع إلى شئ فى هذه الأرض أيا كان غير طاعة الله ، إنها تنظر إلى الآخرة ، وتعمل لرضى الله فقط .

بهذه القلوب ، وبهؤلاء الرجال تنجح الدعوة ، ويتحقق نصر الله ...

*****

ولن تنجح الدعوة برجال لايؤدون حق الله عليهم .لأن فاقد الشئ لا يعطيه

ولن تنجح الدعوة بأشخاصلم يستعدوا للدعوة استعدادا علميا، وخلقيا، واجتماعيا؛ لأنهم بعجزهم، وجهلهم، يضرون ولا يفيدون، ومن المعلوم أن اليد المرتعشةلا تقدر على الحمل، والرجل الأشل لايقدر على المسير.

ولن تنجح الدعوة برجال يقومون بها ترفا، ويتعيشون بها وظيفة؛ لأن هؤلاء سوف يفرون عند أول مواجهة، ولن يتحملوا شيئامن تبعاتها، ومشاقها.

إنما تنجح الدعوة برجال، تيقنوا الصدق في دينهم، وسعدوا بإيمانهم، وعاشوا الحقيقة الدينية في فكرهم، وقولهم، وعملهم.

إن هؤلاء الرجال هم طلائع النصير لدين الله تعالى، وهم العاملون على إنقاذ الناس من ركام الفسق، والضلال، وأخذهم إلى طاعة الله تعالى.

........وحينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ......وإنه لقريب

*****

المبحث التاسع : خصائص الأنسان وطبائعه

أعلن الله ميلاد الإنسان ، وسط عالم من الملائكة ، وحمله مسئولية الخلافة فى الأرض من اللحظة الأولى ، وفضله بمجموعة من الطاقات ، والملكات ليعمر الكون ، ويقوم بدوره عبداً لله تعالى .

و لم يرتض إبليس هذا الوضع المميز لآدم وبنيه ، فطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم القيامة ، ليعيش بين الآدميين ، يزين لهم ، ويفتنهم ، ويحاول إضلالهم .

وبدأت معركة فى الأرض بين الإنسان ، وإبليس ، ستبقى مستمرة إلى يوم القيامة .

وأراد الله بهذه المعركة أن يتميز الآدميون ، ويظهر الطيب منهم ، والخبيث ، ليكون الحساب بعد ، على عملهم وعطائهم .

إن إبليس وذريته يعملون فى جد، وخفاء ، ولهم قدرة على الوسوسة والإغواء ، ومعهم إمكانية الحياة مع الإنسان ، وفى داخله ، ولذلك هو مستمر فى عمله، وعدوانه .

وحتى لايكون للإنسان عذر فى هذه المعركة عرف الله الإنسان بعمل إبليس وذريته ، وحدد له الغاية التى يسعى لها ، والطرق التى يعمل من خلالها ، والخدع والدسائس التى يستفيد بها .

وأرسل الله رسله للناس يدعون إلى الحق ، ويقنعون بالدليل ، ويحددون الوسائل التى ينهزم بها إبليس وبنوه .

وتتابع مجئ الرسل " عليهم السلام " للناس ، واستمرت المعركة، وتجلت خلالها طبائع الناس ، وظهرت خفايا النفوس البشرية ، وأصبحت صفحة مكشوفة ، تحدد الملامح ، وتبين أنسب الطرق للتعامل معها .

ومما يؤكد حقيقة هذه الطبائع ، وأصالتها فى الناس ، تكررها مع أقوام الرسل جميعاً رغم بعد المكان ، وإختلاف الزمان .

إن الوقوف على هذه الحقائق المستفادة من دعوات الرسل فى القرآن الكـــريم تعطى فوائد كثيرة للدعاة إلى الله دائماً ، لأنهم بعد علمهم بطبائع الناس يمكنهم التوجه إليهم بصورة ملائمة ، مؤثرة .

ندرك من قصة خلق الإنسان فى بدايته الأولى أنه مخلوق عجيـــب ، أودع الله فيه كثيراً من الأسرار ، فهو مخلوق مزود بطاقات عديدة ، ولعل أهمها طاقة المعرفة التى تمكنه من معرفة الكائنات من حوله ، والتأمل ، والنظر فيها بعمق ، وتمكنه من الحفظ والتذكر ، والتحليل ، والاستنباط .

ومن طاقات الإنسان قوة الإرادة التى تغلب شيئاً على شئ ، وتحدد المقصود ، وتدع سواه .

ومن طاقات الإنسان القوة الفاعلة التى تحرك جوارحه للعمل ، وتنشط همتـــه للإنتاج ، وبهذا الفعل تكون صورته فى الناس .

إن القوة الفاعلة نتاج طبيبعى لقوة العلم ، وقوة الإرادة ، وهذه القوى تحـــدد قدر الإنسان فى الحياة .

ومن عجائب الإنسان إزدواجية القيم التى يتمتع بها ، فلديه مساحة واســعة للخير ، والحب ، والأمل ، والتعاون ، والتفاؤل ، والتجرد ، ونكران الذات .... وفى نفس الوقت يمتلك قيماً مضادة كالشهوة ، والكراهيـــة ، والتشـــاؤم ، والأنانيـــة ، والانعزال .

يقول الأستاذ / محمد قطب : (من عجائب التكوين البشرى وجود خيـــوط متقابلة ، متوازنة ، متحاورة فى النفس ، مختلفة فى الاتجاه ، ... كأنها أوتار ، متقابلـــة تشد الكيان كله ، وتربطه من كل جانب يصلح للربط) (١) .

---

(١) منهج التربية الإسلامية ج١ ص ١٥٤ ـــ ١٥٥ .

هذا التكوين البشرى يحتاج إلى معرفته المربون والدعاة ، ليتعاملوا مع الإنسان على أساس وجود هذه الاتجاهات المتقابلة فيه .

إن الكفر ، والمعصية ، عبارة عن تغلب قوى الشر ، والفساد، على غيرها فى الإنسان لسبب ما ، والدعاة عليهم أن لا ييأسوا من كفر كافر ، أو فساد ضال ، فأمامهم جانب خير ، عليهم أن يبرزوه فى الإنسان ، ويقووه ، ويعتمدوا على معطياته ، فما التربية فى الحقيقة إلا توجيه لعناصر الإنسان نحو غاية مقصودة بطريقة ترضي ، وتقنع ، وبذلك يضعف الكفر ، وينتهى العصيان .

ليس الإنسان نمطاً واحداً لا يتغير ، وإنما هو كائن ، قابل للتغيير والتبديل ... وكثيراً ما تتغير عواطفه ، وتتبدل اتجاهاته .... وقد رأينا كيف انتقل الإنسان من عالم الإيمان إلى الضلال ، أو آمن بعد كفر .... وذلك يعد دليلاً عملياً للدعاة ، يدفعهم إلى العمل ، والأمل فى خدمة الدعوة ، والناس .

ومن حقائق الإنسان العامة، أن التغيير الحقيقى الذى يعايشه يكون من داخله فى الأساس ، لأن الإنسان يحيا بروحه ، ويشعر بذاته من خلال شعوره ، وفكره ، وإذا تمنى أمراً ، أو أحبه ، أو رضى به فإن هذه الجوانب تبدأ من روحه ، وعقله ، وتنعكس تلقائياً على جوارحه ، وسلوكه .

إن العقل هو أساس الاقتناع ، والرضى هو رأس العمل .. ولذا كان الباطن هو قائد البدن ، ومنه يكون التغيير .

إن قيم الخلق ، والسمو ، والتقدير تأتى من العقل ، ولكنها تظهر عملياً على الجوارح .

ولهذا كان على الدعاة تربية النفوس ، ومخاطبة العقول بالبرهان المقنع ، والقول الحكيم ليصلوا لمرادهم .

إن الإنسان يتميز على سائر الكائنات بالتفكير العقلى ، والاختيار الحر ، والإرادة الطليقة .... ولذلك ينهزم كل من يتعامل معه بعيداً عن هذه الحقائق .

وقضى الله للإنسان أن يكون عابداً باختياره ، ولذلك جعل محل الإيمان النية والقصد الذى لا يطلع عليه مخلوق ، على أن يشهد له النطق ، وتؤكده الأعمـــال ... وأى إيمان لا ينبع من القلب لا قيمة له ، لأنه فى حكم الله نفاق حركـــه الخـــوف ، وكذب لا يقبله الله تعالى .

ومن حقائق الإنسان العامة أن قواه العقلية ، الباطنية ، تجد نفسها دائماً أمام خطين متعارضين ، أحدهما يدعوه إلى الرفعة ، والخير ، وحسن الخلق ... والثانى يدعوه إلى الجشع ، والمادة ، والشهوة ، وسوء الخلق ... وذلك معنى قوله تـــعالى : ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (٢) .

يقول الإمام / القرطبى : (النجدان هما طريق الخير ، وطريق الشر ، ويرى أن كل نفس بشرية خلقها الله تعالى هيأها وعرفها طريق الفجور ، وطريق التقوى ، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآيات يدعـــو ربه ويقول : (**اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من دساها ، أنت وليها ومولاها**) (٣) .

هذه الحقيقة هي مدخل الشيطان إلى الإنسان، فعن طريقها يزين الشهوة ، ويجمل الشر ، ويهون من شأن المعصية ، ويستمر فى إغوائه حتى يجعل للشر فى النفس قوة ، وبذلك يتمكن من إضلال صاحبه .

وعلى الدعاة أن يتوجهوا إلى جانب الخير فى الإنسان ، ويستفيدوا به فى الهداية ، والرشاد ، ليتغلبوا على عدو الله ، وعدوهم ، ولهذا فهم فى حاجة إلى دراسة حقيقة النفس ، وما يتصل بها من دراسات للوقوف على طريق مخاطبة الباطن ، والتأثير فيه .

---

(١) سورة البلد آية (١٠) .　　　(٢) سورة الشمس الآيات (٧ ــ ١٠) .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢٠ ص ٦٥ ، ٧٥ ــ ٧٦ .

إن أهل الضلال فى كل زمان ، يعملون على يقظة قوى الشـــر فى الإنســـان بإباحة الفتنة ، ونشر المغريات ، وإشعال الغرائز فى الإنسان ، وتيسير إشباعها بالحرام ، ليسهل لهم الإفساد ، وإطفاء نور الله فى الأرض ... وهـــم لـــذلك لا يملـــون ، ولا يضيعون وقتاً ، أو فرصة .

وعلى المسلمين أن يعيشوا هذا الواقع ، ويخلصوا فى خدمة الحـــق ، ورفـــع الصواب والهدى ، بكل ما أمكنهم من علم ، وفقه ، وعدة ، وقوة .

إن على الدعاة التعامل مع جوانب النفس المختلفة ، فلا يهملون جانباً مـــا ، ولا يركزون على جانب واحد ، لأن التوازن يؤدى إلى الرضى ، والطمأنينة .

وقد تعامل الرسل " عليهم السلام " مع الإنسان بحقائقه تلك ، وعملوا على دعوته ، والتسامى به نحو الخير .

لكن الإنسان مع الرسل لم يكن سوياً ، بعدما لعب به الشـــيطان الـــرجيم ، وأضله فى حياته كلها ، وأبعده بعداً تاماً عن هدى الله ، ودينه القويم ، ولذلك تغيرت صورة الإنسان قديما بعد أن ترك الفطرة ، وتمادى فى الغى والضلال ، وغرته الحضارة والمدنية ، بصورة جديدة ، وطبع جديد ... كأنـــه الإنســـان المعاصـــر ، المفتـــون بالمخترعات المادية ، وألوان اللذة ، بعيداً عن قيود الحق ، وتعاليم الدين .

ومن هنا كان الوقوف على طبائع الإنسان كما ظهرت خلال تعامل الأقـــوام مع الرسل له أهميته .... ومن هذه الطبائع ما يلى : ـــ

١ ـــ إستعلاء السلطة :

اصطدم الأنبياء أثناء دعوهم بالولاة الذين يتولون شئون الناس ، وقد رأينـــا مواجهتهم لعدد من الأنبياء ، فقد واجه النمرود بن كنعان " ملك الكلدانيين إبـــراهيم "عليه السلام" وواجه فرعون موسى "عليه السلام" ، وكان لعزيز مصر موقف مع يوسف "عليه السلام" .

توضح هذه المواقف أن الملوك والأمراء ، يعملون لتـدعيم مـوقفهم ، مـع أقوامهم ، وتقوية أركان حكمهم ، والمحافظة على مصالحهم الشخصية بكل ما أمكنهم من وسائل .

وقد وصل بهم الأمر إلى إعلان أنفسهم آلهة للناس ، كما فعل النمرود ، وكما كـان فرعون ، وحتى يمكنوا هذا الإعلان عند الناس ، وجدناهم ينشرون أعوانهم فى المدائن ، لتوجيه الناس ، والتأثير فى الرأى العام .

وحتى يتأكدوا من قيام الأعوان بما كلفوا به ، أغدقوا عليهم مالاً وجاهـاً ، وقربوهم إليهم ، وجعلوهم من خاصتهم ، ومستشاريهم ، ... فلما جـاء الأنبيـاء بدعوتهم ، وبلغوها للأمراء ، والقادة علموا أن الإيمان بدعوة النبى ، يتعـارض مـع وضعيتهم بين الناس ، ولذلك قاوموا الدعوة ، وأشاعوا بين الناس الأكاذيـب عـن الأنبياء ، ودعواتهم ، لصرف الناس عن الحق .

وموقف الرؤساء من الدعوة ، يرجع فى تصورى لأسباب عديدة ، من أهمها :

١ ــ الإحساس بالقوة الناشئة من تحكمهم فى البلاد والعباد ، من غير منازع من الناس .

٢ ــ وضع كل المقدرات المادية تحت تصرفهم حيث أعتبروا أنفسهم ملاكاً لها ، ومن أقوال فرعون ما حكاه الله تعالى عنه : ﴿ **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾** ﴾(١).

وفى مقالة فرعون بيان لغروره بقوته ، وإستعلائه بما ملكه ، وتحكم فيه.. يبين الإمام القرطبى أن فرعون أظهر أمره للناس ليصرفهم عن موسى ، فينادى هو ، ويأمر بمن ينادى بذلك فى الأقاليم لتوضيح أنه يملك مصر بلا منازع ، كما تملك أنهارها ، وأرضها ، وكل ما فيها ، يتصرف فيها كما يريد ، ويشاء (٢) .

---

(١) سورة الزخرف آية (٥١) .　　(٢) انظر تفسير القرطبى ج١٥ ص ٩٨ ــ ٩٩ .

٣ ـــ خضوع الناس ، وتسليمهم بحق السلطان المقدس ، فلقد صدقوا فرعون حينما قال لهم : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (١) ، وقال لهم : ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ (٢) .

يشير الله إلى طاعة الناس لفرعون ، وتصديقهم لمزاعمه ، فيقول تعالى : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ (٣) .

إن حال فرعون هو حال كل جبار فى الأرض ، سيطرت عليه نفسه ، وخدعه تعظيم الناس ، وخضوعهم له ، ولقد كانت " بلقيس " تعلم ذلك ساعة أن جاءها الهدهد بخطاب سليمان ، إذ قالت لقومها : ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ (٤) .

٤ ـــ وجود أنظمة تعمل لتكريس التعظيم والتبجيل ، للسلطان ، والحاكم ، وهذه الأنظمة وضعها الحاكم لنفسه ، وصار لها شأن ، وتقدير وسط الناس ، ومن أمثلة هذه الأنظمة ما بثه فرعون فى المدائن من علماء ، وسحرة ، وولاة ، وكلهم بدين بالولاء ، والطاعة له .

هذه بعض آثار السلطة على أصحابها ، وقد بعث رسل الله لهؤلاء الناس ، وتعاملوا معهم بما يناسبهم ، ودعوهم إلى الحق بمنهج يتلاءم مع واقعهم وفكرهم .

يوضح الله ملامح هذا المنهج فى قوله لموسى وهارون " عليهما السلام " : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ (٥) ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة النازعات آية (٢٤) . (٢) سورة القصص آية (٣٨) .

(٣) سورة الزخرف آية (٥٤) . (٤) سورة النمل آية (٣٤) .

(٥) سورة طه آية (٤٤) . (٦) سورة النازعات الآيات (١٨ ـــ ١٩) .

وكان رسل الله " عليهم السلام " يخصون القادة بالدعوة ، لأهميتهم الاجتماعية ، ولأن إيمانهم إيمان لأتباعهم ، ولو ظفر الرسل " عليهم السلام " منهم بالصمت ، والسكون لعد ذلك كسباً يمكنهم من دعوة عامة الناس .

ولذلك كان فهم وضعيتهم مفيداً فى دعوتهم إلى دين الله تعالى ...

٢ ــ كبرياء الملأ :

والملأ هم قادة الرأى فى المجتمع ، وأعوان السلطان فى الناس ، يملكون بعض المزايا الفكرية ، والمالية ، والعلمية .

وسموا بالملأ لأنهم يملأون المجتمع ظهوراً ، وحركة ، أو يملأون المجالس ، حواراً وفكراً .... أو يملأون الأسواق مالاً وغنى ... وذلك يجعل لهم ظهوراً فى الناس ، وتأثيراً فى إتجاهاتهم .

الملأ هم معارضوا الرسل جميعاً ، وكان لهم دور فى صد الناس عن اتباع دين الله تعالى .

إنهم قوة توجيه الرأى العام ، وهم كبار فى أعين الناس ، ويعيشون معهم ... ولذا كان لرأيهم أهمية فى الطاعة والاتباع ، هؤلاء الملأ يتصفون بما يلى : ــ

١ ــ يملكون قدراً من الثقافة الفكرية ، بسبب ما هم فيه من غنى ، ولأنهم نشأوا فى بيئة الحكم والقيادة ، وتعلموا العلوم التى وجدت فى عصورهم ، وعرفوا المدنية ، وعاشوا الحضارة التى كانوا معها .

٢ ــ الملأ هم حلقة الوصل بين السلطة ، والعامة ، يقومون بدور القوة المنفذة على الجماهير ، ولذلك ينحازون للحاكم دائماً ، ويعملون له ... وهم مستشارو السلطان ، وناصحوه ، ودورهم معه كبير .

٣ ــ تعيش هذه الفئة فى رفاهية ، وغنى ، حيث يغدق عليهم الحاكم الكثير ، ليضمن ولاءهم ، وليستمر بهم إلهاً معظماً بين الناس .

٤ ــ يتمتع الملأ بثقة فى أفكارهم ، وأعمالهم مهما كان خطأها ، ولذلك نراهم يفتخرون بالباطل ، ويعتزون به .

ودعوة الملأ إلى الله تحتاج إلى منهج خاص ، يقدر العقل ، ويناقش بهدوء ، ويلتزم بحسن الخلق ، ويؤكد على ما للملأ من أهمية ، ومترلة ، حتى يدركوا أن دين الله يعطى أكثر من غيره ، والفائدة الحقيقية فى الطاعة ، والاتباع .

٣ ـــ استسلام العامة :

والعامة هم الجمهور العريض من الناس ، وهم الضعفاء الذين يعملون فى خدمةالملأ ، والسلطان ، وقد جبلوا على الخضوع ، وبرغم تملكهم للكثرة العددية ، إلا أهم ينتظرون دائماً من يساعدهم ، ويوجههم .

والعامة أصناف كثيرة ، فمنهم أرباب الحرف ، وأهل الصناعة ، ورجال الزراعة ، وطوائف المهن المختلفة .

ودعوة هؤلاء تحتاج إلى معايشتهم على تنوعهم ، وإختلافهم ، والعمل على كسب ثقتهم ، والدخول فى دعوقم شيئاً ، فشيئاً ، لأن أذاهم تسمع من العلماء ، ومن غيرهم ... وأى إستقامة لديهم تحتاج إلى رعاية ، وحماية ... لأن الجبابرة الذين يستعبدوهم يعملون باستمرار على إضلالهم ، وإقناعهم بما هم فيه من ضعة ، وهوان .

كان فرعون يقول لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (١) ، ويقول عن موسى : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) ، وكأنه ساع لمصلحتهم ، عامل على رفعتهم ، وسعادقم .

وقد قص القرآن الكريم بعض حوارات الكبار والضعفاء من أتباع الرسل، فقال تعالى :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة القصص آية (٣٨) . (٢) سورة غافر آية (٢٦) .

(٣) سورة الأعراف الآيات (٧٥ ـــ ٧٦) .

وفى الآيات بيان لأخلاق الكبار ، وهم الملأ ، وغيرهم ، حيث يسألون الضعفاء الذين آمنوا ، منكرين عليهم إيمانهم ، مستهزئين بهم ، متهمين إياهم بالجهل ، وعدم العلم ، مع الإشارة إلى أن صالحاً وربه لا يستحقون هذا الإيمان ، وتصور الكبار أنهم بهذا سيصرفون الضعفاء عن الدين ، فلما رد عليهم المستضعفون الذين آمنوا ، وأخبروهم بأنهم آمنوا بصالح "عليه السلام" رسولاً ، وبالله رباً ، وبما أرسل به ديناً صادقاً ، لما سمعوا ذلك عرفوهم بأنهم يكفرون بما آمنوا به ، كأن سبب الكفر دخول المستضعفين فى الإيمان .

ويقول الملأ من قوم شعيب للناس ، ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ ﴾ (١) ، حيث نراهم يخوفونهم بالبوار والخسران بسبب الإيمان ، فى وقاحة كاذبة ، وضلال مبين .

ومع فرعون وقومه نرى التعاون المفسد بين السلطان ، والملأ يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧ ﴾ (٢) ، وفى الآية نرى الملأ يأتون لسيدهم ، يحرضونه ضد موسى ، لأن موسى فى نظرهم يفسد فى الأرض ، ويفرق الناس ، ويدعو إلى ترك الآلهة ، والبعد عن تألية فرعون ، وهذا فى نظرهم فساد ، وخسران ... فيطمئنهم فرعون ويعرفهم بقراره الجديد ، وهو قتل ذكور الإسرائيليين ، وترك النساء ، ويهدئ خواطرهم بالثقة فى قوته القاهرة ، وعلوه الكاذب .

---

(١) سورة الأعراف آية (٩٠) .

(٢) سورة الأعراف آية (١٢٧) .

وفى يوم القيامة حين تنكشف الحقائق ، يتناقش المستكبرون والمستضعفون ، وهم فى العذاب ، حول من كان سبب الكفر والضلال ، يصور الله تعالى هذا النقاش ، فيقول : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣ ﴾ (١) ، فنرى كل فريق يلقى باللوم على الفريق الآخر ، يقول المستضعفون للمستكبرين : لولا أنتم لكنار الآن فى الجنة بإيماننا .

فيرد المستكبرون : هل قهرناكم على عدم الإيمان ، ووقفنا بينكم وبينه ، إنكم كفرتم بإرادتكم ، والكفر طبع فيكم .

فيوضح المستضعفون ما قام به المستكبرون معهم من حيل مخادعة ، ومكر لئيم وتخطيط لتدعيم الكفر ، وإستمرارية فى هذا الخداع والوسوسة .

يقول القرطبى : (والمستكبرون هم القادة والرؤساء ، والمستضعفون هم الإتباع الذين استمروا على الكفر فى الدنيا) (٢) ، لأن المؤمن عزيز بالإيمان ، قوى بمعية الله ، ولا يكون ضعيفاً بعد الإيمان .

من هذه الحوارات نلمس أخلاق الناس ..

---

(١) سورة سبأ الآيات (٣١ ــ ٣٣) .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٣٠٢ .

فالقادة ، يعارضون رسول الله إليهم دائماً ، ويظهرون للناس على أساس أهم أصحاب حق ، ولهم علم بحقائق الأمور ، ويتهمون الرسول بكل ما ينفر الناس منه .

ونرى الملأ فى خدمة سيدهم ، يعملون له ، ويساعدونه فى المحافظة على ملكه وسلطانه .

والعامة ضعاف يسيرون فى ركب قادقم ، ولا يتبينون الحق إلا بعد فوات الأوان .

إن الملأ هم الذين هددوا شعيباً بالطرد ، يقول تعالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) ، وهم مع كل الرسل إستعملوا هذا الأسلوب ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢) .

وعلى القائمين بأمر الدعوة أن يدركوا حقيقة النفس البشرية ، وطبيعة من سيقومون بدعوقم ليتمكنوا من التعامل معهم بما يناسبهم .

إن نفس الإنسان مليئة بالطمع ، وحب الذات ، وقد رأينا ما كان من قابيل ، وكيف أدت به الأنانية إلى قتل أخيه .. ورأينا ما كان من إخوة يوسف "عليه السلام" ، حيث كذبوا على أبيهم ، وحاولوا التخلص من أخيهم .

ومع هذا ففى الناس نفوس مشرقة ، تحب الحق ، وتعمل له ، وكل ما تتمناه أن تعرفه ، وتصل إليه ، كما حدث من سحرة فرعون ، وزوجته ..

وبالرجوع إلى حركة الرسل " عليهم السلام " بالدعوة لأقوامهم تتضح النفوس ، وتعرف الطبائع ، ويمكن للدعاة أن يقوموا بعملهم فى يسر ونجاح .

---

(١) سورة الأعراف آية (٨٨) .

(٢) سورة إبراهيم آية (١٣) .

المبحث العاشر : الحركة بالدعوة

بعث الله رسله ، لتبليغ دينه ، وإرشاد الناس إلى ما يحقق مصلحتهم فى الدنيا ، وفى الآخرة .

وقد صنع الله رسله ، وأمدهم بعونه ، ومـــدده ، ولم يتـــركهم لعقـــولهم ، وأفكارهم .

لقد اختار الله رسله من البشر ، وكلفهم بما يطيقه البشر ، وهداهم للخلـــق الكريم ، والسلوك الحسن فارتقت روحهم ، وصاروا فى الطاعة كالملائكة ، وفى العمل والسلوك عباداً صالحين ، مطبقين للمنهج الإلهى المستقيم .

وقد أمد الله رسله بعدما كلفهم بالرسالة ، بكل ما يحتاجون إليه ، وبكل ما تحتاجه الرسالة .

عرفهم الله بالدين ، أصوله ، وفروعه ، مفصلاً فى الجوانب التى لابد للتفصيل معها ، ومجملاً فى القضايا التى يكفى معها الإجمال .

والدين مجموعة من الحقائق المتضمنة لمنهج إصلاح الحياة ، والأحياء ، تحتـــاج دائماً إلى من يوصلها للناس بمنهج دقيق ، ووسيلة صحيحة ، وأسلوب يتلاءم مع الناس

ومن المعلوم أن الحقيقة لا تتحرك بذاتها ، ولا يهتم بها أحد إن بقيت فى أسفار مغلقة ، أو فى ثنايا عقل صامت . ومن المعلوم كذلك أن الحقيقة إذا حملها منهج عقيم لاتصل لأحد ، وربما وصلت على غير وجهها الصحيح .

إن العروس إذا لم تتزين لا تعرف ، وإذا تزينت بزينة سافرة ، تسئ لنفسها ، وتجمع حولها صعاليك البشر .

ومن هنا :

أكرم الله رسله فعرفهم بالمنهج المناسب لدينه ، وهداهم للوسائل الملائمـــة لهديـــه ، وبذلك صار الرسل قدوة فى التدين ، والمنهج ، والوسيلة ، والأسلوب .

إن الله تعالى لم يترك منهج الحركة للرسل يتصرفون فيه بإجتهادهم ، بل أنزله عليهم ، كما أنزل دينه ، بوحى ثابت مقرر .

لو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم ، وهو يتناول دعوات الرسل " عليهم السلام " ، نلاحظ أنهم جميعاً ساروا فى خط واحد .

فكلهم : جاء لقومه بعد إنحرافهم عن التوحيد ، وضلالهم فى عبادة غير الله .

وكلهم : ركز فى دعوته على التوحيد الخاص ، وضرورة قصر العبادة لله تعالى .

وكلهم : عاش بين قوم ضالين ، متمسكين بما هم فيه ، من كفر وضلال .

وكلهم : استمر فى دعوته حتى اتضحت طبيعة الناس ، وعاقب الله المكذبين بالإهلاك ، ونجى المؤمنين من العذاب الأليم .

خط الجميع واحد ، ومنهجهم فى الدعوة واحد أيضاً .

وحينما يكون الرسل هم قدوة المؤمنين ، والدعاة ، وهو واجب ، فإن الأمر يلزم الدعاة بإتباع منهج الله فى تبليغ دين الله للأسباب التالية : ـــ

أ ـــ المنهج الإلهى فى التبليغ هو المنهج الملائم للفطرة ، لأنه من الله الخالق للناس ، والخالق عليم بمن خلق ، وحين يحدد منهج خطابه ، فهو بلا شك خطاب مناسب .

ب ـــ المنهج الإلهى فى التبليغ كما هو مناسب للفطرة ، هو مناسب للدين نفسه ، وبه يحدث التناسب ، والإنسجام .

ج ـــ إن منهج الله فى التبليغ يجعل الدعاة فى ثقة وهم يسيرون على خطى الرسل " عليهم السلام " ، كما يدفعهم إلى التحمل ، والصبر ، وهو يواجهون أعداء الله فى الأرض ، الذين لا يتغيرون فى مسلكهم ، وعداوتهم ، وإن تغير الزمان ، وتغير المكان ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)، ويقول تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ (٣) .

إن المنهج الإلهى منهج واقعى ، بمعنى إعترافه بالواقع ، والتعامل معه ، لا ليقبله ولكن ليصححه ، ويربطه بتعاليم الدين .

وهو منهج يتعامل مع الإنسان ، ويحاول تحريك قلبه ، ولسانه ، وجوارحه ، ولذلك فهو لايبقى فى المجال النظرى ، وإنما يستمر حتى يكون منهجاً عملياً ، يعيشه الناس فى حياتهم ، ومناشطهم .

وحينما نحاول إستنباط أهم ملامح منهج الرسل ، ووسائلهم وأساليبهم ، فإنى أكتفى بكلمات موجزة حيث سبق تناول هذه القضايا خلال دراسة تاريخ الرسل .

أهم ملامح منهج الرسل :

يمكن رصد أهم ملامح المنهج الذى طبقه الرسل فى دعوة الناس فيما يلى : ـــ

(١) البدء بقضية التوحيد ، وبيان إرتباط التوحيد بالعبادة التى خلق الإنسان من أجلها ، وفى هذه النقطة وجدنا الأنبياء يبينون فساد العقائد الباطلة ، وعدم إستحقاق الآلهة المزعومة للعبادة .

---

(١) سورة المطففين الآيات (٢٩ ـــ ٣٢) . (٢) سورة آل عمران آية (١١٤) .

(٣) سورة البقرة آية (١٠٩) .

(٢) تجزئة القضية أثناء عرضها على الناس ، فمرة تكون الدعوة في نقد الآلهة وأخرى في قيمة عبادتها ، وثالثة في التعريف بالله تعالى ... وهكذا لأن التجزؤ ضروري للفهم ويساعد على الحوار ، والإقناع .

(٣) القرب من المخاطبين ، والاستفادة بكل ما يساعد على ذلك ، كالقرابة والفكر المشترك ، وإبراز الصفات التي تؤدى لهذا القرب كالحب ، والنصح ، والأمانة ومن القرب المجاراة ، وإشعار الناس بأن الداعي معهم في الآمال ، والأماني .

(٤) الالتزام بمكارم الأخلاق ، والتمسك بها حتى تصير سمة من يتصدى للدعوة ، في نفسه ، ومع الناس .

(٥) الصبر في الدعوة ، وعدم تسرع النتيجة ، ومبلغ الدين يعمل لله ، والواجب عليه أن يستمر في عمله ، ولا ينظر للنتيجة ، لأن التعجل في الإيمان لا يفيد

(٦) معايشة واقع الناس ، وتفهم أحوالهم ، لمعرفة الإيجابيات ، والسلبيات التي يستفيد بها في دعوتهم إلى الله تعالى .

(٧) أن يكون حامل الدين صورة عملية لما يطلبه من الناس ، لأن ذلك أدعى للاستماع له ، والأخذ منه .

(٨) مراعاة الظروف من كافة نواحيها ، فقد يكون الوقت غير ملائم لانشغال الناس بأمر آخر ، وقد يكون المكان ليس مناسباً ، كأماكن اللهو ، والفسق ، وقد تكون الحالة النفسية أو الاجتماعية ، أو غيرها ، لاتشجع على الدعوة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ** ﴿٩﴾ ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴿٦٨﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأعلى آية (٩) .

(٢) سورة الأنعام آية (٦٨) .

(٩) تقبل الرأى المعارض ، ومناقشته بلين وهدوء ، لأن الدين هو الحق ، وما عداه باطل ، ومن المعلوم أن الحق أبلج ، وحجته أقوى ، ولو عاش الناس بمنطق العقل والبرهان الصحيح لما استمروا على معارضاتهم ، وجدلهم .

(١٠) التعامل الحقيقى يقوم على فهم الإنسان ، فهو مخلوق يقاد من باطنه ، ولقواه العقلية ، والعاطفية سلطان على قدراته الجسديه ، ولذلك كان ضرورياً أن يعيش الدعاة مع العقل لتفهيمه ، وإقناعه ، ومع الوجدان لإرضائه ، وجذبه ، وحينئذ تنجح الدعوة .

لقد رأينا من خطابات الرسل ما يقنع العقل ، ويرضى الوجدان ، وبذلك حددوا المنهج للدعاة .

من وسائل الرسل فى الدعوة :

استعمل الرسل " عليهم السلام " كل ما أمكنهم من وسائل هداهم الله إليها وعرفهم بها .

فلقد واجه الرسل أقوامهم مواجهة مباشرة ، واستفادوا بما عرف حديثاً بوسائل الاتصال .

ودعوا بالمنهج العملى التطبيقى ، وبخاصة حينما يتمسك الناس بضلالهم .

وأرسلوا للناس الرسل ، وكتبوا لهم الكتب ، واستقبلوا الوفود كما حدث من سليمان "عليه السلام" ، فقد دعا ملكة سبأ عن بعد بواسطة كتاب حمله إليها الهدهد ، واستقبل وفداً من قبيلتها .

وتعد المعجزة وسيلة من وسائل الدعوة ، ففيها إظهار لقدرة الله ، وبيان لصدق الرسول ، وعلى نمطها يمكن للدعاة ، أن يبرزوا ما فى دين الله من حكم ، وفضائل سبق بها ، وهو ما يعرف بالإعجاز بجميع مجالاته .

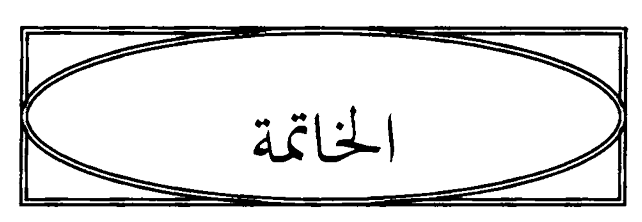
ولو استعرضنا كل الوسائل التى توصل إليها العلم الحديث لوجدنا لها عند الرسل أصل ودليل ، فى إطار ما شرع الله للناس .

وهذا يمكن الدعاة من إكتشاف الوسائل المناسبة ، للناس ، حسب تنوعهم ، وإختلافاتهم ، وسيجدون لها من تاريخ الرسل أصل ، ودليل .

أساليب دعوة الرسل :

إستفاد الرسل " عليهم السلام " بأساليب الخطاب والتوجيه على إختلافها ، وقد وقفنا على كثير منها خلال دراستنا لحركة الرسل بالدعوة ... وبالرغم من أن اللغة التى دعا بها الرسل ليست هى العربية غالباً ، فقد حكاها الله تعالى فى القرآن الكريم باللغة العربية ، وجعلها سهله ، وميسرة ليستفيد بها من نزل القرآن لهم ، وهم أمة محمد "ﷺ" .

****



الخاتمة

الحمد لله الذي أعانني على الانتهاء من كتابة تاريخ دعوات رسل الله " عليهم الصلاة والسلام " .

واسأله سبحانه أن يغفر لي أى تقصير وقعت فيه ، فالكمال له سبحانه وحده

وآمل أن أكون قد تمكنت من إبراز بعض القضايا التي عملت على إبرازها ... وأهمها : ــ

(١) البداية الإيمانية للإنسان ، حيث كان آدم "عليه السلام" ، وكانت ذريته ، ولولا أعداء الله في الأرض لاستمر الناس أمة واحدة ، على دين الله ، ومنهجه .

(٢) إبراز شخصية الرسول في كل الأقوام ، من ناحية صلابته في الحق ، وصبره في الدعوة ، وتحركه بين الناس بمنهج مستقيم مؤثر .

(٣) سنة الله واحدة في المكذبين ، فقد أهلك الله أعداء الرسل ، وعذبهم ، وقضى عليهم ، وهم يمنون أنفسهم بالقوة ، والغلبة .

(٤) إظهار ركائز الدعوة مع كل رسول ، لتكون أساساً لانطلاق الدعاة بدعوقم ، وتبليغ دين الله للناس .

(٥) إلتزام كل رسول بما جاءه من عند الله في الأصول ، والمنهج ، وبذلك كانت دعوة الناس إلى دين الله ، بمنهج الله تعالى .

(٦) قامت دعوة الرسل جميعاً على دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد ، وتعريف الأقوام بالواجب الذي خلقوا له ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ... ولئن كذبتهم أممهم ، فقد بقيت دعوقم مدداً لدعاة الأمة الخاتمة التي حملت مسئولية دين الله في الناس .

إن دراسة تاريخ الرسل يقصد بها إفادة الأمة الإسلامية من عدة نواح : ــ

أ ــ معرفة هذا الموكب الكريم من رسل الله ، من كافة النواحي التي عرضها القرآن الكريم .

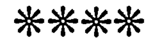
ب ـــ الاستفادة ببرهنة الرسل على توحيد الله وعبادته ، لتكون دليل هدايـــة وإيمان .

ج ـــ السير على نمط هؤلاء الرسل وبخاصة في حياتهم العملية التطبيقية .

د ـــ إمتثال الدعاة منهج الرسل في توجههم للناس ، وتحركهم بدعوة الله تعالى .

واسأل الله تعالى أن ينفعني بما قمت به ، وأن يقبله منى ، وأن يضع له القبول عند الناس .

ربنـــا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المـــصير ، وســـــلام عـــلـــى المرسلين ، **والحمد لله رب العالمين .**



الفهرس العام

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــوع رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــــوع رقم الصفحـــــة

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحـــــة

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحـــة

****

"وسـلام علـى المـرسـلين"

"والـحـمـد لله رب العـالمـين"

****

